الأعمال الرقمية الكاملة

لفاضل السباعي

دراسة وتحقيقاً

د. أحمد عمر

د. محمد المهدي رفاعي • د. خالد خالد • د. إياس الرشيد

د. إسلام جانكير • د. عرابي عرابي • د. أنس صالح

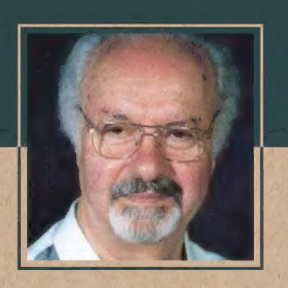
الجزء الأول



دار إقدام للطباعة والنشر

الأ

«إلى الأصدقاء.. الذين يقرؤون الخواطر التي أكتبها وأنشرها في صفحتي، يوميًا وعلى مدى سنوات، مؤرِّخًا الحالةَ التي يعيشها البلد، متابعًا الحراك الثقافي في الوطن الكبير، في تجلّياتٍ أَستوحيها من المجتمع بقِيَمه التليدة والمستحدثة، وبما أُوَشّي ذلك من ذكرياتٍ شخصية هي غيضٌ من فيضِ الذاكرة الجَمعية في بلاد الشام. أناشدكم الاهتمام بهذا الإرث، المتنوّع، الذي لا تُعوزه الصراحة والصدق ولا الدقة والموضوعية والنزاهة، ومساعدتي في أن أقدّمه للقراء في مجلدات بعددها... والعون الذي ألتمس أن يتولّى هذه المهمّة القادرون عليها من المثقفين الغيورين على الوطن والمجتمع والتاريخ والأدب والحقيقة...»



فاضل السباعي

الجزء الأول



+90 506 023 22 35 www.dar-ikdam.com
+90 212 671 62 48 dar-ikdam@gmail.com
www.facebook.com/dar-ikdam



9 786256 483033



9 786256 483040
1. cilt isbn

الأعمال الرقمية الكاملة لفاضل السباعي

دراسة وتحقيقاً

الجزء الأول

د.أحمد عمر   د.محمد المهدي رفاعي

د.خالد خالد   د.إياس الرشيد

د.إسلام جانكير   د.عرابي عرابي

د.أنس صالح

جميع الحقوق محفظوظة

اسم الكتاب: الأعمال الرقمية الكاملة لفاضل السباعي دراسة وتحقيقا
المؤلف: مجموعة مؤلفين
الناشر: دار إقدام للطباعة والنشر
الطبعة: الاولى
سنة النشر: 2023
مكان النشر: اسطنبول- تركيا
isbn: 978-625-6483-03-3
1. cilt isbn: 978-625-6483-04-0

مقدمة

الأدب الرقمي عند السباعي

تكاد أنواع الآداب في العالم لا تحصر في مختلف أمم الدنيا، والشهير منها لا يحاط بأبعاده وموضوعاته، فنرى ما تعورِف عليه من الأدب الكلاسيكي والرومانسي والرمزي والواقعي وغير ذلك من التصنيفات في المدارس الغربية، أما في حقول الأدب العربي فترى الجاهلي، والأموي، والعباسي، والأندلسي والأدب الحديث عند العرب، وتجدها متفرعة إلى أمْدَاء قَصِيَّة، بين النثر والشعر، وفنون كلٍّ منهما.

والحال أن هذه التقسيمات عائدة إلى تعارُفات تاريخية في جلها، والظروف المحيطة بها والفلسفات الظاهرة فيها، ولا ريب أن اجتماع الأدب بالتقنيّات الرقمية سيسهم في ظهور سمات جديدة فيه، تجعلُه أقرب للتصنيف، وأليق بسمة السرعة التي فرضها العصر التقني الذي نعيشه، بكل ما فيه من تسارع وتقدُّم وتطوُّر.

إن حركة التطور والانفتاح المعلوماتي وأجهزة الحاسوب والشابكة قد غزت حياتنا بشكل أو آخر، سواء في أماكن العمل أم في البيت وحتى مجال التسلية، وأصبحتْ واقعَ حالٍ. وجيلُ اليوم نتاج طبيعي للعيش مع الشابكة وفروعها وتطبيقات الهواتف، فهو جيل السرعة والتقنية العالية، ومن هنا كان لا بد من استثمار الذاكرة التاريخية والرؤية الأدبية التي سردها الأديب فاضل السباعي على مدار عشر سنوات من استثماره وكتابته من خلالها، ليثبت أن

الأدب سواء أكان شعرًا أم نثرًا له مكان فسيحٌ في نواحٍ واسعة من هذه الثورة التقنية التي تخوضها هذه الأجيال ليستطيعوا مواصلة اتصالهم بتاريخ أدبهم من خلال هذه التقنية المتاحة لهم، وليكون لهم دورهم، متلقّين ومشاركين.

لقد غيّر الوسيط الرقمي خارطة العالم المعرفية والعلمية، فأثّر في المجالات الحياتية جميعها، بما فيها الإبداع الأدبي؛ لذا ظهر إلى الوجود شكل أدبي جديد ما كان له أن يكتسبه لولا التقدم الرقمي بتقنياته التي تتطور كل يوم. ولم يقتصر هذا التغيير على جنس أدبي محدَّد، بل تسلَّلَ إلى جميع الأجناس الأدبية، التي شهدت الساحة الأدبية عبره حراكًا ثقافيًا نوعيًا يتخذ وجهة جديدة من خلال محاكاة تجارب جديدة في الكتابة الحديثة تسمى بالرقمية أو الرقمنة. فظهور الوسائط والأدوات الجديدة اتصاليًا ومعرفيًا أفضى إلى قيادة موجة تغيير في البنية الذهنية الكتابية، لكن هذه الموجة ما زالت في إطار التنظير، فليست هناك سوى تجارب نقدية محدودة تناولت الظاهرة بالدراسة والنقد.

ذاع مصطلح (الأدب الرقمي) في الأوساط الغربية في عقد الثمانينات من القرن المنصرم، وأشار إليه بعض النقاد بمسمى "أدب الصورة"، و"الأدب الإلكتروني"، و"الأدب الآلي"، و"أدب الشاشة"، وتطور إلى غير ذلك من المصطلحات المقاربة كالأدب التفاعلي، والأدب الشبكي...إلخ[1]، ويعدّ فيليب بوتز أحد أبرز المؤسسين لفهم تطورات هذا الأدب وسماته، مؤكدًا أن هذا النوع من الأدب، ليس بينه وبين سابقاته من الأعمال الأدبية ونظيراتها

(١) ينظر: د. جميل الحمداوي، الأدب الرقمي بين النظرية والتطبيق، (نسخة المؤلف الإلكترونية، ٢٠١٦)، ٩-١٥.

غير الرقمية أي انقطاع مفاجئ، وإنما استمرارية في نقل المسألة الأدبية بشكل تدريجي وبطيء نحو الفضاء الرقمي[١].

إن "الأدب الرقمي كغيره من التجارب الإنسانية، التي حاولت أن تعبِّر عن روح العصر وتفيد من جديد معطياته، وكان استجابة لبعض هذه المستجدات، فلا يمكننا أن نقرأه ونؤسس له دون أن نعرج على هذا المناخ"[٢].

ويمكن تعريف الأدب بوصفِه تفسيرًا للحياة واستخراجاً لمعانيها، من خلال صوره المتعددة وأنماطه المختلفة، فهو "فعالية إبداعية ذات كيفية خاصة ومتعالية لإعادة إنتاج الوجود البشري بصورة جذرية وشاملة"[٣]، في حين أن كلمة "رقمي" -وإن عُرفت بسياق الأرقام العربية والهندية وغيرها- لا تدل على التعبير العدديّ أو التمثيليّ للأرقام، وإنما هي نص أدبي منشور عبر الوسيط الرقمي أو التقني المعاصر؛ إذ إن أدب النص الرقمي يعتمدُ في انتشاره على وسيط التقانة التي سمحت بهذه التسمية وأفرزت نسيجًا جديدًا من العلامات، تجعل الأدب المبثوث فيها غير خاضع لوضع قائم وثابت، بل للعملية التواصلية والتفاعلية المتبادلة بين الأفراد عبر مواقع التواصل الاجتماعية المعاصرة.

---

(١) ينظر: د. جميل الحمداوي، الأدب الرقمي، ٨٩، ٩٤

(٢) ينظر: أ. د. حافظ محمد الشمري، الأدب الرقمي بين ضبابية العولمة وتداعيات المشهد الثقافي.. رؤية استشرافية، (عمّان: مركز الكتاب الأكاديمي، ٢٠٢٠)، ٥.

(٣) علي المصري، في رحاب الفكر والأدب، (دمشق: منشورات اتحاد كتاب العرب، ٢٠١٩١٩٩٨)، ٣٣.

يُقصَد بالكتابة الرقمية تلك الكتابة الأدبية والنصية والفنية والجمالية التي تسترشد بالتقنيات الافتراضية المختلفة، أو تستعين بالتقنيات التي يقدمها الحاسوب والشابكة، كما تستند إلى العقد والروابط والآليات الإعلامية والإلكترونية ضمن نسق ترابطي وشبكي، ويسترشد جزء كبير من هذا النمط الكتابي بالمعطيات الحسابية والرياضية والمنطقية والذكاء الاصطناعي في تقديم البيانات والمعطيات والمعلومات؛ لذا فإن الكتابة الرقمية هي التي تتجاوز الطابع الورقي والطباعي إلى ما هو لوغاريتمي وإلكتروني وحاسوبي، مستفيدة من مجموعة من البرامج الإعلامية والهندسية التي تعنى بالضبط والتحكم والتوجيه من جهة، وصنع نصوص أدبية وفق آليات الحوسبة والترقيم والافتراض من جهة أخرى[١]، ومن هنا فإن الكتابة الرقمية هي كتابة أدبية من ناحية، وتمتدّ لتكون كتابة توليدية تتفاعل فيها معطيات الذكاء الاصطناعي والطابع التقني والآلي لبرامج النصوص مع مراعاة السياق الشبكي والعوالم الافتراضية والروابط النصية[٢].

إن ظهور الأدب الرقمي يعني إضافة مثيرة للتساؤل عن معنى الأدب الذي هو في تناظر دائم مع العلوم الدقيقة. وتعد الآليات الرقمية الدعامة الأساسية لإنتاج الأدب

---

(١) ينظر: جميل الحمداوي، الأدب الرقمي، ١٠٥.

(٢) ينظر: المرجع السابق، ١٠٦.

الرقمي، وهي مجموعة من العناصر الفنية والتقنية، تتعلق بأسلوب الكاتب وقدرته على حبك عناصر النص، ويتعدى الأمر هنا إلى صياغتها بما يتناسب مع طريقة عرض النص[١].

وإذا ما أردنا الوقوف عند نصوص السباعي ومقاربتها مع الأنماط الرقمية في الأدب المعاصر فإننا نجزم بأنها لم تنخرط في آلية التوليد الرقمية، والروابط الشبكية أو أنه سعى من خلالها لإنتاج رواية تفاعلية مع القرّاء، كما هو الحال مع رواية novelling من تأليف ويل لويرس- Will Luers وهازيل سميث - Hazel Smith وروجير دين - Roger Dean إذ يقوم بناؤها النصي على الفيديو والصوت القارئ وسرد يختاره المتلقي بين أربع شخصيات، فيسرد النص في شكل دورات مدتها ست دقائق، لكل شخصية منها ثلاثون ثانية، مما يجعل القصة في تطور تفاعلي دائم، ويمكن التمثيل بأدب رقمي شبيه بهذا النمط في القصة التفاعلية: صقيع (٢٠٠٧) أو ظلال العاشق (٢٠١٦)، للكاتب الأردني محمد سناجلة.

إن إنتاج الأدب الرقمي بمفهوم الصورة والحركة المرئية يحوّل الكاتب من أديب إلى مخرج ومبرمج ومصور، وهكذا فإنه سيكون على علم وافٍ بالبرمجة وفنون البصريات والسمعيات والإخراج، وذلك غير متوافر -لدى السباعي- لممارسة هذا العمل، والأدب

---

(١) ينظر: حافظ الشمري، الأدب الرقمي، ٦-٧.

بهذا المفهوم هو عمل مؤسساتي ينتج فيه الأديب النص وتتولى المؤسسة عبر المبرمجين والمصممين والمخرجين تحويره وتصنيعه ليكون تفاعليًا وتشاركيًّا[(١)]

ومن هنا، فإن كتابات السباعي الأدبية في فضاءات موقع (فيسبوك) ظلت امتدادًا لهمومه، وتجلت فيها الاتجاهات العامة لأنماط كتاباته وآرائه السابقة، وزاد عليها حال التفاعل مع اليومي، والانخراط في الشأن السياسي بشكل أوضح، والحرص على إظهار الترابطات بين الواقع والذاكرة التاريخية التي عايشها السباعي في أوضاع مختلفة من حياته، إلى جانب ميله أحيانًا للكتابات الشذرية القصيرة وعدم التوسع السرديّ عمومًا، فجاءت نصوصه مركّزة، تخاطب جوانب مباشرة في حياة الناس ولا تلتفت لتطوير الصورة البصرية عبر التصاميم والفيديوهات والروابط التشعّبية.

---

(١) ترى الروائية والناقدة المغربية د. زهور كرّام أن الأدب الرقمي مفهوم عام يشمل سائر التعبيرات الأدبية المرقمنة، والمترابط مفهوم يُشير إلى الحالة الأجناسية لهذا الأدب، والتفاعليّ إجراء رقمي لتحقيق رقمنة النص، وهذا النوع الأدبي ينسجم مع استمرار الأشكال الأدبية رغم تغير الحوامل، والتجلي التقني لهذا النص يحقق كبريات النظريات النقدية التي شهدها القرن العشرين، مثل أطروحات "تعدد الأصوات"، و"موت المؤلف"، و"التناص"، و"القراءة بوصفها كتابة"، و"غياب المركز"، و"النص المفتوح"، وترى إلى جانب ذلك ضرورة خوض غمار هذا الأدب، سواء من حيث الفعل أو مواجهة الفعل من خلال الكتابة والنقد. في حين يرى الناقد السعودي د. عبد الله الفيفي، أن الأدب الإلكتروني التفاعلي هو ما يُعرف حقيقة بالنص المترابط (Hypertext) تحديدًا، لا ما دُوّن من الأدب إلكترونيًا عبر مواقع التواصل الاجتماعي المختلفة. فهذا الأخير لا يعدو نصًّا أدبيًّا دُوّن بالتقنية الحديثة، وإنما نُقِل إلى هذه التقنية، ولا فرق بينه وبين النص التقليدي، مخطوطًا أو مطبوعًا، إلا في الوسيط بين الكاتب والمتلقّي، من الورقة إلى الشاشة. ينظر: د. زهور كرّام، الأدب الرقمي، سؤال الراهن وتحديات المستقبل، ملفّ نقدي، إعداد أحمد الطراونة، على موقع جريدة الرأي الأردنية، عبر الرابط الآتي: https://bit.ly/٤٢٨lf٦X تاريخ المشاهدة: ٢٠٢٣/٣/٧

لقد كان فيسبوك نافذة حقيقيّة ليقترب الجمهور القارئ من فاضل السباعي، حيث كان يطل من صفحته على قرّائه ومحبيه الذين يزدادون يومًا بعد يوم، فيشاركهم يومياته بدءًا من مواقفه حيال ما يجري في بلده، مرورًا بأحواله اليومية: كالطبخ، وعاداته الشخصية، واستقباله بعض الأصدقاء، وطرائف تسوّقه، وأحوال عنايته بحديقته الصغيرة، حتى اشتُهرت شجرة الكباد التي يحبها بين جميع متابعيه، وما تزال كلمته التي قال فيها يخاطب النظام: "كيف يَغمض لك جفن وأنت ترى نصف شعبك قد غادر... يصحبون معهم الذكريات الأليمة"[1] ماثلة أمامنا في كل ميدان.

(١) ينظَر من الكتاب: ٥/ ٢١٠.

السباعي.. أصوله وتشكيل سيرته الذاتية

تعود أصول السباعي إلى مدينة حمص السورية، وقد انتقل جده منها إلى حلب أيام السَّفَرْبيرْلِيك -حملات الاتحاد- مصحوبًا بأبنائه الأربعة، ومنهم والده "أبو السعود" الذي كان في الثامنة من عمره، وفي "حيّ وراء الجامع، زقاق الزهراوي" استوطنت الأسرة، وقد أخذت حمص من محبته نصيبًا كبيرًا، بيد أن حلب، حيث الزهراوي ومرابع الطفولة والشباب، قد شغفته بحبها، وتولّت دمشقُ، حيث السكن ورحلة الحياة، مهمَّةَ الوله.

وقد لخّص مقتطفات حياته وأعماله في بطاقة رقمية، وكان يحدّثها باستمرار، وآخر تعديل عليها كان في أيلول من سنة **٢٠١٥**، وفيها كتب:

فاضل السباعي

- وُلد بحلب (عام ١٩٢٩) في حيّ وراء الجامع الأموي الكبير، وهو الابن الأول لـ "أبو السعود السباعي" الذي أنجب تسعة عشر من البنين والبنات.
- درس الحقوق بجامعة القاهرة.
- عمل محاميًا، فموظّفًا في وزارات الدولة، قبل أن يطلب إحالته على التقاعد (١٩٨٢) وهو مدير في وزارة التعليم العالي، ليتفرّغ للكتابة.
- أسّس بدمشق (١٩٨٧) دار إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع، ولها جناح في المعرض الدولي للكتاب بالقاهرة.

- عضو مؤسّس في اتحاد الكتّاب العرب بدمشق (١٩٦٩)، ومقرّر جمعية القصة والرواية في الاتحاد لستّ دورات.
- له بضعة وثلاثون كتابًا، طُبع بعضها غير مرة.
- أصدر سلسلة "شهرزاد الـ٢١" قصصًا للصغار والكبار. ويُصدر سلسلة "الكتاب الأندلسي"، التي استهلّها بكتاب من تأليف شيخ المستشرقين الإسبان البروفسّور "خوان فيرنيت" بعنوان: "فضل الأندلس على ثقافة الغرب"، والكتاب الثاني "الأندلس في عصر بني عبّاد، دراسة في سوسيولوجيا الثقافة والاقتصاد" تأليف الباحث المغربي د. أحمد الطاهري.
- تُرجمت بعض قصصه إلى عشر لغات، منها: الفرنسية والإنكليزية والألمانية والروسية والفارسية وغيرها.
- صدر كتابه "بدر الزمان" مترجمًا إلى الإسبانية (١٩٩٩)، وكتابه "حزن حتى الموت" مترجمًا إلى الفرنسية (٢٠٠٢) في باريس.
- أعدّت المستعربة البولونية "بياتا سكوروبا" أطروحة عن روايته "ثم أزهر الحزن" ونالت عليها درجة الماجستير من جامعة كْراكوف. وأعدّ المستعرب السويدي "فيليب سايار" أطروحة عن أدبه عنوانها "رسالة في فنّ الفانتازيا في قصص فاضل السباعي" نوقشت بجامعة استوكهولم.
- تحوّلت روايته "ثم أزهر الحزن" إلى مسلسل تلفزيوني تحت اسم "البيوت أسرار".

- يَعُد نفسه من أنصار حقوق الإنسان ومن المطالبين بعودة مؤسّسات المجتمع المدني، وهو واحد من المثقفين السوريين الألف الذين وقّعوا عريضة ما سُمّي "ربيع دمشق (٢٠٠١)".
- اعتُقل في عام (١٩٨٠) إثر لقاء مع طلاب كلية الآداب بجامعة حلب، قرأ فيه قصته "الأشباح" (ضمّتْها فيما بعد مجموعته: "آه يا وطني!").
- أنجب ثلاث بنات (سوزان، والفنانتين التشكيليتين سهير وخلود) وابنًا (فراس)، وهو جدّ لعشرة من الأحفاد والأسباط، أنجبوا ستة أبناء.
- غادر البلاد في تشرين الأول/ اكتوبر (٢٠١٣) إلى حيث معظم أفراد أسرته في فلوريدا/ الولايات المتحدة الأمريكية متجنّسين ومقيمين، متابعًا نشاطه في شبكة التواصل الاجتماعي، وعاد إلى حضن الوطن عصر الاثنين الثامن من حزيران/ يونيو (٢٠١٥).

وبالعودة إلى ما كتبه السباعي عن نفسه باستمرار في صفحته على موقع التواصل الاجتماعي "فيسبوك" نراه يشير إلى تشكلات نفسية فرضها الواقع، وهو ما يظهر في مقابلاته التلفزيونية والإذاعية والصحفية، وربما يدلك ذلك على أنها سيرة ذاتية معمّقة ومتجاوزة للذات بطريقة مختلفة عما نعهده لدى كتاب المذكرات والذكريات.

يذكر السباعي في العنوان الذي كتبه في تشرين الثاني من سنة (٢٠١٥) [تعريف.. بطريقة مختلفة!]، ليبدأ بتوزيع مراحل الحياة وفق معطيات تراتبيّة يريد لها أن تركز على جانب

من جوانب الحياة، وهو إذ يفعل هذا فإنه يضفي على النص -شأنه في الكتابة- دعابةً تنْبئ عن شخصية حباها الله لطفًا ولباقة، تستثير مع قوة الإدراك والذوق الأدبي حسَّ الدعابة المتزنة، ولعل لحمص جذورها في هذا التكوين.

وحين يسرد لنا سيرته بطريقة مختلفة يركّز في بدايتها على الأدب وسر تمكّنه منه، "أحببت، منذ نعومة الأظفار، الأدبَ و"قَرْزَمت" الشعر وأنا ألبس الشورت، ونظمت "قصائد" على بحور الخليل، موزونة ومقفّاة، منها قصيدة في حبّ من طرف واحد، استعارها صديقٌ لي ونحن في صف الكفاءة، وغيّر "اسم" محبوبتي إلى اسم اشتقه من اسم محبوبته (رجاء) كي يستقيم الوزن، وإليكم المطلع مضمّنًا الاسم الدخيل:

أيها القلب تحطّمْ   لست أهلا للبقاءْ
ذهبت "ريري" وغابت   وخبا ذاك الضياءْ

وعلى مبدأ القطع والالتفات، ينتقل بعدها للحديث عن دراسته وصلتها في نماء مفاهيم الحرية وحب العدل والخير، "ثمّ... هل كان لدراستي الحقوق بالجامعة دور في أني أُغرمت بالحرية غرامًا جعلني أصرف جانبًا من أدبي السردي في نقد القهر والفساد، وأثبت على اعتناق مقولتي «ليس هناك شعبٌ سيّء، هناك حكوماتٌ فاسدة!»".

والجواب، نعم، لكنه ليس جوابًا مباشرًا، بل يعطيك الدليل على شكل جزاء، فإنه اعتقل لنقده القهر والفساد "وأعترف لكم بأني اعتقلت مرة بسبب وقفة لي في مدرّج بالجامعة

ألقيتُ فيها ما ساء النظام؟ عند التحقيق يسألني المحقق المحنّك: «قل لي ما العلاقة بين محاضرتك وبين المنشور الذي وزّعه الإخوان في اللحظة التي كنت تُلقي في المدرج؟»، فقلت له ببساطة: «حتى أجيبك أطلعْني على المنشور لأرى العلاقة!»، فقال: «كلّه كلام عن الحرية وشي من ه القبيل!»، فسألته: «وهل أنت ضدّ الحرية؟»، فسكت وغضّ بصره ليس استحياءً، ولكن ليسألني: «هل أنت شيوعيّ»! وبعد أن أطلقوا سراحي، رويت هذه التفاصيل أمام جمهور الكتّاب في اجتماعهم السنوي بدمشق، فضحكوا مثلما تضحكون أنتم الآن! وقد ظلّت المؤسسات الثقافية الرسمية تُعرِض عن نشر كتبي (التي بلغت الآن ٣٥)، لأنهم رأوا فيّ "مشاغبًا"، وهم لا يدرون أنّ هذه الصفة تشرّفني"[١]!

يعرّف السباعي بعائلته، بلغته الرقيقة، فيذكرها على التفصيل وتوزّع أمكنتها. "كم ذا أحبّ شقيقاتي الكبرى "سعاد" (أم منار)، كنت أزورها في بيتها في "زقاق الزهراوي" بحلب قبل انتقالها إلى "حي السبيل"،

و"ملك" (أم ماجد) التي تصغرني بسنتين، أزورها في بيتها في "حيّ الفرافرة" قبل الانتقال إلى "حي سيف الدولة"،

---

(١) ينظَر من الكتاب: ١٠١/٤.

وأما الأصغر قليلا "سهام" (أم خالد)، التي تزوجت إلى مدينة "إدلب"، فقد كنت كلما قدمت إلى حلب، أسافر إليها أقضّي بين أطفالها يومًا على الأقلّ، إلى أن انتقلت إلى حلب لتمكين أولادها من الدراسة بالجامعة.

و"ضحوك" (أم فريد)، مدرّسة اللغة الإنكليزية في مدارس حلب، نزلت عندي بدمشق هي وزوجها مكرّمين في أيام صحية صعبة، وكتبتُ يومًا عن مدى تفانيها في العناية بشريك عمرها الذي اختطفته المنيّة باكرًا.

وماذا أكتب عن شقيقاتي، وأُعدّد؟ إنهنّ ثمان بين أحد عشر من الأشقاء... نعم كان أبي "أبو السعود" - القادمُ من حمص مع ذويه إلى حلب عام (١٩١٥) وهو في الثامنة من عمره - منجبا، وأحفاده اليوم قبيلة، شتّتتها الأحداث في كلّ اتجاه"[١]

وحين يشير إلى دمشق في معرض سيرته، فإنه لا ينسى أن يذكّر بأصله الحلبي، "في دمشق (وأنا من أسرة حلبية) تسرّب أفراد أسرتي عبر السنين متفرّقين في الأقطار والأمصار، وبقيت بدمشق وحيدًا، خافوا عليّ وألحّوا في أن أسافر إليهم بأمريكا، وذريتي هناك من عشرين فردًا ولهم خمسة بيوت. ذهبت، وكتبت وأنا فوق الأطلسي جوًّا، ثمّ نشرت:

«واللهِ... ما فارقتُك، يا وطني، خوفًا من عيونهم المبثوثة ولا رَهَبًا من سيوفهم المسلولة...

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٩٥/٥.

ولكن... لأنّ الأسرة التي أنجبتُها على مدى نصف قرن ويزيد، قد رحل أفرادُها في كلّ اتجاه، ولم يبقَ لي بدمشق مَن إذا انتابني وجعٌ يمدّ يده إليّ بكأس ماء!» [1].

وبقيت في أمريكا سنتين اثنتين مغتربًا، فظنّ الشانئون أني هربت من الأحداث، ثمّ إنهم استغربوا يوم عرفوا أني عدت - في الصيف الماضي - إلى الوطن، وكانت أسباب العودة مزيجًا من الشوق إلى الوطن وإلى الحارة والبيت والغرفة والطاولة والأقلام، ولدواعٍ أخرى: أني أريد أن أجمع موادّ كتبٍ لي ترقد أوراقها في عتمة أدراج مكتبتي.

وقد شارَكَتْ أقلامُ السلطة في الحملة المنظمة الطويلة عليه، وقد أشار إلى ذلك صراحة، في الثاني من تشرين الثاني سنة ٢٠١٣، في أسلوب قلما يتشح به قلمه، مشيرًا إلى نفسه بضمير الغائب، ويبدو أن الأثر النفسي للاغتراب مهّد لهذا الأسلوب ليظهر، وذلك حين كان في فلوريدا، فقد بدت شخصيته أقرب إلى الضيق، فلم يعد للكلمة أثر في تغيير موقعه عند السلطة في سوريا، فلتكن الكلمات وصفية تاريخية إذن..

"خمسون عامًا...

رفضوا نشر كتبه الجميلة في مؤسساتهم، حين وسّعوا ذلك للرفاق والهتّافة.

منعوا عنه أن يُمثّل البلد في المؤتمرات الأدبية، وفضّلوا عليه مَن لا تصل قاماتهم إلى كتفه.

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٢/١٩١.

ضيّقوا عليه في وظيفته الرسمية فألجؤوه إلى تركها وهو لم يزل في عزّ الشباب.

اعتقلوه لسبب أدبيّ بحت.

خمسون عامًا مظلمة

كان فيها يتّقيهم بيد، وبالأخرى يُعبّد طريقه

وفي مجالسهم يتحدثون بأنه لا يُحسن الكتابة

بينما هو يُقارعهم بأدب يُعَرّي الظلم ويفضح الفساد

أدب تُرجم إلى لغات، ودارت عليه في الغرب أطروحات

رجل... لم ينحن لعصف الريح"[١].

وقد لخّصت هذه الكلماتُ واقعَ حياته، يُذكّرنا بابن زيدون حين سئل عن سرِّ نجاته من المعتضد، فكأن السباعي استحضر الموقف، وأنه يتقي بطش السلطة بيد، ويعبّد طريقه الذي أحبه بيد أخرى، وقد بدا ضيقه بأقلام السلطة واضحًا في أدبه الرقمي، أما في مجالسه الخاصة، فكان يفكّ الترميز الذي يغلّف به نصوصَه، تلك التي تحمل في طيّها بعضَ الأسماء، وقد حدَّث تلميذه أحمد عمر في جلسات عديدة، عن أسماء كثيرة، تسببت له بالأذى المادي

(١) ينظَر من الكتاب: ٢/ ٢٠٩.

والنفسي، لكنه كان متوازنًا يعرف الأنماط والحدود التي يباح فيها التلميح، مؤكدًا مزية الاتقاء والتعبيد التي ساقها في نصه.

لكنه قد يلجأ إلى التصريح مع بعض الشخصيات، مثل حديثه عن رئيس اتحاد الكتاب العرب، الذي شارك السباعيُّ بتأسيسه، "أعترف بأنّ "علي عقلة عرسان"، طويل العمر في رئاسة الاتحاد (٢٨ عاما وزيادة)، كان معنيّا عناية بالغة في أن يُصدر الاتحاد المجلات الثقافية المرموقة، من "الموقف الأدبي" إلى "الفكر السياسي" وما بينهما "التراث العربي" و"الآداب الأجنبية" (فيما بعد "الأدب العالمي")، وغيرها ممّا لا أريد تعداده الآن. وقد شاء في عام (١٩٨٥) أن يُصدر بالضرورة جريدة سمّاها "الأسبوع الأدبي" عهد برئاستها لزميلنا "عبد النبي حجازي".

ما أودّ الإشارة إليه هنا أنه دأب على أن يكتب الافتتاحية بقلمه لكلّ عدد من أعداد "الأسبوع الأدبي" لقاء مكافأة مجزية. سألت يوما زميلتنا (عضو المكتب التنفيذي): لماذا تكون الافتتاحيات في هذه الدورية حكرًا على قلم رئيس الاتحاد؟ فأجابتني بصراحة: هو يقول لنا: "ليكتب الافتتاحية منكم من يريد". ولكن عندما تصل إليه مقالة من أحدنا، فإنّ اعتذارًا يأتي منه، بأنّ المقالة طويلة، أو قصيرة، أو لا تناسب اللحظة، أو أنها وصلت إليه متأخرة... فكفّ الجميع عن المبادرة، وأصبحت كلّ الافتتاحيات له"[1]!

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٥/٨٩-٩٠.

بنية النص الأدبي عند السباعي

يمكننا أن نجد في نصوص السباعي أكبر عدد ممكن من الحكايات، يقدمه للقرَّاء على هيئة ذاكرة شفوية بتفاصيل مكتوبة، ينسجها بعناية، ويبرع في إظهار الصورة فيها كما هو حال التصوير المرئي، حيث يلتقط تفاصيل التفاصيل من متن الحياة وحواشيها، ليقص للقارئ حكاياتٍ لا تنسى..

لقد استطاع السباعي أن يعبّر بلغة مذهلة وصقيلة عن كثير من الموضوعات، بدءًا من أسهلها وصولاً لأصعبها، وهي لغة/أسلوب يؤكد السباعي أنه لم يصل إليه بسهولة، بل عبر عقود من الجد والاجتهاد وتعاقب السنين.

امتلك السباعي هذه اللغة بدءًا من مرحلة الثانوية، حين كان تلميذًا في ثانوية المأمون في حلب في النصف الثاني من الأربعينات، وهناك كان السباعي يتفرغ لقراءة كثير من الكتب والمجلات الأسبوعية، إلى جانب المجلات الثقافية الشهرية التي ينشر فيها أكابر الكتّاب[١].

استمر هذا الأمر مع السباعي حين غادر إلى مصر لدراسة الحقوق هناك، حيث التفت لقراءة المقالات اليومية والأسبوعية والشهرية لكبار كتابها، وكان من عادته أن يقرأ بصوت عالٍ، محرّكًا أواخر الكلمات، وهكذا مكّن نفسه من قواعد اللغة[٢].

وقد أثرت قراءات السباعي لكبار أدباء العربية -كالجاحظ والمقَّري والمعرّي

(١) ينظَر من الكتاب: ٥/١٤.

(٢) ينظَر من الكتاب: ٥/١٤.

وغيرهم- في بنية سياقاته اللغوية، فلم يكن يميل لاختيار اللغة الصعبة أو المفردات المعجمية المغرقة في الغرابة والانبتات عن الواقع، وإنما عمد إلى جعل جمله رشيقة خالية من الترهّل، فلا يزيّدُ في مفرداتها ما لا تحتاج إليه ولا ينقص، أي أنه يعطي بيان الجملة حاجته بانضباط.

وإذا كان الأسلوب الأدبي هو بصمة الكاتب، فإن السباعي ذو أسلوب فريد، فلغته وإن تشابهت بمفرداتها مع المعجم اليومي الفصيح، إلا أنه يتميز عمّن سواه من الكتّاب بأسلوبه، فهو يعتني بظلال الكلمات، وصوتها، حتى لكأن القارئ يستمع لإلقاء السباعي بصوته حين يقرأ له، وهكذا شكّل علامة فارقة بين الكتّاب من أبناء جيله، وتميز عنهم جميعهم بنقطة أخرى، وهي عنايته البالغة بأدوات الترقيم، فاصطلح لنفسه أسلوبًا خاصًّا في وضع الفواصل والنقاط وعلامات التعجب [١]!.

وإذا ما حللنا أسلوبه في توجيه النقد، نراه في بعض الأحيان صريحًا وفي أحيان أخرى يدور حول الغاية دون أن يصرّح لتجنّب الرقابة والمساءلة والمحاسبة! إلا أن أبرز ما اشتغل عليه في نصوصه الرقمية وأدبه المسطور المطبوع، مسألة الحرية، بمختلف تجلياتها، والسعي للتماهي معها حتى الموت في سبيلها، وكثيرًا ما استخدم في سرده صنوفًا شتى من مذاهب الأدب، كالواقعية والرومانسية، منوعًا فيها بين السخرية والمأساة، إلا أنه كان يجمع ذلك كله

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٥/ ١٥.

في سلك التنديد بمسبّبات القهر وعوامل الفساد[١].

بدأ السباعي النشر الأدبي والثقافي مذ كان طالبًا في الجامعة مطلع الخمسينات، وسبق ذلك نشره في المجلات المدرسية في مرحلتي الإعدادية والثانوية، وكانت بواكير أعماله تنشَر في مجلة «الأديب» اللبنانية التي يديرها صاحب المجلة الأديب «آلبير أديب».

كان كتابه الأول بعنوان «الشوق واللقاء»، حيث نشره في حلب على نفقته عام (١٩٥٨) إثر رفض بعض دور النشر اللبنانية نشره كونه الكتاب الأول، ثم توالت النشريات، ففي السنة التالية نشرت له دار الآداب ببيروت ثاني كتبه «ضيف من الشرق» ثم نشرت دار المعارف بمصر كتابه «مواطن أمام القضاء» في سلسلتها الشهرية «اقرأ»[٢].

---

(١) للمزيد حول واقعية السباعي ومهارته اللغوية ينظر: خالد خالد، ابتعاث الواقع في أدب السباعي الرقمي، Ekoller ve Kurumlar, Dil Bilimleri, Mardin Artuklu U¨niversitesi Yayınları, Birinci Baskı, Aralık ٢٠٢٢, Mardin.s :٣٢٠

(٢) ينظَر من الكتاب: ٥/ ٢٤.

أدب الذاكرة في تدوينات السباعي

لم يكن الأستاذ السباعي مؤرّخًا بالمعنى الأكاديمي للاصطلاح، إلا أنه قدّم منظورًا مختلفًا للتاريخ من خلال سرده لمفردات الذاكرة التاريخية والنفسية التي عاشها، فهو أديب يعيش في وجوه الحياة، يوافق بين تناقضاتها ويتمسّك ما أمكنه بثوابت لا يحيد عنها، كاعتزازه بعروبته، وسعيه في إعلاء قيمة الحرية والسعي الدؤوب لتجاوز عُقدِ الاستبداد وتوابعه الشبكية والعمودية من فساد وإفسادٍ ورِشًا ومحسوبيّات وتضييقات على الكلمة العاقلة والحرة.

أراد السباعي من خلال قدرته الهائلة على السرد والاستذكار تنبيه الجيل على تفاصيل لا يمتلك الوصول إليها في ظل التعتيم المفروض من قبل السلطة من جهة، وفقدان الذاكرة من جهة أخرى، فجاءت تدويناته ممزوجة بالألم والشقاء والفرح والسخرية، مجتمعة في إناء واحدٍ، فإذا غاب أحدها شعرت بأن نبضَ النصِّ يميل للخفوت.

من ذلك ما كتبه في نصّه التاريخي حول مسألة امتناع/توقّف أبناء المدن عن الانضمام للأكاديميات العسكرية أثناء حكم البعث، حيث يقدّم منظورًا مختلفًا عن السردية القائلة بأن الأسر ذاتها رأت في الجيش ميدانًا بعيدًا عن طموحاتها، فتوقفت عنها، ويشير إلى أن السبب خلاف ذلك.

"[هل كفّ أبناء المدن عن الالتحاق بالكليات العسكرية زمنَ البعث!]"

يفتتح فاضل سرده بتفاصيل ذاتية، عن المكان والزمان والأشخاص والظروف المحيطة بجلسة الحديث تلك، ويضع يده على النقطة مباشرة وهي "ارتفاع نسبة الضباط من أبناء الساحل منذ آذار ٦٣، واستئنافا بُعيد شباط ٦٦، وليس انتهاء بالحركة التصحيحية الثانية فجر السادس عشر من تشرين الثاني ١٩٧٠"

يقول:

"في ربيع (١٩٧٨)، ونحن الموفدون الأجانب عائدون من رحلة للنورماندي في شمال فرنسا، توخّينا - أنا ورفيق السفر الطبيب السوري (ب.خ) - أن نجلس متجاورين في البولمان العائد بنا إلى باريس، وأخذنا نتحدث باستفاضة في الشأن السوري منذ بداية الاستقلال إلى يوم الناس ذاك.

ووصل بنا الحديث إلى ما يُلاحَظ من ارتفاع نسبة الضباط من أبناء الساحل في الجيش منذ آذار ٦٣، واستئنافا بُعيد شباط ٦٦، وليس انتهاء بالحركة التصحيحية الثانية فجر السادس عشر من تشرين الثاني(١٩٧٠)... فبرّر لي رفيق السفر بأن أبناء المدن (يعني "السُّنّة") قد كفّوا عن الانتساب إلى الكليات العسكرية فملأ أبناءُ الساحل الفراغ..."

يقتنص السباعي الفرصة ليؤكد أن هذا المنظور غير صحيح، فالكف لم يأت من الداخل وإنما جاء بفرضٍ من الأعلى، فليس أحدٌ يفاضل في حب السوريين لبلدهم، وإنما وراء الأمر ما وراءه، وهو ما لم يكن شهيرًا لدى عموم الناس، فيقول:

"وكان عليّ أن أصحّح.. قلت:

إنّ الرغبة في الانتساب للقوات المسلحة هي واحدة عند أبناء المدن والأرياف، سهولا وجبالا وبَوَادي بعيدة، وليس لفريق من منطقة ما أن يدلّ على فريق آخر بأنه أكثر حبّا للوطن وغَيرة عليه وحرصًا على الدفاع عنه.. ولكنّ ذلك "الاستبعاد" من قبل النظام جاء للاستئثار بالجيش والسلطة.. ويُذكر أنّ طلاب الكلية العسكرية يوم الثامن من آذار كانوا يمثلون كالعادة شرائح المجتمع كافة، فصَرفت "الثورةُ" الطالعة طلابَ تلك "الدورة" إلى بيوتهم مستبدلةً بهم منتمين إلى حزب البعث، ومنهم مَن سُمّيت الدورة باسمه "دورة رفعت الأسد".

يقطع السباعي هذه النص لينتقل إلى الماضي حين كان طالبًا في ثانوية المأمون الشهيرة في حلب، ليسرد بعض الذكريات التي تُظهِر فخر الناس بالمواقف المشرفة للجيش السوري أو الانضمام إلى الكلية العسكرية السورية... يكمل قائلاً:

"لم ألتقِ من يومئذ بذلك الصديق الطبيب، لا في باريس ولا في الوطن. ولكن حديثنا ذاك، ونحن في الطريق من النورماندي إلى باريس، ما كان له أن يغيب عن خاطري مع ما طواه الزمن من أيام وليال، مثلما حفظت ذاكرتي – منذ كنت طالبًا في "ثانوية المأمون" بحلب في بداية عهد الاستقلال – ما كنا نرى، في أيام العطلة الانتصافية، من طلاب نعرفهم في "المأمون" قد سبقونا في التخرّج وانتسبوا إلى الكلية العسكرية، يزورون مسقط رأسهم،

يتنزّهون سيرًا من شارع إسكندرون بالجميليّة حتى متنزّه السبيل، جيئةً وذهابًا، وكان هذا الطريق خلويّا إلى حدّ كبير، متباهين بزيّهم العسكري، وبالضفيرة الخضراء (الكوردون) متدلّيّة من الكتف اليسرى تخفق أمام موضع القلب، وفي الكفّ قفازٌ ناصع البياض يقبض على القفاز الآخر، ويُطلّ من العيون الاعتزازُ بحبّ الوطن، المستقلّ حديثا، وعلى الجباه يرتسم العزم على الدفاع عنه حتى الموت.

وأيضا لا أنسى ما كنا نراه بأمّ العين في حلب، في تلك الآونة من يوم (٢٩) أيار/ مايو (١٩٤٥) (قصْف الفرنسيين دمشق بالمدافع) حتى ما قبل الاحتفال بيوم الجلاء عن البلاد في نيسان (١٩٤٦) ، من مشاهد تَسرّ القلب: كتائب من مواطنينا المنتسبين إلى الجيش الفرنسي جنودا وضباطا، وقد غادروا لتوّهم الثكنة فوق تلك الهضبة (التي سمّيت فيما بعد "ثكنة طارق بن زياد")، منشقين بآلياتهم وعتادهم الحربي عن جيش الانتداب ملتحقين بالحكومة الوطنية، نراهم، ونحن في أول شارع إسكندرون عند موقف الترامواي، يطلقون الرصاص في الهواء ابتهاجًا، فلا نملك نحن المشاهدون إلا التصفيق فرحًا بأن الجيش الوطني يبدأ بالتكوّن".

يلتقط السباعي من هذه الذكرى آلية إسقاط على الواقع المرير الذي تعيشه البلاد جراء العمليات العسكرية التي يقودها الجيش ضد أبناء بلده أنفسهم، فيقول: "ذلك الجيش الذي

أردناه حاميا لنا.. وليس مهجّرًا لنصف سكان الوطن.. من بيوت بنوها بكدّ اليمين وعرق الجبين "[١].

أدب الذاكرة عند السباعي لا يقف عند الجماليات، بل يمتد ليصوغ التاريخ بمزجه مع الحاضر، ويبصّر الإنسان بواقعه الأليم.

هنا قد نتساءل: لماذا يحرص السباعي على هذه السرديات التاريخية القصيرة؟

وقبل الجواب لا بد من الإشارة إلى أن السباعي أراد بإصرار كبير الاستمرار في نشر هذه التدوينات، وناشد كل ذي قدرة على جمعها ونشرها في دفتي كتاب يبقى ميراثًا للذاكرة السورية، فنراه في أحد منشوراته يكتب:

"[مناشدة للمتموّلين المثقفين العرب]

إلى كلّ الأصدقاء والمعارف في شبكة التواصل الاجتماعي، الذين يقرؤون الخواطر التي أكتبها وأنشرها في صفحتي، يوميًّا وعلى مدى سنوات، مؤرِّخًا الحالةَ التي يعيشها البلد، متابعًا الحراك الثقافي في الوطن الكبير، في تجلّياتٍ أَستوحيها من المجتمع بقِيَمه التليدة والمستحدثة، وبما أُوَشّي ذلك من ذكرياتٍ شخصية هي غيضٌ من فيضِ الذاكرة الجَمَعية في بلاد الشام.

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٣/٢٩٧.

أناشدكم الاهتمام بهذا "الإرث"، المتنوّع، الذي لا تُعوزه الصراحة والصدق ولا الدقة والموضوعية والنزاهة، المكتوبِ خلال ستّ سنين أو سبع، ومساعدتي في أن أقدّمه للقراء في مجلدات بعددها كلاًّ في نحو خمسمئة صفحة، يَشتغل في تحقيق هذه الغاية "ورشة عمل" لاستخراج المواد من مظانّها، أُمرّ عليها بالقلم تنقيحًا وتهذيبا، مع تَوشيتِها بالهوامش المرجعيّة، مزوَّدةً بغير قليل من تعليقات الأصدقاء، قبل دفعها إلى المطبعة، وأؤكّد أنه لا يمكن إنجاز هذه المهمّة إلا "فريق عمل" متخصّص، مع اعترافي بعجز أفراد أسرتي عن القيام بذلك لا اليوم ولا في الغد ولا بعد الرحيل.

والعون الذي ألتمس أن يتولّى هذه المهمّة القادرون عليها من المثقفين الغيورين على الوطن والمجتمع والتاريخ والأدب والحقيقة، مبديًا استعدادي للتنازل عن حقوق التأليف.

أناشد أصدقاء لا أعرفهم، في مساعدتي قبل أن يغيب البصر، والذاكرة، والعمر، وتتبدّد الحروف في عالم الأثير.

أنشر مناشدتي اليوم، وسوف أعيد نشرها في صفحتي غير مرة. وتحيتي لكلّ من قرأ هذا وتحدّث فيه[1]"

إن السباعي يكفينا مؤنة التخمين والتحليل من خلال نصه هذا، فهو يقدم نفسه "مؤرِّخًا الحالةَ التي يعيشها" سواء كان هو أو سورية بالدرجة الأولى، وهذا التأريخ ليس

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٥/٤٣٢-٤٣٣.

للمستجدِّ اليومي فحسب، وإنما لتاريخه بما يمتلك من ذاكرة وحديث "لا تُعوزه الصراحة والصدق ولا الدقة والموضوعية والنزاهة" إلى جانب الاطلاع الكبير الذي لديه وثقافته وعلاقاته الواسعة التي تجلو تفاصيل غائبة عن أذهان الناس.

لقد عبر عن ذلك صراحة بقوله: "بما أُوَشّي ذلك من ذكرياتٍ شخصية هي غيضٌ من فيضِ الذاكرة الجَمَعية في بلاد الشام"، ومن هنا فقد كان اهتمام السباعي بالذاكرة الجمعية امتدادًا لمكوّنات سرده الذاتي، فهو المتابع للحراك الثقافي في وطنه العربي الكبير، ويجلّي لقرائه تطورات هذه التحركات في صور يوميات جرت تاريخيًّا أو حديثًا.

ويعبر عن ذلك في نصٍّ آخر أواخر حياته قائلاً: "صدّقوني إن قلت لكم إني لا أهاب الموت، وأبالغ قليلاً إن زعمت أني مستعدّ أن أستقبله بالأحضان، لكني مشفقٌ على إرثي الأدبي، على خلاصة العمر، عشرين مخطوطة ويزيد، تتوزّعها الرفوفُ والخزائن، أضابيرَ وكلاسورات.. أن تتبدّد بعد رحيلي.... وقد خذلني المثقفون، المقتدرون، أيّ خذلان!"[1]

وهكذا فكأن السباعي في ذكرياته لا يذهب للتاريخ وإنما يحضره ليراه أبناء الجيل الجديد، بما فيه من أسئلة وإجابات، ليكونوا على استعداد للتعامل معه، وهكذا يخطو بثقة لصنع أدب فيّاض بالذاكرة، وهكذا يلتقي أدب الذاكرة بذاكرة الأدب، ليشكل روح قضية البقاء والثبات على حق الحياة.

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٦/ ٤٦١.

إن تفاصيل هذه الذاكرة واسعة، تطوف بين الشعر والاعتراف بالجميل للأساتذة الذين علّموه، وبين حوادث متفرقة حول شخصيَّات مسؤولة ومواقف تستحق الاهتمام، وبين الإشارة للعادات الاجتماعية في الحياة اليومية في حلب وحمص ودمشق وغيرها[١]، والحديث -بينها- عن طبلة المسحّر والعادات الغذائية وأشكال الملابس، وصولاً لرصد تحولات بعض العائلات الغنية ذات التاريخ العريق في أوساط السياسة والمال.

تشير لنا بعض تدوينات السباعي، في إطار من السرد المازج بين التاريخ والحاضر، إلى شخصيات كان لها دورها البارز في السياسة والنقد، من بينها نصه الذي تكلم فيه عن بعض زملائه في الدراسة الثانوية وما آل بهم الحال بعد طول سنين إلى حين وفاتهم، فيقول: "في العام الدراسي (١٩٤٣-٤٤) (أو العام الذي تلاه) وأنا تلميذ في "ثانوية المأمون" بحلب (التجهيز الأولى)، كان بيننا تلاميذ من أرياف المحافظات الشمالية (حماة، اللاذقية، دير الزور، الحسكة، ولم تكن تولّدت منها محافظات أخرى)، يتلقّون التعليم معنا ويقيمون في مبنى المدرسة نفسه، بصفتهم "داخليين" (وكنا نتمازح وإيّاهم بأن نسمّيهم "طلاب ليليّين" ولهذه المفردة ما لها من معاني المزاح)، على حين اختصّت "ثانوية جودت الهاشمي" في دمشق بأبناء المحافظات الجنوبية (حمص، درعا، السويداء)... ذلك كله قبل أن تعمد حكومات

(١) للمزيد حول هذه النقطة، ينظر: خالد خالد، ابتعاث الواقع في أدب السباعي الرقمي، ص٣٢١.

الاستقلال المتعاقبة إلى التوسّع في إحداث المدارس الثانوية (التي تضمّ آنذاك المرحلتين الإعدادية والثانوية) في المناطق والنواحي.

كان في شعبة "الكبار" في المدرسة طالب ليس بيني وبينه معرفة أو كلام، عرفنا أنه من مدينة "السَّلَميّة". ودارت الأيام، إلى أن بدأت أقرأ له في المجلات والصحف اللبنانية أشعارا ومقالات، وتبيّنت أنه يعمل في صحافة بيروت ويقيم هناك. واتفق لي أن التقيته، في العام (١٩٦٠) بمدينة حمص، في مطعم دخلته في استراحة سفر في أثناء عودتي من دمشق إلى حلب. وتذكرنا أيام التجهيز بحلب، التي لم تَطُل إقامته فيها، فقد افتُتحت في مدينته مدرسة فانتقل إليها، وأشار إلى مقالة لي كانت ظهرت حينئذ في مجلة "الآداب" مقرونة بصورة لي، وأذكر أنه قال: إنّ الصورة ضعيفة الشبه بي!

ومع ربيع آذار (٦٣) عاد إلى الوطن، أديبًا وصحفيًا، يتبوّأ الوظائف المرموقة، مسؤولا عن بعض الصفحات الأدبية وعضوا في أول مكتب تنفيذي لاتحاد الكتّاب العرب.

كان في كتاباته ما أراه مختلفا. مرة قرأت له حوارا أجراه "نبيل الصالح"، كان يرافقه في سيره من مكان إلى آخر يوجّه إليه الأسئلة "المحرّضة" ويتلقى منه إجابات متميّزة.

وكان يتحلى بالسخرية الشفافة، التي يلذّ للقارئ سماعها بقدر "ما لا تسيء" إلى المنقود.

يوم قدّمت له روايتي "رياح كانون" في مطلع العام (١٩٧٠)، وأنا في زيارة لمقرّ الاتحاد الأول (شارع مرشد خاطر) وكان ذلك بحضور هاني الراهب، كتب في اليوم التالي بجريدة

"البعث"، بأنها عمل يستحق "عناء" القراءة!

ومرة تلقّى، بصفته المحرر الثقافي بهذه الجريدة، رسالة بقلم من يَدّعي أنه يعمل ماسح أحذية في صالون(!)، يدافع فيها عن روائيّ يصفه بأنه كبير و"تقدُّميّ" ويعيب على منتقده ذاك "الرجعي"، اسم صاحب الرسالة "إبراهيم رامز أبو السوس"(!)، وكان قد قَوي الظنّ عند بعضهم يومذاك بأنّ "الروائي الكبير" هو نفسه من كتبها... فنشرها بهذا الاسم المنحول وعلّق قائلا له: لاحظنا أنّ خطّك يوحي بأنك كتبتها "بيدك اليسرى"!

وقبيل ذلك، في العام (١٩٦٩)، حين صدرت لـ"حنّا مينه" روايته "الثلج يأتي من النافذة"، تلك التي وجدها بعض الكتّاب في العاصمة "متهافتة" خلافًا لسابقتها "الشراع والعاصفة"، كتب زميلي (بلا زمالةٍ ممارَسة) ثمّ صديقي في الأدب، يقول ما معناه: إنّ حنا مينه جعل مسوّدة روايته هذه في حرز حريز، ضامّا إليها قلم الستيلو الذي به كتب هذا العمل، كعادته في كلّ رواية ينتهي منها، مثل "الكتّاب الخالدين"! (أو ما في هذا المعنى).

إنه الشاعر المرهف "علي الجندي"، المولود في العام (١٩٢٨)، والراحل عن دنيانا عام (٢٠٠٩). وأضيف هنا أنّ في "الشعبة" التي كنت فيها كان في "الرَّحْلة" التي تتقدّمني ابنُ عمّ له هو "عبد الكريم الجندي"، الذي غدا فيما بعد من كبار ضباط آذار ٦٣، ولم يَطُل به العمر. رحم الله الرجلين"[1] [أرّخ السباعي لهذه التدوينة بقوله: دمشق الشام: عصر الجمعة ١٧-

(١) ينظَر من الكتاب: ٥/ ٨٥-٨٦.

٣-٢٠١٧]

لقد أفصحت هذه التدوينة عن بعض أنماط توزيع الطلبة في ثانويات حلب -التي كانت آنذاك معدودة على الأصابع- وعن توزيع دروسهم اليومية وأزمنتها، في شهادة تظهر لنا صورة اجتماعية وتعليمية غائبة عن أذهان الناس من الأجيال التالية.

يلتقي السباعي بعد غياب سنين طويلة أحد زملاء دراسته -ممن لم يكن له به تواصل فعّال- وقد كان هو وابن عمه مع بدايات انقلاب البعث عام (١٩٦٣) ممن نال حظوة في التوظيف والمناصب المهمة، إلى جانب كونهما من لون طائفيٍّ معين، ولكن هذا التوصيف الذي يلتقطه القارئ في السرد لن يجعله يتحامل على السباعي، فهو واصفٌ أمين لحوادث ذات أهمية كبرى، وهو الشخص المنفتح الذي لم يكن متعصبًا إلا ضد الفساد والمحسوبيات التي منعت المبدعين أيًّا كان انتماؤهم من الظهور وتحقيق الانتشار لنصوصهم وكتبهم.. كما ينتهز السباعي هذا النص ليذكر ذلك الشاعر الناقد بحوادث جرت له تنبئ عن رهافته وحس دعابته، في تأكيد منه على روحه المتسامحة وغايته النبيلة من تسليط الضوء التاريخي في تدوينته تلك.

وقد أتبع السباعي هذه التدوينة بتدوينة أخرى تظهِر جوانب لم تتطرق لها التدوينة الأولى، وهي التعريف بالشبكة الطلابية القريبة منه، ومآلات هذه الشبكة في لاحق الأيام بين

الأدب والفن والعمل الوظيفي والعسكري، وعلاقات السباعي مع هذه الشبكة لاحقًا، يقول:

"في الصفّ الأول في التجهيز الأولي (ثانوية المأمون) بحلب، في العام الدراسي (١٩٤٣–٤٤)، اتفق أن كان يجلس في المقعد الأول أمامي، تلميذ يصغرني جسما، يقيم في المدرسة في القسم الداخلي اسمه "عبد الكريم الجندي" (من أبناء بلدة "السلمية")، وهو الذي غدا فيما بعد واحدا من المتنفّذين في حزب البعث، وكُتب عليه أن ينتحر – أو يُنحَر – في العام (١٩٦٨).

وكان بيننا التلميذ "حسين ديري"، انتسب إلى الجيش ضابطا أيضا، وفي عهد الوحدة تسلم منصب معاون وزير الإصلاح الزراعي، وهو مثقف متميّز ويمتلك مكتبة ثريّة، وقد ظللنا أصدقاء نتلاقى حتى وفاته في العام الماضي (٢٠١٥).

وأذكر أنّ بيننا أيضا تلميذا بادي الرهافة لطيفا جدا، يمارس الفن التشكيلي في بداياته ويستحوذ على إعجابنا، هو "رولان خوري"، ولم يطل وجوده في المدرسة، ثمّ علمت من أخباره أنه أقام في لبنان واشتُهر فنانا مبدعا، ولم يعش طويلا.

وكان يجاورني في الجلوس في المقعد التلميذ "واثق جابري"، وهو ابن المربّي المحبوب "فخر الدين الجابري"، غدا فيما بعد "عديلا" لي بزواجه من "غالية كيالي" شقيقة زوجتي، انتقل إلى رحمته تعالى في الثمانينيات، وخلف ابنة واحدة هي "فتون".

هذا في "الشعبة الثانية" التي كنت في عداد تلامذتها.

وكان في الشعبة الأولى، التي تضمّ التلاميذ الأصغر سنّا وقامة، "أحمد رجائي" (الشقيق الأكبر لوزير السياحة في التسعينيات، سعد الله آغا القلعة!)، وقد أوفد إلى ألمانيا الغربية وعاد بدكتوراه في الاقتصاد، وأمسى منذ العام (١٩٦٨) "المدير العام للمكتب المركزي للإحصاء"، وكان يقرزم الشعر وما اشتُهر به. توفي في العام (٢٠١٢) في ألمانيا التي أقام فيها أواخر أيامه وزوجته الألمانية، ووري هناك.

وفي الشعبة الثالثة، حيث التلاميذ الأكبر، كان هناك "علي الجندي" (ابن عم عبد الكريم الجندي)، الذي غدا شاعرا وأقام في بيروت، ومع تملّك الحزب للحكم ظهر بدمشق إعلاميّا محظوظا قبل أن تنطفي شعلته بدخول البعث المرحلة الثالثة (العام ١٩٧٠)، وتوفي قبل سنوات في بلدته السلمية منسيًّا.

من ناحيتي لم أتسلّم منصبا مرموقا في حياتي الوظيفية، وكان حولي من الشانئين و"العيون الراصدة" ما يغلب الزملاء الودودين، وذلك ما حملني على تقديم الاستقالة، وأنا مدير في وزارة التعليم العالي أناهز الخمسين، حين كان موظفو الدولة يلتمسون "التمديد" بعد بلوغ الستين بشتى الوسائل "[١].

أسماء كان لها دور مستقبلي مهم، على اختلاف المشارب والتوجهات والمآلات، إلا أن السباعي قدمها بسطور مقتضبة، يوضح خلفيات كل منها، ويشير إلى علاقته بها، ومآلاتها

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٤/٢٧٧-٢٧٨.

اللاحقة، من عبد الكريم الجندي المسؤول البعثي المحارَب من قبل رفاق الانقلاب والذي آل به الحال إلى الانتحار، إلى رولان خوري المهتم بالفنّ، وحسين ديري المثقف ومعاون أحد الوزراء في عهد الوحدة، وواثق الجابري الذي أضحى قريبًا له، وأحمد رجائي الذي كان أخًا لوزير ومسؤولاً للمكتب المركزي للإحصاء، وعلي الجندي الشاعر الخافت ذكره تدريجًا.

تحكي لنا تدوينة أخرى، حادثة جرت مع زميل له، توضح الحالة النفسية التي آل إليها زميل آخر حين غدا وزيرًا، وعَنْوَنَ هذه التدوينة بقوله: [الوزير.. الذي طبّق على موظفيه "نظام منضمّ"!]، فيقول:

"في ربيع (١٩٦٦)، وأنا نزيل دمشق أنتظر صدور قرار بنقل وظيفتي من حلب إلى العاصمة، اتفق أن زرت جماعة من أصحابي كان بينهم زوجان من موظفي "وزارة الإصلاح الزراعي".

روى أحد هذين الزوجين، أنّ وزيرهم الجديد دعا – لحظة دخوله الوزارة – الموظفين إلى اجتماع في البهو الرحيب، وأمرهم أن يصطفّوا في "نظام منضمّ" أربعة أربعة، وأخذ يصيح بهم: «استاااارِحْ... استاااعِدْ» يكرّرها، صنيع مدرّب يتعامل مع الملتحقين حديثا بالخدمة الإلزامية، وقد اختلطت "مراتب" الموظفين، من "آذن" يقدّم القهوة... إلى كبيرهم الذي كان يسمّى "أمين عام الوزارة" (استُبدل بالتسمية فيما بعد مصطلح "معاون وزير"). وبدا الوزير متخفّفًا في لبسه، ومنتعلا "الشاروخ" الذي يمسك القدم العارية من إبهامها... وبعدئذ أخذ

يعطيهم الأوامر بكيفية العمل!

لم يكن الزوج من روى، لكنها الزوجة التي استغرقتها التفاصيل الدقيقة... ونحن، السامعون، ما عرفنا أنضحك، أم نأسى!

وأما الوزير فقد كان من زملائي في "ثانوية المأمون" بحلب العام الدراسي (١٩٤٣-٤٤)، قد جاء من بلدته طالبا "داخليا" قبل أن تعمّم حكوماتُ الاستقلال المدارس الإعدادية والثانوية في كل أنحاء البلاد"[١].

تكونت هذه التدوينة من لفتات متعددة بين المكان، والمسؤول، ولباس المسؤول، وحماس الالتحاق الأيديولوجي، وبراعة الزوجة في عرض الصورة، وخلفية المسؤول التاريخيّة في مدرسة المأمون الثانوية الشهيرة.

في قبسات أخرى، يظهِر لنا السباعي حبه الشديد لمدرسيه في تلك الحقبة، ويشير إلى ثقافتهم العالية ودورهم بالغ الأهمية في تكوين الأجيال اللاحقة تكوينًا مميزًا في العلوم الإنسانية والأساسية، فيقول تحت عنوان [الأساتذة الذين علمونا في الزمن الجميل] "كان معلمو المرحلة الابتدائية، أيام دراستي في ثلاثينيّات القرن الماضي، على ثقافة ملحوظة ومقدرة في التعليم، حتى إنه عندما حدث في الأربعينيّات توسّعٌ في إنشاء المدارس الثانوية (وكانت تضمّ المرحلتين الإعدادية والثانوية) فإنّ وزارة المعارف (وزارة التربية) ندبت كثيرا منهم للتعليم فيها.

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٥/ ٨٦-٨٧.

وعندما افتُتحت كلياتٌ للعلوم الإنسانية وللعلوم الأساسية، انتُدب كثير من مدرسي الثانويات إلى الكليات الجامعية في دمشق وحلب، منهم على سبيل المثال، راتب النفاخ للآداب ونادر النابلسي للعلوم.

ألف رحمة لأرواحهم الزكيّة وهم في جنان النعيم(١)".

وإذا ما التفتنا إلى ذاكرة الفكاهة الثقافية في عائلة السباعي، فإننا سنجد ملمحًا متفقًا بين السباعي وبعض أقاربه، من التمتع بالفكاهة الأدبية العميقة، ونقده اللاذع لسخريات بعضهم تجاه رموز ثقافية عربية تاريخية، كفيلسوف المعرّة أبي العلاء، فيقول في تدوينة له [وصفوك فأكلوك!]

"كان أبي وعمّي الأكبر، المتشاركان في العمل وفي السكن المنزلي، يزورهما في بيتنا بحلب، مُساهرًا كلّ ليلة، ابنُ خال لهما هو "مراد، أبو أسعد"، وكان هو البلبل الغرّيد في سهراتنا العائلية التي تخصّ الرجال، وكان يستهويني - مذ كنت طفلا - بحكايات يرويها وذكريات يستحضرها، حتى ليُمكنني القول بأنه كان واحدا من "المعلّمين" خارج نطاق المدرسة الذين أخذت عنهم منذ طفولتي الأولى.

مرة، وأنا فتى، تراءى لي أن أعرض في السهرة ما قرأت في مجلة، من أنّ الأوروبيين في تدريسهم أولادهم قواعد اللغة يأتون بمثال هو «قطف جان زهرة»، ونحن مثالنا المتكرر في

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٥/٦٨-٦٩.

النحو العربي «ضرب زيدٌ عَمْرًا»، وظننت أني قلت جميلا، وإذا ابن الخال ينبري لي: «ما شاء الله عليهم ما ألطفهم! جان عندهم يقطف زهرة، ويأتون إلينا يحتلّون بلادنا ويقطفون رؤوس العباد!»، ومع أنّ ردّه أفحمني وأبطل كلامي أمام رجال الأسرة، فإني رأيت في قوله صوابا كثيرا، وصرت أمعن النظر في المقروء وفي مشاهد الحياة.

لكن ليس كلّ ما كان يقوله ابن الخال أبو أسعد صحيحا أو سائغا. لما شببتُ عن الطوق، وأنا أدرج في التعلّم وفي قراءة كتب الأدب، لاحظت أنه يُسرف في تناوله "أبا العلاء المعري" بالنقد والتشنيع، من ذلك يقول ويُضحك السامرين أنّ أبا العلاء كان يرفض أكل اللحم، ويذكر "راويةُ العيلة" أنّ المعري قال يخاطب "الديك" مشفقا عليه من الذبح: وصفوك فأكلوك... والقوم يضحكون على أبي العلاء، الغائب عن مجلسنا!

فغاظني منه ذلك، وكنت قد أصبحت في صفّ البكالوريا، فاعترضت عليه، مقلدا إياه، مع التزيّد في المفردات، قلت بطريقة هزلية:

«ما زلت تشنّع على الرجل بقولك: وصفوك، وذبحوك، ونتفوك، وطبخوك، وأكلوك، وهضموك، وقهقهوك، وبغبغوك... خلَص بقى! حلّ عن طرف الزَّلَمَة!».

وإذا الجميع يضحكون ضحكا لا مثيل له.

وكان أستاذنا قد روى لنا من شعر فيلسوف المعرة، ما أدار رؤوسنا:

في اللاذقيـــــــــــة ضـــــــــــجّةٌ	مـــــا بـــــين أحمـــــد والمســـــيحْ
هـــــــذا بنــــــاقوس يـــــدقّ	وذا بمئذنـــــــــــة يصـــــــــــيحْ

كـــــــلٌّ يُعظِّـــــــم دينَــــــــه يا ليـــت شـــعري مـــا الصـــحيح!

بعدئذ، وأنا أمضي في درب العلم والأدب، أصبح ابن الخال أبو أسعد يكفّ ويعفّ... وظللنا "صديقين"، إلى أن استأثرت رحمة الله بكلّ من كانت تضمّهم مجالس السمر تلك، وكان هو آخر الراحلين...إنها الأيام والليالي"[١].

وفي لوحة أخرى، ينقلنا السباعي إلى مرابع صباه، حيث زقاق الزهراوي في حلب، لينقل لنا بعض لفتات الذاكرة في سوق "السويقة" الشهير في حلب، حيث تستقر في روحه ذكريات مع بائعي المحلة وأقران العمر. يقول:

"[أوقيّة "كباب".. عند القصاب "الظاظا"]

على ذكر "أبو العَيْران" في "السويقة" المجاورة لبيت الطفولة في "زقاق الزهراوي" بحلب، وفيها القصابان "محمد ياسين" و"الظاظا"، رأيت بين المعلقين (الأربعاء ٢٩-٣-١٧) بنتَ حارتنا "الدكتورة سهام عدّاس"، تعرف السويقة وتتجاوز إلى تذكّر أجير الظاظا، يحمل الطلبات إلى المنازل، يقطع المسافات بخطواته الواسعة والقدمان منه حافيتان، و"الأنكَري" على رأسه متوازنًا لا يميل!

استدعى ذلك عندي سالفة لطيفة تعود إلى الماضي الجميل.

كنا نحن ثلاثة فتيان من الأقارب، أكبرُنا "محمود" والتالي "عبد البديع" وأنا، والفارق

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٥/٩٧-٩٩.

بين الأعمار لا يعدو السنوات الثلاث.

اتفق أن عَهِدت الأسرة إلينا بأن نتسوّق غرضا ما، ثمنه ثلاثون ليرة (بعملة العام (١٩٤٦) زمان ولى فليرحمه الله!). فلما ذهبنا لتسلّمه تحصّل لنا في "الصفقة" وفرٌ مقداره ثلاث ليرات. ولم يَطُل تفكيرنا في أين ننفقه، فتوجّهنا - وقد أثار البرد فينا الجوع - إلى القصاب "الظاظا" في السويقة، التي كنا قد انتقلنا بسكننا من "الزهراوي" إلا أنّ الزهراوي ظلّ يسكن خواطرنا.

دخلنا محلّه، وكان ذا سعة، وطلبنا ثلاث أوقيّات من الكباب، والتمسنا منه أن "يتوصّى" فنحن "أولاد حارة"، فقَدّم لنا الكباب مع "البيواظ"، وما فاتنا أن نطلب "تقْلي" عيران من عند أبو العيران، وأكلنا، وضحكنا كثيرا، فالغداء جاءنا منحة من السماء... وكلّ هذا بثلاث ليرات سورية!

محمود، وهو أحد أعمامي من أمّ مصريّة، عاد من يومئذ إلى مصر، وفيها عمل وعاش وأنجب. سألته عام (٢٠٠٧) وأنا بالقاهرة عن هذه الواقعة، فإذا هو يذكرها بتفاصيلها، وهي بالنسبة إليه لمحة من ذكريات الوطن، وطن أبيه جدّي "الحاج سليم السباعي"، ذكرها لي وهو في حالة وجد وحنين.

قضى محمود بالقاهرة عام (٢٠٠٨)، وتأخّر عنه عبد البديع إلى (٢٠١٤).... وإني أنتظر.

• الأنكري: عن التركية: "لنكَري" (على أن تُلفظ الكاف جيما مصرية): الصحن

النحاسي الكبير، وخاصة إن صُفّت فيه مثلثات الخبز وسُكب مرق الكرز- الوشنة، فوقها كرات اللحم والبقدونس ورُشّت القرفة!

• البيواظ: عن التركية: "بيفاز" (على أن تُلفظ الفاء على صورة V): أطلقوها على المشهّيات تقدّم خُضرةً مع الطعام، وخصّوا بها مفروم البقدونس والبصل يُرافق الكباب.

• التقْلي: من التركية "دوكْلي": أطلقوها في حلب على الإبريق الزجاجي يُصبّ منه الماء للشرب، وفي دمشق إبريق، وعرفتُه في مصر "الشَّفْشَق".

والظاظا عشيرة كردية كبيرة تقيم في مدينة عين العرب (شمال سورية)، وفي حلب يقولون: شبّ ظاظا، يريدون مليح القوام وأنيق الملبس. وكان الكباب الذي قدّمه لنا القصاب الظاظا، طيّبا لحمًا وشواء!"[١]

لقد أوضحت هذه الخاطرة تشابكات متراكبة في التاريخ السوري، من الاقتصاد، إلى التناغم الديموغرافي في حلب بين عدة مكونات عرقية، إلى التأثُّر اللغوي بين الألسنة العابرة والمقيمة، إلى الأنثروبولوجيا المطبخيّة التي تستحق توقُّفًا طويلاً في مكونات الطبخ السوري.

ولو أننا انتقلنا إلى مساحة أخرى في هذا الإطار -أي ذاكرة السباعي حول النسيج الاجتماعي- لوجدناه يشير إلى تفاصيل مثيرة حول تغيّرات الأسماء والكُنى في عهد الوحدة

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٥/١٠٣-١٠٥.

مع جمهورية مصر العربية ثم مع حزب البعث بمختلف حقبه، ونقتبس هنا إحدى تلك التدوينات الغنية:

بتاريخ "ضحى الأحد ٢-٤-٢٠١٧" عنون السباعي تدوينته بـ: [أسماء "الآغا" و"البيك" و"الباشا" في ظلّ الحكومات التقدميّة] حيث يُدخل القارئ النص قائلاً:

"كانت أمي، يرحمها الله، تنتمي إلى أسرة صغيرة، يحمل الأب - جدّي - اسم "فايق سليم آغا"، وربما كانت أصولها كردية أو تركية، على نحو ما تتعانق في بلدنا المكوّنات، الدينية والطائفية والإثنيّة، لتشكّل هذا النسيج الديمغرافي البديع.

وكان لي خالان يعملان موظفين في الحكومة، "سليم" الذي يكبرني بسنتين و"أحمد" يصغرني بمثلها. وأذكر أنّ ما كان يُمتعني في طفولتي، أن نذهب مع أمّي إلى بيت أهلها، نقطع "سوق النحاسين" لنصل إلى تلك الحارة المسدودة المسمّاة "خَرَبْخان" (تسمية لا أرتاح لها، سألت تاريخ حلب عنها، فأجابني بأنه مرّ على هذه الحارة زمنَ العثمانيين حريقٌ أتى عليها، فوُسِمت بهذا الاسم التركي الذي يعني المحلّ الخرب أو "الخَرَابة"، عَلِق بها حتى بعد أن جُدّدت عمارتها!)... وفي بيت الجدّ كنا نمارس "المصارعة"، الرياضة المتاحة لنا، على الفُرش الممدود، أنا وخالي أحمد ضدّ أكبرنا سليم، نغلبه أو يغلبنا.

عفوًا، طال التمهيد، لأقول: إنه، في عهد الوحدة، لوّح النظامُ التقدّمي بيده لأصحاب الألقاب الموروثة، حتى إنّ غوغاء نزلوا إلى الشوارع في مدينة حماه يهزجون: «ما في آغا ما في بيك .. بدنا نشيلُنْ بالكْريك» (والكريك هو الأداة يُجرف بها التراب والقمامة)، وبدا أنّ خالي

سليم مسّ قلبَه الخوف فذهب يرفع دعوى "يُعدّل" فيها الاسم إلى "سليم فايق"، واستبقى أحمد الاسم "سليم آغا"، واليوم أبناء العمومة يحملون اسمين مختلفين! وأضيف إنّ واحدا من إخوتي الصغار، كان كلما التقى بخاله سليم يسأله مازحًا: «شو بيقربك الممثل "حسن فايق"؟».

ويطيب لي، هنا، أن أذكر حبيبتنا "ستّ الشام الجديدة"، الأديبة "ألفة الإدلبي". كانت كُتبها الأولى في الخمسينيّات تحمل اسم "ألفة عمر باشا"، وإذا به يتحوّل إلى "ألفة الإدلبي". ولما جرى حديث بيني وبينها، في العام (١٩٩٥)، لأنشر كتابين لها، سألتها عن هذا التغيير؟ فأفصحت - رحمها الله - بأنها أرادت في أيام الوحدة أن تتخلّى عن كلمة "باشا"، فتسمّت "ألفة عمر"، لكنها رأته اسما مبتورا، فاتجهت إلى اسم زوجها فأصبحت "ألفة الإدلبي". إلا أني في الكتابين (اللذين تولّت نشرَهما "دارُ إشبيلية" التي تخصّني: "عادات وتقاليد الحارات الدمشقية القديمة" و"ما وراء الأشياء الجميلة")، كنت حريصا على أن أُتوّجهما باسمها الكامل المُكمّل: «ألفة عمر باشا الإدلبي».

وما لا يفوتني ذكره أنه برزت، فيما بعد، كاتبةً حفيدةُ أخيها الشابة "رامة"، فنشرت دار إشبيلية كتابين لها من قصص الأطفال البديعة، "حكايات النملة مبروكة" و"طبيبة الغابة" وكان أن اتفقنا هي وأنا على أن يكون الاسم "رامة عمر باشا الإدلبي"، فزوجها يحمل

بالمصادفة اسم هذه الأسرة"[١].

لقد كان التمهيد جاذبًا للقارئ، ومثيرًا للحنين لديه، وموضحًا أمام عينيه مدى التنوع الغني والألوان الثقافية والعرقية المتكاملة في حقبة طفولة السباعي، فيشيد بأمه ومنطقته وتكوّنات المحلة التاريخية، ويقف مطوّلاً عند عتبات الحنين للطفولة وشخصياتها ممثلة هنا بخالَيه اللذين أصبحا عائلتين مختلفتين تحت سطوة الخوف من غوغاء التقدّميين -ذوي الفكر المتصلب-، إننا هنا أمام نص تغنّي فيه عتبة ذاكرة الغنى والتنوع، في وجه قتامة مشهد الواحدية الفكرية والصلابة المتكسّرة.

لا يقف الأمر عند أسرة "الآغا" التي تنتمي إليها أمه، بل امتدت إلى كل أسرة تحوي لقب "البيك" أو "الباشا" ويمثل لذلك بما جرى مع الكاتبة الشهيرة "ألفة الإدلبي" وتحريضه المباشر على أن تضع اسمها الكامل دون نقصان في كتبها التي طبعتها دار إشبيلية التي أسسها.

ومما يشدّ الانتباه كذلك -في إطار الطفولة- أن السباعي رفض ارتداء الطربوش وحرص على التحرر من ثقله منذ الابتدائية، فكتب يقول: "[ولبستُ الطربوش طفلاً، لم أستَشَر!]

تذكّرت، وأنا في فلوريدا قبل سنتين، لمحة من طفولتي فكتبت:

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٥/١٠٨-١١٠.

لمّا عادت أمي بي إلى البيت، سعيدةً بأنها سجّلتني في الصفّ الأول في ابتدائية الحيّ، أبلغت أبي بالمطالب التي تلقّتها من مدير المدرسة.

فأخذني أبي، في اليوم التالي، من يدي إلى "محلاّت النعساني" في آخر خطّ الترامواي في "خان الحرير"، واشترى لي تلك البدلة، الكحليّة اللون، تزينها الأزرارُ الصفر اللامعة.

ولكنّ أمي كانت قد ادّعت فوق ذلك أنّ مدير المدرسة "أمين أفندي الكرمان"، طلب أن يكون لي طربوش، وما رأيت أبي يشكّ في قولها، لأنه كان سائدًا في ذلك الحين (العام الدراسي ١٩٣٥-٣٦) أن يلبس حتى تلامذة الابتدائي الطرابيش. من ناحيتي فرحت أن يكون لي طربوش وأنا في السادسة من عمري، فتواطأت بصمتي مع أمي!

وهكذا مضى بي أبي إلى "سوق الطرابيشيّة" (أحد أسواق "سوق المدينة" الذي يعمل فيه)، فألبسوني هناك طربوشا، أحمر قانيًا، ذا شرّابة أحرّك رأسي فتهتزّ.

ثمّ إني ضقت بالطربوش، الذي أعرف أنه غير مفروض على تلاميذ الصفّ الأول، فبعضهم يعتمرونه وبعضهم لا، فأهملته، بل ازدريتُه، وسحبت منه الشرّابة... وغافلت أهلي يوما، فأخذت المقصّ وسرت به في الطربوش حتى جعلته شريطا طويلا، لففت جزءًا منه فأصبح "مسّاحة" ممّا تُزال به الكتابة بالطباشير عن اللوح (السبّورة)، قدّمتُها للمعلم "عبد المجيد أفندي سيريس"... الذي طلب من تلاميذ الصفّ أن يصفّقوا لي على هديتي"[1].

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٣/ ٤٣١.

لقد أعطتنا كلمات السباعي هنا صورة الواقع في بعض حقب حلب التاريخية، فتضمن بعض أسواقها، وإشارة لوصف ملابس طلاب الابتدائية فيها، وأسماء بعض الأساتذة المرموقين آنذاك في حلب، في ذاكرة تاريخية مذهلة بتفاصيلها ترسمها كلمات فنان أديب.

ولربما -في كثير من تدويناته- امتزجت الذاكرة بالألم، وطغت فيها المقارنة الباكية، بين حال الطفولة والشباب، وحال العجز في ظل حرب ضروس تأكل الإنسان والبنيان.

يقول في تدوينته "[طبلة المسحّر.. وطبول الحرب]

في ثلاثينيّات القرن الماضي... كنا نستيقظ، ونحن في بيتنا بحلب، على قرع طبلة المسحّر، يمرّ بحيّنا في "زقاق الزهراوي".

بعد عقود من السنين، وأنا أسكن العاصمة دمشق، رأيت أطفالي، يتشوّقون لأن يُكحّلوا عيونهم برؤية المسحّر، يضرب على طبلته، موقظًا النائمين في "شارع نوري باشا" بحيّ الروضة.

وتمرّ عقود وعقود... يزداد فيها شوقُ الذي كان في الثلاثينيّات طفلا، وأشواقُ أبنائه وأحفاده، إلى ذاك الذي يوقظ الناس في ليالي رمضان... وقد قُرعت طبولُ الحرب، وطغت على صوت طبلته الحنون قذائفُ تلمع في الفضاء قبل أن تنقضّ على رؤوس النائمين"[١].

(١) ينظَر من الكتاب: ٤/٢٦٥.

عتبة الحنين في تدوينات السباعي

عندما نقف على أعتاب السرد عند السباعي، نجد الكثير من الفواعل المتضمّنة في ذكرياته وأدبه، متوزعة بين السياسي واليوميّ والاجتماعيّ وغيرها، إلا أننا نجد أن كلمات السباعي في سنيّه الأخيرة -عبر سرده الرقمي- يكاد يطغى فيها حنينه للماضي والوطن على ما عداها، فيكتب ما يهدّئ روحه، ويضمّنها الكثير من المكانات والمكوّنات والاعتبارات التي تنطوي على آثار معرفية عالية، في جيلنا والأجيال اللاحقة.

يمكن لنا النظر إلى تلك الإضافات بوصفها عوامل يلتقطها القارئ الناقد، أو روحًا يعيشها القارئ المتفاعل، فهي نبضات تحيط النصّ من داخله إلى خارجه، تظهر للمتعمق في الحالة الكتابية وتوقيتها الزمني وصورتها النهائية، والفواصل الترقيمية، وعناوينها التي اختارها بداية لها، مفتاحًا للنص، وتوجيهًا مباشرًا للقارئ.

على الرغم من طغيان الحنين في تلك التدوينات، إلا أنها ملتزمة بقضية ما، يكشف عنها السباعي بين سطورها، بعيدًا عن الاختزال وإنما بلغة مندمجة مع روح النص وخيال القارئ وإطار الواقع، وكأنه كان قاصدًا إقامة حالة جدليَّة بين الذاكرة والحنين والواقع والمستقبل، فينتظم القول على القول، بين الاغتراب والغربة والحنين للماضي والوطن والأرض.

إن جودة القراءة في نصوص السباعي لا تكتمل إلا بالعودة إلى الصورة الكاملة، ولن نعدم حين نجمع نصوص الحنين القدرة على التقاط مكونات هذه الصورة، من الحنين للعيش في الوطن الحزين، إلى الحنين لطعام الطفولة وأزقة الصبا وذكريات الحارة، والمقارنة بين أرض الاغتراب وأرض الوطن، والافتخار بأبنائه وتاريخه، والإصرار على الاعتذار له، وتكرار إبداء حالة الشوق إليه وإظهار مدى الاضطرار للمغادرة عنه، وغيرها من علامات الحنين ولواعجه.

لقد كان آخر منشور كتبه في دمشق قبل سفره إلى الولايات المتحدة

"في كلّ دقيقة

أسمع قصفًا

وأتصوّر هدمًا وموتا

أتساءل: هل هذا وطن؟

أم هو بلد

النظامُ فيه يجهَر بمعاداته!"[1]

إنه القهر الذي يدفعه للمغادرة، على الرغم من أنه كان -على الدوام- يحيي في قلوب قارئيه لوعته في حب وطنه، فقد كتب ذات مرة يقول:

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٢/ ١٩٠.

«كم تعذّبتُ فيك!

كم أتعذّب من أجلك!

ولكني سأظلّ أحبّك

لأنك وطني...»

من كتابي "آه، يا وطني!"[١]

وحين تغادرنا ركائبه جوًّا، نراه يدوّن على الفور ما يؤكد أنه لم يفارق وطنه وذكراه وروحه، وأنه لم يكن خائفًا من عيون الأمن ورقباء الكلمة الحرة، بل بحثًا عن طمأنينة العائلة في ظل شيخوخة تزداد يومًا فيومًا.

"واللهِ ما فارقتُك، يا وطني

واللهِ

ما فارقتُك، يا وطني

خوفًا من عيونِهِمُ المبثوثة

ولا رَهَبًا من سيوفِهِمُ المسلولة

ولكن

(١) ينظَر من الكتاب: ٢/ ١٨٥.

لأنّ الأسرة التي أنجبتُها

على مدى نصف قرن ويزيد

قد رحل أفرادُها في كلّ اتجاه

حتى لم يبقَ لي بدمشق

مَن إذا انتابني وجعٌ

يمّد يده إليّ بكأس ماء!

جوّا فوق المحيط الأطلسي[١]"

وحين يصل إلى أرض الغربة، يرفض أن يقارنها بكل ما فيها من أبّهة بأرض الشام رغم الجراح التي تضرب أنحاءها شرقًا وغربًا، فـ "ليست نيويورك بالجميلة

ولا واشنطن

ولا باريس

ولا كلّ عرائس مدن العالم

أنت الأجمل، يا دمشق

ويا حمص

ويا حلب

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٢/ ١٩٠-١٩١.

والغوطة، ودرعا، وحماه

ودير الزور، وأريحا، والسفيرة...

بالخدود التَّرِبة

وبكلّ الجراح"[١].

لقد عبر لنا لاحقًا، حين قرر العودة، عن قلقه من العودة إلى الوطن في [قلق سوري!] يقول فيه:

"أحزم حقائبي

لست نادمًا لأني جئت

ولست آسفًا لأني سأغادر

فقط ينتابني قلقٌ... سوريّ[٢]"!

هذا القلق هو مبعث السفر وهو مبعث العودة، فيا لها من حسرات تتراكم في كثافة روحية ومعنوية في قلبٍ وقلمٍ.

(١) ينظَر من الكتاب: ٢/١٩١.

(٢) ينظَر من الكتاب: ٣/٥٠٦.

على أن هذا الحنين لا يختفي مع العودة للأرض، بل يزداد فيها، فقد كتب يومًا عن سؤال ورد إليه عن سبب عودته من الولايات المتحدة إلى سوريا أثناء الحرب، فبث في جوابه ما يظهر عوامل الحنين والأمل بالمستقبل، فيقول: "عدت لأعيش في وطن حزين.. ويزيدني حزنا خشيتي من أن أصبح عاجزًا عن تحرير أعمالي المودعة في رفوف مكتبتي، التي أقدر أنها تملأ بضعة عشر كتابا، والعمر يغازل النهاية، والبصر يزداد كلالا، والمسعفون في غيبوبة..

أشكر سؤالك عني[١]" كان نص السؤال: "صديقي العزيز الأستاذ فاضل.. كيف حالك؟ هل أنت على ما يرام وأنت في حضن الوطن؟ فجر الاثنين (١٣) مارس ١٢:٥٢ ص

إنه الإحساس بالحنين المُرتبك، الممزوج بشعور الضرورة للوفاء لوطن ضربت جراح الظلم أوداجه فتخبّط في دمائه ردحًا من الدهر، إنه لا يصف حالة المنفى هنا، وإن كنا نؤكد أنه انتصر على معاناة الغربة وأزمنتها الواقعية، إلا أنه لم يخرج من حالة الاغتراب والحنين في زمنه الداخلي، وكأنّنا به يقول: ها أنا ذا، مليءٌ بالحزن، والألم، والحسرة تطبق على الصدر مع اقتراب العمر من محطاته الأخيرة وغربة الأصحاب عنه.. إنها حسرة من لم يفقد الأمل بعد، إلا أنه يوقن بأن ختام الرحلة قد حان، فعاد ليعيش حزنه في وطنه الحزين.

تتكثف هذه المعاني في كثير من تدويناته، فلربما يكتب كلمات قليلة جدا مثل قوله "أنوي العودة إلى الوطن"[٢]. وقوله لما وصل إلى دمشق: "ساعة دخولي بيتي بدمشق عائدا

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٣/٥٠٦.

(٢) ينظَر من الكتاب: ٣/٢٨٠.

من فلوريدا"[١].

وكان أول نشر له بعد العودة من أمريكا ما عنونه بالقول: [ويحدّثني القمر] فيقول في نصه ذاك: "...وأستمع، في عتمة الفجر، إلى حبّات اللؤلؤ وهي تسّاقط على ماء البِرْكة، مردّدةً سؤالها العاتب: «لماذا تركتني؟»، ويُعييني الجواب.

والقمر... يسترق النظر إليّ من بين أغصان الشجر، يحدّثني ضاحكا: «كنت ألاحقك، وأنت تتوارى عني فيما يَشغلك هناك. إني في كلّ مكان، رقيبٌ للعاشقين!»[٢].

وبعد مدة أعاد الكتابة عن هذه اللحظة وقال في آخر منشوره: "ودخلتُ، تعانق عيناي أنفاس "وطني الأول"، بيتي الحميم[٣].

وبعد مدة قال جامعًا بين حاله في السفر والوصول:

"أنا لم أهجرك، يا شام!

أنا لم أهجرك، يا شام!

أنا سافرت حقًّا...

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٣/ ٥٠٦.

(٢) ينظَر من الكتاب: ٣/ ٣٣٠.

(٣) ينظَر من الكتاب: ٣/ ٣٨٢.

لكنْ إلى حيث يقيم أبنائي قبل الحوادث والأحداث...

وما انبسطت...

فعدت إليكِ

يُغرقني الحنين وتملأ صدري الأحلام...

أعدك بألا أفارق ثراك أبدًا..."[١]

يعالج السباعي -بالاتّكاء على عتبات حنينه الذاتية- بلغة عميقة، العديد من القضايا الاجتماعيّة والسياسيّة والفكريّة على حدّ سواء؛ ليفتحَ باب معرفة في جدار الواقع المخفيّ عن العيون، وبابًا لتصوير الحياة السورية بمكوناتها الغنية على مدار عقود طويلة من الزمان، فيسرد لنا في إحدى تدويناته، "كان جدي لأبي يصحبني من بيتنا في "الزهراوي" (بحلب)، نازلا "سوق المنجّدين" إلى "السويقة"، يقف في باب القصاب "محمد ياسين" ويطلب منه "سيخ كباب" معبّأ في رغيف من "الخبز السوقي" (الأبيض مرشوشا عليه حبّة البركة) مع ما تيسّر من البيواظ، وملفوفا على شكل "عروسة"، أتسلى بقضمه، وأنا بصحبته متجولا في السويقة يشتري حاجات للبيت.

طعم ذلك الرغيف ما يزال تحت أضراسي منذ بضعة وثمانين عاما.

رحم الله الأجداد"[١].

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٣/٣٩٧.

لقد نقلتنا هذه التدوينة إلى صورة خارجة عن واقعنا، وأدخلتنا في فضاء ذاتيٍّ يغني مخزون الصور التاريخية لدينا، وعلى النمط ذاته يأخذنا في تدوينة أخرى إلى صورة من الحنين المكتوم للصورة آنفة الذكر، حين صوّر في شارع مالابار شيئًا قريبًا من عادته أثناء الصبا، تناول رغيف فلافل..

"خرجت من البيت، الذي عدت أقيم فيه عند ابنتي الكبرى، أسير متريِّضًا في الشارع الذي يحمل اسم "مالابار Malabar"، طريق عام بين الغابات، تتهادى فيه السيارات ولا أكاد أسمع منها إلا ما يشبه حفيف أجنحة اليمام، أمشي الهوينى على الرصيف، هذا الذي تحفّه من جانبيه مروجٌ لا تنصُل خضرتُها، وعند منعطفٍ أتوقّف، لأستدير عائدًا إلى البيت.

خطر لي، أمس، أن أتجاوز هذا المنعطف قليلا، وأنا أتأمّل وأتذكّر... وإذا الأنسام تحمل إليّ... رائحة قَلي فلافل!

حدّثت النفس: ساكنٌ عربيٌّ، سوريّ، من دمشق أو من حلب، هنا؟...

كيف لم أعرف وأتعرّف على أبناء وطني، في الحارة التي أسكنها!

ومضيت، أتابع الرائحة... وإذا بي أمام دكان "بيّاع فلافل"، فيها فتيانٌ "أمريكيون" ينتظرون في صبر ملحوظ. وفتياتٌ يكشفنَ عن زنود بضّة، بيض وسمر، وفي الأيدي قُفّازاتٌ شفافة. إحداهنّ أمام المقلاة، ترمي ببراعة، وتغرُف. يُلقِمنَ الفرنَ الكهربائي، في كلّ حين،

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٥/١٠٦.

صينيةً، على سطحها أشكال من عجين، ثمّ يفتحنَ ويسحبن، وإذا العجائن قد تحوّلت إلى "صمّون" شهيّ. تشقّ كلُّ منهنّ الصمّونة بسكين. تحشوها بالأقراص الساخنة، تهرسها. خُضَرٌ مخلّلة وتوابل، تسألك ما تريد وما تستزيد. وسمراء منهنّ تتناول، تلفّ في قرطاس. تكبس الزرّ. تسجّل الثمن: "رغيف الفلافل"، في بلدة منسيّة بولاية فلوريدا الشهيرة، بخمسة دولارات!

بلطفٍ التمست منها: «من فضلك، دعي رأس الصمّونة مكشوفا!».

وأخذت أقضم، في الطريق، رغيف الفلافل، كما لم أفعل يومًا في طرقات الوطن.

أعترف لكم، أصدقائي، بأني أكتب لكم هذه الخاطرة الآن، وأنا وراء الطاولة، لا ابتعدت في تريّضي أمس في شارع مالابار، ولا رأيت بيّاع فلافل، وإنما هي خواطر، أحلامُ يقظة، أشواقٌ للوطن أعانيها، لترابه، وسمائه، وشمسه، وهوائه، وغباره... ولرائحة الفلافل في دكان قاليها وبائعها في "الجسر الأبيض" القريب من بيتي بدمشق، فاعذروني!"[1]

أحلام اليقظة تدعو السباعي إلى الحنين لطفولته وشبابه وكهولته وكل ذرة في تفاصيل ذاكرته عن وطنه، هذه الآلية السردية تدعونا للتأمل والتفكر، حيث تمنح القارئ وعيًا بتحولات عديدة في أشكال التواصل ورمزيته، وإدراكًا عميقًا بأن الحالة التي عاشها السباعي

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٥/٤٣-٤٤.

وسطرها في تدوينته ليست صورة خياليّة وإنما هي صوت داخليٌّ يعيش في روحِ كلٍّ منا، فهو يأخذنا ليغمسنا في متعة المفردات بعين لم نعتد عليها من قبل.

معبرات النسيج الاجتماعي والهوية

إحدى أبرز القضايا المركزية في السرد عند السباعي، ما نراه متكررًا بشكل كبيرٍ في تدويناته، وهو ما يمكن وصفه بأنه إجابة عن سؤال كيف نبني "أوصافنا" و"هويتنا" وكيف نتكوّن أو نكوّن أنفسنا في هذا التأطير.

من الطبيعي -في إطار بحث مفهوم الهوية ومكوناتها- أن يشوب بحثها ارتباك واضح نظرًا لتداول هذا المصطلح في المجال التداولي في الحياة اليومية والإعلام والأدب والعلوم الاجتماعية، إلى درجة تعقّد مهمة تحديد دلالته، فضلاً عن مفهومه، فقد أضحى تعبير "أزمة هوية" الذي يلصق بفرد أو جماعة أو كيان سياسي رائجًا في اللغة المحكية والمستخدمة بين الناس، إلى جانب كون هذا المصطلح مؤشرًا إلى وجود نزاعات وسجالات يتسم معظمها بالحدة والتكوّر حول ما يُعد هوية؛ ما يشوش الأفق والطرق إلى المفهوم(١).

ولا ريب أن الخوض الفكري في الموضوع يمر بمنزلقات عديدة، مثل توسيع نطاق مسألة الهوية، والإفراط في إدراج قضايا كثيرة تحت عنوانها، إلا أنها ذاتها لا تقود لمعالجتها بالأدوات التي تُقارب فيها مسألة الهوية إلا إلى غموض أكثر وأعقد(٢).

إلى جانب ذلك فإن مفاهيم الهوية والسرد تشكلان منطقتين كبيرتين في الأطر الفكرية واليومية والأدبية، وقد درستها تخصصات متنوعة من مناظير مختلفة، إلا أن هذه الدراسات لم

---

(١) ينظر: د. عزمي بشارة، "تأملات في مسألة الهوية"، مجلة تبيّن، (١١/ ٣٤) العدد ٤١- (٢٠٢٢)

(٢) بشارة، "تأملات في مسألة الهوية"، ص ١٦.

تتعمق في سرد النسيج الاجتماعي ومكوناته، ولا سيما في أدب السباعي وسرده الماتع، حيث نجد العديد من الدراسات حول مفهوم الهوية ومكوناتها الذاتية في علم النفس، والفلسفة، وعلم الاجتماع، والنظرية الأدبية، إلا أن هذه المقاربات بمجملها يتجاهل كلٌّ منها الأخرى بشكل كامل تقريبًا.

أما سردية السباعي في تقديم الهوية وبنية النسيج الاجتماعي في أدبه، فإنها متكاملة ومنفتحة على التنوّع الغنيّ دون أي تصلّب تجاه المكونات الأخرى، ومن هنا كان موقفه واضحًا، من رفض الاستبداد، والاعتزاز بالأخوّة الوطنية لمختلف الانتماءات العرقية والفكرية التي تقف من الظلم والإقصاء موقفًا جازمًا.

تساءل السباعي ذات يوم "هل الطائفية حقيقة؟" وأجاب مطوّلاً عن ذلك بما يرسّخ هذه الصورة المقدّمة عنه، فيقول: "عندنا في البلاد طوائف منذ فجر التاريخ... فالطوائف وليدة الأديان، كما أنّ الأحزاب وليدة الحراك الديمقراطي في العصر الحديث. ولكن المرفوض هو: «النزعة الطائفية» «الروح الطائفية» البغيضة... وهذه لم نسمع بها إلا اليوم، ومروّجها والعازف على أوتارها – مع شديد الأسف – هو النظام، لائذًا تحتها محتميا بها...

في صغري، كان جيراننا في حيّ الجميلية بحلب من اليهود.

نحترمهم، نتبادل الزيارات، ويدعونني وأنا طفل لأطفئ لهم عداد الكهرباء بيدي مساء السبت! هاجروا، وما زالت ذكراهم في نفوسنا.

هذا عن اليهود، فما بالك بالمسيحيين!

كثير من أصدقائي من المسيحيين، عندما أسافر إلى بيروت أنزل في بيت صديق لي مسيحي من القامشلي، فنان رسام اسمه «زكريا كايا».

من أين طلعتم لنا بنغمة «الطائفية» تخوّفون بها العباد؟!"[١].

وإذا ما مررنا سريعًا على مكونات هذه السردية فإننا نرى فيها اعتزازه بالتاريخ الإسلامي ومنجزاته بوصف العرب بناة حضارات، واحترامه للحضارة الإسلامية بوصفها هوية جامعة يدخل في إطارها الثقافي مختلف الانتماءات الطائفية والأقليات الدينية لتشرّبهم آثار المنجَز الإسلامي ومفعّلاته ونتائجه، ومن هنا فقد كان كثير ممن عمل في تطوير منجزات حضارة الإسلام طوائف وأديان أخرى تحت مظلة الإسلام، ولم يكن عسيرًا على السباعي أن يأخذ موقفًا حازمًا في سرده الماتع في التنديد بمن يندد بهذا التاريخ، أو ينكر الهوية الجامعة للمدن السورية، وموقفه الواضح من تكفير الآخر والافتخار بالإسلام لكونه دين تراحم وانفتاح وتكامل مع الآخر، وغير ذلك من المكوّنات التي نلتقطها في تدويناته الكثيرة.

لم يكن السباعي ليتراجع عن موقفه ذاك، فالحضارة التي أبدعتها الأمم الإسلامية على مدار التاريخ، ليست حكرًا على قومية أو عرقية أو تيار معيّن، وإنما هي نتاج فضاء فسيفسائي متكامل، وهكذا نراه يقول: "لست أدري لماذا يعبّر بعضهم عن عدم الارتياح عندما نشير إلى

---

(١) ينظَر من الكتاب: ١/ ٢٥٥.

أنّ هذا البطل وذاك العَلَم في حضارتنا ينتمي إلى هذه الأمة أو تلك ممّن اعتنقوا الإسلام في زمنهم، ونراهم كما لو أنهم يريدونها حضارة عربية خالصة، على حين أنها إسلامية الروح بقدر ما ينطق لسانها بالعربية.

أحبّ أن أذكر هنا أني عندما هيّأت كتابا للنشر بعنوان "الأندلس في عصر بني عبّاد، دراسة في سوسيولوجيا الثقافة والاقتصاد" من تأليف الباحث المغربي الدكتور أحمد الطاهري، التمس مني - التماس مقتدر لا التماس محتاج - أن أضع للكتاب مقدمة وتمنى أن تكون مستفيضة.

ما يهمّني قوله هنا أني حرصت في إعدادي المقدمة على الإشارة إلى انتماء المؤلف إلى قومه "الأمازيغ" (البربر، كما يرد في كتب التراث)، هذا الباحث الذي دخل في أعماق الحياة الأندلسية في أيامها الزاهية، «فأنطق التاريخ، ورسم الأشكال والألوان والظلال بريشة بارعة جامعة...»، وفي ذلك تراءى لي أن أشير إلى الشاعر أحمد شوقي، فقلت:

«أعاد الشاعر المصري من أصول كردية أحمد شوقي الأندلسَ إلى الذاكرة العربية، عَبر شعر أرسله وهو في منفاه بإسبانيا، واليوم يعيدها إلى الأذهان الباحث المغربي من أصول أمازيغية أحمد الطاهري، عبر كتاب نثريّ قد ألّفه وهو في مقامه بإسبانيا...».

وفي الوقت الذي همس لي الطاهري بأني، في إلحاقي اسمه باسم الشاعر العظيم، قد أخجلت تواضعه، فإنّ صديقا لي اقترب من أذني ليقول إنه لم يكن ثمة داع لأن أشير إلى

"إثنيّة" الرجلين وقد خيّل إليه أنّ هذا ينال من عظمة حضارتنا! وكان عليّ أن أبيّن له أنّ ذلك مني كان لأدلل على أنّ حضارتنا العربية الإسلامية قد أسهم في تشييدها كل الأمم التي دخلت في الإسلام، الذي وسّع لهم بأن أعطاهم وأخذ منهم، فهو دين عالمي بحقّ.

ولن أضع القلم من يدي قبل أن أشير إلى دور المسيحيين، السريان منهم خاصة، في هذا البناء والإعمار، وإنّ كتب التراث حافلة بالثناء على ما نقلوه من العلوم والمعارف إلى العربية، ابتدأ ذلك من حنين بن إسحاق وما كان له أن ينتهي عند اللبنانيين الذين أسسوا في العصر الحديث بمصر المحروسة الدور لنشر الثقافة والصحافة، نجيب متري صاحب دار المعارف وجرجي زيدان صاحب دار الهلال.

إنها حضارتنا التي ازدهرت بفضل العرب والأعاجم (بأجمل معاني الكلمة)، مسلمين ومسيحيين. وعندما أذكر سيبويه الفارسي ومحمد الفاتح العثماني وفؤاد صروف المسيحي اللبناني، أشعر بالاعتزاز مثل ما يعتريني وأنا أذكر أبا عمرو الجاحظ ابن البصرة والطبيب عبد الملك بن زُهْر الإشبيلي والشاعر السوري بدوي الجبل.

إنها حضارة الفسيفساء البديعة... فلا يسؤكم إشادتنا ببناتها مختلفي الأعراق والأديان، أيها المثقفون المعتزّون بعروبتكم"[١].

---

(١) ينظَر من الكتاب: ١/٣٤٧-٣٤٨.

لم تكن هذه الكلمات حالة عابرة، وإنما مبادئ مغروسة في تكوينه الثقافي، وقد أشار إلى ذلك باقتضاب في إحدى تدويناته حين تكلم عن بناة الصروح الأندلسية، حيث يقول: "قالوا: هذه حضارة "أسلافنا الإسبان"، فالعقول التي دبّرت، والأيدي التي مَهَرَت، والأجيال التي تابعت التدبير والإنجاز، كانت إسبانية لحمًا ودمًا، وكان من قبيل المصادفة – قالوا – أنّ أولئك البُناة دانوا بالإسلام ونطقوا بالعربية!

إنّا نقول في هذا كلمة: إنْ كان "الدم الإسباني"، الذي اغتذت منه عُروق الأندلسيين (ولم يكن بطبيعة الحال إسبانيّا خالصا)، هو العنصر الفاعل في بناء صروح هذه الحضارة... فلم لم يتأتَّ لهذا الدم الإسباني نفسه أن يفعل، أن يبني حضارة ماثلة في الجانب الآخر من شبه الجزيرة الإيبيرية، وقد كانت الرقعة المسيحية تتّسع شيئا فشيئا، وتظلّ مع ذلك قاصرة عن أن تقيم حضارة، على حين كانت الرقعة الأندلسية، التي تضيق باستمرار، تُنتج وتبدع، وآخر آياتها "قصر الحمراء"!

وإذا كان الإسبان يدّعون أنهم هم بناة الحضارة الأندلسية، فلم لم يُبدعوا شيئا من ذلك قبل الفتح الإسلامي؟ وأيضا لماذا قصّرت همّتُهم عن أن يتابعوا، بعد رحيل العرب، إنتاج الحضارة الأندلسية ويستمرّوا فيها؟"[١]

---

(١) ينظَر من الكتاب: ١/ ٤٤٠.

وحين سخر أحد المتابعين من تاريخ المسلمين في الأندلس انبرى له السباعي مؤكدًا له أنه على خطأ قائلاً له: "لو تعلم، يا بسام أنّ العرب، أنّ الإسلام، ما دخلوا مصرا من الأمصار إلا أشاعوا فيه الأمن والحضارة...

لو أنك تعرف فقط أنّ الصروح التي شيّدها أجدادنا في إسبانيا، في الأندلس على سبيل المثال، توفّر للحكومة اليوم موارد عظيمة، والسياح القادمون من أنحاء العالم يتفرجون ويبهرهم الإعجاب، و"عربي" يحشرج من خلف الكواليس المعتمة يقول: «بحجة الفتوحات بنى [العرب] تاريخهم على السرقة والسلب تحت اسم غنائم»..

ما أجهلك بتاريخ أمتك، يا عدوّ نفسك! أنت مهيّأ لأن تكون واحدا من المتخابرين مع العدو، أولئك الذين كشفهم فرع المعلومات البارع بلبنان، فقتلتم بالأمس رئيسه اللواء وسيم الحسن، واحدًا من أعظم الضباط العرب المعاصرين! "[1].

إنها النظرة الأحادية العمياء عن إدراك ألوان الصورة، شأنها في ذلك شأن الطرف الآخر الذي يقصي أيّ جهة لا توافق رأيه الاعتقاديّ الديني، فالأولون مهيَّؤون للاستبداد واستئصال الآخر خوفًا مما يصفونه بالرجعية، أما الآخرون فإنهم على استعداد لاستئصال الآخر بالتكفير.. وكلاهما مقيت في سرد السباعي وأدبه، فالاستبداد يمحو هويتنا، وال

(١) ينظَر من الكتاب: ٣٥٧/١.

"تكفيريّة"... تكفّرنا!" [...] وإنه لمن مفارقات الزمان: أن يرانا النظامُ "تكفيريّين"، وأن ترى فينا هذه السيدة "كفّارا" لا يستحقون رحمةً من الأرض والسماء!

وإنما أقدّم لكم، أيها الأصدقاء، هنا مثالًا صارخا على ما تَكْشِف عنه "شبكةُ التواصل الاجتماعي" (الفيس بوك) من "جنون عظمة"... قوامه النَّزَقُ والحمق والخَرَق.

وكلّ عيد ميلاد وأنتم بخير[1]".

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٢/٢٦٣.

الاهتمام بالشأن اليومي

تُعَدُّ الكتابة في الشأن اليومي أحد فنون الأدب والتعبير العريقة في الثقافة الغربية، فـ"لليوميات أدب مستفيض في اللغات الأوربية عامة وفي مقدمتها اللغة الإنجليزية، وهذا الأدب موضع دراسة المؤرخ والناقد النفساني، والفيلسوف، والباحث العلمي، وكل من تعنيه سير الجماعات والأفراد؛ يشتركون في دراسته وبحثه تارة لبيان الأسباب التي تدعو الناس في فترة خاصة من الزمن إلى تدوين مذكراتهم والعكوف على أسرار ضمائرهم بمعزل عن الجماهير وشواغلهم العلنية، وتارة لتحقيق الوقائع واستكشاف دخائل الرجال، ويأتون في جميع هذه التعليلات والتخريجات بما يلذ الوقوف عليه ويفيد! وما من كاتب يوميات في الحقيقة إلا وهو ظاهرة نفسية كثيرة البدوات والغرائب، كثيرة الجوانب التي تتعلق بها مباحث النفسانيين والحكماء"[١].

ولعل هذا الفن هو الأكثر تداولًا في السياق الثقافي المعاصر من جميع الفنون الأخرى، فترى أهل السياسة والأدب والفكر والأعمال يصدرون كتبًا تتناول أحوالهم اليومية، وتلبّس بحسب انتماءاتهم الإيديولوجية والثقافية وتجاربهم الخاصة، ولعل من أهم كتب اليوميات، يوميات ليف تولستوي التي دوّن فيها كثيرًا من مشاهد حياته الممتدة على مدار ستين عامًا، و"يوميات آنا فرانك" التي وصفت حياتها في معمعة الحرب العالمية الثانية، ويوميات فرانتز كافكا التي دوّنها بين (١٩١٠/١٩٢٣م) بما يظهِر تفاصيل حياته المؤلمة التي عاشها منعزلًا عن

---

(١) عباس محمود العقاد، "أدب اليوميات" مجلة الرسالة، ١٩٤١، العدد ٤٣٧- ١٣٩٠.

الآخرين في ظل شعوره الدائم عن اللا جدوى والسوداوية التي تملأ روحه وعقله. وجورج أورويل التي تصف طرفًا كبيرًا من أجواء ما قبل الحرب العالمية الثانية، و"يوميات الحداد" لرولان بارت، إثر موت أمه، حيث بدأ بارت كتابة يومياته في اليوم التالي لوفاة والدته بدءًا من السادس والعشرين من أكتوبر(١٩٧٧م) إلى الخامس عشر من سبتمبر (١٩٧٩م)، إلى جانب يوميات أخرى، كيوميات الحصار والحرب، والسجن، والرحلات، في ظل مفارقة التجربة التي دفعتهم لكتابة هذه اليوميات.

ومن هنا نرى اهتمام السباعي باليوميات مدفوعًا بعين الرصد، رصد دعايات إعلام حرب الاستبداد على أبناء شعبه، ورصد تغيّرات الحياة اليومية، وانتشار الفقر والجوع والخوف، وتغير الأخلاق، والوقوف عند أهم الأحداث الساخنة.

من المهم -والحال هكذا- الوقوف عند الشأن اليومي في أدب السباعي، فالاهتمام باليومي أشبه بأن يكون قبضًا على اللحظة من خلال الحرف، ويمتد ليكون نوعًا من التصالح مع الذات، وشكلاً آخر لإثباتها أمام تحوّلات الحياة وتغيراتها في سنيّ الحرب، وفي طيٍّ آخر نرى الكتابة في اليومي اختبارًا وجوديًّا للكاتب أمام مسؤوليته التاريخية.

هذه المحفزات الثلاث توضح لنا سر إقدام السباعي على الكتابة في اليومي، ولو أننا طوينا سنوات القرن الحالي وصولاً لمطالع القرن العشرين، لوجدنا أن كثيرًا من وعي الشعوب العربية تجسّد متمثّلاً في أدب يوميٍّ كتبه أديب أو قاضٍ أو مؤرّخ أو عالمٌ أو سياسيّ

في دفاتر قصيّة لا ترضخ لشروط الكتابة الأكاديمية الرسمية، وإنما تمتح حضورها من فنّ التجربة والحوار الذاتي، وبالعودة للسباعي فإننا نراه يقبض على لحظات اليوم بآلية الكتابة في فضاء التواصل الرقمي، ليجلّي بريشته اللغوية قدرته على إبراز تجليات الواقع، بما يلملم شتاته، في سياق العوامل التي أسهمت في إنتاجه.

تمتلئ تدوينات السباعي بالاهتمام بالشأن اليومي، ولنحيط بنمطها العام، نمثّل لها بنماذج معدودة ههنا.

لنبدأ من الماء، فهي سر الحياة وينبوعها، ولأهميتها يشير لها السباعي في صور يومية عديدة، يقول في أحدها "[بالدور.. أمام الماء] في طفولتي البعيدة، كنت أقف أمام "فرن أواديس" في "السويقة" بحلب، لأحصل على رغيف أبيض، مرشوشَ الوجه بحبّة البركة، خارجا لتوّه من بيت النار، وكنا نسمّيه "الخبز السوقي"، مختلفًا عن "البيتوتي"، تشتري الأسرة في المواسم الحنطة الحمراوية، وبعد الطحن تعجنه أمهاتنا، ونذهب نقول للفران: «خلّي الأجير يجي ياخد "دفّة العجين"»!

فيما بعد أخذ الناس يقفون، في صفوف طويلة... أمام جرار الغاز.

اليوم، وقوفنا عِطاشًا عند سيارة عالية، في صفّين واحد للرجال وآخر للنساء، لنأخذ منها الماء معبّأ بالقناني، أرجعني إلى عهد الطفولة الباكر، فتذكّرت وقوفنا في منعطف "زقاق الزهراوي" أمام ما كنا نسمّيه "العين"، تلك الحنفية الضخمة التي نضخّ منها الماء

عذبًا، مجانا، قبل أن تُمدّد إلى بيوتنا أنابيب الماء، ومن هناك تلقّينا أول "دروس" الصبر على المكاره، بجوار صفّ ممتدّ من أباريق الصفيح وسطول التوتياء الثقيلة.

أسأل: هل هي طويلة "أزمة مياه الشرب" بدمشق، يا أيها القائمون على أمرنا؟

قد يرحل، بسببها، من سكان الشام مترفوها، ولكن يبقى فقراؤها والعاملون، تأبّيًا لأن يفترشوا أرصفة شوارع بيروت، العاصمة قاسية القلب، يا سيدي النظام! "(١).

إنها الحرب؛ لكن يومياتها تتضمّن حربًا أخرى.. هذا ما يريد السباعي إيصاله للقارئ، مستخدمًا في ذلك مزيجًا من الذاكرة التاريخية المتعاقبة، بين الطفولة حيث الطوابير لأخذ الخبز الشهي من أمام الأفران، فالكهولة حيث الطوابير أمام منافذ عبوات الغاز، فالشيخوخة القاسية، حيث يجتمع الناس طوابير لملء عبوات صغيرة ببضع قطرات من الماء.

لو وقفنا عند معظم ما يكتبه السباعي في طابع اليوميات، فإننا سنراه خفيفًا على اللغة، صقيلاً لا يحتاج كثير عناء لنتعلّق به، كما سنلاحظ أيضًا، أن السباعي بارع في مساحة استدعاء التاريخ "النوستالجيا"، بأسلوبه السهل الممتنع، مما يدفع القارئ للغرق في سياقاته وثناياه وتفاصيله.

وعلى الرغم من أن اليوميات لا تهتمّ بالتاريخ كثيرًا، إلا أنها تتكئ عليه لتظهر بواطن الحال، وحدسها تجاه المستقبل، وإحساس الكاتب بالواقع، إنها يقظة في أزمنة ثلاث، وهو ما

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٣٥/٥.

يجليه نص السباعي هذا، حين يستصرخ ما تبقى من ضمير السلطة فيقول: يا سيدي النظام.

في تدوينة أخرى يقف السباعي عند الحالة اليومية لفقدان الخبز في سوريا أثناء بعض مراحل الحرب السورية، أفرد في إحداها ثلاث تدوينات متتالية، عنونها بـ "من يوميات الخبز السوري" يستفتح أولها قائلاً:

"ربطة خبز" من يدٍ لا أعدمها..

بعد أن عدت من "سوق الشيخ محيي الدين بن عربي"، أنا وصديقي - الذي يُجيد طبخ الفاصوليا الخضرا - وقد اشترينا كل المستلزمات... تذكّرت، وأنا أنقّي باقة الكزبرة، أنْ... ليس عندي خبز!

أسرعت أهتف إلى جاري (ع.غ)، شابّ لي عليه دالّة، فأجابني: «تكرم عمّو»، وما هي إلا دقائق حتى كان يقرع الباب ويقدّم لي أكثر من كفايتي من الأرغفة الطازجة.

فيما بعد سألته عن الطريقة التي يحصل بها على خبزه اليومي في هذه الأيام الصعبة، فحدّثني بأنّ زوجته تنهض في باكر الصباح، تُعدّ الأولاد للمدرسة ثم تصحبهم إليها... وفي طريق عودتها تمرّ بالفرن الآلي بالمنطقة، هناك "صفوف" للرجال والنساء، ولكل منهما صفان أيضا:

من يرغب في ربطة ينتظر حوالي الساعة، وللربطتين ساعتان.

منذ ذلك اليوم، أخذت الزوجة الكريمة على عاتقها أن تقف، مرة في الأسبوع، في صف الساعتين، لتقدّم لي هي وزوجها ربطة خبز هدية.

ما أعظم شعبنا، نظامًا وأريحيّةً! ما أجدره بأن يكون حرًّا ليمارس إبداعه في كل مناحي الحياة!"(١).

أردف السباعي هذه التدوينة بتدوينة أخرى حول بيع الخبز على الأرصفة بعنوان "خبز على رصيف" فيقول:

"حدّثني قريبٌ على الهاتف من حلب، أنه بينما كان يمشي الهوينى قريبًا من بيته، فوجئ بسيارة تتوقف إلى جواره، وينزل منها رجلان شديدا البنية، أخذا يَنقُلان إلى الرصيف كلّ ما تحمل، ولم يكن إلا "ربطات خبز" بكميات... وما وجدا حاجة إلى المناداة على "بضاعتهما"، فقد توافد إليهما الناس من كل فجّ قريب وعميق.

قال: فانجذبت. كانا يبيعان الربطة بأضعاف سعرها. اشتريت، واشترى الناس.

وما هي إلا دقائق حتى كان الرجلان يمشيان على الرصيف، متخففين من كل شيء إلا ممّا جنياه من ربح غير مشروع.

---

(١) ينظَر من الكتاب: ١/ ٣٨٦.

والناس انصرفوا، يحمل كلّ منهم ما يسدّ به رمق أولاده... وذلك بعد أن كانوا يتلقّونه على باب الفرن، طازجا وبالسعر الرسمي المدعوم"[1].

وفي ختام هذه السلسلة يكتب قائلاً: "يومان.. لم يذوقوا الخبز!

ممّا قرأت أمس في شبكة التواصل الاجتماعي، وغاب عني الموقع فأنا أكتب من الذاكرة... أنّ امرأة بحلب كانت تقف في الدور أمام فرن، وطال انتظارها والصفّ يمشي وئيدا، فلما اقتربت من نافذة البيع أعلن الفران أنّ الخبز نفد، وأغلق!

فُجعت المرأة، التي تكرّر معها هذا الموقف في اليوم السابق، فارتفع صوتها بالبكاء والعويل: «والله العظيم أولادي من يومين ما داقوا لقمة الخبر، والله!».

وتعلّقت بالرجل الذي يحمل آخر ما أعطاه الفران، فما كان منه إلا أن تخلّى لها عمّا تحمل يداه، واستدار يخفي دموعه، ومضى.

كأني أسمع صوت واحد من المنتفعين حتى الإقامة في فنادقهم ذات "السبع نجوم"، يقول شامتا: «بدكن ثورة؟ هي نتائج ثورتكن!». متغافلا عن أنّ هذا نتيجة القصف والتدمير وقطع الإمداد... ولكن العمى يتجاوز البصر أحيانا إلى البصيرة"[2].

تصف لنا هذه الثلاثية حالة الصعوبة في الحصول على الخبز، واستثمار بعض الناس

---

(١) ينظَر من الكتاب: ١/٣٨٧.

(٢) ينظَر من الكتاب: ١/٣٨٧-٣٨٨.

الحالة البائسة في الحرب للعمل في بيع الخبز بأسعار مضاعفة، إلى معاناة الناس من فقدان هذه المادة، وتهكمه ممن جعل الثورة سببًا في فقدان هذه المادة الأساسية في حياة الناس.

إن رغيف الخبز يختزل كثيرًا من الأشياء، الحب، والثورة، والسياسة، ومضامين جوهرية أخرى، وفي هذه الثلاثية المتكاملة نرى السباعي يسلط الضوء على حضور هذه المادة وفقدانها في أيام الحرب العصيبة، وما تجرّه تلك الحالة من مشاعر ومآسٍ وانتهازية بالغة.

لكن الأمر لا يقف عند هذه المادة وحدها، فقد فَقَدَ الناس الكثير من المواد الأساسية، كالكهرباء، وما هو أهم، أي الأخلاق.

يصف السباعي في تدوينة له حالة طفل حلبيّ، "بعد اثنتَي عشرة ساعةَ سفرٍ شاقّ، وصل الطفل برفقة أبيه إلى دمشق، ومن فوق مرتفعات قاسيون انبسطت تحت ناظريه البيوت والعمائر والمآذن، فعبّر عن فرحه بزيارة العاصمة لأول مرة في حياته.

كان الليل قد أرخى سدوله لحظة دخل بيت الخال.

رأى الحديقة تسبح في النور، ومنه ما يُفتّح ويُغمّض، فخطر له أن يسأل ما إذا كانت كلّ هذه الكهرباء من "الأمبيرات"؟

وأصغى إلى قطرات الماء تغنّي وهي تتساقط على سطح البِركة، فسأل من أين يأتي الماء إلى هنا، وكيف؟

ثمّ ترك نظراته تتنقّل بين أغصان الشجر... تنهّد وقال:

كأني في حلم!"[١]

لقد غدا حال الناس تعيسًا، وها هو السباعي يصور لنا هذه الحالة عندما يصف وصول الطفل إلى دمشق وحالة انبهاره في وجود الكهرباء في بعض مواقعها، دون الحاجة إلى تفعيل الاشتراك الشعبي بـ "الأمبيرات" وكأنه غدا في حلم..

هذه التدوينة التي صاغها السباعي بأسلوبه السلس توضح لنا بما لا يقبل الشك حالة الناس المعيشية التي فقدت آنذاك أيسر مقوماتها وأهمها في عالم الدنيا الحالي، لكن ما هو أشد من ذلك، هو محاولته التعريف بحالة التغيّر التي طالت أخلاق الناس في ظل الفوضى والانتهازية، فكتب يقول: "[أخلاق الناس.. في ظلّ الحرب!]..

تزحزحت اللمبة في مصباح الطاولة عندي من موضعها، فقال لي الكهربائي: "الدارة" فيه تحتاج إلى إصلاح، وأخذ على ذلك أجرا.

انتهى مفعول البطاريّة في ساعة اليد فوجب تبديلها. فتحها الساعاتي أمامي وقال: تحتاج إلى تصليح، وطلب أن أنتظر ثلاثة أيام!

تعطّل الإبريق المُسخّن للماء كهربائيا، فأصلحته ودفعت. بعد يومين عاد إلى سيرته الأولى، فاشتريت جديدا.

الموتور الكهربائي، الغاطس في قاع البِركة مكرّرًا ضخّ الماء للنافورة فيتيح لي أن

(١) ينظَر من الكتاب: ٤/ ٢٨٥.

أستمع لغنائها وأنا في حديقة بيتي، توقّف لاحتشاء الشوائب في جوفه. ولكنّ صديقي الحداد أعلن موته، واشترى لي جديدا. بعد تركيبه زفّ إليّ بأنه - إكرامًا لي - بذل جهدا في إصلاح القديم، وقال: خلِّه عندك "يَدَكْ"، احتياط، إذا تعطّل الجديد! لم أقل له: يا بن الحلال، لماذا شرّيتَني واحدا بثلاثة عشر ألف ليرة!

وأما "الصمّون" (العيش الفرنجي)، فقد فتحتُ الكيس وأخذت منه واحدة، وجدتُها زائدة الرطوبة. تراءى لي أن "أشويها" على النار، فتفتّتت. لم أستحسن أن أشكو للبقال خبزه العجين فيقول عني في الحارة: شوفوا جارنا الختيار قدّيش بيشتكي!

لا أتحدث عن... "الغلاء"، بل عن "التعامل"!

هل توحّش الناس في ظلّ الحرب... الوطنية؟"[1].

حياة صعبة مرت على السباعي المثقل بسنينه الطويلة، إلا أن هذا الأمر لم يكن هو ما يشغل باله، وإنما توحش الناس في تلك الحرب، تلك النزعة التي سادت أجزاء بارزة من المجتمع بعيدًا عن القيم الخلقية والإنسانية، فغدا كل شيء مباحًا إلى حدّ المتاجرة بمصير الناس أو السخرية من فنائهم وموتهم تحت قنابل المستبدّ، وهو ما سنراه في تدوينة أخرى يبرز بصورة غاضبة، والتي يقول فيها: "كلام بذيء.. من تافه حقير!

من البذاءات التي طفت على السطح في أيام المحنة السورية، ما كتبه محام ساقط في

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٥/ ٥٠.

صفحته يوم أمس عن مجزرة الغوطة الشرقية، ونقله محام ملتزم أخلاقيا تصويرا إلى "المجموعة" التي جرى على الكتابة فيها...

يقول الساقط:

"لا أدري صحة الصور التي تعرضها قنوات العهر الإسلاموي عن قتلى في الغوطة الشرقية، لكن إن صح الخبر فأقول:

ولك لشحاطتي

لصرمايتي

الله لا يرحم فيكن ابن ...."!

علقتُ:

هذا "المحامي" لا يتصف بقلة الأدب فقط، بل بانعدام الحسّ الإنساني أيضا، وأولى بمن يوكله في دعوى أن يلغي التوكيل، لأنه عديم الضمير وبالتالي فاشل في كل شيء. ولا حاجة، أصدقائي، لمعرفة اسمه، فبحسبنا أننا تعرفنا على نمط منحطّ من البشر!

وقد جاء في تعليقات المحامين في المجموعة، أنه ليس مستبعدا أن يعين غدا في منصب!"[١].

لقد كان هذا الرصد لتصرف شخص يعد من النخبة البيروقراطية والفكرية في دمشق،

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٢/١٥٨-١٥٩.

إشارة إلى تغوّل التوحش في نفوس الناس، رغم أن القاتل معروف والقتيل معروف، إلا أن التعليق كان للتشفّي والإنكار، وهنا أبرز السباعي صورة أخرى في التأكيد على أن هذا الشخص قد يغدو ذا منصب مرموق قريبًا.. وهكذا فإن الحرب الطاحنة تحتاج رجالًا من صنف موقديها ومؤسسيها، لا من ذوي الأخلاق والنُهى، ومع طول أيام الحرب، آثر السباعي أن يملأ عينيه وقلبه بشوارع دمشق، فراح يسوح ببعض مواقعها، وأفرد لنا بعض مشاهداته آنذاك، فكتب عن "[السير بين البيوت الوادعة] قائلاً:

"بإمكاني أن أذهب إلى "مجمّع العثمان الطبي"، انطلاقًا من "ساحة الجسر الأبيض"، عبر شارعين مستقيمين، أقيمت بدايةُ أولهما فوق "نهر تورا"، وأتابع السير على ضفّة النهر حتى "الميسات"، وعندها أنعطف يمينًا، فأصل إلى حيث صديقي الدكتور طارق الذي وعدني بأن يقضي لي حاجة هو قادر عليها.

ولكني لم أسلك هذا الطريق، بل دخلت عند الجسر الأبيض في "جادة الرئيس" (حيث كان بيت الرئيس الأسبق شكري بيك القوتلي)، وتغلغلت في طرقات قصيرة، أنعطف فيها يمينًا وشمالًا، تقوم على جوانبها المباني الدمشقية اللطيفة، ولدى خروجي منها واجهني مبنى وزارة التربية، فدلفت إلى جواره، وانعطفت، فإذا أنا في الشارع الذي يقع فيه المجمّع الطبي يديره صديقي.

ليس اختصارُ المسافة هو الذي زيّن لي سلوك هذا الطريق.

لا!

إنها الرغبة في الاستمتاع بمرأى المباني الوادعة التي لم يَنَلْها خرابٌ في حربنا المجنونة.

متذكّرًا الحارة التي وُلدت فيها، "زقاق الزهراوي" بحلب، وقد اعتدت أن أتجوّل فيه كلما قدمت إلى مدينتي زائرًا، أُكحّل العينين بجدران الزقاق العتيقة وبلاط الطرقات التي مشيتها صغيرا، وأستعيد في الذاكرة ما في داخلها من أرض ديار تزنّرها الحجرات وتعلوها العلالي، ويهدل اليمام بين أغصان الليمون والنارنج، والعصافير ترسل أناشيدها، وتُثرثر قطرات الماء المنسكبةُ على سطح البحرة (البِرْكة) بأحاديث لا تنتهي..."(١)

إنها الرغبة في الحديث الذي لا دم فيه ولا بكاء، لكن النص لا يفلت من قبضة الحنين، فالتأمل كان في أبنية ما تزال ببريقها، فهي لم تنل شيئًا بعد من هدم الحرب وحرقه.

في عام (٢٠٢٠)، حين جاءت موجة وباء كورونا العالمية، رصد لنا السباعي الكثير من أحوال الناس في دمشق، واصفًا موجة غلاء الأدوية المفاجئ في الصيدليات، وما رآه من تغير في تعامل الناس مع بعضهم، إلى جانب سرده العديد من المشاهدات التي شكلت لديه حسرات واضحة في تلافيف حروفه..

من نافل القول الإشارة إلى أن كل الأحداث الكبيرة أثرت في الأدب بصفة عامة، فالأدب ظاهرة اجتماعية تتأثر بسياقات الأحداث ومجرياتها، ومن المؤكد -في كثير من النتاج الأدبي- اتصالُ الأدب الوثيق بالواقع، فعلى سبيل المثال، نرى الشاعرة العراقية نازك الملائكة

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٥/ ٤٠.

(١٩٢٣– ٢٠٠٧) تصوّر بشعرها الموت والحزن والمعاناة التي غزت مصر عام (١٩٤٧) حين تفشى فيها وباء الكوليرا، وصاغت قصيدة "الكوليرا" التي تستحضر صورًا كثيفة للعربات التي تحمل الموت والصمت الذي آلت إليه مدن مصر جراء عنف الوباء المتفشي.

كانت قصيدة الكوليرا إحدى بواكير الخروج من الشعر العمودي إلى شعر التفعيلة، وهكذا افتتحت قصيدة "الكوليرا" فصلاً جديدًا في تاريخ الشعر العربي..

وكان من أبرز ما قالته الملائكة في أبياتها الشعرية:

سكَن الليلُ

أصغِ إلى وَقْع خُطَا الماشينْ

في صمتِ الفجْر، أصِغْ، انظُرْ ركبَ الباكين

عشرةُ أمواتٍ، عشرونا ...لا تُحْصِ

...

في كلِّ مكانٍ جَسَدٌ يندُبُه محزونْ

لا لحظَةَ إخلادٍ لا صَمْتْ

...

تشكو البشريّةُ تشكو ما يرتكبُ الموتْ

...

في شخص الكوليرا القاسي ينتقمُ الموتْ

...

حتّى حَفّارُ القبر ثَوَى لم يبقَ نَصِيرْ

الجامعُ ماتَ مؤذِّنُهُ

الميّتُ من سيؤبِّنُهُ

...

يا مصرُ شعوري مزَّقَهُ ما فعلَ الموت.

ومن قبل نرى المؤرخ ابن الورديّ (٦٩١- ٧٤٩هـ) يؤرخ لتفشي الطاعون في حلب وبقية بلاد الشام، فذكر أحوال الطاعون في شعره وكان من جملة ما قال:

ولستُ أخاف طاعوناً كغيري فما هو غير إحدى الحسنيينِ

فإن متُّ، استرحتُ من الأعادي وإن عشتُ، اشتفتْ أذني وعيني

وأفرد رسالة خاصة عن هذا الطاعون سماها "رسالة النبا عن الوبا" يصور لنا حالة المدن في ظل الطاعون، مما أسفر عن موت نحو ألف شخص كل يوم. وكان من جملة ما قال في وصف تلك الأحوال:

"اللّهُمّ صل على سيدنا مُحمّد وسلم ونجنا بجاهه من طغيان الطّاعُون وسلم، الطّاعُون روع وأمات وابتدأ خبره من الظُّلُمات فواها لهُ من زائر من خمس عشرة سنة دائر ما صين عنهُ الصين ولا منع منهُ حصن حُصين سل هنديا في الهند واشتدّ على السّند وقبض

بكفيه وشبك على بلاد أزبك وكم قصم من ظهر فيها وراء النّهر، ثمّ ارتفع ونجم وهجم على العجم وأوسع الخطا إلى أرض الخطا وقرم القرم ورمى الرّوم بجمر مضطرم وجر الجرائر إلى قبرص والجزائر ثمّ قهر خلقا بالقاهرة وتنبهت عينه لمصر فأذاهم بالساهرة وأسكن حركة الإسكندريّة فعمل شغل الفُقراء مع الحريرية، [...] ثمّ تيمّم الصّعيد الطّيب وأبرق على برقة منهُ صيب، ثمّ غزى غزّة وهز عسقلان هزة، وعك إلى عكا، واستشهد بالقدس، وزكى فلحق من الهاربين الأقصى بقلب كالصخرة، ولولا فتح باب الرّحمة لقامت القيامة في مرّة، ثمّ طوى المراحل ونوى أن يلحق السّاحل، فصاد صيدا، وبغت بيروت كيداً، ثمّ سدد الرشق إلى جهة دمشق، فتربع ثمّ وتميد وفتك كل يوم بألف وأزيد فأقل الكثرة وقتل خلقا ببثرة. ثمّ أمر المزة وبرز إلى برزة وركب تركيب مزج على بعلبك وأنشد في قارة قفانبك ورمى حمص بجلل وصرفها مع علمه أن فيها ثلاث علل ثمّ طلق الكنه في حماه فبردت أطراف عاصيها من حماه، ثمّ دخل معرة النُّعمان فقال لها: أنت مني في أمان، حماه تكفيك فلا حاجة لي فيك. ثمّ سرى إلى سرمين والفوعة فشعث على السّنة والشيعة، فسن للسّنة استنه شرعا.. وشيع في منازل الشّيعة مصرعاً، ثمّ أنطى أنطاكية بعض نصيب ورحل عنها حياء من نسيانه ذكرى حبيب، ثمّ قال لشيرز وحارم لا تخافا مني فأنتما من قبل ومن بعد في غنى عني، فالأمكنة الردية تصح في الأزمنة الوبية ثمّ أذلّ عزاز وكلزة وأصبح في بيوتها الحارث، ولا أغنى ابن حلزة وأخذ من أهل الباب أهل الألباب وباشر تل باشر وذلك دلوك وحاشر وقصد الوهاد والتلاع وقلع خلقا من القلاع ثمّ طلب حلب، ولكنه ما غلب. ومنها: ومن الأقدار أنه يتبع أهل الدّار،

فمتى بصق أحد منهُم دمًا تحققوا كلهم عدماً ثمّ يسكن لباصق الأجداث بعد ليلتين أو ثلاث".[١]

لقد كان تناول الوباء موضوعًا أدبيًّا مبثوثًا في التاريخ، يؤرخ للمشاعر والأحوال الإنسانية، ويرسم تفاصيل ذاكرة الحدث، كما نراه في روايات "الطاعون" لألبير كامو، و"الحب في زمن الكوليرا" لغارسيا ماركيز، و"إيبولا" لأمير تاج السر، فإننا نكتشف أكثر عن أزمنة الأوبئة، وندرك حقيقة إسهام الأدب في تأريخ اللحظة وإثراء الشهادات والتصورات بما يخطه من سرد.

في تدوينة عنونها السباعي بوسم "الختيار الشغوب" نراه يقدم تدوينته الآتية:

"خرج الختيار من بيته سويعة الضحى. مشى في "شارع عطا الأيوبي" (الموازي ل "نوري باشا" صعودًا) حتى الطريق العام النازل من "العفيف"، وانعطف نحو اليمين.

دخل صيدلية. طلب تلك القطرة التي تجلو الغشاوة من العين، ما زال يتعالج بها قبل تصحيح النظر لعدسات جديدة للنظارة القديمة. وجد سعر القطرة قد ارتفع، قال إنه اشتراها آخر مرة بنصف هذا الثمن، فقال الصيدلاني وهو يبتسم: "كان يا ما كان!".

في متابعة نزوله نحو "الجسر الأبيض" صادف فتى يقف على الرصيف مستندا بظهره إلى الحائط، مستريحًا حتى إنه مدّ إحدى قدميه إلى أمام. توقف أمامه، رفع قدمه يهمّ بأن

---

(١) زين الدين أبو حفص عمر بن المظفَّر بن عمر بن محمد، ابن أبي الفوارس المعروف بابن الوردي، التاريخ، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٦) ٢/ ٢٣٩-٢٤٠

يدوس القدم الممتدّة. استغرب الفتى، وربما قال في نفسه: هذا الختيار الطيب، ألا يُبصر طريقه؟ قال الختيار باسما: "أردت أن أشْغَبَ عليك!"، فأدرك الفتى، واعتدل في وقفته، وأقبل يعانق ذراع الختيار يماشيه الهوينى خطوات!

على رصيف الفرن، المفتَتح حديثا في المحلّة يُقدّم الخبز "غير المدعوم" من الحكومة والصمّون والكعك، رأى صفين من الناس، للنساء وللرجال. تجاوز الدور، ليقول للفران: "عمري تسعون، أريد ربطة خبز أسمر". قال الفران كالمعتذر: "استأذنْ الواقفين في الدور إذا بيسمحوا". رفع الختيار صوته: "أقول لك عمري تسعون، ولا أقدر على الوقوف!". أرسل الرجل إليه نظرا مستطلِعًا. وبدا أنّ السيدة الواقفة في أول الصف أشفقت، فتمتمت بكلمات جعلت الفران يقدم له ربطة، قال الختيار: "تنتين!".

ومضى عائدا إلى البيت.

في ناصيةٍ داخل "شارع نوري باشا" رأى، للمرة العاشرة، بُحيرة ماء. المصرفُ هنا مصطوم، وغَسْل سيارات المسؤول، المصفوفة بجوار الرصيف، غير ممتنع ولا منقطع.

قال في نفسه: المسؤولون لإن سكنوا بيننا.. لا يأتينا منهم إلا وجع القلب!

ودخل بيته بالخبز والدواء، وأغلق الباب وراءه، منعزلًا متوحّدا.. في زمن الكورونا"[١].

إن الأديب ابن بيئته، فكيف إن كان شخصًا طاعنًا في السن، عجنته خبرات الحياة وأعطته بعد النظر، والحديث يروج الآن عما بعد الجائحة، إنها حرب ضد مجهول، وضغط الانتصار فيها رهين بأمرين: الحماية من الوباء من جهة، وتأمين لقمة العيش من جهة أخرى. وهو ما يحاول رسمه في تصوير الغلاء وتصاعد أسعار الدواء وأحوال الناس في البحث عن الخبز وحرصه أن ينال عطف الناس ليتكرموا عليه بالمرور قبلهم.

غيّرت الجائحة نمط حياتنا، أحببنا أم كرهنا، وزد على ذلك سنيّ الحرب التي أنهكت الإنسان السوري، هذا ما يريد السباعي أن يلفت نظرنا إليه، خاصة مع الحصار الجديد، حصار كورونا.

حاولت تدويناته رسم المعاناة وقتامة الواقع، فكانت عباراته ملهمة، فالجائحة فترة تصالح الإنسان مع إنسانيته التي أوشكت على الاضمحلال، وفي هذه الأثناء لم يغب عن السباعي أن يُظهر فساد المفسِدين، وتضييع المسؤولين للوطن وتكبرهم على أهله، فدوّن ذات مرة يقول: "أمسِ.. كنت أسير على جانب من الشارع، متحاشيًا المشي على الرصيف، وبيدي أغراضٌ تسوّقتها من المتجر القريب خلسةً من وباء "الكورونا"!

فجأة.. توقفتْ بجواري سيارة فارهة، يقودها رجل كان كلّ ما فيه ينمّ على الغطرسة

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٦/٤٣٥.

والعنطزة، قال يخاطبني:

يا ختيار الختايرة! ليش ما تمشي ع الرصيف، الظريف النظيف، فتجنّبنا المزالقْ، وتخلّي مزاجَنا رايقْ؟

فساءني أن أتلقى هذا الكلام الفظّ، من رجل لا أعرفه ولا يعرفني، فجاريته بالفذلكة والحذلقة:

لأنّ كلّ الأرصفهْ، مهدومةُ الأرض منخسفهْ، محفّرهْ ومجعبَرهْ، فالمسؤولون يُبيّتون سياراتهم عليها، غيرَ سائلين عن البلد ومَن عليها! وإني لِكلالٍ عندي في البصرْ، أخشى أن أتعثّر فأقع وأنكسرْ... ثمّ ثمّ من أنت يا صاحْ، حتى تخاطبني بهذه اللهجة الوقاحْ! بالله عليك ألست ممّن يُبيّتون سياراتهم، على أرصفة بوّاباتهم!

فرأيته يُدير وجهه عنّي، ويدعس على البنزين هربًا منّي "[١].

تلهم الظواهر الاجتماعية وأزمنة الوباء المبدعين ليرسموا طرق الخلاص منها. والسباعي هنا، يرسم الخلاص بمواجهة فئة الطغاة، وهكذا كانت نصوصه في زمن الجائحة، في تنوعها، تعبر عن نزوع إنساني لا يخلو من تسجيل ذاكرة المعاناة بكل أحوالها وصروفها، جديدها وقديمها.

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٦/٤٣٣-٤٣٤.

الاهتمام بالشأن السياسي

يمكن وصف سرد السباعي السياسي بأنه السرد الذي يشتبك مع القضايا السياسية والحالة العامة لنظم السلطة الحاكمة، وتجليات أعمالها في المجتمع، كإدارة الشؤون وضبط الأوضاع الاقتصادية، والحفاظ على الحرية وحقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية ومراقبة الحياة التشريعية وسيادة القانون، من خلال معالجة أدبية وذاكرة تاريخية ضمن أطر اجتماعية متعددة.

اهتم السباعي بمختلف هذه المجالات، فكتب بيان بعض تفاصيل الأحداث السياسية في تاريخ سورية إلى جانب موقفه من النظام والثورة السورية، وتوقَّف مطولًا عند حملات القتل والتهجير، رافضًا ومحاربًا لها باللسان والقلم.

نشر السباعي بتاريخ ١٦/ ٨/ (٢٠١٦) أربع تدوينات قصيرة، تستخدم أسلوب الاستفهام المستنكر، بث فيها استهجانه لجميع أفعال النظام السوري ضد شعبه وسلوكه في قمعه، مستغربًا انقلاب الحال في الادعاءات والشعارات، بين مجاهد يريد تحرير القدس إلى قاتل يقتل داعميه ومحبيه ذات يوم.. وبين شعب نزح بمعظمه فلم يجد عند جيرانه من العرب سوى الأرصفة، بينما قدمت لهم أوروبا -بقوانينها- البيوت والمعاشات.

أليس غريبا جدًّا

أن تتولى قصفَ شعب

نيابةً عن نظامه

دولةٌ أجنبية[١]؟

أليس غريبًا جدًّا

أن يهجر "مجاهدٌ كبير"

حدود بلده المتاخمة للعدوّ

ويأتي بجحافله إلينا، ليقول:

تحرير القدس يمرّ من هنا؟[٢]

أليس غريبًا جدًّا

أن نصف سكان دولة

تُعدّ من أعرق أمم الأرض

ينزحون من أوطانهم

في مطالع القرن الحادي والعشرين

وعيونُ العالم، المنافق... تشهد؟[٣]

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٤/٣٢٦.

(٢) ينظَر من الكتاب: ٤/٣٢٦.

(٣) ينظَر من الكتاب: ٤/٣٢٦.

أليس غريبًا جدًّا

أن تَستقبل النازحين

"الأرصفةُ" العربية

وفي الغرب

لهم البيوتُ المكيّفة والمعاشاتُ المرتّبة؟[١]

ولو أننا رجعنا إلى أصل الحكاية السياسية لدى السباعي لوجدناه يواكب بسرده الحالة الديمقراطية منذ الاستقلال، فيذكر المواقف التي تظهر الحياة السياسية للبلاد إبان جلاء المستعمر، ويعلق عليها مقارنًا بها الحال المعاصرة والأسباب التي أفضت إليها.

دوّن السباعي قائلاً -في هذا الإطار- "تمنّى الطبيب الضابط السوري المتقاعد الدكتور أسامة باكير، في صفحته هذه الليلة آخر العام، وهو اليوم يداوي أحباءه اللاجئين السوريين وراء الحدود التركية، أن تعود سورية (٦٢ سنة إلى الوراء)، إلى العام (١٩٥٠) وإلى دستوره وأخلاق السوريين وقتها...

وإليه أكتب:

في ذلك العام الذي تشير إليه، يا دكتور أسامة باكير، (١٩٥٠)، أنت كنت في عالم الغيب، وأعلم أنّ مصدر إعجابك يعود إلى المتواتر من الأخبار عنه... وأما أنا فقد عشته، ابن

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٤/٣٢٧.

عشرين، انتخابات نزيهة لجمعية تأسيسية نظيفة، وضعت الدستور بديمقراطية نموذجية، ثم تحوّلت إلى برلمان...

أريد أن أقول: إنّ الذي أطاح بديكتاتورية حسني الزعيم وهيّأ هذا المناخ، هو العميد سامي الحناوي، الذي لم يختطف الحكم لنفسه، بل أتاح العودة السليمة لديمقراطية أمينة... لذلك عدَدْتُه في خاطرة لي سبقتْ، أنه واحد من أشرف الضباط العرب، وهو أولهم زمنيّا، يليه اللواء محمد نجيب، فالعميد عبد الكريم النحلاوي، وآخرهم في القرن العشرين المشير عبد الرحمن سوار الذهب... قاموا بانقلاباتهم للتغيير والتعمير وليس للخطف والعنف.

تحياتي لك، وأنت تسعف وتداوي اللاجئين وراء الحدود التركية. أنت طبيب عسكري شريف نعتزّ به"[1].

ثم أتبع السباعي هذه التدوينة بأخرى عن حالة العودة للديمقراطية في سوريا، ذاكرًا تفاصيل عن ضباط صححوا وضع البلاد بعد حكم الشيشكلي القادم لها بانقلاب قوي، فيقول عن (٢٥ شباط ١٩٥٤).. والعودة إلى الديمقراطية: "في "خاطرة" أمس (ديمقراطية ١٩٥٠) سمّيتُ أربعة ضباط عرب شرفاء. ولكن يتعيّن عليّ الإشارة أيضا إلى مصحِّحي الوضع في سورية عند فجر الخميس (٢٥ شباط/ فبراير ١٩٥٤)، ولم يكونوا واحدًا، بل ثلاثة:

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٤١٨/١.

العقيد فيصل الأتاسي رئيس أركان المنطقة الشمالية/ حلب، والعقيد أمين أبو عساف والمقدم كاظم الزيتوني رئيسا أركان المنطقة الشرقية/ دير الزور والمنطقة الغربية/ اللاذقية، الذين عَهِدوا إلى ضابط أصغر رتبة (النقيب مصطفى حمدون) لتلاوة «البيان رقم واحد» من إذاعة حلب، المعلِن عن التمرّد وانفصال المناطق الثلاث المذكورة عن حكم العقيد أديب الشيشكلي المتنصِّب رئيسًا للبلاد... وكان عذري في أني لم أضمّهم إلى الأربعة (والثلاثة من قبيلهم) أنهم جماعةٌ لا فرد واحد.

والحقيقة تقتضيني أن أنوّه بالحكمة التي بدرت في يوم التصحيح ذاك من الرئيس أديب الشيشكلي والمتجلّية في أنه - وقد فوجئ أو لم يفاجأ بهذا "الانقلاب" - لم يعمد إلى المقاومة والمقاتلة بل انسحب، تاركًا وراءه أحلامه، والوطنَ العازم على استعادة أيامه الديمقراطية.

حكايةٌ أحبّ أن أسوقها نكتةً في هذا المجال، أني عامئذ كنت طالبًا في السنة الأخيرة بكلية الحقوق بجامعة القاهرة، وأذكر أنّ عددًا من الزملاء الطلبة السوريين اجتمعوا ذلك المساء في بيتي في بناية الأوقاف بشارع الدقي بالجيزة، فرحين بما وقع في يومنا ذاك في ربوع الوطن. وقد فوجئنا بأنّ أحدنا (م.ه) أخذ يبكي مثل طفل... لماذا؟ قال إنه كان موعودًا من

النظام المنصرف بأنهم سوف يعيّنونه في "السلك الديبلوماسي" عند تخرّجه بعد أشهر! وهكذا، بالأُعطيات، بالوظائف، تشتري الأنظمة الديكتاتورية النفوس"[١].

يسلط السباعي في تدوينتيه الضوء على آلية الفساد الأهم -المحسوبيات والبحث عن الولاء لا الكفاءة- وآلية الانقلاب -القوة والاستهتار بإرادة الشعب- وآلية التصحيح عبر قهر التسلّط، من خلال منح الشعب حريته وتحقيق إرادته.

لم يكن السباعي رجلاً على هامش التعبير عن الرأي، وإنما كان رقمًا صعبًا في مواجهة الظواهر التي نخرت في جسد الدولة منذ مطلع شبابه، فانتقد الاستبداد والتأميم الجائر لأملاك الناس، والانقلابات العسكرية التي جاءت بالعسكر وأخمدت أنفاس الحراك المدني الديمقراطي، ولاقى جراء ذلك استبعادًا واضحًا ومُتَعمّدًا من المنابر الإعلامية ونشرات اتحاد الكتّاب العرب رغم أنه كان من مؤسسيه، ولم ينجُ من الاعتقال أيضًا، بل تعرّض له، شأن كثير من المثقفين المعارضين.

كتب يقول -عن زنزانته ذات النجوم الخمسة- "في أول يوم قضيته في الزنزانة، وكان مبتدأ «أربعينية» الشتاء، نمت فيه على البلاط، بطانيّة واحدة تحتي وأخرى فوقي وأنا في كامل ملابسي. دقّ عليّ الباب الحديدي عند الصباح السجان يسألني ما أطلب من طعام، فاستفسرته بسذاجة عما عنده، فأجاب بأنه سيشتري لي من عند البقال خبزًا وزيتونًا وجبنًا

---

(١) ينظَر من الكتاب: ١/ ٤١٩.

وبرتقالًا. فلما أعربت له عن أني لا أحس جوعًا، زمجر: «بتطلب، ولّا أدخل أعمل لك اللازم!» أي يضربني.

وللإيضاح كانت البطانيتان في منتهى القذارة حتى إنهما «متخشّبتان»... وقد عبّرت فيما بعد لإحدى الإذاعات الناطقة بالعربية عن شعوري في تلك اللحظة، قلت: «فكأنهم يريدون لسجين الرأي أن يموت من القهر والبرد والجراثيم!»"[١].

تناول السباعي سبب العنجهية العسكرية في سورية، ورأى في تدوينات عديدة، أنها لم تظهر إلا بسبب السلطة وسلوك سبل الانقلابات للوصول إليها، ويؤرخ لهذه الحقبة بتدوينته "[إنها الانقلابات، أيها الأصدقاء!] حيث يؤكد فيها -بلغته السهلة الجذابة- أن الانضمام للجيش كان حلمًا للشباب السوري في حلب إبان الاستقلال، إلا أن غطرسة العسكر لاحقًا نفّرت الناس من الانضمام إليه، فيقول:

"لم تكن للبدلة العسكرية من غطرسة عند تأسيس الجيش السوري بُعيد الجلاء. كنا نرى بحلب طلاب الكلية العسكرية يزورون بلدانهم في العطل الانتصافية، وهم يروحون ويجيئون ما بين شارع إسكندرون أوله عند سكة الترامواي، وبين متنزّه السبيل... كانوا شبابا سوريين مثل الورود، طيبين متواضعين، متخرجين من ثانوية المأمون، ينوون خدمة الوطن.

لكن منذ انقلاب حسني الزعيم رأينا السيّئين من لابسي البدلات العسكرية ينزلون إلى

(١) ينظَر من الكتاب: ١/ ٢٣٠.

الشوارع ويتعاملون مع الشعب بفظاظة. واستمر ذلك عبر الانقلابات المتتالية.

وقد لاحظت الضباط المصريين بالقاهرة، حين نزلت فيها خريف (١٩٥٠) طالبا بجامعتها، أمرَهم عاديا، يركبون الأوتوبيس بين الناس، ولا تبدو عليهم مظاهر العنجهية... إلى أن وقع انقلاب يوليو/ تموز (١٩٥٢)، وبدأ التعالي!

إنها الانقلابات، أيها الأصدقاء، والنفوذ الذي يفسد النفوس "[١].

وحين جاء حكم البعث رأى السباعي حكمه شرًّا يملأ المدى، وكتب فيه العشرات من التدوينات، سواء في تعامل السلطة مع حالة الانتفاضة الشعبية ومفرزاتها بعد (٢٠١١) أو في أطوار حكمه السابقة وتدخلاته في دول الجوار.

كتب ذات مرة قائلاً:

"في آخر العام (١٩٧٧) زرت - وأنا في باريس - أحد أشقائي في عاصمة ألمانيا الغربية، فحدثني وزوجته السورية عن أنهما شاهدا في التلفاز الألماني ريبورتاجا عن «مجزرة تل الزعتر» في بيروت... فعجبا من أن يُمكّن الوجودُ السوري في لبنان، أناسا يقومون بقتل الفلسطينيين العزّل في مخيّمهم... وقالا إنهما أخذا يبكيان، وهما أمام التلفاز، مثل أطفال فقدوا الأحبة!

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٥/ ٤٢.

ترى، كم ذا من الناس، من العرب، من سكان العالم، سوف يبكون في المستقبل وهم يشاهدون صور ما يحلّ بنا من دمار، وقتل وتمثيل! تضاف إلى ذلك مجازر في مخيم اليرموك الفلسطيني بدمشق.

لماذا يصرّ النظام على أن يحملنا على البكاء مثل أطفال فقدوا الأحبة؟

أهي رسالة يريد أن يؤديها لنا، وللعالم![١]"

وربط بين هذه المجازر التاريخية بالمجازر المعاصرة له، إذ إن القيام بها لم يكن خطأ عابرًا وإنما سياسة مرسومة، ومن هنا ناشد أبناء شعبه موضحًا لهم هذه الحقيقة، قائلاً لهم:

"لتعلموا، أيها المطالبون بالحرية والعدالة والعيش الكريم، أنّ المجازر التي ترتكب في الآونة الأخيرة، مخططٌ لها وليست بالأمر العارض.

إنّ الشبّيحة، بعد أن أخفقوا في القضاء عليكم ورأوا انتشار حركتكم، عمدوا إلى أن يباغتوا القرى الآمنة والمزارع الوادعة في أحضان الطبيعة، مزوّدين بالنار والسلاح الأبيض، يذبحون الصغار أمام أعين الكبار، ويُصفّون الآباء والأمهات، ثم يشعلون النار في الجثث وفي البيوت والمحاصيل الزراعية... يقصدون بذلك استفزازكم وجرّ أقدامكم إلى اقتتال طائفي شنيع، وعندئذ يرفعون الصوت مخاطبين العالم: «انظروا.. إنهم يقتلون الأقليات!!».

(١) ينظَر من الكتاب: ١/ ٢٧٤.

إنّ أروع ما في انتفاضتكم، أيها الشعب العريق، أنّ يدًا منكم لم تمتدّ بالأذى إلى أيّ من الأقليات، الذين يشكّلون في طول البلاد وعرضها جزءًا من نسيج المجتمع، ونحن جميعا نستظلّ قيم حضارات تليدة تعاقبت على بلاد الشام منذ فجر تاريخها، بدءًا من أوغاريت وإيبلا، مرورًا بـ يوحنّا فم الذهب، وهشام بن عبد الملك، وصلاح الدين الأيوبي، إلى سلطان الأطرش وفارس الخوري ويوحنّا إبراهيم".

وهكذا تجلت في هذه التدوينة، خيوط الهوية الذاتية، التي ينسج السباعي بها موقفه الحضاري من أبناء وطنه، فالانتفاضة ليست بحثًا عن التخريب، إنما هي رفضٌ للظلم ودفاع عن النفس في ظل الدماء السيالة بلا توقف..

لم يكن السباعي بعيدًا عن أجواء المطالبة بالحرية، ففي عقد الثمانينات اعتُقِل وزُجّ به في السجن، واستدعى هذه الحادثة في الثورة، ليدلل على أن النظام لا يهتم للرأي وأهله: "يوم ألقيتُ قصة من قصصي الناقدة في محفل ثقافي عامّ، فإنهم سمحوا لأنفسهم بأن يقتادوني لدى انصرافي إلى السجن، ونمت في عزّ الشتاء على البلاط، بطانية واحدة تحتي وأخرى فوقي وكانتا في منتهى القذارة، فقلت فيما بعد بإحدى الإذاعات الناطقة بالعربية: «فكأنهم يريدون لسجين الرأي أن يموت من القهر والبرد والجراثيم! »[1].

(١) ينظَر من الكتاب: ١/ ٢٣٠.

وقد بين السباعي أن الثورة لم تكن ثورة أكثرية على أقلية، وإنما ثورة مظلوم على ظالم، "إنْ قلنا "أكثرية عربية"، فإنّ هذه تنصرف إلى المسلمين بطوائفهم وإلى المسيحيين بطوائفهم أيضا.

وإن قلنا "أكثرية مسلمة"، فإنّ المسلمين يتوزّعون بين عرب وبين إثنيّات قومية إسلامية شتى.

فإن قلنا "مسلمون سنّة"، فإنّ هؤلاء قد توجّهوا إلى مختلف المذاهب السياسية، من إسلاميين وعروبيين وسوريين وشيوعيين.

إنّ المجتمع السوري في بلاد الشام يتكوّن من فسيفساء تستحقّ مع الإعجاب العنايةَ والرعاية، لندرتها في تاريخ الأمم... وهي التي تشكّل اليوم الأكثرية الساحقة المطالبة بالحرية[١].

نعم... أنا عربي، سوري، مسلم، سني. ولدت في زقاق الزهراوي بحيّ «وراء الجامع» بحلب، الذي سبق أن أقام فيه «سليمان بن عبد الملك» و«عمر بن عبد العزيز» قبل أن يصبح كل منهما خليفة من خلفاء بني أمية العظام.

اكتشفت أني من «الأقليّة»... كيف؟

---

(١) ينظَر من الكتاب: ١/ ١٨١.

ففي الوظائف التي شغلتُها على مدى خمس وعشرين سنة في وزارات الدولة (من ١٩٥٧-١٩٨٢)، كان يمكن لأي «بعثي» مهمّ أن يكتب بحقي تقريرا سريّا ويقترح تسريحي من الوظيفة الرسمية.

وعبثًا كنت أحلُم بأن «يستكتبوني» في وسائل إعلامهم لأعيش من قلمي جزئيا كما يقع للمحظوظين منهم.

وفي اتحاد الكتّاب (وأنا عضو مؤسس فيه منذ ١٩٦٩)، لم يوافقوا على أن ينشروا أيًّا من مؤلفاتي (البالغ عددها اليوم أربعين كتابا، وقد تُرجمت بعض قصصي القصيرة وكتبي إلى لغات شتى، عشر لغات).

إن القضية الملحة برأي السباعي، هي التأكيد على ثورية الانتفاضة في سورية، ونفي أي اتهام لها بالإرهاب أو الفتنة الطائفية، فـ "ليس ما يقع اليوم في سورية "حربًا أهلية"، وإنْ زعم الإبراهيمي ذلك، فهذه تقتضي أن يحترب الأهالي ضد الأهالي، وهو ما تنفيه الوقائع على الأرض.

وكذلك تجاوَزَ ما يقع أن يكون "انتفاضة"، لأنّ المنتفضين امتشقوا السلاح، بعد ما أباح النظام سفك دمهم، واستباح حتى المقدسات، وأثخن فيهم فهو يدمّرهم تدميرًا.

وأرى أنّ ما يجري قد تحوّل إلى "حرب"، أجل حرب، لكنها حرب بين النظام من جهة، وبين فصائل من الشعب تتزايد أعدادها، وتحوز يوما بعد يوم مساحات، وإن كان الشعب يدفع ثمن ذلك غاليًا وغاليا جدا.

وهي – كما نراها – حرب ضَرُوس، شديدةٌ مهلكة، للناس ولمقدَّرات الوطن. نقرأ في وقائعها أنّ النظام غير قادر على دحر الثائرين فهو يسجّل تراجعًا وخسائره تتعاظم، هذا إلى أنّ الشعب الثائر يستحيل عليه النكوص، فمطلبه، الواضح مثل عين الشمس، هو الحرية، بعد جوع إليها اشتدّ وامتدّ عقودا من سنين.

إنها، بالاختصار، معركة "كَسْر عَظْم"، ينتصر فيها من يقوى على الصمود فيكسر عظم الآخر.

ومؤكَّدٌ أنّ الشعب سوف ينتصر. فلم يحدّثنا التاريخ مرة أنّ شعبا باد وبقي الحاكم، بل تبقى الشعوب ويمضي حكامها، مستبدّين كانوا أو عادلين"[١].

لم يكتفِ السباعي من السخرية من منطق النظام الراغب بإلصاق الثورة بتهم عديدة، كالإرهاب والتكفير وفتنة الطوائف، وإنما امتد غضبه وانتقاده كلّ من يصمت عن المجزرة الحاصلة، ويغيّب قلمه عنها، وقد نادى المجرم الفاعل، والمجرم الصامت قائلاً:

---

(١) ينظَر من الكتاب: ١/٣٤٦.

"أيها الشبّيح، الذي يغتصب امرأة في وطنه، ويذبح طفلا بسكين، ويحرق المحاصيل الزراعية... هل تعلم أنك تسجّل من الفظائع ما لم يفعله عدو بعدوه؟

وأنت أيها المثقف، الذي يشاهد هذا ثمّ يدع قلمه في صمته... هل تعلم أنك ترتكب أكبر مجزرة في تاريخ الفكر؟... فأنت والشبّيح سواء"[١].

كثيرًا ما وضع السباعي الصدع بالحق على قائمة أولوياته، وجعل لها نصيبًا كبيرًا في تدويناته، "ففي تبنّي النظام شعار «المقاومة» يطلقه منذ أربعة عقود من الزمان، تمنّيت وتمنّى الناس كلُّهم لو أنه أطلق مرة واحدة رصاصة باتجاه العدو... إلى أن فاجأنا بإطلاق النيران الكثيفة على الداخل... فعرفنا كم ذا هي البوصلة معطلة عنده!".

و"حين كفّ النظام، أو خفّف من القول عن «العصابات المسلحة»، فإنّ محاوِرًا، ينتمي إلى قطر عربي، جاء قُبيل ساعات يرفع عقيرته مؤكدًا أنّ من يقصف الأبنية ويُسوّي البُنى التحتية بالأرض، هم العصابات المسلحة.

فأثبت أنّ من الأبواق من ما يزال على قيد الحياة"[٢].

وكان له موقف صلب في مواجهة كل إسفاف في تناول الثورة وأخبارها، ولعل أوضح تدويناته في هذا الباب ما كتبه:

---

(١) ينظَر من الكتاب: ١/ ٢٤٦-٢٤٧.

(٢) ينظَر من الكتاب: ١/ ٣١١.

"ما زلتم تتّهموننا بأننا نستقي معلوماتنا من "القنوات الأجنبية المعرّبة" وأنتم مرتاحون لهذه "الأكذوبة" التي تمنحكم الإحساس بـ"الطهارة": فأنتم وطنيون شرفاء واعون، والذين يموتون تحت القصف سذّج مخدوعون!

يأيُّهذا القاعد في وطنك، بعيدا عن بلاد الشام التي منها انطلقت جيوش الفتح يوما إلى بلادك فعرّبتها وقدمت لها الإسلام دينا... لتعلم أننا نستقي معلوماتنا مما يقع حولنا وفوق رؤوسنا، وليس من أي مصدر آخر.

مدينتي حلب، لأن المقاومين استولوا على مساحات فيها، فإنها استحقّت أن تتلقى براميل القذائف، تلك التي تقوّض البنايات، وتحيل الأحياء السكنية إلى ركام. الناس اليوم ينامون على الأرصفة، وفي مداخل المدينة، وفي العراء... هل فقدتم الرؤية وحاسة الاتجاه؟ المواطنون يُقتل منهم كل يوم المئات، بينهم أطفال يذبحون بالسكاكين، بالسكاكين... هل تفهم معنى أن يذبح طفل بسكين، أيها الوطني الغيور... أنتم يا من بأيديكم سَمَلتم عيونكم من محاجرها فغدوتم مكفوفي البصر والبصيرة. نصف أهلي بحلب غادروها، هائمين على وجوههم في كل اتجاه: أبنائي، أحفادي، إخوتي (أنجب أبي تسعة عشر من البنين والبنات)... هجّوا إلى دول الخليج ومصر وألمانيا وفرنسا والولايات المتحدة... وأنت ومن معك، تتاجرون بنا، تبيعوننا وطنية... أننا نستلهم الناتو! إنّ هذا منكم لأمرٌ قد تجاوز الجهل إلى الجريمة المتعمدة، انحدر إلى حدّ العار! إن كنتم لا تستطيعون العون، وغير مهيّئين للفهم

والاستيعاب، فالزموا الصمت. اعذرني، أخي... أنا لا أكتب لك بالمداد... بل بدم القلب أكتب! "

أنهى السباعي تدوينته بدم القلب.. وما أقساها من تدوينة، أن يشكو التسعينيّ تفرق الأهل من حوله، وكثرة الموت، وذبح الأطفال، وسخرية الأبواق من دماء أهله ووطنه..

لم يغب عن السباعي أن يظهِر لنا الكثير من يوميات الحرب، وقد أشرنا إلى العديد منها سابقًا، ونشير هنا إلى تدوينة له تصف بعض أحوال القصف التي لا تكاد تتوقف، فيقول: "يتصل بي صديق من الكتّاب. نقضي معا بُعيد الإفطار سويعة في «حديقة ابن سينا» العامة (في منتصف شارع أبو رمانة في العاصمة) تسمع ونحن في الحديقة دويّ انفجار، فلا يذهب بنا الفزع أي مذهب، نتنبّه قليلا، ثم نستأنف السمر! يعيش الناس في أرجاء الدنيا أفراحهم اليومية، ونحن في سورية نستمع إلى القذائف تُطلق من قمة قاسيون على أماكن في أحياء عاصمة الأمويين... تدكّ بنايات، تقضي على من يفيء إليها من حرّ النهار في هذا الشهر الفضيل أو على من يحاول غمض العينين في هزيع الليالي... ثم يمازحنا النظام: إنها عصابات مسلحة، ولا نضحك للنكتة.

ملاحظة: ترامى إلى سمعي، وأنا أكتب هذه الكلمات، دويّ ثلاثة انفجارات! "[1]

---

(١) ينظَر من الكتاب: ١/ ٢٧٤.

سردية الاعتراف

يمثل أدب الاعتراف -في خلاصته- إظهارًا لكوامن النفس، ونقلاً لوقائع خاصة إلى نطاق عام ليشهدها الآخرون، فينكشف ما توارى في طيّ الأيام أمام أعين الناس، وهكذا يستعيد الأديب بهذه الاعترافات لحظة الحقيقة الماضية والحاضرة والمستقبلية، بوساطة فنية، تنير للقارئ والأجيال القادمة دروب التطور الروحي والفكري التي مرّ بها.

بالرغم من أهمية الاعتراف، إلا أنه لم يتميز بوصفه نوعًا أدبيًّا في الوسط العربي على العموم، مقابل تطوره البالغ في الجانب الأوروبي وجوانب أخرى من العالم، فنرى على سبيل المثال الاعترافات لجان جاك روسو، كنقطة انطلاق لهذا الفن في الغرب، ولا يعني هذا أن العرب لم يعرفوا الاعتراف والبوح به، ففي ثنايا الأدب والكتب صور اعترافية، نراها جلية وواضحة، كما لدى أبي حيان التوحيدي في رسالة الصداقة والصديق، واعترافات الغزالي في المنقذ من الضلال... إلخ، إلا أن هذا النوع من الاعتراف لم يتحول إلى نمط يكتَب فيه ويتطور.

إن أدب الاعتراف فعلٌ إيجابي متفاعل مع تفاصيل الواقع وخفايا الذات وكوامن الماضي، ومن هنا فإن وجوده في سياق ثقافي واجتماعي وسياسي عربي لا يمتلك تقاليد الاعتراف، يجعلنا نبحث عنه لنتلقفه، ولا سيما إذا كان صادرًا من شخص واسع الاطلاع والثقافة والتجربة -كما هو حال السباعي-.

إن الاعتراف يغدو مجديًا ذا قوة متصاعدة حين يتحول من حالة فردية إلى اعتراف في سياق الكشف عن خلل المجتمع وبواعث النهوض والقوة فيه، حينها يأتي الاعتراف مصحوبًا بسياق عام، تصطرع بداخله نظم الأخلاق والسلوك والتعليم والتربية والأعراف، ويقف عند التكوين النفسيّ للمجتمع، ويسعى للتغلب على معوقات التنشئة القويمة، ومعضلات التربية السليمة.

استطاعت مجموعة فيسبوكية إقامة حوار تحت اسم "كرسي الاعتراف" مع عدد من الشخصيات بين أعوام ٢٠١٢- ٢٠١٥، وقد كان فاضل السباعي رحمه الله أبرز هذه الشخصيات، حيث استمر الحوار المكتوب معه على مدار عدة أيام، فيكتُب الشخص/عدة أشخاص متتالين سؤالًا له، ومتى ما تسنى الوقت للمحاوَر فإنه يجيب عن الأسئلة.

تنوعت الأسئلة التي تريد من السباعي الاعتراف، سواء كان بالماضي أم الحاضر، أم الاعتراف بآراء معينة وحوادث خاصة، وهكذا كان، فقد أدلى السباعي في الحوار بما يشد القارئ ويدفعه لقراءة الحوارات بأكملها.

في أحد الأسئلة نرى السائل يقول: متى يكون قلم الكاتب أمضى من سيف المحارب؟

يقتنص السباعي السؤال، ليؤكد على القيمة التي يراها أساسية في تطور البلدان، فقال: "قلم الكاتب أمضى من سيف المحارب، نعم، شرط أن تكون المناظرة، أو المغالبة، في مناخ

ديمقراطي، وإلا فالسيف يغلب، وإن كان النصر أخيرًا أخيرًا للقلم"، وهكذا فالنصر وإن كان للسيف ساعة فإنه لا بد أن يعود للقلم.

في سؤال آخر، قدم المحاور بقول: لِمَ لم تكن الفترة الزمنية بين (١٩٤٨) و(١٩٦٣ هادئة من وجهة نظر مواطن مثقف مفكر، هل فقدنا الوطن بعد كل ما حصل؟ والشكر لرحابة صدرك.

كان جواب السباعي، كالآتي: "أنا "شامي" بالمعنى الواسع للكلمة، فجدي جاء من حمص إلى حلب في أثناء حرب السفر برلك (١٩١٥) وبها استوطن، ثم فيها ولدت، وعشت طفولتي وصدرا من شبابي، وفي عام (١٩٦٦) انتقلت بوظيفتي الرسمية إلى دمشق وفيها بقيت. والظرفاء من أصدقائي يمازحونني: أنت جمعت المجد من أطرافه، ونضحك!

تسأل عن المدة من (١٩٤٨) إلى (١٩٦٣) وتقول إنها "لم تكن هادئة من وجهة نظر مثقف مفكر"! أنا أرى أنها كانت منذ الاستقلال، مرحلة مخاض لديمقراطية تتكوّن، ثم إنهم ما تركوا الجنين يرى النور. والديمقراطية لا نتلقاها مكتملة النمو، لكن نرعاها بنور العيون. الثورة الفرنسية (١٧٨٩) ظلت الحرية فيها تصارع الحياة وما انتصرت إلا عام (١٨٧٨) فيما سموه "الجمهورية الأولى".

لقد كان السباعي واضحًا، فالمرحلة مرحلة تكوّن، والجنين لا بد له من وقت ليتشكل من خلاله، لكنهم -وهو يقصد حزب البعث ومن سبقه من العسكر كما أشار مرارًا في تدويناته- لم يسمحوا للجنين بأن يولد.

وقد تبادر أثناء الحوار سؤال عن روايته "ثم أزهر الحزن" التي دخلت وجدان القرّاء وأصبحت جزءًا من صور التاريخ الاجتماعي لمدينة حلب؟

فأجاب: "فيها نوعان من النساء، المرأة المكافحة والمرأة الحالمة ...برأيك أيهما تترك بصمة في حياة الرجل عموما وبحياة الأديب خصوصا..

أجيب عن سؤالك بأني أردت للأم "كوثر" أن تكون مثالا للمرأة المكافحة، الصابرة، التي حققت النجاح... وكانت ابنتها "هالة" - التي تولّت السرد والرواية - مثالا للفتاة الحالمة، التي خاضت تجربة الحياة، مع فقدان الأب، دراسةً وعملاً وحبًّا، وكان لها من المعاناة ما جعلني أسمّي الرواية "ثمّ أزهر الحزن" وكل من الأنموذجين يترك في نفس القارئ أثرًا وألقًا.

وشكرا لاطلاعك. وسابق معرفتك بهذه الرواية، التي كتبتها في شتاء (١٩٦١-٦٢) قبل مولدك، يا دكتورتنا العزيزة".

لقد كانت رواية "ثم أزهر الحزن" إحدى أهمّ الروايات التي شكّلت صورةً عن تعقيدات المشهد في حلب إبان حقبة الخمسينات وصولًا لمرحلة السبعينات، فجعل أحداثها

واقعية في قالب فني، يمتلئ بحيوية الأحداث والتغلغل في كوامن الشخصيات، بين انفعالاتها وهزائمها وعزمها وجشعها وصبرها وأنانيّتها؛ وهكذا أكد لنا السباعي نظرته المتفائلة بالتغيير، عبر العزم والإصرار والكفاح.

فالكاتب يؤكد لنا في هذه الرواية نظرته المتفائلة للحياة، وقدرته على سبر أغوار النفوس وخباياها، ولاسيما النفس الأنثوية؛ حيث استطاع السباعي أن يعبر بصدق عن مشاعر الأنثى ويتغلغل ببراعة في أعماقها، ويصف ما يختلج في نفسها من صراعات، وكفاح الأم التي قضت الليالي تعمل بالخياطة لدرء الحاجة عن نفسها وعن بناتها، وتصونهن بالاستقامة والكرامة والحفاظ على القيم، وهكذا كانت هذه الرواية مشروع انتصار، فبدأت بالموت وانتهت بالحياة وسط زحام الآلام.

وفي خضم الأسئلة، سعى المحاورون لاستنطاق السباعي حول أحواله الشخصية، فكان السؤال: "هل لك هواية لا يعرف بها إلا أهل بيتك؟" كاشفًا عن أجزاء من حياة السباعي الشخصية الخفية عن عموم الناس.

حيث أجاب:

"فكرت. لأني سكنت، منذ (١٩٦٦)، بيتا ذا حديقة، فقد تعيّن عليّ أن أعتني بها وأنال شيئا من علم الزراعة. مثلا: متى يزهر الكبّاد والنارنج، يَعقد، يبدأ بالاصفرار، كيف يصنع منه المربى... ما يعتري شجره من أمراض، ومكافحتها...

وهواية أخرى فرضتها عليّ ظروف الوحدة في البيت، بعدما ذهب الذين يعاش في أكنافهم... تعلمت شيئا من أصول الطبخ. وكان آخر ما كتبت في ذلك من الخواطر، هذا الشهر أيلول سبتمبر، أني أتقن حفر الكوسى والباذنجان، مع منع أهلي هنا من أن أتولى طبخهما، مع أنهم رأوا الثمار محفورة بإتقان. إن لم تقرأ خاطرتي هذه في "للشباب رأي"[١] فابحث عنها الآن!"

وهكذا كشف لنا السباعي عن جانب إنساني بديع في حياته، هواية العناية بالزرع والبستنة، فإن كان الأدب والكتابة حاجة يومية لتستمر حياة السباعي، فإنه كذلك أوجد عادة يومية تبعده عن العادات القلقة الأخرى، كالعزلة والتدخين، وعندما يشعر السباعي بحاجته إلى الهدوء فإنه يركن إلى أوراق من نوع آخر، إنها أوراق الأشجار والأزهار، وهكذا ينتقل من عالمه الأدبي إلى عالم رائق بالخضرة والألوان الساحرة.

وقد أكد لنا هذا الشعور في إجابته عن سؤال: ما مدى التأثّر والتأثير بين أدبك وكتاباتك والمنزل الذي كنت تسكنه في دمشق؟ حيث من المعلوم أن السباعي كان يسكن بيتًا فيه فسحة واسعة تمتلئ بالأشجار وأنواع الزهر، ولعل أحبها إلى قلبه، شجرتا الليمون والكبّاد. وهنا يجيب السباعي:

---

(١) وهي مجموعة أنشأها د. أحمد عمر عام ٢٠١٢م، وفيها دارت حوارات الأصدقاء مع فاضل السباعي.

"يُعيدني سؤالك، يا عبد الرحمن خير الله، إلى ما قبل أربعين سنة، حين خطر لي أن أجيب عن مثل تساؤلك هذا: ما التأثير، ما الصلة بين البيت المريح (أو الحديقة المزهرة) وبين الأدب الذي يكتبه ساكن البيت، وأذكر أني سمّيت المقالة "الزهر والأدب"، وقُدّمت في إحدى الإذاعات العربية.

ومع نسياني بمرور الزمن ما كتبت، وافتقادي أوراقي وأنا في مغتربي، أستنطق الآن النفس، فأجيب بأنّ الكاتب إذا ما نزل في مكان مريح أتيح له أن يبدع أدبا سائغا، ولكن ليس العكس صحيحا، فساكن الكوخ يبدع، لأنّ مردّ الإبداع النفسُ لا المكان، وكذلك نزيل السجن، ومثال ذلك الفرنسي جان جينيه، ولا أنسى كتاب "ابن الرومي، حياته وشعره" الذي ألّفه عباس محمود العقاد وهو في السجن (في ثلاثينيات القرن الماضي) بعد أن عاب الذاتَ الملكية (سُجن ولم يُجهَز عليه!).

وأذكر أني حين نزلت لوس انجلوس قبل عشر سنوات، عند ابنتي سهير وزوجها بشار، آثرت أن أتردّد على المكتبة العامة في الحي، لكي أُلزم نفسي الجلوس خمس ساعات في بعض أيام الأسبوع، وكان أن "أنتجت" عشرة نصوص أحسبها من أجود ما كتبت".

وهكذا يتبين لنا أن الإبداع ليس محض مكان جميل، وإنما نفسٌ تندفع بمواهبها لتفتق الإبداع فتقًا، وهكذا حين تجتمع الهمة والموهبة والمكان، فإن ذلك سينتج الكثير من النصوص الجيدة، كما أشار السباعي في جوابه الآنف.

إلا أن هذه الخضرة ليست وحدها ما يدفع أدب السباعي للذهاب بنا بعيدًا، وإنما ثمة سبب آخر.. إنه القراءة، وهو ما أظهره حين سئل عن أهمية قراءة الكتب في حياته، إذ قال: "الكتاب بارجة تنقلنا بعيدا"، قل: طيارة. بعيدا في المكان وبعيدا في الزمان. وقد حملني الكتاب إلى التاريخ الأندلسي وما أعادني، وهناك غرقت في حب أدب الأندلس، وتاريخه، وتاريخ الطب فيه وخاصة "أسرة زُهْر" الإشبيلية، ولا تنس المجلات الثقافية أيضًا. فهي بحر آخر من المعرفة".

القراءة -بتعبير السباعي- بارجة تنقلنا بعيدًا، فتأخذ الناس بين مختلف العوالم؛ لتتوهج أفكارهم عند ينابيع الحكمة والإبداع، فتنقذه من مخاطر المحو، ومع مرور الزمان، واستمرار فعل القراءة يصبح القارئ إنسانًا مختلفًا في أعماقه، خاصة بعد تنقله في بارجة الكتب بين عوالم لا تكاد تنتهي.

إن الوصول لحالة الإبداع لا تستند إلى القراءة فحسب، بل لا بد لها من تربية وتنمية للمواهب من قبل الأهل ومحيطه، فبحسب ما يراه السباعي فـ "إنّ تربية الأبناء لا تقتصر على همّة أهليهم، فإنّ رفاق المدرسة، إنّ الجيران، إنّ أولاد الحارة، يُسهمون في "التربية" أيضا، شئنا، عرفنا، أم لا! وبالأمس جاءنا التلفزيون، نافعا وضارّا، واليوم شبكات التواصل الاجتماعي، فانتقصت هذه كلّها من دور البيت في التربية... ومع ذلك يجب أن يكون للأهل دور في التربية كبير".

لم يقف اعتراف السباعي عند هذا الحد وإنما استكمل قائلاً:

"عن دور أهلي في تنمية مواهبي الأدبية، لا تسألي، أو اسألي أجبْك. ما كنت أجد عند الأب اهتماما بما أقرأ وأكتب. كان لأبي وعمّي محلّ تجاريّ في "سوق المدينة" الشهير بحلب، وفي هذا السوق نشأت، وتعرّفت على الناس..

لما تخرّجت في الجامعة، وغدوت محاميًا متمرّنًا، كانت تُراودني في بعض الأماسي أفكارٌ تُملي عليّ الكتابة، فكنت أتخلّف عن الذهاب مساءً إلى مكتب المحامي الأستاذ الذي أتدرب عنده. ويعود أبي إلى البيت من عمله متعبا - وهو أب لتسعة عشر من البنين والبنات! - يرسل نظره نحو غرفتي، فيتراءى له النور الخافت المنبعث من فوق الطاولة، ويدرك أنّ ابنه "هرب" من مكتب المحامي، فيفتح الباب عليّ، يراني مكبًّا أكتب، فتأتيني منه قولته التي لا أنساها: «حاجتَكْ قصص ودواوين، روح شفلك شغلة تاكل منها!»، فكان وجعي من هذه العبارة لا يضاهيه إلا إدراكي لحقيقتها! مواقفه هذه كانت عندي من عوامل التحدّي! رحم الله والدي، بقدر اعتزازه بي كاتبا بعد أن امتلكت القلم".

كانت هذه الاعترافات بوابة لنا لنرى السباعي الكاتب المناضل، حيث يتوق للحرية ويعاني من آثار الظلم والتهميش، فيقول عن معاناته:

"عانيت، بصفتي كاتبا: في الوظيفة من الحساد، مع ما تلقيت من حماية الطيبين، ولا تنس التحاسد بين الكتّاب والأدباء، ولا بأس من أن أشير إلى من أسميه "عبقري القصة

السورية" (ز.ت) الذي بذل قصارى جهده ليحول دون نشر اتحاد الكتّاب، الذي أنا فيه عضو مؤسس، لكتابي "حزن حتى الموت" على مدى عام وعامين وزيادة، ما حملني على أن أمضي به إلى لبنان فطبع في بيروت ثلاث طبعات، والرابعة في دار النشر التي أنشأتها بدمشق، وكان الإصدار الخامس في باريس باللغة الفرنسية.

والنظام الذي ما كان ليرتاح لكلمة حق يجهر بها ضميرٌ حر، والاعتقال الذي طالني، ليس بسبب السياسة، لكن للأدب الذي يدافع عن حرية الإنسان المقهور".

هذه المعاناة كانت سببًا له في تصوير مفهوم الإرهاب على نحو غير معتاد، فحين سئل عن معاناته مع الإرهاب قال: "وتعريف الإرهاب طويل، مثل تاريخه في العالم. ولكني أشير إلى الجانب الذي عانيت منه:

- أقدّم مخطوطات كتبي إلى المؤسستين الثقافيتين الكبريين في وطني، فلا تنشر لي أيهما نتاجي الأدبي.
- يرشّحون لتمثيلنا في المؤتمرات الأدبية في الداخل والخارج من لا تصل قاماتهم إلى كتفي، ويصرفون النظر عني.
- تهمل وسائل الإعلام الحديث عن أعمالي...
- أقف محاضرا في مدرج في كلية، فيقتادونني إلى الاعتقال لأني قرأت في نقد الحياة ما لا يريدون إفشاء سرّه..

أحيانا أفرح لتعدد الدول العربية، فإنهم إن اضطهدوني هنا فهناك حكومات، أنظمة، تقدّرني. نشرت في أشهر المجلات ("العربي" الكويتية مثلا) ونشرت كتبي في أشهر دور النشر العربية (دار المعارف بمصر، سلسلة اقرأ)، ترجمت بعض قصصي إلى عشر لغات، وأعدّت أطروحات في جامعات الغرب (ومنها موسكو) عن أعمالي... وعين الشانئين تنظر!

باضطهادهم لي أعلَوا قامتي وما خفضوها، على حين انخفضت قامات كثير من الموالين، لسبب بسيط: أنهم تجرّدوا من الوفاء لقيم الحق والحرية!"

"لم ينصفني النقد في سورية، وكبيرهم - الذي ملأ الساحة النقدية مدلّلا لبعثيته الجارحة (ح.خ) - كتب دراستين عن عملين لي "ثم أزهر الحزن" و"الظمأ والينبوع"، وأجحف وما أنصف! وقلة هم الذين أنصفوني في وطني وأدين لهم بالشكر الجزيل، وبعض الحمقى عزفوا حتى عن ذكر اسمي بين كتاب القصة والرواية... ولكن هذا التوجه البغيض انحسر بمرور الوقت لصمودي، حتى إن بعضهم يأتيني معتذرا ومنهم متذلّلا! ولكني حظيت بحصاد جيد من النقاد العرب، ومنهم من ذكرته الأكاديمي المصري "د حلمي القاعود"، هذا إلى أن النقد مرهون بأمور معقدة لا مجال للتوسع فيها هنا".

وبقي للسباعي حلم اعترف أنه يتمنى تحقيقه:

"نعم، يا نور، لديّ قصة ما زلت أحلُم بأن أكتبها كاملة: سيرتي الذاتية، التي أراني "أبعثرها" غير آسف في إجاباتي هذه للأصدقاء، وفيما أنشره كل يوم على جدار صفحتي!"

ولعلنا، بهذا الجهد، نجمع شتات أعماله التي ستصوّر للناس روعة قلمه وقلبه وحياته..

الأديب السياسي

الخضرمة الفكرية والسياسية

يحاول المرء أن يستدعي مصطلح (الخَضْرمة) في مقاربته لمدونة السباعي السياسية، هذا المصطلح الذي يعني حركيَّة الإنسان بين زمنين، وهذه الحركيَّة لا تعني الزمن بصفته الفيزيائية، بل التحولات الفكرية التي تطرأ فتنسخ السابق، وتؤسس للاحق جديد، وفي كثير من الأحيان تكوِّن قطيعة كاملة بينه وبين الزمن المنصرم؛ فالشاعر الذي عاش في الجاهلية، ثم انتقل إلى عصر الإسلام تعرض لتغييرات حادة؛ إن على مستوى الفكر، وإن على مستوى السلطة الزمنية الجديدة؛ فقد تحولت العرب من قبائل متفرقة إلى التوحيد تحت راية النبوة ومن ثم الخلافة، ثم تأسست بعد ذلك مفاهيم فكرية وجمالية تخص الحالة الإبداعية، فكانت المؤثرات الإسلامية واضحة في قصيدة عصر صدر الإسلام، وينطبق هذا الأمر أيضاً على من عاش في حقبة الأمويين، ثم انتقل إلى عصر بني العباس، و قد أُطلق على بشار بن برد على سبيل المثال لقب: (آخر القدماء وأول المحدثين)؛ فبشار الذي قال في مدح مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية:

جَفا ودُّهُ فَازوَرَّ أَو مَلَّ صاحِبُه ... وَأَزرى بِهِ أَن لا يَزالَ يُعاتِبُه

خَليلَيَّ لا تَستَنكِرا لَوعَةَ الهَوى ... وَلا سَلوَةَ المَحزونِ شَطَّت حَبائِبُه

شَفى النَفسَ ما يَلقى بِعَبدَةَ عَينُهُ ... وَما كانَ يَلقى قَلبُهُ وَطَبائِبُه

فَأَقصَـــرَ عِـــرزامُ الفُـــؤادِ وَإِنَّمـــا يَميـلُ بِـهِ مَـسُّ الهَـوى فَيُطالِبُـه[١]

أقول: إن بشارًا الذي مدح آخر خلفاء بني أمية بقصيدة تتكئ على الشكل التقليدي وتمتح من اللغة الجاهلية، لم يبق على حاله الفنية؛ فهذه القصيدة تعد من عيون قصائد المدح التقليدية، بل طارت بين الناس، وكانت مثالًا على كشف البصيرة في الصورة الفنية عند بشار بن برد، وبشار بن برد نفسه هو من هجر هذه الرؤيا والتشكيل الفني للقصيدة، وكان من المؤسسين للقصيدة الجديدة وهو القائل:

ألاَ يا (طَيْـبَ) قَـدْ طِبـتِ ومَـــا طَيَّبَـــكِ الطِّيـــبُ
ولَكِـــنْ نَفَـــسٌ مِنْـــكِ إذَا ضَـــمَّكِ تَقْرِيْـــبُ
وَثَغْــــرٌ بَارِدٌ عــــذبٌ جَـــرى فيـــه الأعاجيـــبُ
ووجـــهٌ يُشـــبهُ البـــدرَ عليـــهِ التـــاجُ معصـــوبُ
وعـــينٌ تســـحَرُ العـــينَ ومـــا في سِـــحْرِها حُـــوبُ [٢]

وهذا لا يعني أن كل من يمارس الإبداع ينتقل إلى الضفة الأخرى بكل مكوناتها الفكرية والجمالية، بل إن هذا التحول قد يأخذ فترات طويلة حتى يصبح هذا الجديد هو القاعدة الفنية، ولكن ثمة أدباء يستطيعون بما أوتوا من طاقات إبداعية خلاَّقة التقاط لحظة التحول.

---

(١) بشار بن برد، الديوان، تحقيق: محمد الطاهر بن عاشور (القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط١، ٢٠٠٧) ١/ ٣٠٥

(٢) ديوان بشار بن برد.،١/ ٢٧٠

نقول مرة أخرى: إذا أردنا استدعاء مفهوم الخَضْرمة في مقاربة نتاج السباعي فإننا نجد هذا الرجل قد عاش نحو قرن من الزمان إلا قليلاً، كانت التحولات فيه سريعة وجارحة، وفي بعض الأحيان يحدث التحول كل عشر سنوات، وفي أبعد تقدير خمسة عشر عامًا، ثم حدث انهيار كامل لكل شيء قبل نهوض الربيع العربي، الذي يمكن أن يكون بداية تاريخ العرب الحديث والمعاصر، بعد قرن كامل من سباتهم في كهف الاستعمار الغربي ومن ثم العسكر؛ فهذا الرجل أدرك حقبة الاستعمار في البلاد العربية وفي بلده سورية، وكان واعيًا بهذه الحقبة، بل إنه سجل انطباعاته وشهاداته عنها، فعندما كان في أول الشباب كانت الحرب العالمية الثانية تعيد ترتيب الكوكب من جديد، بعد صعود التيارات اليمينية المتطرفة في أوروبا؛ التي أوشكت على السيطرة على العالم، ثم خسرت هذه التيارات الحرب، وخرجت من التاريخ، واندثرت قوى كانت في يوم من الأيام تتقاسم حكم العالم، وتراجع ما يُسمى الاستعمار القديم، وصعدت قوتان جديدتان لتتقاسما حكم العالم؛ هما: الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي، وفي هذه اللحظة التاريخية الفارقة صعد اليسار في العالم بمقولاته الجديدة، ناذرًا نفسه لمحاربة الإمبريالية العالمية، وشاعت في أوربا الوجودية؛ التي ظهرت نتيجة لحالة القلق التي سيطرت على أوروبا بعد الحرب العالمية الأولى، واتسعت مع الحرب العالمية الثانية، وسبب هذا القلق هو الدمار المريع الذي حصل نتيجة الحرب، وكان لهذه التيارات كبير أثر في فكر السباعي، ثم كانت

نكبة فلسطين وإعلان قيام دولة الصهاينة؛ هذه الصدمة التي هزت العالم العربي الخارج حديثًا من ربقة الاستعمار القديم، وجعلته في مواجهة جديدة مع مشروع مفاجئ لا يشبه المشاريع الاستعمارية القديمة، ثم بدأت تتغير الأنظمة السياسية في العالم العربي بفعل الانقلابات العسكرية، فقد أُجهضت التجربة الديمقراطية الوليدة في سوريا، ثم قام العسكر في مصر بتقويض حكم الملكية، وانتهى حكم أسرة محمد علي باشا في مصر والسودان؛ هذا الحكم الذي دام نحو مئة وخمسين سنة، ومع صعود العسكر في مصر حدثت تحولات فكرية عميقة وجذرية في مصر والعالم العربي، فقد جاء هؤلاء العسكر مدججين بنظرية القومية العربية، المشبعة بالأفكار الاشتراكية؛ فقاموا بتفتيت البنية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية القديمة في مصر، بعد أن تخلوا عن السودان وغزة، وشيدوا مكانها بنية جديدة؛ حيث قضوا على طبقة النبلاء التي كانت النواة الصلبة للحكم الملكي، وانتزعت منها الأراضي، وأُخرجت من الحالة السياسية، وبدأت عسكرة المجتمع لمواجهة الاستعمار وتحرير فلسطين، وفي هذه الحقبة تحديدًا كان السباعي يعيش في مصر؛ حيث كان طالبًا في جامعة فؤاد الأول (القاهرة لاحقًا)، وبدأ هذا المشروع الجديد يتمدد حيث صارت وحدة بين سورية ومصر؛ سوريا بلد السباعي، ومصر البلد التي درس فيها الجامعة وأسهمت في تكوينه الثقافي، وكان السباعي من المتحمسين لهذا الصعود، ليحدث كسر جديد، بعد عامين فقط؛ فقد شارك الطلابَ المصريين في المظاهرات التي خرجت عام (١٩٥٤)، من

الجامعة تهتف (يسقط حكم البكباشية) منددة بالعسكر الانقلابيين الذين وعدوا الناس بالديمقراطية، ولكنهم سُرعان ما استأثروا بالسلطة لأنفسهم، وبدأوا بصبغ البلاد بالصبغ الاشتراكي، وصارت مصر تدور في فلك الاتحاد السوفييتي على الرغم من أنها عضو في منظومة عدم الانحياز، ليبدأ تحول جديد أو خضرمة جديدة، وتسقط الوحدة بين سوريا ومصر؛ تلك الوحدة التي عوَّل عليها المثقفون القوميون لإعادة توحيد الوطن العربي وفق النظرية القومية، التي انتهت في أوروبا، ولكن العدوى كانت قد وصلت إلى بلادنا وما زال هذا المشروع في أوجه، والتأميل في أقصاه، ولكن هذا المشروع تهشم بالانفصال بين سوريا ومصر، وكانت هذه النكسة الأولى لتتبعها بعد ست سنوات فقط كارثة أطلق عليها اسم: النكسة؛ هذا الكارثة هي حرب (١٩٦٧)؛ حيث احتلت إسرائيل سيناء والجولان والضفة الغربية والقدس، وكانت إيذانًا بانتهاء المشروع القومي العربي وخروجه من التاريخ، وفي هذه الحقبة كان السباعي في أوج إنتاجه الأدبي، يرصد هذه التحولات العميقة في السياسة والمجتمع؛ حيث صار العالم العربي بلا مشروع واضح، لينتقل من حالة الفراغ وضبابية المشهد إلى مشروع أكثر ارتكاسًا وسقوطًا، وهو سعي أنور السادات للصلح مع إسرائيل، ومن ثم توقيع معاهدة أخرجت مصر من الصراع العربي الإسرائيلي، وانتقل العرب من موقع المخطط لاستعادة فلسطين وطرد اليهود منها إلى موقع متلقي الضربات الإسرائيلية، ولاسيما بعد اجتياح إسرائيل لبيروت (١٩٨٢م)، وكانت هذه لحظة فارقة

في العالم العربي والعصر الحديث؛ حيث كانت هذه أول عاصمة عربية تسقط بيد المحتلين بعد انتهاء حقبة الاستعمار، ثم خروج منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت وإبعادها إلى تونس حتى تصبح حدود إسرائيل آمنة.

منذ مطلع الستينيات لم تكن حال سوريا أحسن من حال فلسطين التي سقطت بيد المحتلين؛ فسقطت سوريا بيد الانقلابيين العسكر المصبوغين بإيديولوجيا حزب البعث القومي الاشتراكي، وعاشت حقبة الستينيات صراعات بين هؤلاء العسكر على من ينفرد بحكم سورية، وكانت هذه الصراعات دموية؛ فتك بها أعضاء اللجنة العسكرية الطائفية ببعضهم حتى انفرد حافظ الأسد بالسلطة، وبذلك تكون سوريا قد غادرت تمامًا حلم الديمقراطية الرومانسي، الذي عاشته مطلع الاستقلال.

مع سقوط بيروت بيد الاحتلال الإسرائيلي عام (١٩٨٢م) وتنفيذ مجازر (صبرا وشاتيلا) بحق الفلسطينيين واللبنانيين اجتاحت أيضًا قوات حافظ الأسد مدينة حماة؛ فدمرت ثلث المدينة، وقتلت أربعين ألفًا من أهلها بحسب الإحصائيات الرسمية[١] – يا لهذا التصاقب وهذه المصادفة! وصار في سوريا جنرال واحد يحكمها هو حافظ الأسد، واختفى من البلاد كل شيء؛ العلماء والمثقفون والشعراء والنقابيون والسياسيون، ولم يبق إلا حافظ الأسد ومن يدور في فلكه والناطق باسمه، وبدأ العالم

(١) ينظر: https://www.alaraby.co.uk/politics/٣٩

العربي يتحول إلى شظايا متناثرة، ولاسيما بعد خروج مصر من معادلة الصراع وبدء الحرب العراقية الإيرانية التي استمرت ثماني سنوات، بعد أن أطلق الخميني المنقلب على ثورة الشعب الإيراني على الشاه والعائد على ظهر طائرة فرنسية، أقول: بعد ما أطلق الخميني مفهوم تصدير الثورة الشيعية إلى البلاد العربية[١]؛ نشبت هذه الحرب؛ التي استنزفت العالم العربي اقتصاديًا وثقافيًا، وبدأ الصراع في العالم العربي على خلفيات طائفية؛ حيث قامت القوات الشيعية التابعة لحزب الله وحركة أمل في لبنان الممولة من إيران بمحاصرة المخيمات الفلسطينية في لبنان، هذا الحصار الذي يذكرنا بحصار الجيوش في القرون الوسطى التي تصل إلى مرحلة إفناء الناس بالجوع حتى يستسلموا، وبدأت تضمحل تمامًا فكرة المشروع القومي العربي لتحل محلها فكرة الدويلات الوطنية، وليستيقظ العرب على خبر دخول صدام حسين إلى الكويت (١٩٩٠م)؛ هذا الدخول الذي جرَّ الغرب وأمريكا إلى الجزيرة العربية، ومن ثم تحطم الجيش العراقي الذي كان يسمى البوابة الشرقية للعرب، وصار لأول مرة وجود عسكري أمريكي في البلاد العربية منذ حقبة الاستقلال؛ ليبدأ بعد ذلك كسرٌ وخَضْرمةٌ جديدان؛ هي مفاوضات السلام، وتوقيع اتفاقيات مع إسرائيل من قبل الفلسطينيين والأردنيين، ثم هلك حافظ الأسد عام (٢٠٠٠م)، وورَّث الحكم بعده

---

(١) مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني، تصدير لثورة الإيرانية كما يراها الإمام الخميني، (طهران، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني، د. ط. ت)، ١٠

لابنه بشار الأسد؛ هذا التوريث الذي أعلن انتهاء ما تبقى من سورية رومانسية يمكن استعادتها، ثم سقطت بغداد، واحتل الأمريكان العراق احتلالًا مباشرًا، ونصَّبوا حكومة تتبع لإيران، واشتعل الشرق العربي بالفكر الطائفي، وصار الفكر القومي العربي الذي عاشه السباعي في يوم من الأيام أحفورة ثقافية موجودة فقط في أذهان من استطال به العمر أو مدونة في كتب وجرائد ذلك الزمن.

عندما سقطت بغداد (٢٠٠٣) كان السباعي قد دخل عامه الثالث والسبعين، تاركًا خلفه سنوات طويلة قضاها في الكتابة والتأليف على إيقاع هذه التحولات الجارحة، فكريًا وسياسيًا وعسكريًا، ولم يكد يستيقظ العالم العربي من صدمة سقوط إحدى عواصمه حتى اشتعل الشرق بحرب طائفية ممنهجة ومدروسة، وتحولت بغداد الشعر والأدب إلى بغداد المفخخات، وأطلت قرون إيران من جديد، وتبين للقاصي والداني أن عملية احتلال العراق كانت تمهيدًا لتسليمه لإيران وتنفيذًا لتصدير الثورة؛ ذلك المشروع الذي عجز الخميني عن نشره في ثمانينيات القرن الماضي لتأتي الجيوش الأمريكية وتشرف بشكل مباشر على تنفيذه، وصار السباعي كعجوز يجلس على تلة، ويمسك عكازه وينظر إلى مدينته المحترقة، بعد أن كان هو آخر شاهد على تشييدها؛ لقد اختفى كل شيء سابق عرفه السباعي خلال السنوات الماضية، لقد اختفت القومية العربية، واختفى تحرير فلسطين، واختفت بغداد، واختفت الديمقراطية،

واختُصرت البلاد بحرس جمهوري ومعتقل، حتى على صعيد الفنون لم يعد هناك أم كلثوم وعبد الحليم حافظ، واختفى المسرح والسينما الراقية، وانتشر الابتذال والتهريج وتكريس الرداءة. لقد انتهى كل شيء وصار الإنسان العربي يتجول بين المدن ليجد بقايا بشر مدفونين تحت جلد ثخين مشبع بالحزن، وصار الأديب الرؤيوي كمن يسير بين حطام المدينة المحترقة يبحث عن ناجين. ولكن سدى، لقد احترق كل شيء.

٢ - الخضرمة التقنية

دخل فاضل السباعي الفيسبوك عام (٢٠١١)، وهو من مواليد (١٩٢٩)، والطريف في الأمر أن كتّاب هذه المادة قد دخلوا الفيسبوك في الوقت نفسه، على الرغم من أن السباعي يكبرهم بأكثر من خمسين سنة، وكأن الطرفين -كتّاب المادة والسباعي- خرجوا سويًا من كهف حزب البعث الذي أسدل الستارة على البلاد نحو نصف قرن، ولكن الطريف في الأمر أيضاً أن كتَّاب هذه المادة لا يعرفون إلا سورية واحدة هي سورية حزب البعث وسورية حافظ الأسد، ولم يعاينوا ما عاينه السباعي وجيله من تجربة ديمقراطية أو نشاط نقابي أو حرية في الصحافة أو حتى مظاهرات لإسقاط الحكومة، أو حتى انقلابات عسكرية. لقد جاؤوا إلى هذا العالم؛ فوجدوا شيئًا واحدًا فقط بلادًا مبتلَعة من قِبل سلطة مستبدة.

إن الهدف من هذا التمهيد العودة إلى الحديث عن الخضرمة التقنية، التي مر بها فاضل السباعي، والمدهش في الأمر أن الرجل أنتج في آخر ما وصلت إليه تقنية النشر والترويج عدة مجلدات هي ما قمنا بتحقيقه ودراسته.

درس السباعي الابتدائية في ثلاثينيات القرن الماضي حينما كانت البلاد تغرق في وحل الاستعمار والأمية، وكان التعليم سبورة ومعلمًا وعصا، وقد بدأ المذياع (الراديو) يتسرَّب إلى حياة الناس شيئًا فشيئًا، وأما الاعتماد الأكبر في التلقي الثقافي فقد كان على الجرائد الورقية والكتب، وبدأت السينما مع مطلع الأربعينيات تصبح جزءًا من حياة المجتمع، وكانت السينما في أوجها في أواخر الأربعينيات وبداية الخمسينيات؛ حينما ذهب فاضل السباعي لدراسة الحقوق في مصر، ثم أدرك السباعي بداية التلفزيون الذي انطلق في مصر وسورية في الوقت نفسه إبان الوحدة (١٩٦٠)، وسار التلفزيون مع الراديو والسينما في خط واحد بوصفهما البدعة الجديدة التي يمكن من خلالها ترويج الثقافة، لقد كانت دهشة كل منهما كبيرة، وكانت نقلة في تطور البشرية لم تشهده في نقلاتها الحضارية السابقة، ومع كل هذا المدهش ولدت أيضًا ثورة الاتصالات. لقد ولد الرجل في عصر تتحرك فيه التطورات التقنية بمتوالية هندسية، حتى وصولنا إلى منتصف التسعينيات؛ حيث ولدت القنوات الفضائية التي كسرت احتكار السلطة للمقولات وللحقيقة، وبدأت جمهوريات الخوف المتكلِّسة تتكسر

رويدًا رويدًا، وصار السوريون يسمعون معجمًا لغويًا ونسقًا فكريًا مختلفًا عما ألفوه من تلفزيون حزب البعث، ولم تدرك السلطات الحاكمة في العالم العربي التي جاءت بصيغة الانقلابات العسكرية مع منتصف خمسينيات القرن العشرين؛ أقول: لم تدرك أن ظهور الفضائيات هو أول مسمار يدق في نعوشها بعد أن بذلت جهدًا أمنيًا كبيرًا حتى تتجنب سيناريو سقوط أحجار الدومينو التي اسَّاقطت في أوربا الشرقية، ونعني بها الجمهوريات التي تدور في فلك الاتحاد السوفياتي سابقًا؛ هذه الجمهوريات التي تشبه إلى حد كبير جمهوريات الانقلابات في الوطن العربي من حيث الإيديولوجيا وطريقة الحكم والبطش، ولكنَّ أثر القنوات الفضائية لم يكن واضحًا في السنوات اللاحقة لظهورها، ولكن بدا واضحًا أن الشعوب العربية أفلتت من ربقة الإعلام الرسمي الحاكم الذي يقول للناس: (لا أريكم إلا ما أرى)، ومع هذه التحول التقني الإعلامي الجديد إن على سبيل المشهدية وإن على سبيل الرؤيا كان السباعي قد بدأ يلج إلى الشيخوخة، وكان قد انحط أمامه كل شيء، وصار التغيير حلمًا بعيدًا جدًا أكبر مما يتخيله إنسان، وخاصة أن الناس كان يعيشون صدمة الهاتف الجوال، حتى أطلت وسائل التواصل الاجتماعي، واختُرِع نظام الأندرويد في الهواتف ليصير العالم الصغير على هاتفك .. وهنا نسجل مجموعة ملاحظات جعلتنا نقدم هذه الديباجة:

الأولى: إن الراديو لم ينتهِ لأنه لم يعد مجديًا، بل لأن العلم اخترع التلفاز ومن ثم الفضائية، والفضائية لم تنتهِ لأنها قصَّرت في أداء رسالتها، بل لأن العلم ساق لنا

منصات التواصل الاجتماعي، وهذا الأمر لم تدركه السلطات الحاكمة. **إن لحظة تطور العالم دائمًا تسبق العقل الأمني الذي يحكم البلاد بعصا، وشيخوخة الدول لا بد أن تدركها وتخرجها خارج سياق التاريخ.**

الثانية: إن ثورات الربيع العربي انطلقت بالتزامن مع ثورة وسائل التواصل الاجتماعي، بل إن الربيع العربي وصف بأنه ربيع الفيسبوك، أو أنه جاء على ظهر الفيسبوك.

والملاحظة الثالثة التي نسجلها: هي أن فاضل السباعي إبان هذه اللحظة الخطيرة في العالم العربي لحظة التحول أو الخضرمة السياسية، أو لحظة التحول والخضرمة التقنية كان قد بلغ عامه الثمانين، وهذا الأمر نقطة تثير الانتباه لأن الرجل كان خلال تسعة أعوام منذ انطلاق الربيع العربي حتى وفاته (٢٠٢٠) كان مدونًا نشطًا على الفيسبوك، بل إنه سريعًا ما هضم هذه التقنية وطرائقها الشكلية، وصار يعبر عن آرائه فيما يحدث من خلال كل القوالب الفنية التي استُحدثت مع شيوع هذه المنصة في العالم العربي؛ فقد كان ينشر قصصًا قديمة قد صدرت في مجلات، وكتبَ منشورات ينقل من خلالها الأحداث اليومية؛ فتحولت مدونته الفيسبوكية إلى جريدة يومية يستطيع المرء أن يفهم الحدث السوري الذي يعاينه السباعي من خلال إقامته في دمشق وتفاعله مع الحدث السوري على مساحة البلاد، بل إن تفاعله تجاوز الحدود

السورية ليصل إلى كل البلدان العربية التي شهدت ثورات. يقول السباعي عن تجربته في التدوين في الفيس بوك:

(وما رأيك في شبكة التواصل الاجتماعي؟

أراها قد سهّلت التواصل بين أبناء البشرية في كلّ مكان في العالم، ومن ناحية شغلتني حتى أوشكت أن تصرفني عن مهمّتي الأولى: الكتابة والدراسة والبحث، إلا أنها جذبتني لأن أبتدع لونًا في الكتابة جديدًا، تغريدات أكتبها، أسميّها «خواطر»، على مدار اليوم.

وأعترف، أيضا، بأنّ لغتي ازدادت، في ظلّ وسيلة التواصل الجديدة هذه، كثافةً ورهافةً ورونقًا. وهي أعجزت الأنظمة الشمولية عن تحجيم الفكر والرأي والأقوال، فأخذ كثير من المواطنين حريتهم، حتى رؤوس الأنامل)[١].

كان النشر على الفيسبوك بالنسبة لفاضل السباعي فرصة للتعبير عن رأيه في السلطات الحاكمة التي كان يرى أنها سلطات استبدادية، وأجرمت بحق السوريين في الثورة، ومناسبة كي يعيد كتابة قناعات سابقة له في هذه السلطات التي كان يكتب ضدها بطريقة الرمز في قصصه ورواياته في حقبة منصرمة، وكان يلح دائمًا على أن موقفه لم يتغير في وصف هذه السلطات وتحليل الظرف التاريخي الذي جرَّفها إلى أعلى

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٤/ ٣٥١.

السلطة، وكيف أنه كان يدرك أن النهايات لابد أن تكون كما يراها الناس في هذا الوقت؛ أي: وقت الثورات.

كان النشر على الفيسبوك بالنسبة للسباعي مناسبة ليعيد كتابة أفكاره السابقة من جديد، ولكن هذه المرة بوضوح كامل دون التخفي وراء قناع فني أو رمز أدبي للهروب من مقص الرقيب المخابراتي الذي عانى منه خلال خمسين سنة من نتاجه الأدبي، حتى إن باحثًا سويديًا كتب رسالة ماجستير عن الفانتازيا في أدب السباعي لبروز هذه الظاهرة في أدبه: (وفي هذا الصدد، سألت يوماً (في ربيع ٢٠٠٢) المستعرب السويدي الشاب، الذي تهمّم لأن تكون قصصي، المتّخِذة من «الفانتازيا» أسلوباً في تكوين القصة، موضوعاً لأطروحة يُعدّها في جامعة استوكهولم... سألته جادّاً عمّا إذا كانت لغتي، وسمّيتها له «الجَزْلة»، سيُتعِبُه فهمُها وترجمتُه للمقاطع التي يستشهد بها في أطروحته؟، فأجابني بأن الأمر هو عكس ذلك، فالمفردات «الصعبة» يمكن التعرف على معانيها بالرجوع إلى المعجم، ولكنه لاحظ أنّ الجملة عندي تخلو من «الترهّل»، لا يَعيبها تزيّدٌ في المفردات أو نقص، لغة منضبطة... أعترف بأنه -واسمه «فيليب سايار»- لفتني إلى جانب في لغتي أمارسه تلقائياً، ولم يخطر لي التعبير عنه: انضباط اللغة، ضبْطها! وقد أتمّ كتابة الأطروحة باللغة الانكليزية، وتولّت السيدة

«سماء محاسني» نقلها إلى العربية، وعنوانها «خارج السرب، رسالة في «فنّ الفانتازيا» في قصص فاضل...»، تبحث عن ناشر!)[١]

بل إن المرء يشم رائحة فرح السباعي بهذه السانحة الزمنية والسانحة التقنية التي تسمح له بالوصول إلى أكبر شريحة من القراء، وهو الكاتب الذي عانى كثيرًا من الحصار والتضييق على نشره في دور النشر الحكومية واتحاد الكتاب العرب الذي كان من المؤسسيين له، وقد تحدث عن هذا التضييق غير ما مرة:

(وأنا... أرهقوني بالإقصاء، فمع أني من الأعضاء الذين أسسوا اتحاد الكتاب عام ١٩٦٩، فإن الاتحاد لاحقًا لم يرشحني لعضوية أي مؤتمر أدبي لا في الداخل ولا في الخارج، لا ولم يَنشر من أعمالي كتابًا واحدًا، وحين أصروا مرة على رفض أحدها نُشر وراء الحدود مرة ومرات، ثم تأتّى له أن يكون إصداره الخامس بالفرنسية في باريس.

تُرجم بعض أدبي إلى بضع عشرة لغة، وما تزال تُعد عن أعمالي أطروحات ماجستير ودكتوراه خارج حدود الوطن من قبل عرب وأجانب، آخرها هذه الأيام: بالقاهرة (ماجستير) وفي إسطنبول (دكتوراه)[٢].

---

(١) ينظَر من الكتاب: **١٥/٥**.

(٢) ينظَر من الكتاب: **٣٧٢/٦**.

ويقول في موضع آخر:

(كان يُتوقع من النظام أن تُملي "تقدّميتُه" على اتحاد الكتّاب (الذي أنا أحد مؤسّسيه منذ ١٩٦٩)، أن يبعث كلّ حين إلى الكاتب ابن التسعين (الذي له بضعةٌ وثلاثون كتاباً مطبوعاً وترجماتٌ إلى لغات) أعضاءً منه محبّين ودودين يسألون عن الصحة.

ولكن الواقع أنّ كبيرهم، اليوم، يمنع نشر مقالاتي في مجلات الاتحاد ويمنع أيضا أن يُذكر اسمي في أي مقالة تُنشر.. لأني معارض بالكلمة الحقّ: للظلم والقهر، ولكل أشكال الفساد الذي منه هذا التصرف غير المسؤول

وأهل حارتي عندما يرونني عائداً إلى البيت، يأخذون عني كيس المشتريات

يقولون: كنّا عايشين!

أقول: لسّه عايشين![1]

ويقول في موضع آخر:

"كنا نجتمع في صيف (١٩٦٨) في المركز الثقافي بأبو رمانة، في تلك الشرفة التي كانت تطل على حديقة المبنى (قبل أن تُضم الشرفة إلى الغرفة التي تجاورها فتصبح

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٦/٣٥٨/٣٥٩.

قاعة لعروض الفن التشكيلي). كنا نحضر الاجتماعات في توالي الأيام نحن عشرة من "المؤسسين" ويغيب عشرون لشواغل الحياة. وبعد أن أنجزنا مشروع التأسيس أقام لنا الحزب الحاكم حفلة غداء في مطعم بالربْوة احتفاء، حضرها - عدا الأستاذ سليمان الخش (رئيس الهيئة التأسيسية وكان وزيراً للتربية) - عضوُ القيادة القطرية المقدم أحمد المير

وبعد عام كامل صدر مرسوم بتأسيس الاتحاد، واتُّخذ له مقرّ في شارع مرشد خاطر، قبل أن يُبنى له ذلك المبنى الشاهق المطل على اوتوستراد المزة.

ما أريد أن أتوقف عنده أنه لوحظ فيما بعد أن أوراق التأسيس كلها فُقدت من محفوظات الاتحاد! لا يعرف أحد كيف ولماذا! ولكني أنا أشكّ في أحدهم ولا أستطيع البوح.

وقبل نحو عشرة أعوام أو يزيد سألني رئيس الاتحاد التالي عما إذا كان يمكنني أن أفيده في مسألة نشوء الاتحاد، فصورت المشروع الذي كان قدّمه لنا سليمان الخش وأجرينا في اجتماعاتنا التعديلات عليه، التي كنت أدونها بيدي على المشروع الأصل، وقدمت نسخة مصورة لرئيس الاتحاد وأخرى للديوان.

وقبل مدة وجيزة سألتني موظفة في الاتحاد بدا أنها معنيّة بهذا الأمر، أن أزودها بقائمة بأسماء أعضاء المكتب التنفيذي الأول (ولايته من ١٩٦٩-١٩٧١)، قلت:

يمكنني هذا، فقط لو يتلطّف رئيس الاتحاد الحالي بطلب ذلك مني ولو هاتفياً... ومن يومها لم أتلقَّ منها ومن الاتحاد اتصالاً

وبالأمس وربما اليوم، بدا محرّماً على المجلات الخمس التي يصدرها الاتحاد، أن تنشر لي مادة أو يَرِد اسمي في موضوع يظهر فيها![1]

للعلم "أوراق التأسيس" كلّها فُقدت من مكاتب الاتحاد، في زمن رئيسه (الذي طالت "ولاياته" المتتالية إلى (٢٦) عاماً وقبلها سنتان نائباً). حدّثني بهذا الفقدان الرئيس التالي عليه، فكان أن قدّمت نسختين من ذلك المشروع الابتدائي وعليه بخط يدي التعديلات (تصوير بالماسح الضوئي/ الفوتوكوبي)، نسخة لأرشيف الاتحاد والأخرى له".[2]

لقد لخص السباعي طبيعة مؤسسة اتحاد الكتاب العرب منذ نشوئها وكيف حضر جلسات التأسيس ضابط في الجيش هو أحمد المير الذي كان عضوًا في القيادة القطرية لحزب البعث حينها والذي أُقصي في عهد حافظ الأسد الذي انقلب على رفاقه. ولم يكن أحمد المير ضابطًا هامشيًا في السلطة حينها، بل كان عضوًا في اللجنة العسكرية السرية التي جهزت لانقلاب ١٩٦٣؛ التي اصطلح المؤرخون على تسميتها

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٦/٣٥٨-٣٥٩.

(٢)ينظَر من الكتاب: ٦/١٩٢.

بـ:(عدس) اختصارًا لانتماءات أصحابها؛ فقد كانوا من:(العلويين والدروز والإسماعيليين)، ولكنهم تدثروا بدثار البعث القومي حتى يستطيعوا الوصول إلى السلطة باستقوائهم بحزمة العصي البعثية التي تلم تحتها مكونات الشعب السوري عابرة للطائفية حتى انفردوا بالسلطة، ثم حدث صراع بين ضباع اللجنة العسكرية؛ ففاز بحكم سورية أشرس الضباع وأكثرها خسة.

إن حضور الضابط البعثي عضو القيادة القطرية أحمد المير اجتماعات تأسيس اتحاد الكتاب العرب دليل على حضور السلطة ورغبتها ودعمها لبزوغ هذا الكيان الأدبي الذي تحول لاحقًا إلى ذراع لنشر إيديولوجية حزب البعث والترويج له، ومن ثم لحافظ الأسد الذي اختصر الحزب والدولة في شخصه، وصار أديب مثل فاضل السباعي محرومًا من حقوقه - بوصفه من مؤسسي الاتحاد ومن ثم عضوًا- في الاستفادة من النشر في دوريات هذا الاتحاد؛ بينما نشر الاتحاد لكتَّاب من كل أرجاء الوطن العربي، وذلك من أجل حشد أكبر كمية من المثقفين العرب وراء هذه النظرية، ولم يكن للسباعي نصيب في هذا؛ لأنَّه لا يدور في فلك السلطة؛ فهو برجوازي المنشأ والأفكار كما كان يروج عنه أعداؤه في الأوساط الثقافية، ولا سيما أن السلطة الحاكمة الجديدة في البلاد جاءت لتُقصي هذه الطبقة بحسب أدبياتها ولتخرجها من المشهد الثقافي والسياسي والاقتصادي لتصبغ البلاد الصبغة الاشتراكية من حيث الظاهر ولتتحول إلى مزرعة تحكمها عائلة الأسد، يقول السباعي:

(«أيتام على مأدبة لئام»، هجرتُهم، وأنشأت مؤسسة خاصة بنشر أعمالي، الجديد منها وما سبق طبعه، أقترض من مصرف التسليف الشعبي، أطبع، ثمّ أسدّد، ويشتمونني بأني "برجوازي"![1]

وفي شأن الشانئين الذين درجوا على الإساءة إليّ، لم يدّخروا شيئا إلا قالوه فيّ... من ذلك:

ـ لَكْ شكلُه، حتى شكله برجوازي![2]

يهمس بعض الأصدقاء في أذني أحيانًا بأنّ مظهري يَنِمّ على أني "برجوازي"!

فأدرك أنّ ذلك يسبّب لي في ظلّ حكم البروليتاريا:

الاضطهادَ (انتقامًا لـ"ثاراتٍ قديمة"!)

والابتزازَ (استيفاءً لـ"دُيونٍ قديمة"!)

طيّب... ألا يَنِمّ مظهري على أني كاتب أديب؟[3]

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٤/ ١٧٤.

(٢) ينظَر من الكتاب: ٤/ ٣٨٩-٣٩٠.

(٣) ينظَر من الكتاب: ٥/ ٢٦١.

كانت تجربة السباعي مع اتحاد الكتاب العرب أكثر التجارب إيلامًا بالنسبة له؛ ولذلك ألح كثيرًا في ذكر تفاصيلها، وربما يظهر للمرء أنه يحاول استرداد حق مسلوب أو البحث عن امتيازات يأخذها غيره وهو حقيق بمثلها، ولكن هذه السردية حول الاتحاد تبين سبب نشوء هذا الكيان والدور الذي أنيط به، ومن هو المنعَّم الذي تفتح له أبواب النشر والترويج ومن هو المحروم الذي يطوف بأسوار الاتحاد ولا يستطيع الولوج؛ لأن دون ذلك أهوالًا وانتماء لطبقة الحزب النضالية وقبلها الاجتماعية، فالحزب لن يقبل في صفوفه أبناء الطبقات البرجوازية.

لقد اختفى دور الأديب الذي يعرفه السباعي وأوقف أدبه من أجله، ولم يعد دور الأديب الوقوف مع قضايا الإنسان أو عكس صورة المجتمع بكل ما يكتظ به من حمولات ثقافية وجمالية لتحل محله دوامة رهيبة تبتلع الجميع ليصيروا في خدمة النظام الحاكم. لقد اختفت قيمة الأشياء، بل صار لها قيم وأوزان جديدة لم يعهدها السباعي سابقًا، بل إنها لم تكن موجودة في سياق الحراك الأدبي والثقافي، وهذه الطريقة في توظيف كل شيء لصالح السلطة وتحويل المادي والمعنوي والتاريخي والجمالي في خدمة مشروع السلطة ليصير المواطن أمام مئات المرايا، ولكنها تعكس صورة واحدة، فأنَّى التفت وجد أمامه صورة القائد تمثالًا وجامعةً ومستشفى وحافلة ومطربًا وسجنًا ومقبرة، وهذا الأمر لم يكن خاصًا بسورية، بل داء أصاب كل الدول التي وقعت تحت قبضة الاشتراكية وحتى الاتحاد السوفييتي نفسه لم يسلم من أذى

نفسه؛ فقد أمر ستالين بتأسيس اتحاد كتاب السوفييت (١٩٣٤)، وكان على رأسه مكسيم غوركي، صاحب رواية الأم التي تعد من أهم كلاسيكيات الأدب الروسي والتي يعدها البلاشفة أم الثورة ومبشرة بها، ظل مكسيم غوركي رئيسًا لهذا الاتحاد إلى ما قبل موته بعامين. إن اتحاد كتاب السوفييت كان سببًا في تدمير الأدب الروسي الذي سبق وصول البلاشفة إلى السلطة، لقد حولت سلطة الحزب الشيوعي السوفييتي كل شيء في البلاد لخدمة النظام الحاكم، وكان على الأدباء أن يكونوا مصورين للواقع السوفييتي من وجهة نظر السلطة ومبشرين بحكم البروليتاريا التي ستجلب النعيم للجميع، ولكن هذا الأمر لم يكن، فانسحب الاتحاد السوفيتي من التاريخ بسقوطه، ولكنه سبَّب كثيرًا من الأدواء السياسية والاقتصادية والإنسانية، وآخرها الأدبية. وهذا الأمر تجد نظيرًا له في سورية وفي اتحاد كتابها. وكيف لا يكون ذلك؛ فحزب البعث العربي الاشتراكي الحاكم في سوريا يرضع من ثدي الحزب في موسكو ليُولدَ مشهد أدبي جديد يحمل فيه الرفاق المظلات إن أمطرت في موسكو. ولكن السباعي لم يطق صبرًا على هذه المحنة والحصار؛ فسعى لنشر نتاجه الأدبي في لبنان ومن ثم أسس دار نشر خاصة به.

«منذ تأسيس "اتحاد الكتّاب العرب" في بلدي (وأنا فيه عضو مؤسّس عام ١٩٦٩)، ورئيسُه ومكتبه التنفيذي والمحكّمون في لجان القراءة، جَرَوا على الاعتذار عن أن ينشروا في كتب ما أقدمه لهم من مخطوطاتي!

في هذا العهد... يستبعد رئيسُ الاتحاد نشر مقالاتي في مجلات الاتحاد.

وللتسرية عن النفس أقول: رفض الاتحاد قديمًا نشر كتابي "حزن حتى الموت"، فكان أن نُشر في بيروت بثلاث طبعات متوالية، والرابعة في الدار التي أنشأتها بدمشق، والإصدار الخامس تولّت نشره دار فرنسية مترجمًا إلى لغتهم.

وللنكتة أيضا: قدّمتْ بالأمس كاتبةٌ دراسةً عن مؤلَّف لي، رشّحها رئيس التحرير للنشر، واستبعدها رئيس الاتحاد بإصرار، فنشرتها مجلة "المعرفة" العريقة. ثمّ قدّمت أنا دراسة متميّزة عن الروائي أديب نحوي (وزير العدل في عقد السبعينيات) رشّحتها المجلة للنشر، واستبعدها رئيس الاتحاد! حتى ليُخيّل إليّ أنّ الرجل قد وعد نفسه بألا يدع اسمي يظهر في مصنفات الاتحاد ما دام هو فيه رئيسا!

هل أشكو أمري إلى عضو القيادة القطرية المشرف على المنظمات الشعبية؟

فقط لو يترفّع ذوو المناصب الفاعلة فلا ينقادوا لعواطفهم الصغيرة. وللعلم، إني يوم كنا نجتمع في المركز الثقافي بأبو رمّانة بدمشق صيف (١٩٦٨) ونعمل على وضع مشروع قانون لإنشاء هذا الاتحاد، لم يكن قد ولد بحلب بعد، ربما![١]

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٥/١٨٢-١٨٣.

٣- التأريخ للمرحلة من الخاص إلى العام

يستطيع المرء إطلاق مصطلح (**مدونة شكاية**) على ما كتبه السباعي على الفيسبوك، وعلى الرغم من أن الرجل سرد كثيرًا من معاناته الخاصة من الأنظمة المتعاقبة إلا أنه كان في هذه الشكاية يشرح حال المثقف الذي لم يسر في ركاب السلطة. صحيح أن السباعي قبل الربيع العربي لم يكن صداميًا مع السلطات الحاكمة، وكان يتحرَّى الحذر في التعبير عن أفكاره التي تتكلم عن الظلم والبطش والاستبداد، ولكنه كان مصنفًا عند السلطة الحاكمة بأنه شخص برجوازي يعود إلى العهد الذي انقلب عليه هؤلاء، ولكنه مع انطلاق الربيع العربي أخذ موقفًا واضحًا مناصرًا للثورة، مسمّيًا الأشياء بمسمياتها، محدِّدًا مسؤولية النظام عن سوء المآل الذي حاق بالبلاد بسبب سياساته الاستبدادية، متحدثًا عن كل مجزرة حدثت أثناء الثورة، منتصرًا للحَراك السلمي وللمعتقلين، وفي أثناء شكايته الخاصة كان يخرج دائمًا إلى العام ليبيِّن للمتلقي أن هذا النهج سياسة تستهدف كل من لا يسير في ركب السلطة. وهذا ما يجعل المرء أمام مشهد كامل للحالة السياسية العربية منذ أربعينيات القرن الماضي حتى قبل وفاته بأيام قليلة، لقد تحدث السباعي في مدونته الفيسبوكية عن حلب في أربعينيات القرن الماضي، وذكر كثيرًا من عادات الناس في ذاك الزمن وشخصيات سياسية وثقافية واجتماعية، ما يجعل هذه المدونة وثيقة تاريخية يستطيع المرء من خلالها بناء تصورات عن سورية والعالم العربي، وأعاد كتابة كثير من الأحداث التاريخية

كانقلابات العسكر، وكتب عن شكل القاهرة إبَّان وصوله إليها مطلع خمسينيات القرن الماضي طالبًا ودراسته أربع سنوات في كلية الحقوق، وسجل كثيرًا من تفاصيل الحياة في مصر قبل انقلاب عبد الناصر، ووثق أيضًا الأيام اللاحقة لهذا الانقلاب وفرحة الناس به، ثم انكشاف الزيف ومحاولة النخبة المثقفة استرجاع السلطة من يد العسكر في وقت مبكر؛ أي: عام (١٩٥٤)، وقد خرج هو مع مظاهرات الطلاب منددين بالانقلابيين، ولكن الأمر لم يعد مجديًا؛ لأن هؤلاء الضباط قد استولوا على كل مفاصل الدولة، ولم يعد بوسع أحد إعادة عقارب الساعة إلى الوراء.

على الرغم من أن السباعي قد بلغ الثمانين عند ولوجه عالم الفيسبوك، وعلى الرغم من أن تدويناته استمرت خلال هذا العقد الأخير من عمره لكنه كان أنشط ما يكون، بل إن المرء يلاحظه شهوته للكتابة والتدوين وكأنه كان ظمآن لهذه السانحة كي يعيد تدوين ما فات الأجيال الحالية التي لم تدرك تلك الفترة التاريخية، محاولًا تقديم رؤيته للحدث التاريخي من خلال إعادة سرده ليكون هذا الرأي خلاصة تستفيد منها الأجيال الحالية التي تخوض معركتها مع الاستبداد، ولم يبدُ السباعي في لحظة من اللحظات أنه يروي التاريخ للعبرة فقط وأنه يستعد لمغادرة هذا العالم بحكم سنه، أو طلب من الملأ الفيسبوكي أن يتحلقوا حوله كي يلقي عليهم وصيته الأخيرة، بل كان يعيد صياغة هذا الحدث التاريخي؛ لأنه كان يعيش على أمل أن يكون شريكًا

لهذه الأجيال فيما لو حققت حلم الحرية والديمقراطية، لم يكن السباعي يائسًا في لحظة من استحالة التغيير وإن بدا في بعض المدونات متوجعًا على ما يحدث، بل كان يُغير في كل سانحة على لحظة أمل في التاريخ الذي عايشه، مذكّرًا بأن ثمة أملاً مضيئًا في طريق الثورات إذا صح منا العزم.

كانت ذاكرة السباعي أنشط ما تكون في هذه الحقبة، وكأن الرجل يحرك كاميرا سينمائية يحتفظ بشريطها كي يعرض على المتلقي هذا الحدث، ولم يتخل في يوم من الأيام عن شخصية الأديب فيما يروي. وإذا ما قارن المرء هذه الأحداث السياسية التي يرويها السباعي مع الوثائق التاريخية يجد أن ذاكرة الرجل في أفضل حالاتها، ولا سيما حديثه عن مشهد قتل الأسرة المالكة في العراق بعد انقلاب عبد الكريم قاسم، ولم يترك الرجل هذا الحدث معلقًا دون ذكر تصوّره لنتائجه: يقول:

«يوم انقلاب (١٤) تموز عام (١٩٥٨) في العراق، وبينما كانت المارشات العسكرية تصدح من راديو "صوت العرب" يُحييها البوق "أحمد سعيد"، والأسرة المالكة أبيدت، والملك الفتى - الخارج إليهم مستسلما والمصحف الشريف على صدره - رشّوه هو وما على الصدر، وجثث حكام العراق المجرّدة من ملابسها تُربط في مؤخرات السيارات، تدور بها في الشوارع، فيما سمّوه "السَّحْل" كلمة تطرق أسماعنا لأول مرة... وذلك كلّه ما لم نشهد مثيلا له من قبل.

نعم، كنا في أيام الوحدة مع مصر، وكان يسكن قلوب الناس خوف... ومن عجبٍ أني رأيت بعض المرائين يهنّئ بعضهم بعضًا على هذا النصر العظيم، وما استطاعت شفتاي أن تنطقا بمثل ذلك، وأنا أرى الخناجر تحزّ الحناجر... فنظروا إليّ شزرا!

والزعيم الأسمر بالقاهرة، الفاقد للإحساس الاستراتيجي العربي، يُغرّد فرحًا، وما درى أنّ العراق سوف يدخل في متاهات التاريخ... حتى وصل ووصلنا إلى ما نحن فيه.(١)

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٥/ ١٨١-١٨٢.

٤- القومية العربية

على الرغم من تحول مصر إلى منبر للقومية العربية، بل صارت هي المركز الذي تتمدد منه النظرية باتجاه الأطراف منذ انقلاب عبد الناصر، إلا أن هذه الفكرة لم تولد في مصر، بل إن المصريين عرفوها لاحقًا بسبب من أهل الشام؛ حيث ولدت الفكرة هناك؛ لقد كان منظرو القومية العربية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر جميعًا من بلاد الشام، وأول أشكال التنظيم السياسي الممنهج هو الجمعية العربية الفتاة التي أسسها مجموعة من الطلاب العرب عام (١٨٩١) التي دعت الى مواجهة الحُكم العثماني للبلدان العربية.

أثَّرت هذه الجمعية في الفكر القومي العربي ومَهَّدت للمؤتمر العربي في باريس عام (١٩١٣)، الذي ضَمَّ مجموعة من المُفكرين والسياسيين والقوميين العرب؛ حيث وضع الهدف الأساسي وهو: "البحث عن التدابير الواجب اتخاذها لوقاية الأرض المترعة بالدم من عِداية الأجانب وإنقاذها من صبغة السيطرة والاستبداد".[١]

بعد تلك الفترة رافق المفكرين القوميين سؤال جوهري مهم، من نحن؟ وماذا بعد التخلص من السيطرة العُثمانيّة؟ وما شكل الأُمة التي نريدها؟ ولم يتم الاتفاق حينها على تحديد الهويّة القومية الجامعة أولًا، وثانيًا لم تُحدد المساحة الجغرافية لهذه

---

(١) هاني الهندي، الحركة القومية في القرن العشرين دراسة سياسية،(بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢، ٢٠١٥)، ٢١٣

الأُمّة؛ حيث ظهر اختلاف حول مُصطلح الأُمّة: هل هي من الماء الى الماء؛ أي: من الخليج الى المُحيط؟ وقد حضر المصريون مؤتمر باريس (١٩١٣)، بصفة مراقبين؛ لذلك فإن كثيرًا من القوميين العرب في الرُبع الأول من القرن العشرين، لم يعدوا مصر جزءًا من الأُمَّة العربيّة.(١)

ولم تكُن الوحدة العربية في تلك السنوات عامِل جذب لدى المصريين مثلما كانت في بلاد الشام، ومن ثم الإجابة عن: ما حدود الأُمة؟ وما هوية الأُمة؟ كل هذه التفاصيل لم تكُن ناضجة بالشكل الكافي.

خلال فترة الأربعينيات وبداية الخمسينيات، وضع ساطع الحصري مؤلفات عدّة في التنظير للقومية العربية، منها: (حول القومية العربية)، و(آراء وأحاديث في القومية العربية)، و(آراء وأحاديث في الوطنية القومية)، و(دفاع عن العروبة)، و(العروبة أولًا). وكغيره من القوميين. تأثر الحصري بفلسفة المثاليين الألمان، وفي مقدمتهم الفيلسوفان: فيخته ونيتشه، ويعتمد الحصري عند تحديده لمفهوم الأُمّة العربية، على ما يُطلق عليه في أدبيات الفكر القومي بـ"المُقوّمات"، التي تأتي في مقدمتها عوامل: اللغة، والدين، والتاريخ، والجغرافية.

---

(١) جورج، أنطونيوس، يقظة العرب تاريخ حركة القومية العربية، ترجمة: ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، (بيروت: دار العلم للملايين، ط١ ،١٩٨٢)، ١٨٥

سافر الحصري إلى مصر[1] وعمل مُدرسًا في المعهد العالي للمعلمين، ثم عميدًا لمعهد الدراسات العربية العليا، بتكليف خاص من الرئيس جمال عبد الناصر الذي كان يُجلُّه، ثم شغل منصب المستشار الثقافي لجامعة الدول العربية في القاهرة، وفي فلسطين، ظهر اسم المفكّر والمؤرخ محمد عزّة دَرْوَزَة (١٨٨٧-١٩٨٤) من بين المؤمنين بالعروبة والداعين إلى تحقيق الوحدة العربية. وبرز فكر دَرْوَزَة القومي بشكل أساسي من خلال كتاباته في التاريخ، عبر كُتُب عدّة له ك: (تاريخ الجنس العربي)، و(العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي). إلى أن تبلورت آراؤه مع كتاب (الوحدة العربية) الصادر عام ١٩٤٦.

ومن الأسماء البارزة أيضاً في فضاء الفكر القومي العربي المؤرخُ والمفكر السوري قسطنطين زريق (**١٩٠٩-٢٠٠٠**). الذي أسهم في أواخر العشرينيات بتنظيم (جماعة القوميين العرب)، التي خرجت منها لاحقًا تنظيمات قومية، مثل (حزب فلسطين العربي)، و(عصبة العمل القومي)، وانتهاء بتأسيس (حركة القوميين العرب) عام (١٩٤٨)، وخلال هذه الفترة كتب زريق عددًا من أهم كتبه في التنظير للقومية، من مثل: (الكتاب الأحمر) الصادر عام (١٩٣٣)، الذي عُدَّ بمنزلة "الميثاق" للقومية العربية، وكتاب (الوعي القومي) الصادر عام (١٩٣٩).

---

(١) هاني الهندي، الحركة القومية في القرن العشرين دراسة سياسية، **٤٣٣**

ويبرز اسم ميشيل عفلق كمثال على الكاتب الذي كتب كتبًا فكرية، ثم انخرط على الأرض في العمل السياسي، وأسهم في تأسيس أحزاب على قاعدة ما تبنّاه من أفكار. بدأ مشوار عفلق مطلع الثلاثينيات، عندما غادر دمشق متجهًا إلى باريس لمواصلة دراسته الجامعية، وهناك تأثر بدايةً بالتيار الشيوعي الفرنسي، قبل أن يزداد تأثره بالحركات القومية، وبالتحديد بحركة (الانبعاث الإيطالي) وأهدافها (حرية، وحدة، استقلال)، وليصبح مدار فكره وكتاباته لاحقًا حول هذه الأهداف. وفي عام (١٩٤١)، شارك عفلق بتشكيل تنظيم سياسي قومي باسم (الإحياء العربي)[١]

لقد كان النصف الأول من القرن العشرين عاصفًا بالنسبة للعرب والمسلمين، فقد انتهت الخلافة العثمانية، وخسرت الأرض التي كانت تحكمها وفق صيغة الخلافة، وانكفأت تركيا على نفسها، وانقطعت العلاقات تقريبًا بينها وبين العالم العربي، ولم يبق إلا التمثيل الدبلوماسي الرسمي، واجتاحت العالم العربي الأفكار القومية التي وفدت من أوروبا، وكانت سببًا في الحرب العالمية الثانية، ولم تشهد البلاد العربية صراع هويتين؛ واحدة تريد إزاحة الآخر لتحل محلها، بل برزت الهويات الإقليمية؛ ففي لبنان وجزء من سورية ظهرت القومية السورية على يد أنطون سعادة، وفي مصر كان حديث عن الهوية الفرعونية، وقد كتب طه حسين كتابه (مستقبل الثقافة في مصر)

---

(١) ألبرت حوراني، تاريخ الشعوب العربية، مؤسسة نوفل للنشر، ترجمة: أسعد صقر،(دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط١، ١٩٩٧)، ٤٤٠.

شارحًا هذه الهوية ومبشرًا بها، وبرزت الهوية الأمازيغية في شمال إفريقيا، والكردية في شمال العراق، ولكن يبدو أن كل هذه الهويات لم تستطع الصمود أمام هوية القومية العربية التي قُيض لها حامل سياسي يحملها، ويقوي من شوكتها، ويساعد منظريها ويدعمهم حتى يقوموا ببلورة خطاب ونظرية متماسكين، وهذا ما كان؛ فقد وجد القوميون العرب الفرصة سانحة مع صعود عبد الناصر إلى السلطة الذي كان خالياً من أي نظرية يحمل عليها انقلابه العسكري؛ فوجد عند مثقفي الشام نظرية القومية العربية؛ فطار بها، ولا يمكن أن نقبل بفكرة وجود ساطع الحصري مقربًا من جمال عبد الناصر من باب تقدير أهل الثقافة وحسب؛ فساطع الحصري لديه خبرة طويلة في الاتصال بأهل السياسة منذ علاقته مع جميعة الاتحاد والترقي عقب انقلابهم على السلطان عبد الحميد؛ مرورًا بعلاقته الطويلة مع الملك فيصل وزيرًا للمعارف في سوريا، وثم في العراق عندما خسر فيصل حكم سوريا، وعوضه البريطانيون بعرش العراق، ثم مع ابنه غازي، فهذا الرجل ذو خبرة في التعامل مع أهل السلطة وإقناعهم بمشاريع سياسية أو فكرية أو ثقافية.

وُجد فاضل السباعي في هذا الزمن؛ زمن اضطراب الهويات حتى طفت القومية العربية على الجميع، وعلى الرغم من أن السباعي يبدو مناوئًا لفكرة القومية العربية معاديًا لعرَّابها عبد الناصر، ولكنه في النُّسُج الثقافية العميقة رجل عروبي، وهذه المسألة ليست قرار تبنٍ أو قرار انفصال، لأن مسألة الهوية القومية لها متعلقاتها

الثقافية، ولا يكمن أن تكون ختمًا أو قرارًا سياسيًا، ولا سيما أن فكرة القومية العربية تداولها أهل الفكر والثقافة والسياسة والفلسفة كما بيَّنا منذ منتصف القرن التاسع عشر، بل إن النخبة السياسية التي قلبت للدولة العثمانية ظهر المجن كانت عروبية الهوية والهوى ضد سياسة التتريك التي كان يقوم بها حزب الاتحاد والترقي؛ فالشعور القومي أو التصور القومي حاضر في بلاد الشام بقوة على الأقل قبل مجيء عبد الناصر إلى السلطة بزمن بعيد.

كان السباعي بلا ريب أديبًا منغمسًا في الهم السياسي، لأن خلفيته العلمية قانونية، ومشروعه الأدبي منصب على عكس هموم الناس والاستبداد والحرية، من خلال الفن الروائي والقصصي، وسائر مقالاته ومنشوراته. وإذا كان السباعي مهتمًا بما يحدث في إطاره القطري؛ أي: سورية، إلا أنه كان يدرك أن سورية ليست جزيرة معزولة عن واقعها العربي، بل إنها في وسط هذا الواقع؛ لذلك شغلته القومية العربية وحكمها لسوريا ومصر ثم شيوع الفكر القومي العربي في أغلب البلدان العربية؛ لأنها شهدت ولادة الانقلابات العسكرية التي لم يكن لديها مشروع إستراتيجي أو نظرية تتكئ عليها أو حامل فكري يقودها، سوى أنها أرادت الوصول إلى السلطة والإطاحة بالملكية؛ فتسربلت بمشروع تحرير فلسطين الذي كان المحرك الأساس للسياسة والجماهير العربية، فانقلاب جمال عبد الناصر على سبيل المثال لم يأت على متن القومية

العربية، ولكنه سُرعان ما تنبه إلى هذه المسألة، وخاصة بعد العدوان الثلاثي، لتصير القومية العربية هوية هذا المشروع، ثم ينتشر هذا الفكر في البلاد العربية التي كانت تحدث فيها انقلابات عسكرية، مثل العراق، ومن ثم سورية في موجة انقلابات ما بعد الانفصال عن مصر، ثم انقلابات اليمن وليبيا، ثم الجزائر التي خرجت من ربقة الاستعمار، ثم انهيار المشروع القومي العربي بعد هزيمة (١٩٦٧)، وبعد ثلاث سنوات مات جمال عبد الناصر ليسدل الستار على مشروع القومية العربية الذي كان المحرك الأساس للسياسة العربية منذ منتصف خمسينيات القرن العشرين حتى (١٩٧٠) ليبدأ عهد جديد يمسك فيه أنور السادات ممحاة، ويسير على خطا عبد الناصر ماسحًا ظلال القومية العربية وخطوطها، مصالحًا الكيان الصهيوني، فاتحًا سفارة له في مصر ومعلنًا القطيعة مع العرب الذين أعلنوا مقاطعته أيضًا حتى حادثة اغتياله (١٩٨١)، ولكن خروج السادات من السلطة بالاغتيال لم يُعد مصر إلى القومية العربية التي انتهت فعليًا بوصفها مشروعًا في حزيران (١٩٦٧).

لقد كان السباعي يعيش شبابه الأول أثناء تمكن الضباط من سلب السلطة مطلع الخمسينيات، بل إنه كان يعيش ساعتها في القاهرة طالبًا في جامعة فؤاد الأول، وقد استبشر مثل غيره بهذا التحول السياسي الذي قام به الضباط، وخاصة أن هذه الحركة العسكرية جاءت في سياق خسارة حرب فلسطين، وحريق القاهرة، والارتهان للمستعمر الإنجليزي، وأصوات حركة التحرر العالمي التي ارتفع صداها في العالم

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، وتراجع الاستعمار القديم ممثلاً بفرنسا وبريطانيا، ولم يكن يدور في خلد هؤلاء أن انحسار الاستعمار القديم يعني تقدم الأمريكان ليحلوا محلهم وفق مشروع أيزنهاور أو ملء الفراغ، حينما كانت صيحات الحرية والثورة تأتي من موسكو؛ فكان السباعي وسط هذا التدافع الإيديولوجي وصراع المشاريع؛ حتى إنه تحمس لحركة الضباط، ولكنه سُرعان ما وعى هو وزملاؤه الطلبة أن هذه الدبابات التي تملأ الشوارع أنهت حكم أسرة محمد علي باشا، ولكن الهدف الثاني هو سحق هؤلاء الناس والقضاء على التجربة البرلمانية على تواضعها، والقضاء على أي ملمح ديمقراطي أو تداول للسلطة على قلته وبساطته، وأن الهدف جمع الناس في حزمة حطب لتلقى بها في نار المغامرات السياسية من أجل محاكاة نموذج ستالين في صناعة القائد الفرد والمعادل الموضوعي لفكرة الإله، بعد أن صارت الفكرة القومية عملة ذات وجهين: وجه قومي، ووجه اشتراكي. يروي لنا السباعي لحظات استبشاره بانقلاب الضباط في مصر، ثم انكشاف أمر هؤلاء، الذين جلبوا خسارات للوطن العربي لا يمكن تعويضها خلال مئة عام:

«يوم أعلن "الضباط الأحرار" بيانهم رقم واحد صبيحة الثالث والعشرين من يوليو/ تموز ١٩٥٢، فرحنا - وأنا طالبٌ طيّب القلب بالجامعة هناك - أنّ "النظام الملكي الظالم" باد... وفي عصر السادس والعشرين من ذلك الشهر، إثر إذاعة الخبر

عن ترحيل الملك فاروق من قصر "رأس التين" بالإسكندرية، خرجنا إلى شرفات المنازل يُحيّي بعضنا بعضاً على غير معرفة، فرحين برحيل الملك الخليع.

إنّ هذا الحلم الجميل، أو الوهم الكاذب، لم يستغرق طلابَ "جامعة فؤاد الأول" (التي أضحى اسمها جامعة القاهرة) طويلاً، فقد خرجنا في ربيع (١٩٥٤) بهتافنا: "يسقط حكم البَكْباشيّة"، بعد أن تبيّن لنا الخيط الأبيض من الخيط الأسود: لم يكن الضباط أحراراً، بل عبيداً لمطامعهم، فقد اقترفوا

- إشاعة حكم المخابرات في مصر والأقطار،
- حرب اليمن الكارثيّة،
- نكسة الـ٦٧،
- تضييع ثلاث وحدات (مع السودان ٥٥، مع سورية ٦١، ومع اليمن الشمالي، سيف الإسلام ابن حميد الدين ٦٢)...

وعاد زعيم "الثورة – الانقلاب" مجاريًا للأمريكيين كما كان بدأ، لكنْ منزوع الأظفار والأنياب، راضيًا بما سُمّي بـ"مبادرة روجرز"... ويا ليت عمره طال،

فحققها... قبل أن تستهين إسرائيل بنا، فتأخذ الضفة بمستوطنات وبطُرق التفافيّة حولها، انتزع ذلك معظم أراضي الضفة حتى لم يبقَ لنا منها إلا الفتات![1]

وعلى الرغم من أن فاضل السباعي لا يتبنى فكر القومية العربية بشكل إيديولوجي، ولم ينتسب إلى الأحزاب ذات الصبغة القومية -وما أكثرها يومها- ولكنه كان عربي الهوى والثقافة من حيث العمق، فقد كانت تصوراته للمسألة السياسية أو الأدبية تصورات عروبية، وهذا لا يعني أن الرجل وقع فريسة المد القومي العربي بشكله الإيديولوجي الإقصائي؛ فصار يفكر بهذا المنطق، وهذا يعني في الآن نفسه أن القومية العربية هي بدعة جديدة جاء بها هؤلاء القوميون في عصر شيوع التيارات القومية في أوروبا، ومن ثم انتقالها إلى كثير من البلدان، لقد كان شعور العرب بقوميتهم سابقًا لهذا التاريخ بكثير، وهذا متعلق بالقرآن وبالدين الإسلامي الذي كانت كل مدونته مكتوبة باللغة العربية؛ حتى صار هذا التدوين بالعربية سببًا في دخول كثير من الأمم إلى الإسلام، ولا يمكن أن تفهم القضية وفق ثنائية ضدية : قومية عربية، وضدها من لا يؤمن بالقومية العربية أو لا يعتقد بالمبدأ القومي، بل على العكس من ذلك، القومية هي هوية الشعوب الثقافية، ولكن القوميين حولوا هذا المفهوم إلى بعد عنصري شوفيني يتعصبون فيه للعرب فقط، وصاغوا شكل الدول

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٥/ ٢٢٢-٢٢٣.

التي حكموها وفق هذا المفهوم النازي لمسألة القومية، وعدوا كل ما لا يسير في هذا الركب عدوًا للقومي العربي، ويستحق جزاء أعداء الثورة والوطن والقومية، والأهم القائد العظيم. يقول فاضل السباعي:

«عندما قام الضباط (الأحرار بين قوسين) بانقلابهم يوم (٢٣) يوليو ١٩٥٢، لم تكن تدور في أذهانهم قضية "القومية العربية".. كان الشعب المصري إسلامي الاتجاه، وقلة قليلة تتباهى بالحضارة الفرعونية العظيمة بحق، ولا تتعدّى "عروبتهم" أسوار "جامعة الدول العربية" التي وُلدت في ربوع القاهرة في العهد الملكي. لكن تأميم القنال (وإني مع الذين رأوا فيه عملاً متسرعاً)، وكذلك ما عبّرت عنه الجماهير العربية من الخليج إلى المحيط من تأييد كاسح.. لفت نظر الزعيم الأسمر، وزاد في التأييد والاستلفات "العدوانُ الثلاثي".. فتحول ناصر من يومئذ عروبيا.. وكان ذلك جديداً على ضباط الحركة وعلى الشعب المصري بوجه عام، إلا قلة كانت تتبنّى القومية العربية ممتزجة بالإسلام.

لم يكن عبد الناصر يحمل فكراً استراتيجياً قط. وكان إلى ذلك مصاباً بمرض "السكر البرونزي" (الذي يجعل صاحبه متسرعاً في إصدار القرارات). وكان نرجسيّا يعبد ذاته.

نحّى وأذلّ رئيسه اللواء محمد نجيب، وأدخله الإقامة الجبرية في "عزبة زينب الوكيل" المصادرة، طيلة حياته (حياة ناصر)، لأنه طالب رفاق السلاح بإنجاز وعدهم بالديمقراطية، وأخذ يصرف ضباط الثورة واحداً بعد آخر، واستبد وطاش حتى إنه بعث عمالاً إلى "مجلس الدولة" ليضربوا، أو يقتلوا، رئيسه عبد الرزاق السنهوري أكبر "ذهنية قانونية" في الوطن العربي، ونقل إلى المستشفى، وأمعن في الجعجعة بأنه سوف يرمي اليهود في البحر، فازداد التصفيق له من الجماهير العربية الطيبة.. ودخل حرب اليمن السخيفة وفيها ضحّى بثلاثة وعشرين ألفاً من الجنود المصريين، ولما جاءت نكسة حزيران/ يونيو بكى أمام الناس في التلفزيون واستبكى.

كان جمال عبد الناصر وبالاً على الأمة، قد خرّج فيها القذافي والنميري وبتوع اليمن وقبلهم "بن بلّه" الذي زيّن ناصر له أن يحكم الجزائر حكماً فردياً، وينفي عنها النهج الديمقراطي التي كان الثوار قد أعدّوا له[١].

كان السباعي في عين العاصفة القومية يوم تحولت مصر إلى مرجل للقومية العربية يبث شواظه في كل اتجاه، ثم صارت بلده سورية جزءًا من دولة انقلاب عبد الناصر تحت صيغة الجمهورية العربية المتحدة، لتكون بذرة هدفها أن تتحول إلى شجرة، ولكن هذه الشجرة لم تحمل إلا الحميم إلى كل مكان حلت فيه؛ فقد أراد عبد

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٦/٣٢٣-٣٢٤.

الناصر إعادة إنتاج التجربة المصرية في كل مكان تحل فيه؛ فالشكل واحد: قيادة عسكرية، وحكومة بوليسية، تحكمها أجهزة مخابرات متوحشة، وتبسط الدولة الفكر القومي المصبوغ اشتراكيًا، وفي نهاية المطاف فإن المرجعية لكل منقلب جديد هي القاهرة؛ قاهرة عبد الناصر.

«في صبيحة استقلال الجزائر صيف ١٩٦٢، كان الثوار الذين انتزعوا بالدم استقلال بلادهم، قد أعدّوا في عاصمتهم كل المؤسسات لما أرادوه من حكم ديمقراطي على غرار ما هو في أوربا التي نهلوا من ثقافتها.

الزعيم الأسمر، الذي تقُضّ مضجعه البرلمانات والانتخابات الصحيحة، أشار على سجين الثورة الكبير "محمد بن بلة" أن يجعل الحكم لنفسه، فاستجاب.. ودخل - هو الثائر الذي كان قضى السنين في المعتقلات الفرنسية - بلاده "دخول الفاتحين"، والرفاق الحالمون بالديمقراطية تفرّقوا في كل مكان.. وهو راح بغير الحنكة يحكم، حتى انقلب عليه بعد ثلاث سنوات، واعتقله، ساعدُه الأيمن العسكري "هواري بومدين"، مستخلصًا الحكم لنفسه إلى أن وافته المنية عام ١٩٧٨

من تلك "المشورة" تبتدئ مأساة الجزائر.

أكتبُ للتاريخ شهادتي هذه التي ظلت تؤرّقني مدى عمري.[١]

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٦/٢٦٥.

في المنشورات التي كتبها فاضل السباعي ابتداء من ثورات الربيع العربي في موقع فيس بوك، حرص على إعادة شرح المشهد السياسي الذي صار بعيدًا جدًا، وصار استذكاره مختزلًا؛ لذلك حرص على ذكر التفاصيل التي عاصرها سواء بوصفه شاهدًا أبصرها بعينه، أم قرأ عنها أو سمعها في فترة حدوثها منتصف الخمسينيات؛ هذه التفاصيل التي كانت سببًا في كل التحولات السياسية والاجتماعية والثقافية التي أصابت الأمة لاحقاً؛ الأمة وفق تصور عبد الناصر، والأمة وفق تصور السباعي.

كتب السباعي تحت عنوان: ممارسات الضباط الانقلابيين

«"جمال سالم" رئيس "لجنة المصادرة".. يطلب يد "الملكة فريدة"

ذات عام قالت البنات الثلاث لأمهنّ: لو أنك ما تركت أبانا الملك وظللت إلى جانبه تسدّدين خطاه، فربما لم يقع انقلاب (٢٣) يوليو!

وما نعرف بم أجابت الأمّ الملكة السابقة "فريدة"، ولكنّا عرفنا أنّ الانقلابيين طالبوها بما كان تأدّى لها من مجوهرات من أيام زواجها بالملك فاروق على أنها من "أموال الشعب"، وعرفنا أيضا أنّ "جمال سالم" (عضو مجلس قيادة الثورة رئيس "لجنة المصادرة")، لما جاءها يبلغها قرار المصادرة عرض عليها الزواج، فثارت عليه وطردته من بيتها!

تقول الدكتورة لوتس عبد الكريم، صديقة الملكة السابقة، في كتاب ألّفته بعنوان "الملكة فريدة وأنا"، إنها أعطتهم كامل ما عندها من مجوهرات، ولكنهم انتزعوا منها أيضا ميراث أبيها (فيلا في طريق الهرم).

كانت "صافيناز يوسف ذو الفقار" (وهو اسمها الحقيقي)، تتحلّى بحسّ مرهف، وثقافة عالية، وتمارس الرسم باعتبارها فنانة تشكيلية. ولدت عام (١٩٢١) وتوفيت بالقاهرة عام (١٩٨٨) وفيها دُفنت[1].

انتصر فاضل السباعي للملكية، وحاول خلال كثير من المنشورات التي كتبها أن يُنصف الأسرة الملكية، ويخفف من كثافة الدعاية التي شوهت سمعتها لتسوغ الانقلاب عليها

«نعم، كان الملك فاروق خليعاً، ولكن خلاعته لم تتجاوز أسوار قصره.

كان يطبق الدستور ولا يتدخل في الحكم إلا قليلاً. ويوم أقال وزارة "النحاس باشا"، المؤيَّد من الشعب (وفيها طه حسين وزيراً للمعارف)، وجاء برجل القصر القوي "الهلالي باشا"، فإنما كان ذلك بسبب "حريق القاهرة" مطلع ١٩٥٢، ذلك الحريق الذي أشعله الماركسيون أملاً في إحداث خلخلة في النظام يستفيدون منها.

(١) ينظَر من الكتاب: ٥/٢١٧-٢١٨.

وأما "التقدمي" جمال عبد الناصر..... فهو سالب الحريات ومؤسس الديكتاتوريات في الأرض العربية![1]

على الرغم من انشغال السباعي بالراهن السياسي أثناء تدوينه على الفيسبوك إلا أن ظلال التاريخ كانت حاضرة بقوة في كتاباته؛ لأنه يعدها المحرك الأساس في اللحظة السياسية التي يعيشها. كان السباعي مرآة للحدث السياسي في عصره، وقد نقل هذا الحدث لجمهوره بعد انتهاء هذه الحقبة بستين سنة؛ حينما تحولت إلى تاريخ ليدخل المتحف، ولكن السباعي استوقفها ليسائلها مرة أخرى.

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٥/ ٢٢١.

لغة السباعي وأسلوبه في رقمنة منشوراته

فرضت التكنولوجيا في عصرنا لغة يمكن وصفها بالمتطورة، فطبيعة الميدان الذي تسهم فيه اللغة اليوم مغاير لما كان من قبلُ، فحضنُ الورق كان ملعب اللغة العربيّة تبدع فيه فكرًا وتعبيرًا وأسلوبًا، بينما انتقلت العربية في عصرنا هذا إلى جوف الحواسيب والهواتف الذكية والذكيّة جدًّا، فهل ستُظهر العربيّة عبقريتها مع هذه التكنولوجيا المتقدمة التي تفرض على اللغة في أحايين كثيرة شروطًا قد تجعل اللغة تتنازل عن بعض ميزاتها أو خصائصها من أجل الاستمرار مع هذا الفضاء والعقد الافتراضيين، وهذا لا يعني أنّنا نرفض التعامل مع هذه التكنولوجيا أو التعامل معها، ففضلها جليٌّ في انتشار اللغة من خلال المنشورات والتعليقات والمحادثات والنقد والرد، وكلُّ أولئك آنيٌّ أمام جمهور ليس بقليل لا ينتظر مدّة زمنية كما كان في السابق حتى يصدر كتاب أو مقال ثم ينتظر دهرًا حتى يقع على مقال نقديٍّ له.

الكتابة الرقمية نمط جديد من الكتابة التي تولدت نتيجة التطور الهائل الذي حدث في مجال تكنولوجيا الإعلام والتواصل، من أجل التفاعل الإبداعي بين القارئ والكاتب، ومع أنّ الكتابة الرقمية باللغة العربية لم تبلغ ما وصلت إليه اللغات الأخرى كاللغة الإنجليزية إلّا أنّ هذا لم يمنع بعض الباحثين من أن يبذل جهدًا في التنظير للكتابة الرقمية في العالم العربي من أمثال سعيد يقطين الذي حاول توضيح مفهوم الكتابة الرقمية وخصائصها وأبرز ميّزاتها.

بعد البحث والاستقراء والتحليل في كتابات السباعي -رحمه الله- وقعنا على خصائص كثيرة للكتابة الرقمية، كتدفّق الأفكار على ما سيأتي لاحقًا، والإبداع في عرض المفاهيم الدلالية، والصياغة التي تميزت بالجودة مع الأسلوب الذي بدا فيه السباعي خفيف الظلّ مع روح مرحة أحيانًا كثيرة من دون إخلال بالوحدة النصّية في كلّ كتاباته وإنْ تشعّبت الأفكار أحيانًا، إضافة إلى الاقتباس والتضمين والعمق البنيوي الذي إخاله نابعًا من تجربته الطويلة في الكتابة وعمره المديد، فقد عاصر أنظمة كثيرة وعايش وقائع كثيرة في بلده وغيره من البلاد التي هاجر إليها للتحصيل العلمي أو للاستقرار أو للبحث العلمي، إضافة إلى نقطة مهمَّة وهي أنه ينحدر من أسرة مزجت بين الأعراق، وهذا المزيج يمكن أن يكون سببًا من أسباب إبداعه في الكتابة النمطية والورقية، ولا سيّما إذا عرفنا أنّه جُبل على الكتابة منذ نعومة أظفاره.

ونحن نتحدّث عن لغة السباعي الرقمية وأسلوبه سنكتشف خصائص جديدة مهمَّة قد لا نجدها عند كثير من الكتّاب، وسنعرض هذه الخصائص بإيجاز.

المزج بين العامية والفصحى

"بين العامّيّة والفصحى ...

قبل سنوات ارتفعت الأصوات مُشفقةً على أنّ اللغة العربية الفصحى تتراجع عند أهليها الناطقين والكاتبين بها. الآن تأكّدت من ذلك، من خلال ما أقرأ من تعليقات على حيطان الفيسبوك... فانتابني الإشفاق، أيها الأصدقاء!

أنا لا أتطلّب ممن يكتبون بالعامية أن يُقلِعوا، بل يخفّفوا ما هم فيه... مع علمي بأنّ كثيرًا من تعبيرات الحياة اليومية لا تحلو إلا بإيرادها بالعامية.

إنها اللغة التي تجمعنا من الماء إلى الماء، كما يقولون، وبها ندوّن حوادث التاريخ، وبحروفها النيّرة نبدع الأدب، ونتعلم العلوم، أيها الأحبّاء[١]".

بهذا القول يعبّر السباعي عن خوفه على العربية الفصيحة، إلّا أنّه لا يطلب من كتّاب الصفحة الزرقاء الإقلاع عن العامّية إقلاعًا كاملاً، بل يطلب منهم التخفيف منها؛ لأنّنا بالفصيحة نكتب التاريخ ونبدع في الأدب ونتعلّم العلوم، يريد أن تكون العامّيّة تحلية للكلام والكتابة، وقد رأيناه يفعل ذلك في كتاباته الرقميّة وكأنّه يخاطب القارئ بلغة يريدها أن تصل إلى أفهام كلّ شرائح المجتمع الثقافية على مستوياتها المختلفة.

---

(١) ينظَر من الكتاب: ١/٢٠٨.

هناك أمثلة كثيرة على الكلمات العامية التي أوردها في كتاباته، مثل: الأركيلة، البكباشي، عندكو، حزّورة.. صعبة شْوَيْ! سائق التكسي، الراديو، بتاع أمس، النّت، لَخْشة، البوط، حْرَام (غطاء)، كمان هديك، الهوب هوب، والسكاير، ويسولف، القْنَاق، الشّنطة، يشفّطون، يستاهل، خَرْجُو، بيي.

إضافة إلى تضمين جمل عامية وردت في حواريات بينه وبين جلسائه باللهجة المصرية وغيرها، مثل جوابه عن سؤال أحدهم:

"هوّه في سورية عندكم أفران؟

امّال بجيلكم الخبز منين؟ وسألته العيش الفاخر اللي قدامك اسمه ايه؟ قال: عيش شامي! كفايه ذلّ كفايه عار.. أوعى ترحل يا بشار"[1]

وكلام السجّان معه: "بتطلب، ولّا أدخل أعمل لك اللازم"[2].

امرأة تحمل طعامها بين يديها وقدَّمتْه لأفراد من الجيش الحر، وهي تقول: "خدوا كلوا انتو عم تضحوا بأرواحكن أنتو أحسن منا" [3].

"يامو هادي مو فتايل وسخ تنزل مني، هادا لحمي يامو"[1].

(١) ينظَر من الكتاب: ١/ ٣٧٩.

(٢) ينظَر من الكتاب: ١/ ٨٠.

(٣) ينظَر من الكتاب: ١/ ٢٦٨.

"يعني صار لكم ساعة تتحدثوا عن صفقة بالملايين.. وبدكم تحاسبوني على القروش "[٢]

"يا بيّي! ما هيك علّمتنا

ولا هيك ربّيتنا

وبالمدرسة كمان قالولنا: حبّوا بعضكم

شو عملوا أخواتي ورفقاتي يا بيي!

أختي أحلام بالسكين دبحوها

متل ما بيدبح لحّام حارتنا الخروف

ليش أختي بيتّاكل لحما، يا بَيّي؟!

وخَيِّي ربطوا إيديه وقوّسوه وسيّحوا دمّاتو.. ليش يا بَيِّي؟ "[٣].

رسالة مطوّلة من ابن إلى أبيه الشهيد بالعامية أوردها السباعي بهذا العنوان (رسالة من ابن إلى أبيه الشهيد).

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٣/ ٤٠٠.

(٢) ينظَر من الكتاب: ١/ ٢٣٧.

(٣) ينظَر من الكتاب: ١/ ٢٤٢.

ونلاحظ أنّ السباعي يستعمل مزيجًا من اللهجات العامية في الأمثلة السابقة، كالمصرية والشامية وغيرها ممّا نجدها في كتاباته، وهذا أيضًا دليل على تلاقح الثقافة لديه، فهو رجلٌ ديناميكي كثير التنقّل واللقاءات مع الشخصيات من مختلف البلدان، وهذا الأسلوب يجعل المخاطب أكثر تفاعلاً مع النصّ، وكأنّ السباعي "يكيّفُ صيغة خطابه حسب الذين يخاطبهم، وهذا التكيّف أو التأقلم ليس اصطناعًا لأنّه عفويّ"[١] وحصيلة خبرة طويلة.

لم يكتف السباعي باستعمال الكلمات العامية بل نحا بها نحوًا جديدًا، فكان **يصوغ أفعالًا** من الجمادات مثل الأركيلة وغيرها، فيقول: أؤركل، ونؤركل؛ أي ندخّن الأركيلة، يشفّطون: من تشفيط السيارة

من حيث **شكل المعاني** نقف على طرائق السباعي في عرض المعاني والدلالات في نصوصه الرقمية، كالتصريح والترميز والتلميح، ونبدأ بـ:

التصريح:

تفاوتت لغة السباعي بين التصريح والتلميح والترميز، فهو لا يرى حرجًا من التصريح إذا تطلّب الأمر، كما فعل في أثناء حديثه عن محمد حسنين هيكل وكذّبه، بحسب وصْفهِ له، في كتابة معنونة بـ (كذب هيكل عندما....) ولم يدارِ في هذا المنشور

---

(١) عبد السلام المسدي، الأسلوب والأسلوبية، (الدار العربية، ط٣، د. ت.)، ٨٠.

هيكلاً بل وسمه بالكذوب، "كتب الصحفي المصري محمد حسنين هيكل، إعلامي عبد الناصر، في الجريدة التي يرأسها الأهرام يوم (٢٧) أكتوبر (١٩٦١) أي بعد انفصام الوحدة بين سورية ومصر، مدّعيًا أنه ينقل حرفيًّا ما قاله الرئيس شكري القوتلي للرئيس جمال عبد الناصر بعد التوقيع على اتفاقية الوحدة عام **١٩٥٨**:

شكري القوتلي:

هيه.. أنت لا تعرف ماذا أخذتَ يا سيادة الرئيس؟ أنت أخذتَ شعبًا يعتقد كل من فيه أنه سياسي، ويعتقد خمسون في المئة من ناسه أنهم زعماء، ويعتقد (**٢٥**) في المئة منهم أنهم أنبياء، بينما يعتقد عشرة في المئة على الأقل أنهم آلهة"[١] يقول السباعي: "أقول: ليس في الدنيا شعب على هذه الصورة التي رسمها الكَذوب هيكل. إنه يفتري على الشعب السوري بلسان رئيسنا، تغطيةً على فشل سيده في التعامل مع الوحدة"[٢].

في هذه القطعة التي أوردها السباعي على لسان هيكل ومن ثم الردّ عليه، يتبدّى لنا المستوى النفسي للسباعي وحالة الغضب التي انتابته جرّاء افتراءات (هيكل) على الشعب السوري ممثَّلا برئيسه شكري القوتلي، كما يظهر مدى اعتزاز

---

(١) ينظَر من الكتاب: **٦/ ٢٣٩**.

(٢) ينظَر من الكتاب: **٦/ ٢٤٠**.

السباعي بالشعب السوري ورئيسه وغيرته عليهما، ويمثل هذا قوله: "ليس في الدنيا شعب على هذه الصورة التي رسمها الكَذوب هيكل "[1].

ثمّ إنّ للسياق أهمّيةً كبيرة في تحقيق المعنى وتوضيحه، فلا يمكن معالجة الكلمة مجرّدة من سياقاتها ككلمة (كذوب) على وزن فَعول، وهذا الوزن مشترك بين مبالغة اسم الفاعل والصفة المشبهة باسم الفاعل، ومع أنّ اللفظة هنا دالّة على المبالغة إلّا أنّه يشتمُّ منها الصفة المشبهة باسم الفاعل، ويكأنّ السباعي أراد أن يصف هيكلاً بالمبالغة في الكذب من جهة ويصفه بصفة الكذب الملازمة له في أي مقام أو مقال آخرين، ومن هنا لا يمكننا تجريد هذه الكلمة من سياقها؛ فالسياق هو الذي يهب الكلمة دلالاتها من خلال موقعها في النص، ومن ثمّ فاللفظة تستمدّ قيمتها منه.

نرى في هذا النص أيضًا ازدراء السباعي لهيكل ورئيسه عبد الناصر الذي وصفه بالفاشل، ولا سيما استعماله **ضمير الغائب** في كلمة (سيّده) هذه الكلمة التي لها دلالات كثيرة أدقّها (العبودية) التي يمثّلها محمد حسين هيكل، وكلمة (الفشل) التي تدلّ على إفلاس عبد الناصر، وهذا الفشل يقابل الصورة اللامعة التي رُسمت له عن طريق الإعلام والكتّاب أمثال هيكل وإخراجه بمظهر (الزعيم!).

(١) ينظَر من الكتاب: ٦/ ٢٤٠.

مثل هذا التصريح يتكرّر كثيرًا في كتابات السباعي بحسب المقام والموضوع والحالة التي هو فيها وفق سياقات داخلية للنص وسياقات خارجية تؤلّفه وتجعله متماسكًا يجذب القارئ ليصطدم مع الواقع المزيّف الذي جعل من عبد الناصر زعيمًا وهيكل كاتبًا، فيهدم بذلك الزيف ومن ثم يخرج القارئ من قوقعة الأكاذيب إلى فضاءات أكثر حرية للتفكير، فالسياق وحده يوضح التعبير ثم تأتي إشارات الألفاظ التي تمكننا من الولوج إلى أعماق الكاتب للكشف عن انفعالاته ومشاعره وإثارتها والغور في أعماق نفسه التي تسعفنا بتوضيح المعاني، فالسياق العام والسياق الداخلي في النص كشف عن حِدّة هذه المشاعر وقوّتها، إضافة إلى كشفها حقائق عن هيكل كانت غائبة عن كثير من الناس الذين غرر بعقولهم الإعلام فصوّر هيكلاً كاتبًا بل شاهدًا على العصر وهو الكذوب على وصف السباعي له.

أمّا **التلميح والترميز** فكثُر أيضًا في كتاباته ولا سيما عندما كان ينتقد رئيس اتحاد الكتاب العرب علي عقلة عرسان فكان يرمز إليه بـ(ع. ع. ع.) إلّا أنّه لم يلتزم بالترميز إليه بل صرّح باسمه أكثر من مرّة، ولعلّ الترميز المكشوف كان لغاية في نفس السباعي المتمرّدة.

ومن أمثلة التلميح **ما جاء في نص بعنوان الطالب ذو الخط الجميل:**

"عرفه زملاء المدرسة يكتب فيهم التقارير، ويقدّمها إلى حيث يأتي مَن يصحبهم إلى قاعات الدرس مرشدًا.

وسبقتْه سمعتُه إلى الجامعة، فتحاشاه الطلاب هناك، قبل أن يعلموا أنه أضاف إليهم الكتابة في حقّ أساتذته الذين يتلقّى عنهم العلوم والمعارف.

وقُدّر له أن يُبادل زميلةً له الحبّ، فلمّا اختلفا أخذا يتبادلان الكتابة "بالخطّ الجميل"، ولكن لم يستطع أحدهما أن يوقِع بالآخر، لأنهما كانا في مضمارهما متكافئَين.

وفي ذلك جعل زملاء الجامعة يتندّرون بأنه لو اختلف مع أبيه لكتب فيه، لولا أنّ أباه أسرع في الرحيل"[1].

فاللغة الإيحائية في هذا النصّ جاءت من ترابط الكلام داخل الجمل على الرغم من أنّ الكلمات والجمل مألوفة لا غرابة فيها، فضمير الغائب يوحي بشخصية فاسدة همّها كتابة التقارير حتّى إنّه عُرفَ بين زملائه بكتابتها، وبدؤوا يتحاشونه، ويتندّرون به، يمثله قول السباعي: الطالب ذو "الخط الجميل"..

لا تخلو هذه الكتابة أيضًا من دلالة السخرية في رسم صورة هذه الشخصيّة، هذه السخرية تبدأ من العنوان مرورًا بكتابته التقارير وسيلان قلمه فيها بخطّه (الجميل) وفي هذا الوصف من السخرية والتهكّم المبطّن الذي لا يخفى على الإنسان

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٣/ ٤٠٧.

السوري الذي عانى من هذه التقارير، فكان يحذّر من أمثال هؤلاء بمقولة ساخرة (هذا خطّه جميل) فيفهم المخاطب دلالة هذه الكلمة.

ومن أمثلته قوله: "هل تعلم، أيها السوري، أنّ التهمة التي وجّهتها السلطات الفرنسية إلى الزعيم المجاهد إبراهيم هنانو، أمام المحكمة العسكرية الفرنسية بحلب عام (**١٩٢٢**)، كانت: قيادة عصابة مسلحة"[١].

ما أجمل هذا التلميح الذي ينوّه بالقارئ إلى تشبيه النظام الحاكم بالاحتلال الفرنسي الذي وصف الزعيم إبراهيم هنانو بـ (قائد عصابة) كي يبعده عن شرعية النضال، وكذا يفعل النظام مع قادة الثورة، فقد وصفهم بالمتآمرين تارة وتارة بالإرهابيين، وما إلى ذلك من الأوصاف.

السخرية بطريقة فنية وغير مباشرة تبين مفارقات غريبة أيضًا في: قصة خولان قبل زواجه من خولة، ورمي الغرباء إياه من الطابق الرابع ككيس أسود، ثم يقول: "وفي اليوم التالي، كان الاحتفال بعيد العمّال العالمي"[٢].

وفي قوله: "حتى الشهداء خرجوا من قبورهم الجماعية، أَدْلَوا وعادوا سالمين"[٣].

(**١**) ينظَر من الكتاب: **١/ ٢٢٨**.

(**٢**) ينظَر من الكتاب: **١/ ٢١٩**.

(**٣**) ينظَر من الكتاب: **١/ ٢٢٦**.

سخرية صارخة في وجه نظام يدّعي الديمقراطية ويتبجّح بالانتخابات وصناديق الاقتراع، سخرية تُوحي بدلالاتٍ نفسية كثيرة مفعمة بالألم والحزن والمرارة على خلاف السخرية التي قد تبعث على الضحك المحض، لتصوّر حياة شعبٍ مقهورٍ مغلوبٍ على أمره، لا حول له ولا قوة. فالكلمات التي وظّفها السباعي للسخرية (كيس أسود، الغرباء، رمي، الاحتفال، عيد العمال العالمي، خروج الشهداء من قبورهم للإدلاء بأصواتهم، والعودة السالمة لهم) تتآلف مع بعضها لتشكيل نصٍّ ساخرٍ يظهر المهزلة القاسية التي يعيشها السوري في وطن مسلوب لا يملك فيها حتّى حياته!

لا يخفى ما توحي به عبارة (الخروج من القبور للإدلاء بأصواتهم ومن ثمّ عودتهم سالمين) من دلالات هادمة لعقلية النظام وديمقراطيته المزعومة، وكلمة (قبورهم، سالمين) تفضح هذا النظام وتعرّيه أمام القارئ من ثوب الديمقراطية المزعومة!

ومن أمثلة السخرية بطريقة فنّية قول السباعي: "وهو ما كان عبقريّ القصة السورية، المسؤول عن النشر في اتحاد الكتّاب العرب يومذاك، حرص على أن يَحُول دون صدوره ضمن منشورات الاتحاد... هذا الكاتب (ز. ت)، الذي يضع نفسه اليوم

في صفوف المعارضة"[١].

تتجلّى السخرية في هذه القطعة النثرية في قوله: عبقري القصة السورية، فكلمة عبقري وإشارة التعجّب التي أمام هذه العبارة، ومن ثم تأتي عبارة: يضع نفسه في صفوف المعارضة، مع إشارة تعجّب أخرى تجعل النص ينضح بالسخرية، إلّا أنّنا لا نغفل عن السياق الذي منح هذه العبارات ومن ثم منحت الألفاظ مدلول السخرية.

اختيار الألفاظ:

وفق استقراء كتابات السباعي يمكننا القول إنّ السباعي تميز بحسن اختيار الألفاظ في كثير من كتاباته، إن لم نقل كلّها، فقد كان دقيق الاختيار للألفاظ والكلمات والعبارات للتآلف فيما بينها، مشكّلة نصًّا متماسكًا موجّها إلى القرّاء مؤدّيًا وظائفه لتحقيق الغرض أو الهدف المأمول منه، ويمثّله قول السباعي: "ساعة آخذُ كأس قهوتي صباحا، يتراءى لي أني تناولت كأس أمس قبيل ساعة من الزمن ليس إلّا! تُرى كيف يُحسّ بالزمن أبناء وطني، المهجّرون إلى أصقاع الأرض يقتلهم الشوق والحنين، وساكنو الخيام يتحمّلون شظف العيش وهم يخشون ثلج الأشتية القادمة، والباقون في الوطن يتلقّون الهدايا النازلة عليهم من فوق، وتلك التي تمرّ على أعناقهم فوق سطح الأرض"[٢].

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٢/ ٢٧٠.

(٢) ينظَر من الكتاب: ٦/١٦٨.

اختيار السباعي لألفاظه في هذا النص اختيار مقصود، وهي ألفاظ نابعة من الواقع وملامسة له ومعبرة عنه، فالألفاظ الدالّة على الزمن تشكّل منظومة متناسقة من الألفاظ لتعبر عن الفكرة التي يرمي إليها ويريد إيصالها إلى المتلقي، هذه الكلمات هي (ساعة، صباحا، أمس، قبيل ساعة، الزمن، الأشتية)، ثم يؤلّف بين هذه الكلمات وكلمات أخرى كالأفعال والروابط التي تربط بين الجمل فيتكوّن النصّ الذي يرمي إلى هدف الإحساس بالزمن.

فالإحساس بالزمن مختلف من شخص إلى آخر، ومن فئة إلى أخرى، فهو الجالس في الصباح يتناول فنجان قهوته الصباحية يشعر بتسارع الزمن وكأنّه يشرب كأس أمسِ، فالزمن لديه متقارب، بينما يكون على غير ما هو عليه غيرُه من أبناء وطنه، وقد صنّفهم ثلاثة أقسام؛ المهجّرون الذين قتلهم الشوق والحنين وبرّح بهم، وساكنو الخيام الذين يعانون شظف العيش ويتملّكهم خوف رهيب من الأشتية القادمة، والباقون في الوطن يعيشون وعيونهم معلقة في السماء بانتظار الهدايا وفي الأرض كذلك! فاختيار هذه الألفاظ لم يكن عبثًا بل أراد منها أن تؤدّي وظائفها، ودلالاتها، وتعبّر عن معانيها.

فجعل كلمة (شظف) التي تعبر عن الشدّة والقسوة أي شدّة العيش وقسوته تناسب ما بعده وهو الخشية من ثلج الأشتية التي لها دلالات القسوة والشدّة ولا سيما

إذا أعدناها إلى سياقها الذي أفصح عن مرجع أو معاد الضمير الغائب وهو (ساكنو الخيام)، وتناسب بدورها ما بعده وهو الباقون في الوطن يتلقّون الهدايا من السماء والأرض، ولا يخفى عن ذي بصيرة أنّ هذا إيحاء وإشارة إلى الموت، فمن بقي في الوطن مصيره الموت لأنّه يتلقى الهدايا من السماء وهذه الهدايا هي البراميل المتفجرة والتي تمر على أعناقهم في الأرض وهذه الهدايا أيضًا أدوات الموت، وهذه الحالة أيضًا تدلّ على الشدّة والقسوة والمعاناة.

إذًا أصبح النسيج متناسقًا في خطٍّ المعاناة والقسوة، ثم نقابل الإحساس بالزمن بين هذه الحالة القاسية التي يعيشها الشعب، مع الحالة التي يعيشها الكاتب وهو يشرب فنجان القهوة، ونصطدم باستنتاج قاسٍ لقضية الإحساس بالزمن بين هاتين الجهتين (الكاتب الذي يتسارع لديه الزمن) و(الشعب الذي يعاني فيتثاقل الزمن وكأنّه لا يبرح مكانه).

ثم من الناحية النفسية فإن الكاتب يشعر بالذنب في هذه المقارنة بين حاله وحال شعبه المنقسم إلى هذه الفئات الثلاث التي تعيش مأساة تكاد تكون واحدة.

قوة تأثير الألفاظ:

تحدثنا عن حسن اختيار السباعي للألفاظ، وهذا يقودنا إلى الحديث عن تأثير هذه الألفاظ في المتلقي؛ إذ يقوى تأثير ألفاظه وفق مقتضى الحال، فنرى السباعي في مثل قوله:

"ويدمّر الغرباء بيوتنا

ويقتّلون أطفالنا

ويهجّرون شعبنا

ويَزدَرون المسؤولين فينا

والعالمُ كلّه يتفرّج

ما بين صامت

وشامت

ومصفّق في العلن

ونحن لا نملك إلا الدعاء"[١].

وينتقي ألفاظًا قويّة التأثير في المتلقي والمخاطب، وهذا ما يسمّى بالدلالة الصرفية التي تُستمدّ من بنية اللفظ وصيغته، فتشديد عين الكلمة يفيد قوة المعنى وتكراره[٢] فكلمة (يدمّر) تدلّ على الهدم والتخريب والإبادة، ثم إن استعمال الكاتب صيغة الفعل المضارع هنا، لما فيها من استمرارية هذا الفعل الشنيع، جعله يستمر في استعمال صيغة المضارع في الأفعال اللاحقة لما بينها من ترابط وعلاقة معنوية ودلالية،

---

(١) ينظَر من الكتاب: **٥/ ٣٩٩**.

(٢) انظر ابن جني الخصائص، دار الكتب المصرية، المكتبة العلمية)، تحقيق، محمد النجار، **٢/ ١٥٥**.

كـ (يقتلون، يهجرون، يزدرون..) فكلّ هذه الأفعال متعلّقة معنويًّا بالفعل (يدمّر) بعلاقة السببية، فالتدمير يسبب القتل والتهجير والازدراء، ثم إنّ استعمال الفعل على وزن (فعّل، ويفعّل) له تأثير قويّ في المتلقّي لأنّه يفهم منه المبالغة والإسراف في القتل والتهجير، ثم ينتقل إلى اختيار أسماء مناسبة للسياق كالمشتقات؛ اسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة باسم الفاعل، فقد استعمل اسم الفاعل من الثلاثي ومن غير الثلاثي (شامت) (مصفّق)، ومثل هذه المشتقات متناسبة مع الأفعال السابقة، ويساعدنا السياق كما نعلم على فهم مدلولات هذه الكلمات، وإذا ما انتقلنا إلى كلمة (صامت) وهي على وزن فاعل إلّا أنّها تدلّ على الثبوت والديمومة، فهي صفة مشبّهة باسم الفاعل جاءت على وزن فاعل وهو مثل (طاهر، ضاجر، فارح).

ويُلاحظ تأثير كلمة (الغرباء) بقوّة في المخاطب لتدلّ على أنّ الذي يدمّر هو غريب عن الوطن وأصحابه، ولا تخفى قوة التأثير في كلمة (يزدرون) ولاسيما وقع الازدراء على المسؤولين، وهنا يصبح التأثير أقوى، فالازدراء هو الاحتقار وهو صيغة نحوية تعبر عن دلالة سلبية تحطُّ من شأن شخص وعدم احترامه، وأمّا المسؤول فهو من تقع عليه مسؤولية ما، فهو موظَّف كبير في هذا النصّ وله مكانة مرموقة ومنزلة عالية، فجعل الازدراء على صاحب الرفعة والعلو يجعل للكلمة قوة تأثير فاعلة في المتلقي.

ويمثله أيضا قوله:

"لم نعد نريد سماع:

بطل العروبة الخالد

الزعيم الأوحد

القائد الفذّ

نفوسنا تهفو إلى أن نسمع:

الحرية في كل مكان

العدل سيّد الزمان

والمساواة حقّ للجميع "[١].

تطالعنا قوة التأثير في بداية النص عندما نفى الفعل المضارع بحرف جازم يفيد القطع، فهو جزم بعدم إرادة سماع شيء، وهذا يحيل المتلقي بعدها إلى معرفة المضاف إليه، وهذه الإضافة بيانية، ثم تأتي الكلمات المعهودة التي اعتادها الشعب حتى ملّ منها ثم ثار عليها وعلى مدلولاتها، وهي (بطل العروبة الخالد) و(القائد الفذّ) و(الزعيم الأوحد) فهذه الكلمات لها تأثير كبير في المتلقي لا شكّ، ولا سيما أنّ المتلقي يعرف أنها كلمات أو عبارات جوفاء بعيدة عن الحقيقة، فلا هو خالد ولا هو فذّ ولا هو الأوحدُ، إنّما هي أوصاف لقمع عقول الشعوب ومنعها من التفكير في الحرية

(١) ينظَر من الكتاب: ٥/ ٤٠٠.

والخلاص والتخلص من مثل هذا والإتيان برجلٍ رشيد حكيم عادل.

ومقابل هذا تأتي كلمة (تهفو نفوسنا إلى أن نسمع) لتؤثر في النفوس وتقودها مرة أخرى لمعرفة المسموع فتأتي كلمة (الحرية) و(العدل) و(المساواة) لتلامس شغاف القلوب التوّاقة إلى الانعتاق من الظلم وانتشاق نسائم الحرية.

سيميائية العنوان:

العنوان أو العنونة من أهم مرتكزات الإبداع في الكتابة، وقد أبدع السباعي في كثير من عنوانات كتاباته الرقمية، فجاءت مستنفرة مستفزّةً عقلَ القارئ وهمّته للقراءة؛ لما توحي به من دلالات وإشارات إلى مضمون ما ينطوي تحتها، وأمثالها كثير، مثل: (يتحنّى بدمائنا... فيصنع أبطالًا)؛ تحت هذا العنوان يقول السباعي: "أيها النظام، الذي ما زال يتحنّى بدمائنا...

بأيديك تصنع منّا البطولات وأنت لا تدري"[1].

هذا العنوان الذي يعصف بالعقل فيوقظه من رقاده ويضع القارئ أمام نصٍّ - وإن كان مقتضبًا- يصوّرُ ممارسات النظام ودمويته من جهة ويصنع الأبطال من الشعب من جهة أخرى.

توظيف كلمة (يتحنّى) للتعبير عن الدماء وعن التزيّن، وكأنّ النظام يتزيّن بدماء الأبطال، فمن المعلوم أنّ الحنّاء مادّة تتزيّن بها النساء، فإذا جازفنا في التعمّق في

---

(١) ينظَر من الكتاب: ١/ ٢٣٢.

التحليل وتكلّفناه قليلاً نقول: إنّ النظام امرأة دموية تتزين بدماء الأبطال، وما الذي يمنعنا من مثل هذا التحليل إذا كان العنوان يوحي لنا بهذا؟ ثمّ ينتقل إلى كلمة دالّة وهي (بدمائنا) فإضافة الدماء إلى ضمير المتكلّم تبيّن موقف السباعي من الثورة من جهة ومن هذا النظام من جهة أخرى، فهو واحد من الشعب، وثائرٌ من ثوّاره ودماء الشهداء هي دمهُ، فالدمُ السائل رابطة قويّة تربط الكاتب بالشهداء الذين هم الشعب السوري الذي ثار في وجه الظلم، وأطلق على ثورته اسم (ثورة الكرامة)، إضافة إلى أنّ سفك النظام لدماء الأحرار صنع منهم أبطالًا من حيث لا يدري، فهي الدماء التي ترسم طريق الحرية والكرامة، ومن هنا نستبين أنّ سيميائية العنوان هي قراءة ما وراء اللغة. [١]

- عنوان آخرُ: (لماذا كان صوت التفجير مخمليًّا؟)

"بعد تفجير الأربعاء في مبنى «الأمن القومي» الذي لا يبعد عن بيتي سوى خطوات، ما زلت أتساءل لمَ لمْ يبلغ دويّ الانفجار سمعي:

هل مردّ ذلك إلى أني رجل قد بلغ الثمانين وتجاوزها؟ أم لأن التفجير كان مخمليّا ما يناسب حيّ الروضة الذي أسكن في أحد طوابقه الأرضية؟ "[٢].

---

(١) ينظر حبيب بوزواده، علم الدلالة التأصيل والتفصيل، (معسكر: منشورات المركز الجامعي الإسطنبولي، ٢٠٠٨)، ص١٢٦ وما بعدها.

(٢) ينظَر من الكتاب: ١/ ١٥٤.

في هذا العنوان كلمة مثيرة وموحية بالطبقية في المجتمع السوري، وهي كلمة (مخمليّ)، ووصف كلمة (تفجير) بصفة (مخمليّ) يوحي بنوع من الطباق الذي يبيّن التفاوت الطبقي على صعيد الحياة والمجتمع والمسكن والحي وغير ذلك، حتّى التفجيرات في المناطق السورية مختلفة، فالتفجير في الأحياء البسيطة لا يبقي ولا يذر، والتفجير في الأحياء الراقية الأرستقراطية يجب أن يكون مناسبًا ومحدود الآثار، أي يكون أثره بمقدار ما حُدِّد له، ويجب أن يكون في هذه الحالة مخمليًّا! فمن قدّره وحمّله؟!

إضافة إلى أنّ الموادّ المعدّة للتفجير في الأحياء الفقيرة والثائرة هي (خردة) جُمعت في براميل تُضرب بها هذه الأحياء، أمّا في الأحياء المخملية فهي موادّ دقيقة وباهظة الثمن يُرادُ بها تصفية شخصيّات طالما نكّلت بالشعب السوري المغلوب على أمره، فهذه الطبقة لا ترضى بتفجير رخيص، فقد اعتادت على مصّ دماء الشعب ونهب ثرواته، ويجب أن يموتوا على ما عاشوا عليه، فكان التفجير مخمليًّا!.

- عنوان آخر: (الخبز.. وجرائد الصباح)

ينضوي تحت هذا العنوان محتوى جاء فيه: "بعد الخبز الذي افتقدناه، وليس في مقدورنا أن نستعيض عنه بما اقترحتْه يومًا ماري أنطوانيت، افتقدنا كذلك الخُضَر والفاكهة، وذلك بعد أن أصبح متعذِّرًا على العامل الزراعي الوصولُ إلى أرضه.

وماذا نقول في نظامٍ استطاع بثقافته الأمنية أن يضيف إلى إزهاق الأرواح

إرهاقَ الناس بحرمانهم من القوت!

ولكنّ النظام ما زال يؤمِّن لموزّعي الصحف اليومية الرسمية توصيلها إلى أيدي المشتركين في باكر الصباح، أملاً في غسل الرؤوس ممّا علق بها من أفكار في سواد الليل"[١].

هذا العنوان يربط ربطًا عجيبًا بين الخبز اليومي الذي لا يمكن الاستغناء عنه في المجتمع السوري، مثله مثل كثير من المجتمعات، ولعلّ الرابط الزمني في كلمة (الصباح) كان اختيارًا موفّقًا من السباعي لأنّ الخبز يؤخذ في الصباح وكذا الجرائد، ثم ينطلق من إيحاءات هذا العنوان إلى الثقافة الأمنية للنظام الذي لا يهمّه سوى عرشه، غير مكترث بحال الشعب -وليس (شعبه) كما تقول بعض وكالات الأخبار- فبعد أن أزهق الأرواح وسفك الدماء، حارب الناس في كسرة خبز كي يشغلهم عن نسيم الحرية ويمنعهم من اشتمامه، لكنّه مستمرّ في تأمين الجرائد لموزّعيها كي يغسل العقول ممّا علق بها من أدران الحريّة في ظلمة الليل. فالعلاقة بين العنوان وبين النص علاقة ترابطية تكاملية، الأوّل (العنوان) يعلنُ ويوحي، والثاني (النص) يوضّح ويبيّنُ ما أعلنه الأوّل؛ ليكتمل النصّ ويتحوّل إلى جسدٍ واحدٍ لا يمكن الاستغناء عن عضو أو جزء منه.

---

(١) ينظَر من الكتاب: ١/ ٢٦٦.

- عنوان آخر (بكت أمام العالم)، جاء تحت هذا العنوان قوله:

"بكت أمام العالم على الضحايا

توشّحتْ بالحجاب

تكلمت ببعض المفردات العربية

قالت إنها لا تريد أن يجري اسم منفذ المجزرة على لسانها

أنت، يا جاسيندا أردين

امرأة العالم لهذا العام، ولأعوام قادمة... "[١].

بكت أمام العالم، مَن بكت؟ ولماذا بكت؟ ولماذا بكت أمام العالم؟ هذا ما يوحي به هذا العنوان، فيستعد القارئ للقراءة والحصول على أجوبة عن هذه الأسئلة التي أثارها العنوان في عقله، وظّف السباعي في هذه القطعة كلمات تفسّر عنوانها (توشّحت بالحجاب، تكلمت ببعض المفردات العربية...) فالتوشّح بالحجاب لامرأة غير محجّبة يفسر الحزن الذي يؤدي إلى البكاء، وكذا التكلّم ببعض المفردات العربية يفسّر مدى التعاطف مع الشعب السوري، وهذا التعاطف سبب بكائها، حتّى إنّها تترفّع عن ذكر اسم المجرم الذي قام بالمجزرة كي لا يخرجها من حالتها النفسية الحزينة المهيّأة للبكاء، فلو ذكرت اسمه لتحوّلت من مقام الحزن والعاطفة الجيّاشة إلى

---

(١) ينظَر من الكتاب: ١/١٥٧.

مقام الغضب والشجب والتنديد بهذا المجرم، وهذا ما كان سيبعدها عن البكاء.

- عنوان آخر بالعامية (حزّورة.. صعبة شْوَيْ)، يقول السباعي:

"وأنا في عمرٍ ما.. كنت أقول لأصحابي مُعاظِلاً:

• يوم تزوجتُ كنت في العشرين، بعد عام جاءتنا ابنتُنا الأولى

• تزوجتْ ابنتي في العشرين، بعد عام جاءها ابنُها الأول

• عمره اليوم عشرون..

فكم عمري أنا؟

بعضهم كان يقول مستصعبًا: هيّه بدها آلة حاسبة!

وبعضهم يسرع للقول: (٦٢)!

ما رأيكم؟

مع العلم أنّ عمري الآن تسعون"[١].

إن العنونة بكلمة (حزورة) وحدها كفيلة بالإيحاء والإثارة، وإذا وصفت بالصعوبة تستدعي المضي في القراءة وإعمال الفكر في حلّها.

- عنوان آخر (أُمّ المعارك.. أَم تدمير وتهجير)

جاء تحت هذا العنوان: "بغضّ النظر عمّا سمّاه النظام عند توجيهه كتائبَه

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٦/٣٣٧.

المحاربة إلى حلب أمّ المعارك، وذلك ما نراه التسمية الغلط، لأنّ حرب العصابات التي تخوضها كتائب الجيش الحر، لا يُقضى عليها القضاء المبرم ما ملكت القدرة على التحرك فلا يُعرف مكان لها يمكّن من القضاء عليها...

أقول: إنّ ما يذهب إليه الجيش النظامي لتحقيق انتصاره، لا يعدو أن يكون تدميرًا للأحياء السكنية يُسفر عن تهجير ساكنيها نحو المدارس والمساجد، وإلى الهيمان على الوجوه حتى بلوغ أقرب الحدود واجتيازها طلبًا للأمان.

فهل يسجّل النظام بذلك انتصارًا له في واقعة يسميها «أمّ المعارك»، تلك التسمية المشؤومة التي أودت بمُسمّيها إلى ما نعرف؟ أم إنه تهجيرٌ يسبقه تدميرٌ لإحدى العاصمتين في البلاد، هي الاقتصادية اليوم وهي التراثية منذ زمان؟"[١].

اختيار هذا العنوان شائق؛ لما فيه من إسقاط تاريخي ليس عنا ببعيد، فقد استعملت أنظمة أخرى (أم المعارك) في حروبها وكانت نتائجها تدميرية بكل ما تحمل الكلمة من معانٍ، وإسقاط هذا العنوان على حرب النظام الجنونية ضد الثوار مقصود، فهدفه هو القضاء على الثوار ومكان تواجدهم وقد كان، لقد هدم المدينة الثانية بعد العاصمة، هدم مدينة حلب، المدينة الصناعية والثقافية، فقتل من قتل واعتقل من اعتقل وهجّر من تبقّى.

- عنوان (ابتداع الموت البطيء)، جاء تحت هذا العنوان قوله:

---

(١) ينظَر من الكتاب: ١/ ١٥٩.

"العالم يُبدع

في أن يزيد برفاهيّة الإنسان

وفي وطنٍ ما

يُبدعون

في أن يرموه في "مستودعات الموت"

دون غذاء أو كساء

ليموت بعضهم أمام بعض

موتًا بطيئا جدا... "[١].

إبداع جليّ في هذا العنوان، لأنّ القارئ يتساءل في دخيلة نفسه (كيف يُبتدع الموت؟) وهذا هو الانطلاق الإبداعي للكاتب للأخذ بيد القارئ إلى نصّه مطواعًا متشوّقًا إلى معرفة ما ينضوي تحت هذا العنوان، فتوظيف مستودعات الموت تشير إلى السجون التي يُرمى فيها المعتقلون جياعًا عراة ليموتوا موتًا بطيئًا ويرى بعضهم بعضًا يموت موتًا بطيئًا من دون أن يستطيع فعل شيء.

عنوان آخر (أشهد أنّ شعبي)، تحت هذا العنوان يقول السباعي:

"أشهد أنّ شعبي

---

(١) ينظَر من الكتاب: ١/ ١٥٩.

قادر على أن يُعيد بناء الوطن

خلال عشر سنين

أحسنَ مما كان

إذا حكَمَنا أخيارُنا وتحررنا من جحافل الفاسدين"[١].

هذا العنوان الذي يبدأ بالفعل المضارعِ -في دلالته على الاستمرار- يوحي بإيمان الكاتب بالشعب ثمّ إضافة الشعب إلى (ي) المتكلم يوحي بقرب الشعب إليه ومحبّته له، وهذه فيه من الديمومة، فالاستمرار مع الديمومة يدفعان القارئ للقراءة وتفسير الإيحاءات وتوضيحها. ثم يبدأ النصّ بتفسير هذه الشهادة، في أنّ شعبه قادر على بناء الوطن المدمّر في عشر سنين على أن يحكمه الأخيار. وقوله (عشر سنين) يدلّ على أنّ الرغبة في البناء والإعمار لا تحتاج سنوات طوالًا ولا خططًا خمسينية تصحيحية فاسدة، ثمّ إنّه يؤمن بأنّ الشعب قادر على إعادة البناء، أي أنّه سيبني وطنًا جديدًا من الصفر، ويمكننا مقابلة هذا بالحقبة الزمنية للوطن التي سبقت انقلاب البعث واستلام النظام حكم بلادٍ كانت متقدّمة على كثير من الدول الأوربية حينًا من الدهر، لكنّ أهدافه كانت شعارات براقة أدّت إلى تراجع الوطن إلى أسوأ حالة، ثمّ فعل فعلته النكراء وجرائمه مستعملا كلّ أنواع الأسلحة في التنكيل بالشعب السوري.

- عنوان آخر (مشيّعون.. وراقصون)، ينضوي تحت هذا العنوان قوله:

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٥/٤٠٢.

"عندما ترى الناس يُشيّعون شهداءهم، متقبّلين أن يسقط منهم شهداءُ جدد يشيّعونهم في اليوم التالي، فإنك تدرك أنها انتفاضةٌ سائرة نحو الانتصار.

وعندما ترى شبابًا مثل الزهور، موثَّقي الأيدي إلى ظهورهم، ومرميّين على الأرض، ورجالٌ يركُلونهم ويرقصون فوق أجسادهم مقهقهين، فإنك تدرك أنّ هؤلاء السفهاء ماضون إلى الهزيمة والاندحار"[١].

وظّف السباعي في هذا العنوان الثنائية الضّدّيّة التي تثير في المتلقّي روح الفضول لمعرفة هذه الثنائية وتفسيرها، فمن هم المشيعون ومن هم الراقصون؟ وكيف يجتمع التشييع مع الرقص؟ فيبدأ النص بإزالة ما التبس على المتلقي ويبدأ بالإجابة عن تساؤلاته، ويشبع فضوله، ثمّ يزوّده بجرعة الأمل بالنصر للمشيّعين من الشعب الذي يتقبّل شهداء جددًا في اليوم التالي، ويتنبأ بالخسران والخذلان للمجرمين أزلام النظام الراقصين فوق جثث الشباب وهم يقهقهون، ولا شكّ أنّ السباعي أحسن اختيار العنوان وأحسن تفسيره بعدُ.

وخلاصة هذه الفقرة، أنّ القارئ يستعد للقراءة لما يثيره العنوان من إيحاءات فكرية وأبعاد مؤسسة، سواء أكان على الصعيد الانفعالي أم الأسلوبي أم

---

(١) ينظَر من الكتاب: ١/٢٢٧.

الإيديولوجي، ومن هنا فإن القارئ لا يبدأ من لا شيء في القراءة، وإنّما من مجموع هذه الإيحاءات التي يثيرها العنوان، وفي هذا تظهر حركة الإبداع الأولى للكاتب، ثمّ تتوالى الإبداعات في النصّ، فيكون العنوان معلنًا والنصّ مفسّرًا.

- اللغة المكثفة:

يصطدم **قارئ كتابات** السباعي الرقمية بكم هائل من الأفكار والرؤى، وبالتعبير العميق عنها وعن تجارب ذاتية وموضوعية وفنيّة قويّة، سواء في البناء القصصي أم الحكائي اليومي. والدلالات العميقة تقوم في أحايين كثيرة على المفارقات بين الواقع والمأمول أو الواقع وما كان، وعلى السخرية والإيحاء والترميز والدهشة، كلّ أولئك يؤدي وظيفة العصف الذهني لدى القارئ فيستمرّ في القراءة بلا ملل، وبما أنّ الكتابة الرقمية تقوم في الأصل على الاختزال والتركيز والاقتصاد والتحرّك السريع والتخلص من الحشو فهذا يدفع النصّ أو كاتبه إلى بلاغة التكثيف، ليقدّم لنا السباعي عصارة تجربة مديدة عمرها قرن من الزمن تقريبًا، فهو رجل مخضرم عاش حِقبًا مختلفة سياسيًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا، **كقوله:**

"وطرَقَ الربيع بابنا

أنت تعسّفتَ معنا، أيها النظام، وظلمتَنا طويلاً، واستعنت علينا بغرباء من شمال وشرق.. وشرق بعيد، ثم ادّعيتَ أننا نحن من يأتمر بالأجنبي!

لم نعد قادرين على أن نُزيّف القول: نحبّك!

لقد طرق الربيع بابنا، وأسكرَنا بأنسامه العِذاب، وأثار فينا أشواقًا إلى ما كنتَ حبسته عنا زمنا: الحرية.

لن نصحو إلا بإطلالتها من الأفق الشرقي"[١].

بهذه القطعة الصغيرة يلخّص لنا السباعي قصّة النظام مع شعبه مذ استلامه الحكم، في هذه القطعة الصغيرة أفكار كثيرة ترد القارئ، ولا سيما القارئ السوري الذي تنشّق نسيم الحرية بعد خمسين عجاف من سني الظلم والقهر والحرمان والكذب حتّى في التعبير عن المشاعر فسؤال استخبارات النظام (عاطفتك مع من؟) لا يترك المسؤول عنه يتردد في الكذب ودعمه بأيمان مغلّظة كي يبرّئ عاطفته من أي حبّ سوى حب حزب البعث وقائده المفدّى!

يؤكّد هذا قول السباعي: "لم نعد قادرين على أن نُزيّف القول: نحبّك"[٢].

ينطوي تحت ما قاله السباعي الشعارات الرنّانة التي كانت الحناجر تجعجع بها، كـ (بالروح بالدم نفديك يا حافظ)، ثم لـمّا مات حافظ انتقل الشعار إلى خليفته الذي عاث في الأرض الفساد وأكثر من سفك الدماء وملأ السجون بالأبرياء ونكّل بهم من دون مواربة أو رياء، سلالة تحكم بالحديد والنار من غير أن يحاسبها أحد، تحسُبُ أنفاس الناس عليها وتحبِسُ الحرّية في نفوسها، بل تقتلها في مهدها، يقول السباعي:

---

(١) ينظَر من الكتاب: ١/ ٢٧١.

(٢) ينظَر من الكتاب: ١/ ٢٧١.

"لقد طرق الربيع بابنا، وأسكرَنا بأنسامه العِذاب، وأثار فينا أشواقًا إلى ما كنتَ حبسته عنا زمنا: الحرية"[١]. تظهر بلاغة التكثيف في عبارة السباعي، وتلخص حكاية شعب مظلوم مع حكّام ظالمين مدة خمسين سنة مختزلة في هذا النصّ.

يقول السباعي: "**دعوني أنبُشْ ذكرياتي** هل تدَعونني، أيها الأصدقاء، أسردْ شيئا من ذكرياتي؟ منذ فجر شبابي عرفت أنّ ما في الداخل عندي لا يُنبي عنه المحيّا، وأعترف بأنّ هذا كان يضايقني. ولكنّ مصارحاتٍ من بعض أصدقائي كانت تُسرّي عني ولا أملك معها إلا الضحك والاستطراف.

قال لي يوما الشاعر علي الناصر، إنه كلما صادفني في أمسيّة أدبية، تساءل وماذا يمكن لهذا الكاتب الوديع أن يعطي للأدب، الذي ترتفع فيه أصوات الحياة؟ فقدّمت له، وهو القارئ الذي لا يملّ من القراءة في عيادته، مخطوطة الرواية التي كنت قد فرغت لتوي من تأليفها، رياح كانون **٤٠٠** صفحة مرقونة على الآلة الكاتبة... قرأها، الشاعر الذي كان يطوي من السنين ضعف ما عندي، وقال: إنّ الاشتعال في الأعماق. الآن عرفتك. كان ذلك عام **١٩٦٥**.

في العام الذي تلا انتقلتُ بوظيفتي من حلب إلى العاصمة، وأخذت أتردّد على مقاهيها ومنتدياتها، فكنت أرى رجلاً في نحو الخمسين، مهيب الطلعة، يلبس الرسمي الأسود ترفرف تحت ذَقَنِه ربطة على شكل فراشة، هو من أرمن سوريا، مهنته قارئ

---

(١) ينظَر من الكتاب: ١/ ٢٧١.

كفّ، يدعوه بعض الجلساء إلى طاولاتهم، ويُوْدعونه أكُفَّهم، يقرأ، يرتجل، يبتدع، وهم مبتهجون. سألني لؤي كيالي مرة ما إذا كنت أرغب في أن يقرأ الرجل لي ماضي حياتي وما ينتظرني من مستقبل؟ وكنت، وسوف أظل، أرى في هذا النوع من التنبّؤ لغوًا كقراءة فنجان قهوة تمارسه عجائز البلد. قلت: لا بأس في أن أطّلع على هذا اللون من الكلام. ولما كنت أعرف أنّ "الوداعة" في محيّاي سوف تصرفه عما يعتمل في الداخل، فقد خلعت، على مرأى من جليسيّ العازِبَيْن، لؤي وهشام الشيشكلي، "خاتم الزواج" من بِنْصِري وأودعته جيبي.

وأقبل علينا الرجل، الطيب، وما إن جلس وعرف أني أنا المطلوب قراءةَ كفّه، حتى أسرع يقول لي بمرح، بلهجة الطاعنين في السن من أبناء طائفته: أنت لازم بياكل قتلة من أمّك خمس مرات حتى.. تتزوّج!. وبعد أن قرأ وغرّد أعلمه لؤي بأني متزوج من شقيقته وأن لي بنتا باتت في سنّ يُدَقّ باب بيتنا طلبًا لخِطبتها!

بالأمس زارتني صديقة تصحب ابنتها التي أخذت تسقي زرعات الحديقة في الليل الساجي، قامت تصوّرها، والتقطت في ذلك لي صورًا، لما أمعنت النظر فيها تبدّت لي البراءة والسكينة بأجلى المعاني، نشرتها في صفحتي وقدمت لها بهذه العبارة:

في المُحيّا.. كثيرٌ من الوداعة

وفي الصدر.. صراخٌ يملأ الدنيا.

وسرعان ما قرأتُ تعليقا على ذلك من صديق يقول: «أول مرة التقيت بك عام (١٩٦٢) في المركز الثقافي بحلب، فشدّتني أناقتك ووسامتك(!) وقلت في نفسي: لا بدّ أن يكون أدبك أنيقًا. ولا تزال تلك الصورة لا تغيب عن عيني.

أصدقائي.

فأما العبارة الأخيرة هذه فهي للأديب "جهاد الكاتب"، يَصغرني بعشر سنين أو يزيد، وهو اليوم من الناشطين في قول الحق متحمّلاً مشاقّ الاغتراب. وأعترف بأنّ ظلمًا ما قد وقع عليه من قِبَلي، فكلمته التي تتّسم بكل الودّ والشفافية كان يقابلها عندي منذ برز في صفحتي، نسيانٌ له... كم حزّ في نفسي هذا: أني لا أذكر حتى اسمه! مع أنّ بعضهم يقول إني إنسان ذَكور!

وأما قارئ الكف، فقد بدا أنّ الزمن حَطّ به. رأيته يوما يقطع الأرصفة المخضوضرة تحت نظر فندق سميراميس، لا بدلة سوداء ولا فراشة تَرِفّ، وكان في برد ذلك الشتاء مُتَزَمِّلا بمعطف قد أكل الدهر عليه ولمّا يشرب بعد.

وأما طبيب الأمراض الجلدية، الشاعر علي الناصر، الذي كَثُر تردّدي عليه في ذلك العام (١٩٦٥)، فقد آلمني أن أرى "ديوانًا" كانت أبياته ما تزال تتنزّل عليه، يكتبها في وريقات ينزعها من تلك التقاويم التي يقتنيها الأطباء، منتشرة على مكتبه... فأخذت أجمعها، وكلّ منها مذيّل بتاريخ، وأُرقِّنها على الآلة الكاتبة، وأعود إليه في اليوم التالي، نقرأ، نصحّح. خمس نسخ كتبت حتى أتممت، فأهدى إليّ النسخة الثانية

وأهدى الثلاث إلى أصدقاء له واستبقى لنفسه الأولى... ثم كان ما كان من صروف الزمان، مضى الناصر، ومضى مَن أهدى إليهم، ولم يبق إلا نسختي!

أقول: إني كتبت -بعد رحيله غدرًا عام (١٩٧٠) – مقالة ضافية عنه في مجلة الأديب اللبنانية، وإنّ عندي رسائل منه وهو الذي كان ضنينًا بالكتابة، ما جعلت من ذلك كله كتابًا سمّيته الشاعر علي الناصر وأنا وديوانه المضيّع، يبحث عن ناشر يحب الشعر وسِيَرَ الشعراء ويأسى على اغتيالهم بمسدس كاتم للصوت"[١].

في هذه الكتابة تردنا أفكار متعاقبة قد لا يربط بينها رابط من حيث جزئياتُها، لكنّها تترابط في السياق العام لهذا النص، فيبدأ السباعي بفكرة (الظاهر لا يعبر عن الباطن) ويسرد ما قاله الشاعر علي الناصر عنه، ثم لـمّا قدّم له روايته اعترف الشاعر أنّه عرفه الآن. وهذه نسميها الانطلاقة في الكتابة وتشكيل الذات الكاتبة أمام شاعرٍ ما كان يعترف به من قبلُ، ثمّ فكرة قارئ الكف الذي أخطأ في قراءة داخل السباعي، وهذه تندرج في المستوى الاجتماعي ومعتقدات الناس ولجوء كثير من الناس في المجتمع إلى أمثال هؤلاء ليبصروا مستقبلهم وما ينتظرهم، ثم زيارة إحدى الصديقات مع ابنتها وتصويرها له وللحديقة وكتابته عنها، وتعليق أحد الأصدقاء على كتابته. وهذا المشهد يدخل في علم الجمال ورسم صورة تجذب إليها القارئ،

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٦/٣٤٨.

والحديث عن الناشط جهاد الكاتب صاحب الكلمة وتقصيره في ذكر اسمه في كتاباته، وهذه الفكرة تدخل ضمن العلاقات بين الأصدقاء وضمن الكلمة الحرّة وعدم السكوت على الظلم، ثم العودة إلى قارئ الكف والطبيب الشاعر علي الناصر وما آل إليه حالها. أفكار تناسب عنوان القطعة (دعوني أنبشُ ذكرياتي)، فالتعبير عن كلّ هذه الفكر وما يليها من فِكر جزئية أو ثانوية من خلال نبش الذكريات فرضت على الكاتب بلاغة التكثيف في السرد.

الالتفات في لغته:

المشهور في اصطلاح البلاغيين أن الالتفات هو الانتقال بالكلام من صيغة كلٍّ من المتكلم أو المخاطب أو الغيبة إلى صيغة أخرى لمقتضيات ومناسبات تظهر بالتدبر في مواقع الالتفات، شرط أن يكون الضمير في المنتقل إليه عائدًا في نفس الأمر إلى الملتفت عنه، أي أن يعود الضمير الثاني على نفس الشيء الذي عاد إليه الضمير الأول. وله أنواع وأغراض كثيرة؛ فمن أنواعه الالتفات من ضمير المتكلم إلى الغائب ومن أغراضه رفع السآمة والملل من الاستمرار على ضمير متكلم أو ضمير مخاطب، فينتقلون من الخطاب إلى الغيبة، ومن المتكلم إلى الخطاب أو الغيبة، فيحسن الانتقال من بعضها إلى بعض؛ لأن الكلام المتوالي على ضمير واحد لا يستطاب. ولعل هذا من أهم الأغراض؛ لأن النفوس تستريح ويتجدد نشاطها إذا انتقل السياق من حال إلى حال وتغير لون الكلام، إلّا أنّ هناك أغراضًا أخرى كثيرة بحسب مقتضى الحال

والسياق ونحو ذلك، ويمثّل الالتفات من ضمير المتكلّم إلى ضمير الغيبة قول السباعي: "أنا الثمانينيّ يعيش وحيدًا"[١]. نرى في قوله هذا أنّ السياق انتقل من المتكلّم (أنا) إلى الغيبة في الضمير (هو) المستتر في الفعل (يعيش) ممّا يوحي بالعزلة ويناسب الوحدة، وهذا ما أثر في لغة النصّ ومن ثمّ أثار في نفس المتلقّي كوامن نفسية تجعله يتعاطف مع النص ويعيشه، حتى إنّه ليخالُ أنّه هو فيتّحد مع الكاتب ويتفاعل معه.

الاقتباس:

بما أن الثقافة الإسلامية والعربية تشكّل دعامة ثقافة السباعي، فكان من الطبيعي أن تتجلّى الثقافة في كتاباته بصور متنوعة، كالاقتباس من القرآن الكريم، يمثّله قوله: "دخلنا البيت ببعض ما جئنا به، وبعضه الآخر نُقل إلى ركن في الحديقة، حيث دُلق الفحم في منقل وأوقدت فيه النار. فكان الإعداد في الداخل والشيّ في الخارج، ورأيت صديقي عادلا يقف أمام المنقل العالي يصفّ الأجنحة والصدور صفًّا صفًّا، ويكشّ النار بمروحة، والروائح تعبق، والأنسام – التي بدت باردة شيئا ما – تصافح وجوهنا وكأنها تبشّرنا بمطر آت على الطريق! ثمّ فُتحت الطاولة، والكراسي

---

(١) ينظَر من الكتاب: ١/ ٣٣٦.

حُملت من الداخل "[١].

فقوله: صفًّا صفًّا، مقتبس من قوله تعالى: "وجاء ربّكَ والملكُ صفًّا صفًّا" (الفجر ٢٢).

والاقتباس يأتي عفوًا لا قصدًا، وإلّا تحوّل إلى استشهاد[٢]، وهذا اللاشعور في الاقتباس من القرآن الكريم النابع من ثقافته الإسلامية يؤدّي وظائف عديدة، ومنها تجميل المعنى، فكأنه بذلك يكتسب صِدقية ما يقول، والوظيفة الثانية في تنبيه المتلقي إلى ثقافة الكاتب وتأثّره بهذه الثقافة التي تنساب في كتاباته، حتى تتقبّل، ووظيفة ثالثة في تجميل الصياغة من خلال تعالق النص بالصياغة القرآنية البديعة.

إن تضمين[٣] السباعي الأقوال والأمثال وأبيات شعر في كتاباته الرقمية أمرٌ طبيعيٌّ في الكتابة، فالنصّ ليس كيانًا مستقلاً أو منفصلاً أو لنقل منعزلًا عن المخزون الثقافي للكاتب، بل ينبثق منه إلى فضاءات الإبداع؛ لذا فإنّ هذا الموروث الثقافي الذي كوّنَ شخصيّة الكاتب لا بدّ أن يظهر في كتاباته أو نصوصه، وقد تنوّعت ظواهر الموروث الثقافي للسباعي في كتاباته الرقمية؛ إذ تشرّب بالثقافة الإسلامية فاقتبس من

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٤/ ٢١٠.

(٢) بسيوني عبد الفتاح فيود، علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع) القاهرة: مؤسسة المختار، الإحساء، السعودية: دار المعالم الثقافية، ط٢، ١٩٩٨م)، ٢٦٨.

(٣) بسيوني، علم البديع، ٢٧٠.

القرآن الكريم في كتاباته كما بيّنا، كما أنه متضلع في الثقافة العربيّة نهل من معينها، فخبر أقوال العرب وأمثالها وأشعارها قد نَضحت نصوصه بها بين الحين والحين، ويمثّله قوله في نص له بعنوان: برسم اتحاد كتّاب بلدي:

"تمنّيت لو أنّ المقالة الصغيرة، التي كتبها بالأمس أحدُ شُداة الأدب وكانت في طريقها لأن تنشر في إحدى دوريات الاتحاد، ما سحبها، مرة ومرة، المسؤولُ الكبير في هذه المنظمة الشعبية، لشَجَنٍ بينه وبيني، وهو في عمر أولادي أو أحفادي...

... ولو تُرِكَ القَطا لما طار"(١).

فقد ضمن قول حذام: ولو تُرك القَطا لما طار، نصَّه ليُعزز الفكرة التي يريد إيصالها إلى المتلقّي في محاولة لإقناعه ولتوضيح فكرته على وجه كامل ومؤثّر، ولا شكّ أنّ مثل هذا التضمين، ولا سيّما أنّه في هذا النصّ جاء قفلاً له، كان له التأثير الواضح في القارئ والعودة به إلى منابع ثقافة السباعي ومن ثمّ الوثوق بالنص وبكاتبه وتذوّق بلاغته.

ويمثله قوله في نص بعنوان: لو أنّ القائد يكون فاتحًا لا غازيًا:

"أيقَظني، بُعَيد منتصف الليل، رنينُ الهاتف، يُبَشّرني بأنّ «الفيسبوك» قد عاد إلى الظهور، فاستنارت عيناي بمن اسمه «نور الدين» يقدّم أطروحته:

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٤/ ١٩١.

«إلى القائد السوري التاريخي سيف الدولة الحمْداني: وسوى الروم خلف ظهرك رومٌ.. إلى الجيش السوري العظيم حامي الوطن: وسوى الروم خلف ظهرك روم.. ». وسوى الروم خلف ظهرك روم.. "[١].

فقد ضمّن أحد المؤيدين للنظام قولَ المتنبي لسيف الدولة الحمداني: "وسوى الروم خلف ظهرك روم ... فعلى أي جانبيك تميل"، فكان توظيف التضمين توظيفًا سلبيًّا، فشتّان بين ما قاله المتنبي وما قاله المؤيد، وشتّان ما بين سيف الدولة ورأس النظام، فهذا التضمين أراد به المؤيد إسقاطًا تاريخيًّا، لكنه كان غير موفّق؛ ولذا دحض السباعي هذا الاستدعاء.

ويمثله قوله في نص له بعنوان: هل تُستبدَل الأوطان:

"كنا نُنشد، ونحن تلاميذ صغار أيام الحكم الفرنسي، نشيد نحن الشباب... ونحلم بغد مشرق... وأنشدناه ونحن فتيان نستقبل أول أيام الجلاء، والقلوب طافحة بأمل أن نُسهم في بناء وطننا، الذي نمشي على أرضه، ونستظلّ سماه، ونتعم بحماه

شَبَبْنا عن الطوق... تعلّمنا... ونزلنا إلى الساح...

نحن الشباب لنا الغدُ...... ومجدُه المُخَلَّدُ.....

عندما تقدّمت بنا الأعمار تذكّرنا ما كنّا أنشدناه:

(١) ينظَر من الكتاب: ٢٤٣/١.

يا وطني عداكَ ذَمْ   مثلك مَن يرعى الذممْ

فوجدنا أنّ كلا منّا... يبحث عن وطن بديل!

ولكن...

هل تُستبدَل الأوطان؟ "(١).

تضمين الأبيات الوطنية في نصه هذا أدّى وظيفته أداءً كاملاً في الإيضاح والحجاج والمقابلة بين ما كان وبين ما آلت إليه الأمور، بين ما كان يؤمن به أبناء جيله وبين الحقيقة التي اصطدم بها في الواقع، فاستيقظ من غفلته الوطنية المثالية على واقع مرير، فقد تيقّن أن كلامهم في الماضي لم يكن عن وطن حقيقي، بل في البحث عن وطن.

الاستشهاد بالشعر العربي

لم يكتف السباعي بالاقتباس والتضمين، بل اتّجه إلى الاستشهاد بالشعر العربي لدعم فكرته التي يسعى إلى إيصالها للمتلقي، والاستشهاد ظاهرة معروفة في الكتابة العربية قديمها وحديثها، ولا سيّما الاستشهاد بالشعر العربي، وهذا ما وجدناه في كتابات السباعي، فقد استشهد بالشعر العربي وتمثّله، حتّى إنه لم يكتف بالاستشهاد بالبيت الواحد، بل تعدّاه إلى عدّة أبيات، ويمثله نصّ له بعنوان ما فاز إلّا النّوّم:

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٥/٤٠٣.

"يعرف أصدقائي في الشابكة أني أطرح أفكاري بقدر من الجِدّية، وأفترض أنهم يعرفون أيضًا أني أمزج الجِدّ بالمزاح أحيانًا، ويكون المزاح على قدر من الشفافيّة لا تغيب عن الأذهان.

وهل أذكركم بقصيدة معروف الرصافي، الساخرة، التي "ينصح" فيها مواطنيه بالاستنامة لحكم محتلّي بلده العراق، ومطلعها:

يا قـــــوم لا تتكلمـــــــوا	إنّ الكـــــــلامَ محــــــرّمُ
نامــــــوا ولا تســــــتيقظوا	مــــــا فـــــاز إلّا النـــــوّمُ
وتأخّـــروا عـــن كـــلّ مـــا	يقضـــــي بأنْ تتقـــــدّموا
ودعــــوا الـــتفهّم جانبًـــــا	فــــالخيرُ أن لا تفهمــــــوا

التي ترنّمنا بها نحن طلاب ثانوية المأمون بحلب في أربعينيّات القرن الماضي"[1].

حقّق السباعي من الاستشهاد وظائف، منها الاحتجاج لفكرته، وتأكيدها، وترسيخها في ذهن القارئ، ويغني الاستشهاد الشعري عن كثرة كتابة وتعبير، إذ يؤدّي المعنى المراد بسهولة وإيجاز.

الانزياح اللغوي[2]:

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٦/ ٤٢٥.

(٢) ينظر، محمد سليمان، ظواهر أسلوبية في شعر ممدوح عدوان، (دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧) ٣٥.

كانت ظاهرة الانزياح اللغوي جليّة في كتابات السباعي، فهو الخبير بالكتابة وصناعتها، وقد لجأ إلى هذه الظاهرة لما تحويه من جماليات التعبير والتأثير في المتلقي، وسنتحدث عن الانزياح بنوعيه في كتابات السباعي؛ الانزياح الدلالي والانزياح التركيبي:

تجلى **الانزياح الدلالي** في كتاباته من خلال صوره وتشابيهه المعبّرة عمّا يجول في خلَده وفكره، ويمثله قوله:

"ويرحل عامٌ آخر

وأمضي بعيدًا

ليس نجاةً بالنفس

ولكنْ لافتقادي الأهل حولي

حاملاً على كتفي

حقيبة أحزاني

وأقلامًا لا يجِفّ مدادُها

وبقايا عُمُر

وأحلامًا في الحريّة...

ما زلت أرعاها

منذ خمسين من الأعوام"[١].

فالصور التي أبدعها الكاتب في هذا النص توحي بالحزن والرحيل والأحلام التي كان يحلم بها ويرعاها منذ خمسين سنة ثم ضاعت في لحظة، فمن تشخيص (العام) وتشبيهه بإنسان يرحل، إلى مضيّه بعيدًا بسبب افتقاده للأهل، ثم صورة (حقيبة الأحزان) التي يحملها على كتفيه، لينتقل إلى صورة حمله (بقايا عمر)، وأخيرًا صورة حمله (أحلامًا في الحرية)، فاستعمال كلمة حمل لحقيبة الأحزان وبقايا العمر والأحلام توحي بثقل كبير على كتفه، ثم ينعكس هذا الثقل في نفسه الحزينة بسبب الفراق والبعاد والفقد، فيتصف الانزياح في النص بالابتكار والجدة والنضارة والإثارة، فيتفاعل القارئ مع النص ويشارك الكاتب حزنه وألمه ويمضي معه إلى نهاية النص.

أمّا الانزياح التركيبي فمعلوم أنّه مخالفة نظام الجملة الاسمية والفعلية من خلال بعض الانزياحات المسموح بها في الإطار اللغوي، كالتقديم والتأخير في بعض بنى النص والحذف؛ ممّا يكون له الأثر الأعمق والدلالة الأدلّ على المدلول والمقصود، وأمثلته كثيرة في كتابات السباعي، ومنها قوله:

"يا ظبيُ كم من ليالٍ ليس يخطَفُها كرُّ الليالي من الماضي، ويحذفها

كم بتُّ فيها أليمَ العين، أذرفها دمعًا، وحينًا إذا ما عزّ أقذفها

حمراءَ قانية.. والقلبُ في صخب"[١].

---

(١) ينظَر من الكتاب: ١/ ٢٧٠.

في هذا النص خرج السباعي عن نظام الجملة المألوف في قوله: "يخطفها كرُّ الليالي" فقد قدّم المفعول به على الفاعل ثم حذف الفاعل في قوله: "يحذفها" لدلالة الكلام السابق عليه، إضافة إلى حذفه تمييز كم الخبرية فكان له أثرٌ أبلغ في النفس وكان وقعه أكثر صدى من ذكره أو من سير الجملة على نظامها المألوف.

إنّ السباعي صاحب لغة عالية، كانت حصيلة سنوات طويلة من التحصيل وخبرة كبيرة في الكتابة نثرًا ونظمًا، فهو المخضرم الذي عاش قرابة قرن من الزمن، ينهل من معجم القدماء اللغوي مفرداتٍ وصياغة ومن ثم إبداعًا، والمعجم الشعري موسيقًا وصورًا، فانبثقت من مخزونه اللغوي لغةٌ جمعت بين العامية والفصيحة أحيانًا، وكأنّ هدفه من كتاباته الرقمية إيصال الفكرة إلى أكبر شريحة من الناس وإنْ ملّح لغته بشيء من العامية حينًا، ومن اللهجات السورية والمصرية حينا آخر.

---

(١) ينظَر من الكتاب: ٥/ ٤٧٤-٤٧٥.

الجزء الأول

٢٠١٢

البدايات والتدفق

آه.. يا وطن

عندما يُضطهد المواطن في وطنه الحبيب يكُفُّ الوطن أن يكون حبيبًا.

يصبح بلدًا من البلدان ليس إلا.. [١]

ما يُغري المواطن

أحقًّا هناك ما يُغري المواطن بأن يتوجّه غدًا إلى حيث يقول: "نعم" لدستورٍ قد وضعه أولئك الذين ما زالوا يُطلقون القذائف على المنازل، والرصاص على الجماجم، ويجعلون النفوس تتذكّر ولا تنسى أبدًا؟

في عَتَمة الليل اختطفوك، وذهبوا بك بعيدًا عن ساحة الأمويين في بلدك الحبيب، لينهالوا على أناملك المبدعة قصفًا وتهشيما. أرادوا أن يمنعوك من فضح الظلم وتبديد الظلام، ولكن فاتهم أنّ من أحبّ خطوطك المستقيمة والمنحنية سوف يصغي إلى أنين الوجع المنبعِث من ارتعاشات رسومك الآتية، ويزداد إعجابًا بجديدك الذي يَضِجّ بالألم، وكرهًا بكل فعل شنيع!

دمشق الشام: ٢٣-٢-٢٠١٢

الشيشان أُنموذجًا

قبل سنوات معدودات ظهر على الشاشة الصغيرة مُفتي الشيشان في المملكة الأردنية الهاشمية يقول: إنّ سكان الشيشان كان تعدادهم قبل قرن من الزمان ثلاثة

---

(١) هذه العبارة من قصة "البحث عن وطن" على لسان بطلها. والقصة منشورة ضمن كتاب "آه يا وطني" للسباعي.

ملايين نسمة. وحسب معدلات النمو الديموغرافي في دول العالم الثالث فإنه يجب أن يبلغ تعدادهم اليوم ثلاثين مليونا، ولكنهم مليون ونصف المليون.

إنّ القتلَ والتنكيل، ممّا تمارسه الإدارة الروسية منذ عشر سنين، وقبل ذلك النفيَ والتشريد من قبل الإدارة السوفياتية، قد عطّلت قانون النمو الديموغرافي الطبيعي لهذا الشعب الذي يريد الحياة وتريد له الفناءَ الحكومةُ المركزية (التي لا تربِطه بها لا آصرة اللغة ولا عامل الدين)، فهي سحَقَته ومحَقَته إلى أقلَّ ممّا كان قبل مئة سنة، فكأن زلازلَ وأوبئةً قد تعاقبت عليه في عصور حجرية!

إنه الأنموذج الذي يقدّمه الزعيم "بوتن" إلى العالم في مَطلع القرن الحادي والعشرين.

دمشق الشام ٢٧-٢-٢٠١٢

يا أمم متحدة! يا عفو دولية! يا منظمات حقوق الإنسان!

توقّفوا عن مناصرتنا رجاءً! كُفّوا عن إظهار العطف والتعاطف! فإنكم كلما عبّرتم وصرّحتم أَثَرتم فيهم شَهيّة القتل والتنكيل حتى... نرجوكم، كفّوا رحمةً بنا!

دمشق الشام: ٢٨-٢-٢٠١٢

ثورة النصر

إن ثورةً للفقراء يطالبون فيها بالحرية، متجاوزين الرغيفَ والوَقود، لهي ثورةٌ ليس لأحد أن يتنبّأ لها بغير النصر، مهما طال الظلام.

دمشق الشام: ١-٣-٢٠١٢

الأكثرية

هل في بلاد الشام أكثرية على الحقيقة؟

إنْ قلنا: "أكثرية عربية"، فإنّ هذه تنصرف إلى المسلمين بطوائفهم، وإلى المسيحيين بطوائفهم أيضا.

وإن قلنا: "أكثرية مسلمة"، فإنّ المسلمين يتوزّعون بين عرب وبين إثنيّات قومية إسلامية شتى.

فإن قلنا: "مسلمون سنّة"، فإنّ هؤلاء قد توجّهوا إلى مختلف المذاهب السياسية، من إسلاميين وعروبيين وسوريين وشيوعيين.

إنّ المجتمع السوري في بلاد الشام يتكوّن من فُسيفساء تستحقّ، مع الإعجاب، العنايةَ والرعاية، لنُدرتِها في تاريخ الأمم... وهي التي تشكّل اليوم الأكثرية الساحقة المطالبة بالحرية.

دمشق الشام ٣-٣-٢٠١٢

بكاء.. وبكاء

ساعةَ أستمع إلى الهتافات تُطلقها الحناجر التوّاقة إلى الحرية، أبكي تأييدا وفرحا.

وعندما أرى القذائف تتساقط على الأحياء السكنية فتُحيل الأحياء فيها إلى أموات، أبكي حزنا وغضبا.

لماذا؟

دمشق الشام: ١٣-٣-٢٠١٢

الفيسبوك.. صديق جميل وودود

إلى الصديق موسى سليمان: «كويّس، رجل واحد يعلّق... شكرا»، تلك هي العبارة. وقبل ساعات، اضطررت إلى الاعتذار لأني لم أبادر إلى الموافقة على طلب صداقة من أحدهم.

أقول لكم: الفيس يَشْغَلني عن متابعة تأليف الكتاب الذي بين يديّ: «قمرٌ لا يغيب، من أدب الرحلات».

أعترف لكم: الفيس صديق جميل وودود عند من تكونُ شواغله محدودة. وأنا عندي نحو عشر مخطوطات، ما زلت أستخرجها من عَتَمات مكتبتي لأطبعها، أسابق الزمن، ورّطوني بالفيس (علاء، ومهنّد وشقيقه المخْلص مؤيّد)، ربما تركتكم للعمل فيها. أقول: ربما، لأنّ هَوَس الفيس قد لحق بي! دمشق الشام: ١٣-٣-٢٠١٢

يوم رأيت لابسي الخاكي

يوم رأيت لابسي الخاكي في شوارع تونس ينزلون بِهراواتهم على المُنادين بالحرية أحسست وكأنني مَن ينادي ويُضرَب، ثم كان إشفاقي عظيمًا وأنا أرى في موقعة الجمل بالقاهرة دَوسَ المتظاهرين بالجِمال والبغال والسيارات حتى الموت، إلا أنني أحسست بالفخار وأنا أرى أحرار اليمن وهم يُنشدون: «إذا الشعب يومًا أراد الحياة..». ومع الفخار كان إحساسي أيضا بجمال الكلمة واللحن والأداء.

آن لنا أن نستفيق ونهتِف بالحرية والعدالة والكرامة، وبالخبز والنور والدفء، متحلِّلين من أوجاع الزمن ومتحلِّين بالمحبة والإيمان... وفي غير هذا المكان، أيها الأعزاء، أجد لنفسي مَعْبرًا أقول فيه عن وطني الحبيب.

دمشق الشام: ١٨-٣-٢٠١٢

مقارنةٌ بين مشهدين

لماذا أسرعتْ إلى ذهني مقارنةٌ بين مشهدين: رجلٍ منطرحٍ فوق سرير في محاكمةٍ ما تزال جارية، وآخرَ مسجًّى تودِّعه الجماهير بالمحبة والدموع، فأحسست سخونةً في العينين. ذلك ما بات يقع لي كلما رأيت القلوب قادرةً على التمييز والتعبير.

دمشق الشام: ١٨-٣-٢٠١٢

لماذا؟

أتساءل: لماذا، عندما أرى جموعًا مُتراصّة تنادي بصوت واحد نابع من القلب، مطالِبةً بتحقيق الأماني، التي قد يكون منها: الحرية، أو الخبز، أو المطلق... لماذا أجدني بينهم؟ وأحسّ وجهي يغتسل بالدموع؟

١٨-٣-٢٠١٢

معا بنينا حضارة المنطقة

إنّ الأقباط في مصر، الذين طلع منهم البابا شنودة، لن يصعب عليهم أن ينتخبوا مَن يماثله في صفاته وسماته المتميّزة.

نحبّكم يا أقباط مصر، نحن مسلمي ومسيحيّي الشام والعراق، وقد بنينا معا الحضارة الواحدة منذ كانت الكلمة.

دمشق الشام: ١٩-٣-٢٠١٢

عندما يحفِرون قبورهم بأيديهم

إنّ أبناء قرية، أو بلدة، أو مدينة صغيرة أو كبيرة، يقومون بحفر قبورهم بأيديهم كي يَدفِنَ فيها بعضُهم بعضا عقِبَ الاقتحام والانسحاب،

ليس لأحد أن يظنّ أنهم يتراجعون عن مطالبتهم بالحرية والعدالة والعيش الكريم. أقول: يحفرونها بأيديهم طواعية، وليس بأمر يشابه ذاك الذي وُجِّه يوما إلى الشاعر يوركا! دمشق الشام: ٢١-٣-٢٠١٢

لو أن موسكو ما زالت شيوعية

لو أن موسكو كانت ما تزال تَعتمِرُ قُبَّعة الشيوعية، ولو أن دمشق كانت قد استظلّت هذا المذهب، لما عَمَدت موسكو إلى التفاني في منح كل هذا التأييد، الذي أفسد ما بينها وبين العرب والمسلمين والعالم... أم أن هناك «حسابات» تجري تصفيتها فوق أرض الشام الجميلة الوديعة؟

دمشق الشام: ٢١-٣-٢٠١٢

إلى أمي، بعد ثلاثين على الرحيل

لسوف يظل يَحزُنُني، يا أمي، أني لم أكن قادرا في ظل حياتك على أن أقدّم لك ما تمنيتُه لك فيما بعد. لِيرحمْنا الله.

دمشق الشام: ٢١-٣-٢٠١٢

من ذا الذي لا يحب وطنه؟

ليس في الأوطان مَن لا يحب وطنه، هذا الذي يملأ القلوبَ حبًّا وحنينا. ولكن هناك أنظمة تتّهم مواطنيها بالمروق.

دمشق الشام: ٢٢-٣-٢٠١٢

نحيا معا في ظلّ الوطن

لا كراهية، لا بغضاء. نحن فصيلٌ من بني الإنسان، نريد أن نحيا معا في ظلّ الوطن، قبل أن ترتفع أرواحنا إلى السماء. دمشق الشام: ٢٢-٣-٢٠١٢

لنا ولكم معا

الوطن لنا ولكم، دعونا نَهْنأْ بالعيش فيه معًا.

دمشق الشام: ٢٢-٣-٢٠١٢

الأطفال والزمان الآتي

في بلاد العالم يَحْذَرون أن يمسّوا الأطفال بسوء، فإنّ منهم سيطلُع نابغو الأمة في الزمان الآتي. الذين يقتلون أطفالنا، هل خطر في بالهم أنّ منهم سيخرج أشباهٌ لخالد بن الوليد، وصلاح الدين الأيوبي، وابن النفيس، وإبراهيم هنانو، وبدوي الجبل؟

دمشق الشام: ٢٢-٣-٢٠١٢

لا تحرق البلد.. بلدك

أيها النظام! لا تُمعِن في قتلنا، فنحن منك وأنت منا. لا تحرق البلد، إنها بلدك وبلدنا، نحن فيها معا من زمان، وسنبقى معا.

دمشق الشام: ٢٢-٣-٢٠١٢

أمعقولٌ هذا، يا سيدي النظام؟

بدأت الثورة في ساحة الحريقة بشهر شباط ٢٠١١ بهتاف ملأ الأسماع: «الشعب السوري ما بينزلّ»، وما كان لها أن تنتهي بالانشقاقات المؤلمة ولا بتدمير بابا عمرو، وما قبله وما بعده. وسقف الشعارات ارتفع إلى ما لا أريد لقلمي أن يكتبه... ومع ذلك تقولون: سورية بخير، والثورة توشك على الانهيار.

أَمعقولٌ هذا كله، يا سيدي النظام؟! دمشق الشام: ٢٢-٣-٢٠١٢

المساءلة

تعالَوا نتفاهم: هل أنتم خائفون من المساءلة الآتية على الطريق؟ ولكنها ستكون عادلة! أم أنّ هذا ما يُخيفكم؟

دمشق الشام: ٢٢-٣-٢٠١٢

نزيف الأحلام

كأنّ الذين بالقصف يموتون، كأنّ المسحوبين من تحت الأنقاض ليسوا منا، ولسنا منهم، قد قُدّت أجسامهم من حجر أصمّ. أم أنّ الصَّمَم في ضمير العالم؟

ما الذي يقع تحت أبصارنا؟

إننا في حُلُم، حُلُم نازف.

لكن أيمكن أن تُصافح العيونُ نزيفَ الأحلام في الصباح، وعند الظهيرة، وطوال ساعات الليل... حتى الفجر الآتي؟

دمشق الشام: ٢٣-٣-٢٠١٢

رأسمالية جديدة

يوم جنّدتْ نفسَها في خدمة السلاح الأحمر لم تكن تتصوّر أن يكون بين البَين سلاحٌ أبيض، ولم يسمُّوها «الرأسمالية البيضاء»، بل... الرثّة! [١]

دمشق الشام: ٢٣-٣-٢٠١٢

أبعد من الأحلام

إطلاقُ سراح: قبضةُ مال وفي القبضة الأخرى... سكين! دمشق الشام: ٢٣-٣-٢٠١٢

إنتاج النُّبل

إنّا لنرى «النبلاء» مرميّين على قارعة الطريق، أو راقدين تحت الأنقاض، قبل أن يُسمح بأن يَضمّ الثرى جثامينهم الغالية.

هل لنا أن نرجو التوقّف عن إنتاج هذا النوع من النُّبل، فقد تلقّينا منه ما يزيد على الحاجة! دمشق الشام: ٢٣-٣-٢٠١٢

جمرٌ لأشتية قادمة

إنّ الذين خرجوا من بيوتهم في عزّ الشتاء، لن يعودوا إليها إلا بجمر يستدفئون به طوال الزمن الآتي.

دمشق الشام: ٢٣-٣-٢٠١٢

---

(١) يقصد بالسلاح الأحمر: الشيوعية، في مقابل الرأسمالية.

ثورة.. وثورة

ظللنا عقودا من السنين نرى أن الثورة الجزائرية هي الأقوى والأنقى بين الثورات العربية عبر القرنين الماضيين... إلى أن انطلقت ثورة أخرى ضاهتْها، مع فارق واحد بين الثورتين.

دمشق الشام: ٢٤-٣-٢٠١٢

احكموا بالعدل، وابقَوا

أحيانا يتراءى لي أن أتجاذب الحديث مع أصحابي من أهل السلطة، فأقول:

«أنتم استوليتم على الحكم بانقلاب، لا بأس، احكوا بالعدل وابقَوا في الكرسي أبدَ الدهر!».

ولكن بدا أنه عصيٌّ على النفس البشرية أن تَصمد أمام الجاه العريض، والمال المتاح، والعواطف الجائحة.

دمشق الشام: ٢٤-٣-٢٠١٢

السِّنغال.. المتحضرة

السنغال، التي كان جنودها يرعبوننا أيام الانتداب الفرنسي في سورية، الآن أسمع أنّ المرشح لانتخابات الرئاسة يعترف بهزيمته أمام خصمه... ما أرقاه! ما أرقى السنغال! ونحن؟ يقوم النظام بقصفنا وإبادتنا لأننا نرفع الصوت بكلمة: لا!

إلى أيّ دَرَكٍ انحدرنا؟ نحن الذين بنينا حضارةً ملأت مِسْمعَ الزمن وعينيه وقلبَه!

دمشق الشام: ٢٥-٣-٢٠١٢

أن يظلّ الحاكم يحكم

إني لأعجب: كيف يمكن لنظام يقتل مُواطنيه، ثم يحلم بأن يظل يحكمهم!

دمشق الشام: ٢٦-٣-٢٠١٢

كلٌّ يكتب تاريخه بيده

ألا يرى النظام أنّ قَتْله كلَّ يوم مئةً، هو ثمنٌ باهظ لمنع المحتجّين من أن يملؤوا الشوارع والساحات مطالبين بالحرية؟

الشعب يكتب تاريخه بيده... وكذلك النظام.

دمشق الشام: ٢٦-٣-٢٠١٢

أيها الإسلامويون.. دعوا الربيع يُزهر

في مطلع الخمسينيات، وأنا طالب بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة فيما بعد)، ظهر عندي الإعجاب بنضالكم في مقاومة الاحتلال الإنكليزي في القنال، وكان في ذلك منكم شهداء، احتفلتم بهم في رحاب الجامعة، بكيناهم واعتززنا بهم.

ويوم علّقت الثورة اثنين من رجالكم -«عودة» «الطيّب»[1]- على أعواد المشانق حزنت، وتجدّد حزني يوم علّقوا «الإمام سيد قطب». وعندما رأيت «البلطجية» يمنعونكم من الإدلاء بأصواتكم الانتخابية أشفقت.

نحن نحبّ الإسلام والمسلمين، فهو وهم يملؤون تاريخنا الحبيب. ولكني

---

(١) عام **١٩٥٤** شنق عبد الناصر بعض قادة الإخوان عقب حادثة المنشيّة، منهم عبد القادر عودة، محامٍ من علماء القانون والشريعة في مصر. وأما الثاني فهو إبراهيم الطيب، محام أيضا.

أعرف أنّ في مجتمعاتنا آخرين، مسيحيين وعلمانيين (وإني واحد من هؤلاء الأخيرين، وهم مستويات)، فلا تعاملوهم، تعاملوننا، بمثل ما عوملتم في الزمن الذي سبق الربيع.

أعتقد أنّ فوزكم اليوم بالأكثرية، إنما كان بقناعة الناس بكم، وكذلك بما ملك قلوبَهم من عطف وتعاطف. لا تدَعوا هذا الفوز يعطّل عندكم بوصلة السياسة والحياة. لا تَغْلبوا الناس.

اقرؤوا بإمعان البيان الذي أصدره بالأمس نُظراءكم في المنفى.

نريدها دولة مدنية، في ظلّ الإسلام نعم، لكن البعيدِ عن التفرُّد والاستئثار والتكفير. تَحَلَّوا بشجاعة الوعي، بالوعي الذي يغلب الذاتية، واستمرّوا.

تريد للربيع أن تتفتّق أزاهيره كلُّها، كلُّها، تنمو، تعلو، تسمُق، في ظلّكم، وفي ظلال الجميع.

لا نريد مربعًا أول، نعود إليه، بعد اليوم.

دمشق الشام: ٢٩-٣-٢٠١٢

أيها المنتظرون.. أنصفوا المعارضة

أجل، المعارضة في الخارج لم تتّفق بعدُ على رأي واحد موحَّد... هل تُصغون إليّ قليلاً؟

في «حركة الضباط الأحرار»: كان ثمة آراء، وكانت غَلَبَةٌ أُقصي فيها رفاق السلاح واحدا بعد آخر، ومنهم رئيسهم الكبير الذي احتجزوه عشرين سنة. ويمكننا القول بأنّ الرأي الواحد، القَسْريّ، هو الذي جرّ إلى مستنقع اليمن، منتهيًا بنا إلى أيام

حَزيران الحزينة.

في العراق: من الانقلابي «قسّام»[١]... إلى صدَّام، الذي كان -في ساعة استهتاره- ينادي على الرفاق واحدًا واحدا، ثمّ إلى المِقصلة يقدّمهم قرابينَ رخيصة.

وفي بلاد الشام العزيزة: ضرب الانقلاب الديمقراطية النامية، كما كان هناك وهنالك، مجرِّدًا نُخَبَها من حقّهم في القول والعمل والحياة. ثمّ أخذ بعضُه يضرب بعضا، إلى أن انفرد الظافرون، وعلى يدهم كان، في فجر الثالث والعشرين، تجفيفُ نبعِهم الذي كانوا يرَونه ثرًّا، ولم يكُفّوا حتى آل الأمر لمستخلِصهم.

في ظلّ الانقلابات العسكرية، أيها الأصدقاء، تتوحّد الآراء، لكنه توحيد قسريّ... وليس الأمر كذلك عند أهل الديمقراطية، تليدةً كانت أم وليدة.

لنتذكّرْ أنّ في المعارضة اليوم أطيافًا، ولكلّ طيف فلسفتُه في الحكم وفي الحياة. آراء متباينة، أجل، يعمل كلٌّ على تقليمها وتدوير زواياها، حرصًا عل الاقتراب والتقرُّب.

أيها المنظّرون، المنتظرون... لحظةَ صبر وإنصاف.

دمشق الشام: ٣٠-٣-٢٠١٢

هل يتسلّى النظام بنا؟

خفّضوا سعر المازوت من ٢٠ إلى ١٥ فانفقد من الأسواق، وصرنا نركض

---

(١) عبد الكريم قاسم: ضابط عسكري عراقي، عضو في تنظيم الضباط الأحرار، الذي أطاح بالمملكة العراقية الهاشمية، وأعلن الجمهورية العراقية فيما عُرف بثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، وانتهى حكمه بانقلاب قام به حزب البعث.

ونشتريه بـ ٢٥ و٣٠! رفعوا الرواتب والمعاشات ٣٠٪ فزادت الأسعار ٥٠٪ أو ٧٥ أو ١٠٠.

أسأل: أَهو نقصُ حكمة في الإدارة، أم أنّ النظام يلعب بنا ويتسلّى؟

دمشق الشام: ٣١-٣-٢٠١٢

كلمات رجل يُحتضر

كلمات رائعات، أقرؤها اللحظة، فتذكّرني بكلّ شيء حقيقي.

والأكثر... أنها أبكتني، في سويعة الفجر الدمشقي هذه، حيث أجلس في بيتي وحيدا، أسمع الطلقات، وأشاهد في التلفاز مواكب المشيّعين، وهم يطوفون بالنعوش الخمسة، غير آبهين أن يسقط منهم عشرة أو عشرين.

شفافيةٌ في الكلمات أقرؤها عند موسى سليمان، وقسوةٌ في المسموع والمنظور.

أي زمن نعيشه!؟

دمشق الشام: ١-٤-٢٠١٢

الشعوب.. في الوقت الضائع

أيتها الأنظمة القمعية!

أنت بالنار تُطلقينها على أنصار الحرية، تصنعين منهم أبطالاً للغد الآتي، وبالسجون والمنافي، تُغيّبين فيها أصحابَ الرأي، تجعلين منهم زعماء للمستقبل المنظور.

معاناتنا... أنك حين ترحلين، تخلّفين وراءك أطيافا لا يسهُل تبيُّنُ الخيطِ الأبيض فيها من الخيط الأسود.

أيتها الأنظمة البالية!

وجودك فينا كان قهرا، ورحيلك هو قهرٌ آخر يُشبه الوقت «بدل الضائع» الذي فيه تُحسَم الأمور.

دمشق الشام: ١-٤-٢٠١٢

الحاكم.. الآتي

إنه لجميلٌ أن يترأسنا بعد الثورة خِرِّيجو السجون والمنافي... على ألاّ تُغريَهم ظُلاماتُهم الماضية بأن يستنسخوها فينا، قدًّا بقدّ... أو مضاعفةً!

دمشق الشام: ١-٤-٢٠١٢

زهرة ذابلة

بنتَ الطبيعة، ما دعاك إلى الذبول المُسْرِعِ؟

فلئن حزنتِ على الندى، فخذي الندى من أدمعي

والشعر عندي روضة بجمالها فتمتّعي

قلبي إليك هديةً، والشعر أثمنُ ما معي

ولَّهْتِ قلبي بالأسى، ذكَّرتِني في مصرعي

(عزيزة هارون[١] موكب من الجمال والذكاء في مهرجان الشعر الأول ١٩٥٩)

في تجوالي بين صفحات الفيسبوك، أيها الأصدقاء، صادفتْني هذه الأبياتُ

---

(١) شاعرة سورية، لها ديوان مطبوع. شهد لها بالشاعرية ميخائيل نعيمة وطه حسين. وكان لها برنامج إذاعي، تقدم فيه الشعر بصوتها في إذاعة دمشق، توفيت ١٩٨٦.

الشعرية الرقيقة الأربعة، يتوِّجها اسمان عزيزان: «عزيزة هارون» و«لينا هارون»، فذكّرتْني الأبيات بلقاء، هو واحدٌ من اللقاءات المبكّرة التي جمعتني مع الشاعرة المبدعة عزيزة هارون. وقع ذلك اللقاء في صيف ١٩٥٩، في حديقة مسرح المعرض، في أول مهرجانٍ للشعر يقام في سورية زمن الوحدة.

كنت قَدِمت إلى دمشق لحضور إحدى سهرات المهرجان المسائية، والناس يتوجّهون إليه من كل صوب. وفي حديقة المسرح، وقد بدأ الجمهور ينفضّ في تلك السهرة، سمحت لنفسي بأن أتقدّم -أنا الشاب- من الشاعر الكبير قدرًا وسنًّا «علي الجندي» (عميد كلية دار العلوم بجامعة القاهرة)، لأُحدّثه عن أني قرأت، قبل بضعةَ عشر عاما، في مجلة «الكتاب» (عن دار المعارف بمصر)، مقالةً له عنوانها «خالٌ على ثغر». وبدا لي مسرورا من أنّ شاباً سوريا (وكنت في الثلاثين من العمر) قرأ له، وها هو ذا يتذكّر ويذكُر. كان بجوارنا تلك اللحظة عدد من الشعراء الشيوخ. ومرّت أمامنا الشاعرة عزيزة هارون، منصرفة من قاعة المسرح، فانشدّت إليها الأبصار، كلُّ الأبصار...

لن أسترسل... ولكني أقول: إنّ الشاعر علي الجندي ألّف بعد عودته إلى بلده كتابا، أهدى إليّ نسخة منه، عنوانه «خمسة أيام في دمشق الفيحاء»، أثار في حينه ضجة في وسائل الإعلام المصرية بسبب ما رأوا فيه من ولع الشاعر بالجمال... وقد كتبت حول الكتاب مقالة أقتطف منها هذه الفقرة، قلت:

ومرّت عن كثب إحدى الأديبات السوريات (عزيزة هارون). وكان قد انضمّ إلى جلستنا الشاعرية الوادعة نفرٌ من الأدباء الشيوخ المصريين، فرأيت الوجوه السُّمْر، المتغضِّنة، تتلفّت إلى حيث موكب الحسن.

وسمعت أحدهم يقول: قنبلة هيدروجينية. فنظرت إليه مستفهما، فقد بدا الكلام مغلقا عليّ حين كان واضحا مفهوما لدى الباقين فأمّنوا عليه.

قال الشاعر: «يا بني! إنّ الجمال والذكاء إذا اجتمعا في امرأة فهما قنبلة هيدروجينية!».

ثم رأيت موكب الحسن ينظر نحونا، ويومئ إليّ -أنا- بالتحية!

ظننت أول الأمر أنّ التحية لهم، للشعراء الشيوخ، ولكنها كانت لي أنا! فهُرِعت، لأعود مصحوبا بموكب الحسن كلِّه. فطرب الجميع، ونمّت عيونهم على الشكر. ثمّ كان بينهم وبينها حديث شعراء... وأنظر، فأجد نفسي -أنا من أتاهم بالحسن- نَسْيًا منسيّا!! (انتهى المقتطف)

من مقالتي في مجلة «الأديب» اللبنانية، عدد سبتمبر/ أيلول ١٩٦٠، بعنوان «شاعر الجمال علي الجندي»

دمشق الشام: ٢-٤-٢٠١٢

إلى ابنتي سهير السباعي

الفنانة التشكيلية في فلوريدا

تتجاوزين، بفنّك الأثير يا ابنتي، البوحَ بما تحبَل به الأيام... إلى تحقيق الحلم العظيم. إنّ الإبداع ليتبدّى فيك وكأنك تسابقين نفسَك المكتنزة بالقدرات غير المحدودة.

الآن يقولون: أبٌ يمدح ابنته! ليقولوا...

وأنت تؤكدين نبوءة خالك «لؤي كيالي» فيك، التي كان عبّر عنها وأنت طفلة

تلعبين في باحة «مدرسة الأمل» في شارع نوري باشا.

أعتزّ بك، يا حبيبتي سهير، بنتًا وفنانة.

دمشق الشام: ٢-٤-٢٠١٢

آه، يا وطني

أعزائي. قبل بضعة عشر عاما، تقدّمتُ بمخطوطة كتاب إلى وزارة الإعلام التي أحالتها إلى اتحاد الكتاب العرب (وأنا فيه عضو مؤسس) للحصول على موافقة النشر. تتألّف المخطوطة من اثنتي عشرة قصة، ثلاث منها جريئات (الأولى، والوسطى، والأخيرة). ولأنّ في بلدنا هامشًا من الحرية -وإن كان أرقّ من ورقة السيكارة! - فقد أَجازوا نشر المخطوطة.

أتعمّد ألّا أُفصح لكم عن عنوان الكتاب، مكتفيًا الآن بأن أسمّي القصة الأولى: «البحث عن وطن»: أستاذ أكاديميّ قدير، يُفترَض أن ينتخبه زملاؤه أعضاءُ القسم رئيسًا لهم للجدارة، إلاّ أنّ «النظام» دأب على أن يُعيّن من عنده -خلافًا للأعراف الجامعية المتّبَعة في العالم- رؤساء الأقسام، والعمداء، ومديري الجامعات.

ما وقع أنّ هذا الأكاديمي المضطهد، كتب في أوراقه الخاصة، تنفّس معبّرًا: «لم يعد بدٌّ من أن أرحل عن وطني الحبيب».

وقعت هذه الأوراق في أيدي زُوّار الليل والنهار، فسألوه وكأنهم يُفحمونه: «إذن، فأنت كارهٌ لوطنك الذي تسمّيه حبيبا؟!»، فأجابهم بقولةٍ جديرٌ بها أن تسكن سمع الزمان: «عندما يُضطهَد المواطن في وطنه الحبيب، يكفّ الوطن عن أن يكون حبيبا! يصبح بلدًا من البلدان ليس إلاّ».

تردّد صاحب مجلة عربية ثقافية تصدر في لندن، مع تقدّميّته، في نشرها إلى حدّ الامتناع. ولكن مجلة «العربي» الكويتية، المحافظة، نشرتها (يوليو/ تموز ١٩٩٦). والكتاب تمّت طباعته في العام ذاته بدمشق.

الآن أُفصح لكم عن عنوان الكتاب: «آه، يا وطني!». فَعَل هذا العنوان في نفس ابنتي التشكيلية خلود، فاستجابت بأن أنجزت لوحةً سمّتها «آه يا وطني»، انضمّت اللوحة أخيرا إلى مقتنيات غياث حرابا. وكانت ابنتي قد استلهمت قبل سنوات لوحة بعنوان روايتي «ثمّ أزهر الحزن»... هل لأدبي فضلٌ في إلهامها، أم أنّ لِفنّها فضلاً في الترويج لأدبي؟

أمسِ، يقول سمير ناجي عنّي، يكتب (لمعرفته بأني من برج العقرب): يومك مليء بالمستجدّات المربكة... لا تصطدم... فإنّ من تعتمد عليهم لن يُنجدوك.. (أُوجِز ما قال).

ولكن، أيّ فعل إدٍّ أرتكبُ، يا سمير؟ أنا أنقل عن الواقع المرّ. أنا شاهدُ عصر، أنا حاملُ قلم يُمثّل ضمير أمته... إذا سكتَ الضمير، إذا انطفأت النداءات في الحلوق، فمن ذا الذي يُعبّر؟

دمشق الشام: ٣-٤-٢٠١٢

عندما ينال كاتب جائزة نوبل للآداب

عندما ينال كاتب جائزة نوبل للآداب فإنّ دُور النشر تُقبِل على ترجمة أعماله فيحظى بشهرة عالمية. لوحة «آه، يا وطني!» حظيت اليوم بغير قليل من الثناء، فارتفعت قيمتها الفنية كثيرًا. وغياث، الضاحك الآن، يقول: «صارت عندي، شكرًا

لـ...». وأعتقد لو أنهم عرضوا عليه صباح غد التخلّي عنها لقاء كذا لرفض. ولكن، يا أعزائي، ألم يخطر في بال أحد من المعلّقين أن يلتفت إلى الجانب الأدبي الملهِم للوحة، أو للعنوان، بقراءته ما كتبتُ، وبيّنت، وأطلت الشرح والتفصيل؟ معناه أنهم يهتمون بالإبداع التشكيلي دون الإبداع الأدبي... أم ماذا؟

دمشق الشام: ٣-٤-٢٠١٢

لينا.. نادمة!

تقول لينا هارون: «أنا الآن أقرأ وأتمعّن ما كتبت وأُعجب به. لو تعرف كم أنا نادمة لأني لم أعرفك من قبل!».

وأقول: يا لينا، أنت لست أول من يُعبّر لي عن الندامة والأسف لأنه تأخر في التعرّف عليّ أديبًا، وأنا ما زلت أكتب منذ ١٩٥٠! عن مساوئ النظام أنه احتكر الإعلام، فالحظوة يمنحها لمن يصفق، وأنا أصفق للحقيقة، وكانوا كلما أمعنوا أمعنتُ في إبداع الأدب الناقد.

بضعة وثلاثون كتابًا، يا لينا، نُشر لي، وعشرة تنتظر. أطروحات أُعدّت عن أدبي في العواصم الأوربية. بعض قصصي تُرجم إلى عشر لغات، وكتبٌ لي ترجمت بتمامها ونشرت في الخارج. وهنا عندما أخذوا روايتي العزيزة «ثمّ أزهر الحزن» للتلفزيون، شوّهوها وغيّروا حتى اسمها إلى «البيوت أسرار»[1] منعًا لاشتهار الرواية، يا لهم من نزهاء! ولم أنل من المكافأة عليها إلا اليسير، لأن الثعالب تحوم.

---

(١) مسلسل تلفزيوني سوري، من إخراج علاء الدين كوكش، مأخوذ عن رواية السباعي، وضعتْ السيناريو له رانيا بيطار، عُرض لأول مرة عام ٢٠٠٢.

ولكن... ألست أنت المواطنة المثقفة، يا لينا، مَلومةً أيضًا لأنك لم تسألي عني؟

دمشق الشام: ٣-٤-٢٠١٢

الوطن.. والاضطهاد

«عندما يُضطهد المواطن في وطنه الحبيب، يكفّ الوطن عن أن يكون حبيبًا، يصبح بلدًا من البلدان ليس إلّا»..، من قصة «البحث عن وطن» (مجلة «العربي» الكويتية، عدد يوليو ١٩٩٦، وكتاب «آه، يا وطني!»، دمشق ١٩٩٦)

أتراهم يضطهدوننا حتى نكفّ عن الانتماء إلى الوطن، والخروج منه باحثين عن وطن آخر!

ولكننا سنبقى، ونموت فيه... وسوف تُزهر أرواحنا وردًا أحمر، يُذكّر أبناءنا بأنّ دماءنا هي التي أتت لهم بالفجر المنير.

دمشق الشام: ٤-٤-٢٠١٢

يوم الجمعة.. وحيدًا في بيتي

وحيدًا أقبع في بيتي يوم الجمعة وفي سائر أيام الأسبوع، مثل أرنب يُرابط أمام وكْرِه ثعلب.

أقرأ، أشاهد، أحنو على أوراقي، ثمّ أقوم أحاور الناس في كلّ مكان.

أخاف أخرج من بيتي، فيقنُصني شبّيحٌ في العالي، أو يغتالني تفجيرٌ مُلْتبِس. أخاف أن أسافر أيضا.

كم ذا يسلُبوننا من حقوق! وكم يمنحوننا من مِداد غير أزرق[١] نسجّل به مآثرهم!

دمشق الشام: ظهيرة «جمعة فارس الخوري»[٢] ٦-٤-٢٠١٢

العدوى.. في الدراسة

تحدّثت الأم قائلة: دخلت ابنتي البيت (صف ثالث روضة) وفي يدها ورقة من المعلمة، تقول لي: «ماما، درّسيني، غدًا عندي مذاكرة!». رفع أخوها الصغير (أول روضة) يده بورقته يقول: «ماما، درّسيني.....». وجلس الاثنان... يدرسان!

منذ نصف قرن من عمر الزمان السوري و«مبدأ تكافؤ الفرص» يتراجع، فكلّ ما هنا وهنالك لهم وللأتباع والمحاسيب. ولـمّا كنت أَعُدّ نفسي كاتبًا ملتزمًا بقضايا أمته، فقد استوحيت من هذه «الظاهرة» ومن غيرها من الظواهر المَرَضِيّة قصصًا، سمّيتُ واحدة منها «الأول».

قبل البدء، أقول للأصدقاء: إني في مقاربتي لمثل هذه المضامين الشائكة، ألتجئ إلى ما نسمّيه «الفانتازيا». فأنت حين تقرؤها تجد فيها خيالاً يحملك على الظنّ بأنك في حلم، وتجد وقائع فتقول: إنك في خِضَمّ الواقع، ومع تبايُن الرؤية تنتهي إلى أن تقول: لقد كان الكاتب يحلُم ولكنه قال الحقيقة كلَّها! وإني لأبتعد في هذه القصص عن توصيف المكان وتحديد الزمان، حتى الأسماء أهجرها رامزًا إلى الشخصيات

---

(١) دمنا الذي يسفكون.

(٢) "جُمعة فارس الخوري"، لأن الثورة السورية أولَ أمرها وفي فترة السلميّة كانت تخرج من المساجد عقب صلاة الجمعة، فكان يوم الجمعة مميَّزاً دائماً، وصار الشعب ينتظر يوم الجمعة إما مشاركاً وإما مراقباً لما يحدث، ولهذا صار الناشطون يطلقون على كل جمعة اسماً له دلالة، وفيه حثٌّ على الحراك.

بحروف، الأغلب فيها حرف «س».

و«س»، في قصة «الأول» هذه، شابٌّ متخرّج في كلية الطبّ حديثًا، وهو إنسان «نابغ» فيما حصّل من علوم الطبّ وسائر المعارف، هكذا أردته توظيفًا لمرادي. حاز في تخرّجه على معدل عال هو ٩٩,٩٩٪ (انتبه!). الآن، قصتي هذه ترصُد دخوله إلى امتحان «الثقافة العامة»، يختبرون معارفه ليوافقوا على تعيينه «معيدًا» في كلية الطبّ.

سوف نلاحظ أنّ الممتحِن، ذا السَّحْنة القاسية، يُرهق «س» بأسئلته المتلاحقة والغريبة، ولكنّ الشاب النابغ كان لها بالمرصاد، وكذلك كان له الممتحِن، الذي يقطع الإجابة ليُلويَ عليه بسؤال جديد. وبعد أن ينجح «س» في كل الإجابات، يُخضِعه الممتحِن لامتحان ثان تعسّفيّ، فينجح فيه، ثم لامتحان ثالث، ورابع، وخامس...، والنجاح الكاسح مستمر.

ولحظة يتنفّس «س» الصعداء، يسمع من الممتحِن أنّ شيئًا ما ينقص ثقافته: «إنّ تقارير الأمن الطلابي، التي وردت إلينا من جامعتك، تؤكّد كلُّها أنك لم تُشاهَد يومًا وأنت تسير في مسيرة، أو تهتف مع الهاتفين، أو تصفّق مع المصفِّقين!».

ويسقط المواطن النابغ سقوطًا مريعًا، أمام الممتحن، وأمام القُرّاء، وأمام الحقيقة، وأمام التاريخ.

قصة «الأول» هذه، كتبتُها في صيف ١٩٨٢. نُشرت في مجلة «العربي» الكويتية (العدد ٣٠١، ديسمبر/ ١٩٨٣)، فأثارت مشاعر المضطهدين العرب في كل مكان (قبل أن تنزل في مجموعتي «اعترافات ناس طيبين»، دار إشبيلية، دمشق ط١ ١٩٩٠، ط٢ ٢٠٠٢).

هؤلاء المضطهدون، يا أصدقائي، هم اليوم وَقود الربيع العربي، الذين يسقون الأرض بدمائهم النقيّة، لتطلع أزاهيرَ حُمْرًا بلون الدم القاني.

دمشق الشام: مساء «جمعة فارس الخوري» ٦-٤-٢٠١٢

(١٩٨٢... ٢٠١٢)

مع اختلاف الزمان، فإنّ للنظام أن يستاء جدًّا من الإعلام العربي والعالمي اليوم.

ففي ١٩٨٢ غضّت أمريكا الطَّرْف... وكان الاتحاد السوفياتي سعيدًا بأنّ سكان مدينةٍ يُبادون أذكر أننا اجتمعنا في ١٩٨٤ في مقرّ اتحاد الكتّاب العرب بالمزّة، بوفد من اتحاد الكتّاب السوفيات. سألَنا أحدُهم وهو يُشَقْرق[1] من الفرح: «حدّثونا، حدّثونا، كيف قضيتم على الرجعية في حماة؟».

اليوم «لافروف»[2] يُشَقرق، ولا يتوقّف عن الشَّقْرَقة.

دمشق الشام: ٨-٤-٢٠١٢

أنت فجّرت فينا المواهب، أيها النظام

اسمح لي، يا سيدي النظام، أن أهدي إلى مسامعك الكريمة، أني اكتشفت هذا الصباح اكتشافًا: أنت أثرت فينا المشاعر، وفتّقت الجروح، وفجّرت ينابيع المواهب...

فنحن اليوم، أنّى تلفّتنا، نسمع التعبير عن الألم: في البيت، المدرسة، العمل، في الطرقات، على الهاتف، في وسائل الإعلام المحرّضة... آلامٌ وأوجاع ما كان التعبير عنها ليجري على الألسن أو يسيل به مداد، لولا هداياك التي ترسلها إلينا صباح مساء

(١) من العاميّة السورية، بمعنى أشرقَ وجهه من البهجة. ولعلها تحريف من أشرق.

(٢) وزير خارجية روسيا آنئذ.

من الأرض والسماء.

ومع ذلك لا يسمح لي قلبي النازف بأن أقول لك: شكرًا!

دمشق الشام: ٩-٤-٢٠١٢

الفنون

الفنون بصفتها إبداعًا، بالريشة، بالقلم، بالوتر، بـ..... هي معًا باتجاه الحرية، التي في ظلّها تتحقّق العدالة وتُصان الكرامة.

دمشق الشام: ٩-٤-٢٠١٢

مع "شاميّون حتى النخاع"

أُدخلت عالم «الفيسبوك» منذ أسابيع فقط، وإن كنت أمارس «التنضيد الضوئي» منذ بضعة وعشرين عامًا. وفي دخولي هذا العالم أتعرّف كلّ يوم على جديد، والليلة على «شاميون حتى النخاع». فنّ وأدب وإبداع، شباب وكهول (ولم أر شيوخا في مثل سني!)، الليل عندهم موصول بالنهار. والذي شاقَني أنّ هنالك من يطلّ عليّ ليبلغني أنّ نصًّا يُنشر الآن.

هذا الاستدعاء، الاستضافة، الترحيب يثلج الصدر. مثقفون، مبدعون، متضامنون، في عالم جديد واعد. يسعدني وجودي معكم، أيها الأحبّة... أجل، والأديبة ميساء اللطيفة سارعت إلى الترحيب والتعريف، ونحن في الهزيع الأخير من الليل... حلم ورديّ.

اسمحوا لي: في التعريف اللطيف الذي، يطيب لي أن أبيّن أنّ لي ابنة أخرى في فلوريدا، فنانة تشكيلية أيضًا، هي «سهير السباعي»، فضلاً عن ابنتي بدمشق

«خلود». هل أستطرد فأقول: إنّ في ذرّيتي فنانات وفنانين آخرين، ذلك أنّ الخال «لؤي كيالي» غلبني بـ«جيناته» الفنية، ففضّلت الذرية تخضيب الأنامل بالألوان على تحبيرها بمداد القلم.

إنّ لي بحلب أخًا روائيًا هو «نادر السباعي»، وليس سرًّا إذا همست في آذانكم بأنّ أبي المولود بحمص قد أنجب بحلب تسعة عشر من البنين والبنات (حمصيٌّ أصيل)، وأما الأحفاد اليوم فقد قارب عددهم المئة. دُقّوا على الخشب.

كلمات أكتبها والفجر يُسفر في عاصمة سورية التي تنزف دمًا.

دمشق الشام: ١٠-٤-٢٠١٢

إلى المواطنة السورية راغدة

إنّ النظام، في قتله الناس، لا يحتاج إلى أن يقتدي بأحد، إنه يمنح القُدُوات.

وأما عن التربية المنزلية، فإنّ كثيرًا من معطياتها يذهب هدرًا إنْ لم ترافقها رعاية من النظام، من كبار المسؤولين، ومن كلّ واحد فينا. نذكر أننا رأينا، في أيام «حرب تشرين»، الناس يصطفّون بالدور أمام الأفران، ألزمهم بذلك بائع الخبز وليس سواه، فاستجابوا بأَرْيَحية، لأنّ ذلك يُريحهم ويحفظ كراماتهم.

إن النظام حاجة فطرية في الإنسان وليست ترفًا، و«النظام» نراه غير مَعنيّ بهذا، مثل قول مندوبة لبنان في الأمم المتحدةّ.

وتحيتي إلى «راغدة»، التي تعيش خارج الوطن، يبتعد عنها «رغد» العيش وهناءة البال، وهي تستمع مقهورة إلى أخبار الوطن.

دمشق الشام: ١١-٤-٢٠١٢

مع الليمون والقهوة

صباح الخير.

كلمة «ليمون» مستمدّةٌ من اللغة الفارسية (مثل: النّارِنْج والأُتْرُجّ/ الكبّاد)، وقد لفظها الأجداد أولاً «لِيمُو» قبل أن يُضيفوا إليها النون. ويغنّي صباح فخري: «ليمونة ع الليمونة شامي الله»[1].

والقهوة، كان أول اكتشافها، قبل أن تعُمّ العالم، في اليمن السعيد، عندما رأى المزارعون هناك، قبل نحو خمسمئة سنة، أنّ الماعز في قَضْمها أوراق شجرها يعتريها النشاط، فخُيِّل إليهم أنها شيء من الخمر، فسمَّوها بأحد مسمّياته: «القهوة»، وثمة فعل «أقهى» (امتنع عن الطعام ولم يشتَهِه)، والذي كان أنهم حرّموا تعاطي القهوة مشروبًا، وصنّفوا في ذلك الكتب، ثمّ عَدَلوا عندما فرّقوا بين تنشيط القهوة لشاربها وبين الفتور الذي ينتاب شاربَ الخمرة.

تضاءل ميلي إلى احتساء القهوة، وتزايدت عنايتي بالليمون، أقطفه من حديقة بيتي الدمشقي، وأتناوله عصيرًا (ليموناضة) مع قليل من السكَّر والنعناع الأخضر، أو شرائح مرشوشةً بالملح، فهو يقي من الزكام في أوله أو يساعد في القضاء عليه.

دمشق الشام: ١٢-٤-٢٠١٢

---

(١) الأصحّ: شمّة والله.

إسقاط الديكتاتور الثالث

استطاع السودانيون أن يُسقطوا مرتين الديكتاتورية في بلدهم (إبراهيم عبّود ١٩٦٤ وجعفر النميري ١٩٨٥) بتحرّك شعبي غير مسبوق في تاريخ العرب المعاصر، مبتدئين في كل مرة بتأسيس حكم ديمقراطي جديد.

ولكنّا نراهم اليوم عاجزين عن أن يتخلّصوا من ثالث الديكتاتوريين، هذا الذي برّر انقلابه (١٩٨٩) بأن الحكم الديمقراطي القائم في بلده أضعف من أن يستطيع القضاء على تمرّد الجنوبيين. فلما تسلّم المقاليد ما كان منه إلا أن وقّع بيده وثيقة الانفصال.

أشهد بأني عاجز عن فهم أن يبقى ديكتاتور في سُدّة الحكم بعد إخفاقه في تحقيق أُولى الأماني القومية.

دمشق الشام: ١٤-٤-٢٠١٢

حكمٌ حتى الموت

وأغلب الظنّ أنّ مِنجل الموت سوف يستمرّ في الحصاد، تأكيدًا لمقولة واحد منهم بأنّ النظام لا يهمّه أن يُقتَل ثلثُ السكان من أجل بقائه... (وأضيف من عندي: ومن أجل تحقيق بقية الأماني الاجتماعية والثقافية والقومية).

أجل... إنه «حكمٌ حتى الموت»

ولكن، لماذا؟ لماذا؟

دمشق الشام: ١٤-٤-٢٠١٢

إعجاب

تراجعٌ واحد نسجّله للنظام بإعجاب: أنه كفّ عن افتعال التفجيرات المثيرة للشفقة! دمشق الشام: ١٥-٤-٢٠١٢

راية مرفوعة

سمّيتُك «راية مرفوعة» في تلك الليلة، وأنت «رَيّا» التي تمتلك المياه والينابيع، ابنةُ أخي الكاتب الكبير «شوكت»... طيب، لماذا لم تحاولي التصحيح لي، في ساعتها، يا أديبتنا الشابة الواعدة؟

دمشق الشام: ١٥-٤-٢٠١٢

من مزايا التاريخ

من مزايا التاريخ أنّ كلاً يكتبه بحسب رؤيته وعلى هواه... وقارئه يتصفّح، ويميز، ويختار.

دمشق الشام: ١٦-٤-٢٠١٢

حوار مع زهرة النساء

ذات يوم كتبَ لها أنّ الكلمات التي نطقتْ بها في ذلك الموقف جعلَتْها زهرةَ نساء الوطن في هذا الزمن الصعب، وأنْ لا بأس عليها فيما نالها من ضيم التفّت بعده بعباءة الكبرياء، وتكتب كلمات يعبَق أريجها في فضاء الوطن الرحيب، فقامت تُطلّ على نفثات يراعه، لتعود إليه: تسأل، تطمئنّ؟

فكتَبَ أنْ لا مجال لخوف يسكن قلب الأديب، وأنه هو قد دأب على كتابة ما

يُعرّي الفساد ويعزِف على إيقاع الظلم، منذ... منذ عقود من السنين، وقال أيضا: إنّ معارفه الجدد، المستفيقين على وقع الواقع، يقرؤون له اليوم ويتساءلون: «نحن في تلك الأيام كنا نتغنّى ونرقص فرحا، وكنت أنت تكتب هذا! أيّ حَدْس!»، فأجابهم: «لا لا، كل ما هنالك أني كنت أرى، وكنتم أنتم لا تبصرون!».

قالت: إنّ إحساس الفنان بالأشياء يقوده إلى حقائق قد يتأخّر الناس في استيعابها. وعلى هذا انتهيا... وتصبحون على خير.

دمشق الشام: ١٦-٤-٢٠١٢

القلق المبدع

نشر صديق مثقف في رأس صفحته اليوم (٤/١٧) ما نصّه: «القلق لا يمنع ألم الغد.. لكنه يسرق متعة اليوم»، فكتبت معلّقا:

ولكنّ ثمة قلقًا آخر، مبدعًا، هو ذاك الذي يُعانيه الفنّان، فيه يُعمِل فكرَه، ويستنفر في نفسه عوامل الإبداع، قبل الشروع في العمل، ولولاه -ذلك القلق- لما كان إبداع. وقد «يسرق متعة اليوم» -أو يُخيَّل إلينا ذلك- ولكنه، لأمانته!، يردّها في الغد التالي فنًّا يبقى.

دمشق الشام: ١٧-٤-٢٠١٢

بين العامّيّة والفصحى مساء

قبل سنوات ارتفعت الأصوات مُشفقةً على أنّ اللغة العربية الفصحى تتراجع عند أهليها الناطقين بها والكاتبين. الآن تأكّدت من ذلك، من خلال ما أقرأ من تعليقات على حيطان الفيسبوك... فانتابني الإشفاق، أيها الأصدقاء!

أنا لا أتطلّب ممن يكتبون بالعامية أن يُقلِعوا، بل يخفّفوا ما هم فيه... مع علمي بأنّ كثيرا من تعبيرات الحياة اليومية لا تحلو إلا بإيرادها بالعامية.

إنها اللغة التي تجمعنا من الماء إلى الماء، كما يقولون، وبها ندوّن حوادث التاريخ، وبحروفها النيّرة نبدع الأدب، ونتعلم العلوم، أيها الأحبّاء.

دمشق الشام: ١٨-٤-٢٠١٢

دموع.. ودموع

لقد ظللنا مئة عام نَذْرف الدموع على شهداء السادس من أيار... تُرى كم ذا سوف نذرِف منها، وطَوال كم من الزمن، من الدهر، على شهداء ربيع سورية؟!

دمشق الشام: ١٨-٤-٢٠١٢

ضيوف.. مبدعون

تصدّرت اليوم في صفحتي لوحةٌ لخلود السباعي، وكانت قد نزلت قُبيل ذلك لوحةٌ لزهير حَسيب[١] لحقت بها أخرى له، وسبق ذلك لوحاتٌ لسهير السباعي، وقبل القبل لوحاتٌ لها ولشقيقتها خلود، فازدانت بذلك صفحتي، ورأيتها تتحوّل إلى ما يُشبه معرضًا لـ«الفنّ التشكيلي»!

اسمحوا لي، أيها الأصدقاء، أن أعبّر لكم عن منتهى سعادتي بما استضفتُ، وبما أراه أيضا أشبه بـ«منتدى» يجري فيه تبادل الآراء بين فنانين ومثقفين تنمّ على ذوق

---

(١) فنان تشكيلي سوري، كرديّ، من الحسكة، عضو اتحاد الفنانين التشكيليين في سورية، ولا يزال على قيد الحياة.

رفيع، دون أن تذهب بهم المودات بعيدا.

دمشق الشام: ١٩-٤-٢٠١٢

من رحم الثورة يطلَعُ أبطالها

إنّ الثورة، كلّ ثورة، تُبادر بالضرورة إلى إنجاب أبنائها وقادتها، ولولا ذلك، لولا هذا المخاض السريع، لما قامت ثورة. وإلا من ذا الذي يُوقدها ويَقودها! وقد رأينا وميضَها ينبعث من بين أنامل أطفال درعا، ليصبح -بفظاظة النظام- لهيبا يغطّي ربوع الوطن؟ أذلك بفعل الريح؟ أم أنهم الأبطال، الطالعون من رحم الثورة، من أنين القلوب وحنين الشعب إلى الحرية؟

دمشق الشام: ٢١-٤-٢٠١٢

نحن شعب يحبّ النظام

نشروا أنّ الشاعر محمد الماغوط قال يوما: «لم أستطع تدريب إنسان عربي واحد على صعود الباص من الخلف والنزول من الأمام، فكيف بتدريبه على الثورة»؟

وأنا أقول قولًا مخالفًا!

المواطنون يراعون الصعود والنزول، وقلّةٌ هم المخالفون. و«النظام» إذا أراد حفظ النظام، فعليه أن يُكلّف من يقفون -إلى حين- على أبواب الباصات، ويسهرون على النظام: المخالف يُرغَم على دفع غرامة فورًا... ولكن النظام لا يهتم بالنظام!

أسأل: لصق أوراق النعي على جدرانٍ تكون أحيانًا من رخام، مع وجود لافتة تنصح بعدم فعل ذلك... لماذا لا يلاحِق النظام أصحاب هذه الملصَقات بغرامات صارمة؟!

في الاتحاد السوفياتي (في بداياته) لاحَظوا أنّ المشاة يعبرون الشوارع من غير ممراتهم، ولم يردعهم إلّا أن كُلّف «قنّاصون» مهمتهم إطلاق النار على ما حول المخالف، فخاف الناس وكفّوا.

في باريس لم أر جُباةً في الباصات، إنه السائق الذي يلمح الـ«كارت أورانج» في الأيدي الصاعدة، ويدير بصره نحو من يضع الكارت في الحاسوب، ويبيع أيضا التذاكر... ثم عدت عامئذ إلى دمشق، فرأيت مثل هذا النظام يُطبّق بكل أريحية...

فكلام الشاعر المبدع محمد الماغوط هنا هو كلام شعراء، أو هو كمن يتلذّذ بجَرح نفسه بسكين، ويتغنّى بذلك!

أيها الأصدقاء: كونوا على يقين من أننا شعب يحب النظام، ولكنّ الساهرين على تطبيقه هم المقصرون، المهتمّون بأمور أخرى!

دمشق الشام: ٢٢-٤-٢٠١٢

المناضلة سميرة المسالمة

طرحت المناضلة سميرة المسالمة[١] في صفحتها مساء الأربعاء ١٨/٤، على الناس السؤال التالي:

«عندما يرفع أحد كبار الفاسدين والمفسدين شعار مكافحة الفساد في حملته الانتخابية لعضوية مجلس الشعب، فهل نتوقّع أنه يُعْلِمنا عن نيته الانتحار؟».

فكتبت بين من كتبوا:

---

(١) كاتبة سورية. كانت قبل الثورة رئيسة تحرير جريدة تشرين الناطقة باسم النظام، ثم انشقت وغدت نائب رئيس الائتلاف الوطني فترة. ولها رواية "نفق الذلّ" تعرض للفساد وظلم السجون والدكتاتورية!

سؤالك يستدرجنا إلى أن نقول: أبدا، يا سيدتي! إنه كذّاب أَشِر، كما هو دائما. إنه يريد بشعاره المتجدّد أن يحمي نفسه الفاسدة ويدافع عن مكاسبه المنهوبة.

لا يستطيع الفاسد المفسد أن يكون صالحا مصلحا أبدا، كيف! إنه ينحر ولا ينتحر. ذات يوم نشرتُ الآتي: «تعالَوا نتفاهم: هل تُخيفكم المساءلة في الزمن الآتي؟ ولكنها ستكون عادلة. أم أنّ هذا ما يُخيفكم!».

دمشق الشام: ٢٢-٤-٢٠١٢

يعترف بنقص المعرفة.. ويحكم

في الأعوام من ١٩٥٦-١٩٦٢، كانت قلوبنا تقطر تأييدا للثورة الجزائرية، فلما نجحت رقصت ورقصنا فرحًا.

وأنت اليوم، يا محمد خليفي (من الجزائر)، «لا تعرف إلّا القليل عن النظام السوري»، وتتّهم -وأنت الذي لا يعرف إلّا القليل- ثورتنا السورية بأنها «شكل من أشكال التدخل الأجنبي».

أنت، يا بن الجزائر المناضلة، لست فقط «لا تعرف إلا القليل» وأنت في برجك العاجي، أنت تجهل كل شيء، تجهل واقع الحياة السياسية والإنسانية في بلدنا. والظنّ أنك تجهلها في البلاد العربية والعالم أيضًا.

عليك بالاعتذار فورًا.

دمشق الشام: ٢٢-٤-٢٠١٢

الذهب.. وذهاب الأرواح هدرًا

في وكالات الأنباء العالمية أنّ سورية تحاول بيع احتياطيات الذهب سدًّا للعجز

الاقتصادي مما تعانيه من العقوبات الدولية... فكتبت:

وأي خطر عند النظام في أن يتصرّف باحتياطي الذهب، ما دام يتصرّف بأرواح شعبه قتلاً، ويقصف البنايات الشاهقة في المدن، ويدمّر البيوت الطينية في القرى والمزارع... في سبيل البقاء! فما قيمة الذهب؟

دمشق الشام: ٢٢-٤-٢٠١٢

مشانق.. وتشريد

ما أتصوّر أنّ شيئًا قوّى «الاتجاهات الإسلامية» في النصف الثاني من القرن العشرين، مثل اضطهاد الديكتاتوريات العلمانية للإسلام والإسلاميين، من تعليق على أعواد المشانق وتشريد في أنحاء العالم.

وذلك من فرط غباء الأنظمة.

دمشق الشام: ٢٣-٤-٢٠١٢

ممّن نتوقّع الاعتذار غدًا؟

الجزائريون ما زالوا يتوقّعون الاعتذار من «دولة» كانت قد قتّلت أبناءهم ودمّرت ديارهم... السوريون غدًا ممّن يتوقّعون الاعتذار؟

دمشق الشام: ٢٣-٤-٢٠١٢

إنّ في سورية ثورة الحرية والكرامة

بعيدًا عن كلّ ما ذكرتَه، يا صديقي الجزائري محمد خليفي، من وقائع تخضع للنقاش... نحن في سورية يؤلمنا جدا أن يقال عن ثورتنا بأنها «شكل من أشكال

التدخل الأجنبي». أنتم، بعيدًا، تصغون إلى منطق النظام، ونحن نعاني الويلات: من تنكيله هنا، ومن «قصور الفهم» هناك.

ما كنا نسمح، أيام الثورة الجزائرية، لأحد بأن يتفوّه بكلمة: "إنّ أمريكا وراءها". ذلك كفر!

دمشق الشام: ٢٣-٤-٢٠١٢

ولادة.. ثورة

قالت: «كل ثورة تنضَج بُعيد نُصرتها إلا السورية... تولد عملاقة!».

ففلت: وإني أراها وقد ولدت «مصادفةً»، على أيدي أطفال كانوا يخطّون كلامًا على حائط مدرستهم في مدينة يعربية، والذي أزكاها «عَمْلَقها» خطأٌ من النظام غبيٌّ، انضاف إلى ما تراكم عبر خمسين.

والنظام ما زال يمارس لعبته المفضّلة: «حافَة الهاوية»، هذه التي ما إنْ يُطلّ اللاعب من الحافَة على الهاوية، حتى.....

وأدرك شهرزاد ما يدركها كلَّ صباح.

دمشق الشام: ٢٤-٤-٢٠١٢

الشابّة الحمصية "يارا شماس" تحرّض على الاقتتال الطائفي!

وإذًا... فإنّ المواطنة السورية «يارا ميشال شماس»[١]، بنت الواحد والعشرين

---

(١) ابنة المحامي ميشال شماس، الناشط في مجال حقوق الإنسان، اعتقلتها القوى الأمنية السورية في آذار ٢٠١٢ وعمرها ٢١ سنة، قيل: للضغط على أبيها، ووُجِّه إليها تسع تُهم، بعضها حكمُه الإعدام، ثم أطلق سراحها في العام نفسه.

ربيعًا، تقوم بالتحريض على الاقتتال الطائفي، ممّا يعرّضها للحكم عليها بالأشغال الشاقة المؤبدة!

وأما النظام، الذي يدّعي أنّ المحتجّين الذين يملؤون الساحات مطالبين بالحرية، أنهم إنْ نالوا الحرية، فسوف ينقضّون على الأقليات... فهو بذلك لا يحرّض على شيء، ولا يثير المخاوف، ولا الكراهية والبغضاء، ويستحقّ أن نشّد على يده مهنّئين!

يا له من منطق!

دمشق الشام: ٢٤-٤-٢٠١٢

هل ندمّ النظام

هل ندمّ النظام لأنه احتجز حريتك منذ خمسين يومًا؟ أم «نشكره» لأنه -دون أن يدري- جعل القلوب كلّها تحتضنك، يا يارا، الحرة حتى رؤوس أناملك. سوف تنتصرين، وينتصر بك الوطن.

دمشق الشام: ٢٥-٤-٢٠١٢

هديل.. السورية الحرة الأصيلة

شجاعة أنت، يا «هديل بشار كوكي»، قبل أن يغتال النظام حريتك.

ورأيناك أكثر شجاعة بعد أن تحرّرتِ، تروين ما وقع لك وأنت في قبضة الجلادين (يرغمونك على أن تهرولي، وأنت في غرفة التحقيق الصغيرة معصوبة العينين، ليرتطم رأسك الجميل بالجدران.. ويكررون الطلب...)[١].

---

(١) هديل كوكي ممن اعتُقل وخرج. وروت في مجلس حقوق الإنسان تفاصيل اعتقالها ومَن معها، وما

مساكين! يتخبّطون في سيرهم عكس التاريخ، وهم لا يعلمون!

دمشق الشام: ٢٥-٤-٢٠١٢

جميلات سورية الثورة

كم من «جميلة بو حيرد» تظهر في بلدنا، في ثورتنا، على أيدي النظام وهو لا يدري!

دمشق الشام: ٢٥-٤-٢٠١٢

يارا شماس في الزنزانة ٥١٠٥١

نحن معكَ، يا ميشال شماس، مع ياسمينة سورية، التي يصل إلينا عطرها من زنزانتها بحمص المجيدة.

ابنتك يارا تجاوزت أن تكون ابنتك وحدك. إنها، منذ وضعت قدمها في (الزنزانة ٥١٠٥١)، تَجسّد فيها الوطن، فهي هناك تمثّله، تدافع عنه، وعن كل المقيمين فوق ترابه، يا أبا يارا العزيز!

دمشق الشام: ٢٦-٤-٢٠١٢

عودة الشنطة إلى ميشال شماس

في عام مضى حملتُ شنطة طعام إلى ولدي في «فرع فلسطين»[1] السيّئ السمعة.

حدث لهم في المعتقَلات، وكذّبت بعض ما صرّح به النظام من أخبار.

(١) فرع فلسطين ويُعرفُ كذلك باسم فرع **٢٣٥** هو أحد السجون التي تديرها المخابرات السورية. يقعُ هذا السّجن في العاصِمة دمشق ويحظى بسمعة سيئة للغاية وذلك بسبب ما تسرب عنه من تعذيب النظام السوري لمعارضيه ولنشطاء حقوق الإنسان كذلك. تسرّب كذلك عن السجن قيام عناصر من المخابرات

أعترف بأنّ السجّانين -بعد الوساطة- أوصلوا المآكل لكنهم أخذوا الملاعق، لأنهم لا يسمحون بإدخال أدوات معدنية، يخافون على أبنائنا أن يستعملوها في الانتحار. بربكم ألا يدلّ هذا على أنّ في قلوبهم رحمة؟

ولكنهم أمس، أعادوا الشنطة إلى والد يارا شماس، وفيها مِنشفة وصابونة وشويّة ثياب... هل نفهم من ذلك أنّ في السجن مناشفَ على شكل بُرْنُس، وصابوناً معطّرا، وثياباً أنيقة؟

دمشق الشام: ٢٦-٤-٢٠١٢

عودة الشنطة.. كما هي

سألتُ الوالد: وهل كان في الشنطة التي أرسلتَها إلى ابنتك «يارا» أدواتٌ معدنية، حتى امتنعوا عن إدخالها إلى الزنزانة (٥١٠٥١)؟

فأكّد لي أنّ كلّ ما فيها مِنشفة وصابونة وشويّة ثياب.

فتعجّبت من أن يمنعوا اليوم ما كانوا يسمحون به من قبل، وتساءلت بيني وبين نفسي بصوت عال: هل هم استبدلوا بقانون الطوارئ -الذي قالوا: إنهم ألغوه- قانونًا أشدَّ منه؟ أم أنه لا محل للقوانين هنا؟

دمشق الشام: ٢٦-٤-٢٠١٢

السورية باستجواب معارضين ومدنيين في ظروف يرثى لها، وتسمية هذا الفرع بهذا الاسم لتكريه الناس باسم فلسطين.

حين يخون الصمت

"أنتم محاسَبون على ما لم تقولوه حين كان القول منكم مطلوبًا". عن «مارتن لوثر كينغ» (بتصرّف)

دمشق الشام: ٢٧-٤-٢٠١٢

قتل الإنسان مثل «شربة ماء»

أصبحنا في زمن صار فيه قتل الإنسان مثل «شربة ماء»، وكذلك قصف الأبنية والأحياء السكنية، ونزوح الآلاف عن بيوتهم هائمين... الخ. والتبريرُ عند النظام دائما أنه يحمي المواطنين من عصابات مسلَّحة.

دمشق الشام: ٢٧-٤-٢٠١٢

مؤامرة كونيّة

مؤامرة كونيّة

استفردوا بالناس

جيلاً، ثمّ جيلاً

فلما جاء الربيع

واستيقظ الزهر... والعالم

صرخوا مستغيثين:

إنها «مؤامرة كونيّة»!

دمشق الشام: ٢٨-٤-٢٠١٢

قبل الزواج من خولة

كان اسمه «خولان»، وأبوه جاء من أرض الجَوْلان.

رأيته مبتهجًا، لأنه وجد له مكانًا بين عمّال النظافة في حيّنا، فأمسى قادرًا على أن يتزوج من ابنة عمه.

جاءني منتصفَ الليل، بعد انتهاء دوامه الليلي.

كان، وهو يُقَصْقِص «شُجَيرة العسليّة»، يقول مغتبطًا: «ما شاء الله! ما هذا التفتيح! رائحتها تملأ الشارع في الليل».

كنت أصغي إلى ثرثرته الجميلة: اسم خطيبته «خولة». ولم يخطر لي أن أحدّثه أنّ في الكلمات الثلاث (اسمِه، واسمها، والهضبة التي رحلوا عنها)، ما يُسمّى في علم اللغة «جِناسًا»، فهو لم يُكمل دراسته الابتدائية.

قال: إنّ أباه لقّنه شيئًا ممّا يعرف في الزراعة، فهي ممتزجة بالدم. وقال: إنّ الأب والجدّ يتحدثان بأنّ «عسليّةً» كانت هناك في فِناء بيتهم، تملأ الفضاء في ليالي الربيع ريحًا طيّبة... وهم يتساءلون عمّا إذا كانوا سيجدونها يوم عودتهم إلى قريتهم.

وتحدّث خولان عن أنّ بعض زملائه من العمّال يُرغَمون أحيانًا على أن يحملوا هِراوات، قالوا: إنها بملامسة الجسد تُكَهرِب، فكانوا يرفعون بها أيديهم محاذرين أن تمسّ الرؤوس. وأكّد لي أنه هو لا يمكن أن يضرب بها إنساناً ولو فرّموه!

في اليوم التالي سمعت أنّ غرباء جاؤوا حيَّنا يريدون أن يأخذوا رجالًا. انكمش العمّال مثل أرانبَ مذعورة. خولان، تمتمت شفتاه بكلمة «لا»، ولم يقوَ على أن يتفوّه بتلك العبارة التي كان قالها لي.

ما تهامس به، بعدئذ، زملاؤه الذين أخذوا الهراوات ومضوا، أنّ الغرباء خَطَفوا خولان، ودخلوا به أول مبنى، وصعدوا حتى الطابق الأخير، اقتحموا بيتًا، واتجهوا فيه نحو الشرفة، ومن الطابق الرابع ألقَوا بخولان إلى أرض الشارع مثل كيس أسود.

وفي اليوم التالي، كان الاحتفال بعيد العمّال العالمي.

دمشق الشام: ١-٥-٢٠١٢

إلى هديل بشار كوكي صديقة الحرية:

خطأ في الاتهام

يوم ألقَوا القبض عليها في مظاهرة كانت تحمل فيها علم الانتفاضة، شاء المحقّق أن يسجّل لها تهمة «من أنصار السلفيّة الجهاديّة»، دون أن يلحظ أنها حاسرة الرأس، وأنّ على صدرها صليب المسيح.

ثمّ لما شاع الخبر وغدا أضحوكةَ العصر، وكان من العسير اللعب بأوراقها الشخصية، أعلنوا أنّ ذلك كان غلطًا من المحقّق، ولم يُبدوا الاعتذار.

دمشق الشام: ٢-٥-٢٠١٢

في كتابة التاريخ

إلى الصديق عبر الفيسبوك، الأديب المغربي «عمر الكوهن»، الذي يؤرّقه التاريخُ، حوادثَ وسطورًا مكتوبة، أقول:

من حُسن حظّ البشرية أنّ التاريخ يُكتب بأيدٍ مختلفة تتوزّعها الأهواء. ولو كانت يدٌ واحدة تكتبه لغلب عليه هوًى واحد، أنتج رؤيةً واحدة تبدّدت في تضاعيفها الحقيقةُ كلّها.

ولما كان يُكتب بأهواء، فإنّ لكلّ باحث يُنجبه عصرُه أن يطّلع، ويُنقّب، ويَنتخب ما يوافق هواه أيضا، وإنّ من هذه النوافذ المختلفة يُطلّ القارئ، في كلّ عصر ومصر، على الماضي ويُلمّ بتفاصيلَ يُضفي عليها هو أهواءه أيضا!

بالاختصار: التاريخ حوادث يُبدعها الزمان، ويحتضنها هوى الإنسان.

دمشق الشام: ٣-٥-٢٠١٢

لعشر ثوان.. فقط

كانت خديعة وقعتُ فيها ضحى اليوم، أيها الأصدقاء!

في البداية... سرّني ما أقرأ على حائط بيتي من بيان يَعِدون فيه أنهم سوف يجتثّون الفساد من جذوره ويستردّون المال المنهوب.

فلما حوّلت نظري إلى «رئيس القائمة» وجدتُه «رئيس تلك العصابة» من الفاسدين! ولم أتساءل كيف يمكن لفاسد أن يقضي هو نفسه على الفساد؟ فتلك قضية محسومة.

لم تدم الخديعة إلا ثواني عشراً.

دمشق الشام: ٣-٥-٢٠١٢

وللصمود.. عاصمة

... ثمّ إنها تجلّت لنا، من خلال الدموع والدماء، عاصمةً للصمود لأجيال مديدة.

دمشق الشام: ٣-٥-٢٠١٢

رفاق الفكر... الذين ذهبوا

ولكن... أن يَحتجزوا رفاقَ الفكر في غَيابةٍ مظلمة، عشر سنين، عشرين، ثلاثين!

فأين الصداقات الحميمة؟ وأحاديثُ العَشِيّات والليالي الساهرة؟ الأشواق، الأماني، المصير المشترك؟

وليس يخرج الواحد منهم من الغَيابة إلاّ إلى القبر!

أين، أين الفكرُ الواحد الذي كان جَمَع؟

دمشق الشام: ٣-٥-٢٠١٢

ليس لأحد أن يدّعي

ليس لأحد أن يَصِم بالخوف والجبن أولئك المطالبين بالحرية، الذين يتعرّضون للموت في كل يوم وساعة.

وليس لأحد أن يصف بالشجاعة والبسالة أولئك الذين يَقنِصون الناس غِيلةً، ويقتحمون البيوت ساعات الفجر، ويُلقون بشبابهم من الطوابق العليا إلى أرض الشارع!

دمشق الشام: ٣-٥-٢٠١٢

أظلم الصفحات

وعندما نراهم يَسوقون مواطنًا مربوطًا من عنقه مثلَ نَعجة، ليركبوا ظَهرَه مثلَ حمار، ثم يرحّبون بأن تُلتَقَطَ لهم الصور وهم يقهقهون مَرِحين، ويبيعون ما صوَّروا إلى إحدى الفضائيات التحريضية لقاء دريهمات... نعم، نفهم من ذلك أنهم يقصِدون بثّ الرعب في نفوسٍ أبت أن تتقبّله...

ولكن، ألا يكتب نظامٌ، هؤلاء بعضُ رجاله، بيده أظلَمَ صفحاتِ تاريخه؟ فكيف يمكن أن يواجه المستقبل؟!

دمشق الشام: ٥-٥-٢٠١٢

بكاء الحجر

في مطلع ١٩٦٥، احتجّ الناس على الإسراف في قرارات التأميم، فطورد المحتجُّون واضطروا إلى الاحتماء بالجامع الأموي، فاقتحمتْ دبابةٌ مَدخله الغربي، وقتلت خمسةً وخمسين من البشر.

في الربيع العربي صرنا نرى قِممَ المآذن تهوي من عل، بقصف المدافع. وتطوّر القصف إلى إسقاط مآذن من أساسها.

إنه ليُسمَع _والتاريخ يُدوّن هذه الصفحات_ أنينُ البشر يُخالطه بكاءُ الحجر.

دمشق الشام: ٥-٥-٢٠١٢

رجلٌ يحبّ الجدّ

كان في الحمّام يعاني، لحظةَ قرَعَ زُوّارُ الفجر عليه بابَ بيته.

سألهم، وهو رجلٌ يحبّ الدُّعابة: كم ترون آخذ معي من أدويتي؟

قالوا: لا، لا... خمس دقائق، نصف ساعة بالكتير، وتعود إلى بيتك ماشيا على قدميك.

لم يُصدّقهم، وأخذ من كلّ دواء مقدارا.

هناك سألوه: ما زلت تحكي، تُبربر[1]، تكتب... وهادا المضروب[2]، الموجِّع رؤوسنا، الفيسبوك؟! أما ترعوي، وأنت تقترب من حافَةِ قبرك؟

قال، وهو رجلٌ يحبّ الجِدّ: روحي ليست بأفضل من أرواح الذين تشرب الأرض من دمائهم!

تقول الحكاية: ولم يتسنَّ لهذا الرجل أن يتناول شيئًا مما حَمَل من أدوية. لا، ولا عاد إلى بيته مشيًا على قدميه.

دمشق الشام: ٦-٥-٢٠١٢

حلم!

أحلُم بأن يرى أحفادي، يومًا، الرئيسَ المهزوم في الانتخابات الرئاسية في بلدي وهو يهنّئ الرئيس الجديد المنتخب.

دمشق الشام: ٦-٥-٢٠١٢

حبّ النفس وحبّ الوطن

لماذا نرى حبّ الحاكم لوطنه، في الدول الديمقراطية، يفوق حبّه لنفسه... ونرى حبّه لنفسه، في الدول النامية، أكبر من حبّه لوطنه؟ دمشق الشام: ٦-٥- ١٢

التاريخ حزين

جلس التاريخ في حديقة الزمان مكتئبًا.

---

(١) أكثر الكلام مع صياح.

(٢) من العاميّة تُطلَق في ذمّ شيء أو شخص، وأصلها دعاء: الذي ندعو عليه أن يُضرَب، أو المضروب إن شاء الله.

كانت أحزنتْه أخبارٌ وردت إليه توّاً، عن فظائع تُرتَكَب هنالك، مَزَّق من أجلها أوراقه وتركها للريح. لكنه، بعدَ ما أنعش ذاكرته بأحداث الزمان، عاد يستأنف عمله.

ولكن ظلّ يَحُزّ في نفسه أنّ فظائع الماضي كانت أن يُبيد شعبٌ شعبًا آخر... وأما أن يفعل ذلك حاكمٌ بشعبه!

دمشق الشام: ٦-٥-٢٠١٢

أذكّرك، أيها النظام!

أيها النظام!

أذكّرك بأنّ من تَقتل وتُشرّد هم من أبناء شعبك!

وأنّ البيوت التي تدكّها هي جزء من وطنك!

وأنّ المآذن التي تقصف هي جزء من تاريخ أمتك!

أذكّرك بأنّ من عاصمة بني أُميّة، هنا، هنا، انطلقت الخيول العربية، ففتحت الدنيا وملأت العالم حضارة! وقبل ذلك اخترع الأجدادُ في «أوغاريت» أول أبجدية في التاريخ!

نحن أمةُ تاريخ وحضارة... هل نسيتَ هذا كلَّه، أيها النظام؟ وما الذي أنساك؟ البقاء إلى الأبد؟ وأي أبد؟

أكتب إليك في سُوَيعة فجر، والدموع تغسل وجهي.

إلى روح شهيد الحرية عبد الغني كعكة الرحمة[١]

---

(١) شاب استُشهِد رمياً بالرصاص من قِبل قوات الأمن، في حي صلاح الدين بحلب، وعمره ١٩ عاما.

دمشق الشام: ٧-٥-٢٠١٢

ماريّة الهنداوي.. الوفيّة

من مقالة بعنوان «خليل الهنداوي في الذكرى الخامسة والثلاثين لرحيله»، نُشرت في مجلة «المعرفة» وزارة الثقافة بدمشق، العدد ٥٧٧، تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١١... جاء في خاتمتها هذه الفقرة بعنوان: «ماريّة.. من أوفى الزوجات»

وهل أترك القلم دون أن أشير الإشارة الجميلة إلى ماريّة الهنداوي، وهي ابنة عمٍّ لخليل، لبنانية الأصل؟

إنها، بعد رحيله يوم التاسع من حزيران ١٩٧٦، بذلتْ من المساعي ما جعل السلطات تطلق اسم خليل الهنداوي على الشارع الذي يقطنونه وعلى الساحة التي يُطلّ عليها البيت.

حدّثتني بدمشق عن الجهود التي بَذلت عند أولي الأمر لإقرار ذلك، ثم لتنفيذه على أرض الواقع، فتأكّدَ لي أنها من أوفى النساء لذكرى زوجٍ ظلّ عمرَه يَغْمِس أنامله في حبر الكتابة التي تبقى بعد الرحيل».

أضواء وتعتيم

ومن المآخذ التي لا يغفِرها الإبداعُ للنظام، أنه ظلّ راعيًا لأنصاره ومِن خلفهم الهتافون والمصفّقون، غامرًا إياهم بأضواء الإعلام المحتكَر، ومعتّماً على المبدعين الذين لم يتجنّدوا للهتاف والتصفيق... ذلك ما جعلني، في إحدى قصصي، أُطلق في وجه النظام، صرخةً على لسان أكاديميّ ما فتئوا يتجاوزون حقوقه المشروعة: «عندما يُضطهَد المواطن في وطنه الحبيب يكفّ الوطن عن أن يكون حبيبًا، يصبح بلدًا من

البلدان ليس إلاّ».

دمشق الشام: ٨-٥-٢٠١٢

خبر عاجل

ورد في آخر الأخبار حول الانتخابات التشريعية التي أُجريت في سوريّة يوم أمس، أنّ أعلى نسبة سُجّلت في الإقبال على التصويت كانت في كلّ من درعا وحمص وحماة وإدلب، خاصة جبل الزاوية.

فقد توجّه الناس في هذه الأماكن زرافات للإدلاء بأصواتهم، سواء منهم الذين ما زالوا يمشون على أقدامهم، والمحتجِبون في منازلهم، حتى الشهداء خرجوا من قبورهم الجماعية، أَدْلَوا وعادوا سالمين.

دمشق الشام: ٨-٥-٢٠١٢

عمى ألوان

ما تحادثت مرة مع أحدهم وجرت على لساني كلمة «ديمقراطية» إلا وأراه يضحك ويقول: «ديمقراطية؟!»، تقول «ديمقراطية!»، ويستغرق بالضحك حتى لكأنّ أحدًا يدغدغه من خاصرتيه.

ذلك أنهم لقّنوهم أنّ الديمقراطية مَسْخرة، وأنّ الصحيح هو النظام الذي يتمتّعون في ظلّه بالخيرات، دون أن يخطر في بالهم أنه ديكتاتوري، وأنهم يأكلون حقوق غيرهم!

إنه عمى الألوان، يا سادة.

دمشق الشام: ١٠-٥-٢٠١٢

مثقفون.. ومثقفون

أعرف أنّ من الصعب على بعض المثقفين والمبدعين أن يرجعوا إلى ضمائرهم، فيكونوا مع الربيع، يزرعون، ويقطفون، ويملؤون بالعبير صدورَهم... تلك الممتلئةَ بالامتنان لمن ظلّوا يتناولون منهم المِنَح والأُعْطِيات على مدى عقود من السنين...

هل أقول: إنّ شارع الثقافة يرثي لهم!

دمشق الشام: الجمعة: ١١-٥-٢٠١٢

مشيّعون.. وراقصون

عندما ترى الناس يُشيّعون شهداءهم، متقبّلين أن يسقط منهم شهداءُ جدد يشيّعونهم في اليوم التالي، فإنك تدرك أنها انتفاضةٌ سائرة نحو الانتصار.

وعندما ترى شبابًا مثل الزهور، موثَّقي الأيدي إلى ظهورهم، ومرميّين على الأرض، ورجالٌ يركُلونهم ويرقصون فوق أجسادهم مقهقهين، فإنك تدرك أنّ هؤلاء السفهاء ماضون إلى الهزيمة والاندحار.

دمشق الشام: ١١-٥-٢٠١٢

العودة بالذاكرة إلى عهد الاستقلال الأول

أعترف بأني أرى، في المجلس الوطني، المستوى المتاح من الديمقراطية، في هيئة سياسية ولدت «قيصريًّا» من ضمير المجتمع السوري، في ظلمات نظامٍ المسموحُ به غالبا التصفيقُ للرأي الواحد الأحد.

أتساءل اليوم، ما إذا كانت في شخصية «جورج صبرا» الشجاع من المزايا ما

يُكمل تلك التي عند «برهان غليون» الأكاديمي النبيل، فيتولّى رئاسة المجلس ويكون للسوريين «فارس الخوري الثاني»، منعشًا بذلك ذاكرتنا ومعيدَنا إلى عهد الاستقلال الأول؟

دمشق الشام: ١٣-٥-٢٠١٢

قيادة عصابة مسلحة

هل تعلم، أيها السوري، أنّ التهمة التي وجّهتها السلطات الفرنسية إلى الزعيم المجاهد إبراهيم هنانو، أمام المحكمة العسكرية الفرنسية بحلب عام ١٩٢٢، كانت: قيادة عصابة مسلحة؟

مرشّح.. في العاصمة

وكما يرتقي التلميذ من صفّ إلى صف أعلى، كذلك هي حال المرشّح الذي غادر مدينته الصغيرة وجاء إلى العاصمة ليَحصد فيها أصواتًا كثيرة.

تُرى لو ترشّح في بلده، ماذا كان ينال هناك من أصوات؟

دمشق الشام: ١٥-٥-٢٠١٢

ليس هناك شعب سيّئ.. هناك حكومات سيّئة

قبل ثلاثين سنة حدّثني عضوٌ بارز في مجلس الشعب بأنه، في زيارة رسمية له إلى العاصمة الأردنية، اتفق أن كان في صحبة رئيس مجلس الأعيان، في جولة في العاصمة بالسيارة الرسمية التي يقودها المضيف الكبير، واقتضى الأمر أن تتوقّف السيارة في مكان لا يسمح بالتوقف فيه.

مما تحدث به صديقي أنّ البرلماني الأردني ذا المستوى الرفيع، توقف أمام شرطي المرور، يستأذنه بالوقوف بسيارته خمس دقائق، فوافق الشرطي وأدى التحية!

أعترف لكم، أيها المواطنون، بأنّ الدمعة ترقرقت في عيني وأنا أستمع إلى تلك السالفة... ولكن الدموع كانت تتحجّر عندي، وأنا أرى -في تلك الأيام- أولاد المسؤولين في بلدي يستولون على سيارات الآباء، ويصطحبون رفاق المدرسة سويعة الانصراف، ويسوقون مندفعين في «أبو رمانة» وحول «حديقة الجاحظ» و«شارع المالكي»، ويشفّطون[1] ضاحكين مرحين. وإذا تعرّض لهم شرطي مرور نزلوا يضربونه ضاحكين أيضًا، مما دعا السلطةَ إلى أن تجعل مع كل شرطيٍ، آخرَ عسكريا!

إخوتي المواطنين! كفّوا عن القول: نحن شعب متخلّف! وقولوا، اصرخوا بملء الأفواه: هناك حكومات متخلفة، يسيطر عليها متخلفون اجتماعيًّا وفكريًّا.

وإلا... فانظروا إلى دولة الهند، الهائلِ عديدُها، الديمقراطية، وإلى دولة جنوب إفريقية، وإلى دولة السنغال... تلك التي رأينا قبل أيام الرئيس المنتخب يتلقّى في لحظته التهنئة من الرئيس المهزوم.

نحن المهيَّؤون للأرقى، ولكنهم يحرِصون على جعلنا متخلفين.

دمشق الشام: ١٥-٥-٢٠١٢

زِنزانة خمس نجوم

في أول يوم قضيته في الزنزانة، وكان مبتدأً «أربعينية» الشتاء، نمت فيه على

---

(١) من العاميّة. إخراج: صوت احتكاك عجلات السيارة بالأرض عمداً، ويفعله بعض أبناء المسؤولين دلالة على التعالي واللامبالاة.

البَلاط، بَطّانيّة واحدة تحتي وأخرى فوقي وأنا في كامل ملابسي. دقّ عليّ الباب الحديدي عند الصباح السجانُ يسألني ما أطلب من طعام، فاستفسرته بسذاجة عما عنده، فأجاب بأنه سيشتري لي من عند البقال خبزا وزيتونا وجبنا وبرتقالا. فلما أعربت له عن أني لا أحس جوعا، زجر: «بتطلب، ولاّ أدخل أعمل لك اللازم!» أي يضربني.

وللإيضاح كانت البطانيتان في منتهى القذارة حتى إنهما «متخشّبتان»... وقد عبّرتُ فيما بعد لإحدى الإذاعات الناطقة بالعربية عن شعوري في تلك اللحظة، قلت: «فكأنهم يريدون لسجين الرأي أن يموت من القهر والبرد والجراثيم!».

دمشق الشام: ١٨-٥-٢٠١٢

كيف أحببتُ دمشق

في ١٩٥٩ حصل تعارف بيني وبين كوليت خوري (وكانت تفضّل أن تُعرف بـ«كوليت سهيل») وهي في أول طلعتها كاتبة أديبة. بدأ التعارف بالبريد، أهديت إليها -باقتراح من الصحفي بجريدة «الأيام» عبد الله الشيتي- كتابي «ضيف من الشرق» (دار الآداب، بيروت) وأهدت إليّ كتابها الأول «أيام معه».

وعند أول لقاء بيننا في بيتها في القصّاع[1] (خريف ذلك العام)، بادرت الفتاة الدمشقية تسألني: «هل تحبّ دمشق؟»، وكانت إجابتي مفاجئة لها: «لا!». فسألتني: «وهل هناك من لا يحبّ دمشق؟».

هنا بيّنت لها أني، وأنا المولود والمقيم بحلب، ما جئت مرةً دمشقَ إلا كنت على

(١) حيّ في دمشق.

عجلة من أمري، أنزل بالفنادق إن لم أقضِ حاجتي وأعود ليلاً إلى حلب... وأضفت بأني أحبّ القاهرة، التي عشتُ فيها سنوات أربعا، طالبا في جامعتها.

قالت الفتاة التي كان ينمو في صدرها العشق الدمشقي: «الآن عرفت... يلزمك أن تعيش في دمشق». هل كان قولها ذاك دعوةً منها إلى الله؟ فقد قُدّر لي أن أسكن دمشق بعد سبع سنوات من ذلك اليوم وما أزال... ولي في حبّها، مثلما لي في حبّ حلب، حكايات تطول.

دمشق الشام: ١٩-٥-٢٠١٢

يتحنّى بدمائنا... فيصنع أبطالا!

أيها النظام، الذي ما زال يتحنّى بدمائنا...

بأيديك تصنع منّا البطولات وأنت لا تدري!

غِيبي عن المدرسة، يا مايا

لم تكن «مايا» الأحلى بين بنات الصف فقط، بل كانت الأكثر تفوّقًا على تلاميذ الصف بناتٍ وصبيانا. ويوم أخذت باللغة العربية تسع درجات ونصف الدرجة (من عشر) جاءت إلى أمِّها حزينة، ووعدت والدها -الذي يدفع لها الأقساط الباهظة- بأن لا تعود إلى مثل هذا التقصير أبدًا.

ووالدها، منذ اندلعت الأحداث في البلد، أحجمت المعاملُ المُصنِّعة عن تزويده بمنتجاتها كالسابق (الأدوات الكهربائية المنزلية)، والناس أيضًا كَفّوا عن التبضّع كالسابق أيضًا، حتى وصلت به الحال إلى أن يعجز عن تسديد أقساط المدرسة.

و«المشرفة» في المدرسة تدخل قاعة الصف وتقول: «مايا، حبيبتي، ذكّري أمك

بالقسط». والبنت تستشعر بالخجل. والأم جاءت تعاتب، فعمدت إدارة المدرسة إلى الرسائل، ولم تقبل في التأجيل عذرًا، بل إنهم أبلغوا البنتَ بألا تدوس عتبة المدرسة إلّا والقسط في يمينها.

لزمت مايا البيتَ أياماً، كانت خلالها تنتظر عودة رفيقاتها إلى بيوتهن عند المساء، فتسألهن عما حصّلن من دروس، وتعلّم نفسها بنفسها مستعينةً بالأم وبالصديقات.

قلت للأب وهو يروي لي ذلك: «أتعرف! لو أني كنت مكان أصحاب هذه المدرسة الخاصة، المصنّفة في عداد المدارس الراقية، لفضّلت أن تضيع عليّ أقساط السنة كلها على أن أجرح شعور تلميذة نابهة، قد حطّت بأبيها الأحداثُ الجارية. ولكن النزعة التجارية غلبت على المهمة التربوية، في هذا الزمن الرديء!».

ثم سألتُه عما كان بعدُ؟ فأجاب بأنه راجعَ الوزارة المختصة، التي بادرت فأوعزت إلى المدرسة بأن تفْصِل ما بين تحصيل المال وبين التربية والتعليم... وعندئذ سُمح للتلميذة مايا -يوم أمس الأحد على وجه التحديد- بأن تؤدي امتحانات آخر السنة.

وقَع ذلك في العاصمة السورية، في ربيع السنة الثانية عشرة، في مُستهَلّ الألفية الثالثة بعد ميلاد السيد المسيح! دمشق الشام: ٢١-٥-٢٠١٢

بيستاهل.. خَرْجو[١]!

كان وزيرًا في أول الأزمان، ثم اعتكف في بيت تحِفّ به الأشجار الزيتونية، متمتّعا بما يُسبغه عليه الأبناء من الحنان، ثم حنان أكثر دِفئا من الأحفاد، وتشهد عيناه

(١) من العاميّة السورية، بمعنى يستحقّ ما حصل له.

في ذلك مجريات الأيام، مستعيدًا زمنَ الأحلام المجيدة، ولا يَكُفّ فكرُه عن طرح الأسئلة.

المساعِدةُ الإفريقية عنده، التي عاملها مثل ابنة، شاء لها جشع الإنسان أن تغافلهم يوم الوداع، وتذهب بما طالته يدُها من ذهب.

وساعةَ جاء التحقيق، ومع التحقيق الصحافة، تقدَّم منه مندوب الجريدة يسأله بأدب جمّ: سيدي، ما العنوان الذي تفضلون أن نتوّج به الخبر؟ «خادمة تسرق بيت وزير»؟

صرَخَ الوزير التارك من زمان: إياك! بعدين الناس بيقولوا: بيستاهل! خرجو، الله لا يـ...!

دمشق الشام: ٢١-٥-٢٠١٢

الإعلام يكذب.. كالتاريخ

الإعلام اليوم، المنتشر بسرعة البرق، هو كالتاريخ عبر التاريخ.

بدايةً إنه لَطيّبٌ أنّ من يكتب التاريخ أفراد (وليس حكومات)، فكتبُ التاريخ إذا ما قرأتَها بِحرّيّة، وأعمَلْتَ فكرك في صحة ما تقرأ وفي إمكان وقوعه، بالتمحيص والمضاهاة، فسوف تصل إلى بعض الحقيقة. والإعلامُ المعاصر كذلك، كلٌّ يَبُثّ على هواه، وأنت المستمع المشاهد تحكّم عقلك.

وأما أن تطلب تاريخًا صحيحًا مئة بالمئة، وإعلامًا صحيحا مئة بالمئة، فلن تجد لبغيتك متحقَّقًا.

ولنعلم أنّ أبعد إعلام عن الحقيقة والواقع هو إعلام الحكومات الديكتاتورية،

فهو الأكذب على وجه الأرض، وسوف يوصم بذلك عبر أجيال البشرية القادمة!

دمشق الشام: ٢١-٥-٢٠١٢

رحلة عذاب.. جديدة

قبل سنوات، والقصف الإسرائيلي يدمّر غَزّة، كتبتُ ونشرت في مجلة «فارس العرب» الدمشقية، أعبّر، دون أن تفوتني المقارنة والمقاربة. ومما قلت: «... أمام تلك المشاهد نشعر، نحن الذين نجلس في غرف مدفّأة مكيّفة، ونأكل الطازج الذي قد يأتينا بالهاتف، ونلبس الجديد المنتقى، وننام على ريش نعام... أننا لا نفعل سوى أن نتأثر، وتتفطر قلوبنا، ونكتفي بإرسال الدمعات السخيّات والدعوات الصالحات...».

اليوم أستحضر في ذِهني ما يقوم به أهل يافا، المتضامنون مع المنكوبين، فيخطر لي شيء ما: إني لألتمس منهم ألا يتوجهوا بالشكر إلى من قدّم المساعدة والمساعفة! كلام مني أراه أنا نفسي غريبًا... أتابع مفسِّرا: فإنّ المتبرِّعين بالعمل وبقليل من المال، إنما هم في ذلك يَتَطَهَّرون من «عقدة الذنْب» التي تقُضّ مضاجعهم، يتخلّصون من الشعور بالتقصير، من اتخاذهم موقف الحِياد القاتل.

وإني، إن كنت من المتطوعين أو المتبرعين، والله أخجل وأنا أتلقى الشكر، خاصة إذا ما قارنت بيني -أنا الساكن بيتا المستظلّ شجرة ياسمين- وبين الذين هربوا من تحت القصف، ناجين بأرواحهم، ليبدؤوا رحلة العذاب: البحث عن سقف، ولقمة، وجرعة ماء!

هل أبكيت القلوب الرحيمة؟ أنا... أنا بكيت عند هذا الحد.

دمشق الشام: ٢١-٥-٢٠١٢

مدرسة خاصة.. تبتكر حلًّا!

في مسلسل إبعاد التلاميذ في المدارس الخاصة التي توصف بالراقية، مما رويت في كلمتي «غيبي عن المدرسة، يا مايا!» (فجر الإثنين ٢١-٥-٢٠١٢)، كتب الصديق الدكتور أسامة باكير معلّقًا (مساء الثلاثاء ٢٢-٥) بأنّ ابنته، التي هي تلميذة في الثالث الابتدائي بمدرسة خاصة، شاهدت في يومها هذا المشرفة تطرد من قاعة الامتحان شرّ طِردة، أحدَ زملائها بسبب التقصير في سِداد بقية القسط!

لن أسترسل فأقول: إن بعض أصحاب المدارس الخاصة في هذا الزمن، هم ممن ملكوا المال مضافًا إليه عنصر آخر، وأنّ الوزارة المعنية تنأى بنفسها عن التدخل في هذه «المسألة الشائكة» (وما رويته في حكايتي من تدخّل كان استثناء)...

أقول: لن أسترسل، ولكني سأروي حكاية أخرى مغايرة: دعت مديرة روضة من رياض الأطفال، في مطلع العام الدراسي، المعلمات إلى اجتماع تحدثت فيه عن الضائقة التي يمر بها الوطن وأولياء التلاميذ، ثم سألتهنّ، لتفادي الخسائر، في أن تخفّض الرواتب وتخفّض الأقساط أيضًا؟ وفي انتظارها الردّ لم تتأخر معلمة واحدة عن إعلان الموافقة.

تحية لهذه الإدارية الحصيفة، وللمربيات الفاضلات اللواتي امتلأت قلوبهن بالرحمة مقرونةً بالشجاعة والنبل. ثم اسمحوا لي أن أظنّ أنّ هذه المَدْرسة مجرَّدةٌ، يقينًا، من ذلك الدعم الذي يقسّي القلوب ويفسد الفطرة السليمة.

دمشق الشام: ٢٣-٥-٢٠١٢

عن حديقة البرلمان

قليلٌ من أبناء الجيل الجديد في العاصمة من يعرف أنّ الحديقة المتاخمة لمبنى البرلمان كانت -على مدى عقود من السنين- حديقةً عامة، يرتادها المواطنون سويعات الأصيل مستروحين فيها الهواء العليل، وكانت تسمى «حديقة العائلات». وقد ضُمّت في الثمانينيات من القرن الماضي، إلى أملاك مجلس الشعب، فازدادت صيانةً وعناية، ولعلهم قصدوا بذلك أن يمنحوا ممثلي الشعب مجال أن يستظلوا شجرها ويستنشقوا عبيرها، مستلهمين الأفكار الخلاقة لإعلاء شأن الوطن... ولكننا قلما نراهم يجلسون فيها، ربما لأنهم منشغلون بما هو أهمّ. دمشق الشام: ٢٤-٥-٢٠١٢

الملايين.. والملاليم!

حدثني أحدهم بأنّ سائق تكسي بدمشق استقلّ سيارتَه يومًا رجلان، وطلبا التوجه إلى «الزبداني». وطولَ الطريق كان يستمع إليهما وهما يتحدثان بفرح عن «صفقة» يهمّان بعقدها على الحدود، يُسهّلان فيها إدخال بضاعة ويَقبِضان الثمن.

ولحظة نزلا من سيارته على الحدود اللبنانية، نظر أحدهما إلى العداد وهمّ بأن يدفع المبلغ المرقوم... فكان أن ملك السائق الشاب الجرأة لأن يصرخ فيهما: «يعني صار لكم ساعة تتحدثوا عن صفقة بالملايين.. وبدكم تحاسبوني على القروش!».

وفي الاندهاش الذي اعتراهما أعطياه زيادة... وأسرعا لإنجاز المهمة.

دمشق الشام: ٢٤-٥-٢٠١٢

الديمقراطية.. أهي ترفٌ، أم حاجة؟

كثيرًا ما رأيت أنصار النظام عندنا يضحكون حتى القهقهة عندما يصل الحديث بيني وبينهم إلى الديمقراطية!

أمس واليوم شهدنا أحبّاءنا المصريين وهم يتوجّهون بكثافة إلى صناديق الاقتراع. وإنّ بينهم كثيرًا من النساء، رأينا بعضهنّ يتوكّأنَ، ومنهنّ من يُدْفَعنَ على كراسيَّ، ينتظرن، ينتظرون الساعات ليدلوا بأصواتهم لانتخاب رئيس واحد من بين مرشّحين وليس للاستفتاء على واحد أحد.

أليس في هذا ما يؤكّد أنّ أبناء مصر، مثل أبناء الشام وسائر الأمة، يدركون أنّ الديمقراطية هي حاجةٌ ضرورية وليست ترفًا؟!

وأنا اليوم لا أضحك على الضاحكين على الديمقراطية، لكني أرثي لهم، وأدعوهم كذلك إلى إعمال الفكر والتأمّل. دمشق الشام: ٢٥-٥-٢٠١٢

بعد الحُولة.. هل نسمع صوت المبدعين؟

الحولة، في ريف حمص، تُقصَف بالراجمات. قتلوا ليلة أمس ما يزيد على المئة، ولكنهم لم يبنوا من جماجمهم هرمًا، فالوقت لم يتّسع... فهل يتّسع الوقت، أخيرًا، للمبدعين الغافين في أحضان النظام، لأن يقولوا؟

أين صوتك، الذي ظللت تزعم أنه صوت الكادحين، يا حنّا مينه؟

أين غناؤك، الذي بدا لنا شجيًّا في الحرب الأهلية بلبنان، يا دُريد لحام؟

أين صوتك الراعد، الذي طالما أنشدتَ به للبعث القصائدَ العصماوات، يا صابر

فلحوط[١]؟

وأنتِ يا من عبّرتِ، بخطبك البليغة، عن سعادتك بأنك تستظلّين عصر البعث، أين هو صوتكِ اليوم، يا نجاح العطار[٢]؟

وتخرج من المعادلة الصعبة سميرة المسالمة، التي ما إنْ نطقت بنصف كلمة حتى نبذوها، ودفعوها -دون أن يدروا- إلى موقعها الأصيل النبيل.

خدّروا الضمائر عند المبدعين، وفجّروا الإحساس بالظلم عند الجماهير العريضة.

دمشق الشام: ٢٦-٥-٢٠١٢

هل للغوغاء أن يصوّتوا؟

... وإنّا لنراه، في فهمه للحياة، لا تزيد الديمقراطيةُ عنده على أن تكون تصويتًا للغوغاء... ناسيًا أنّ من يصمهم بذلك هم الذين يقدّمون له قوت الأرض، ويرفعون له سقف البيت، ويجمعون كل ليلة من أمام رصيفه أكياس القمامة السوداء!

ثمّ هو، فيما لاحظنا من أمره اليوم، لا يُبدي رأيًا في القصف والتدمير والتقتيل ممّا جرى ليلة أمس في «الحولة»، ولا سمعنا منه كلمة مواساة تجري على لسانه، بلْهَ أن تسيل عَبْرةٌ ساخنة أو باردة على خده الأسيل!

وبعد هذا، ألا يحقّ لنا أن نتساءل: كيف يمكن لمواطن معدود بين المثقفين

---

(١) شاعر له دواوين، وباحث في العلوم السياسية، كان رئيس تحرير جريدة البعث، ثم رئيس اتحاد الصحفيين السوريين، ومناصب أخرى لدى النظام.

(٢) وزيرة الثقافة في حكومة حافظ الأسد، ثم نائبة لبشار الأسد، ولا تزال. وتجدر الإشارة إلى أنها شقيقة المرشد العام السابق لجماعة "الإخوان المسلمين" في سورية، عصام العطار!!

المتنوّرين، أن يُسهِم في بناء أمته؟

دمشق الشام: ٢٦-٥-٢٠١٢

إلى أين ذاهبان؟

أنت، أيها النظام، عنيدٌ وجبّار، لا تستنكف عن قتل الآلاف وإبادة الملايين، في سبيل تحقيق طموحك. هذا واضح مثل عين الشمس.

ولكن، ألا ترى أنّ الشعب، إنْ لم يَزِد عليك في العناد والثبات، فهو يُضاهيك في عزمه على المطالبة بحريته؟ والدليلُ اتساع رقعة الاحتجاج، وكذلك اتساع رقعة المجابهة. وإذن، فإلى أين، أنت والوطن، ذاهبان؟ والوطن لك، والشعب أنت منه وإليه! دمشق الشام: ٢٧-٥-٢٠١٢

بئس الأب أنت!

يا من، بالحِراب والسكاكين، ذبحتَ أطفال الحولة... كيف تستطيع أن تتلقّى نظرات أطفالك؟ أم أنك على الحقد والشماتة ربّيتَهم! فبئس الأب أنت. الحيوان أرقى منك، لأنه لا يقتل، لا يفترس، إلا عند الجوع.

دمشق الشام: ٢٨-٥-٢٠١٢

لقمة الحرية

لقد ظلّ الفقراء منشغلين بلقمة الخبز، فلما بالغ النظام في قهرهم هبّوا يدافعون عن حقّهم في الحياة، وسمَّوا ذلك: لقمة الحرية! دمشق الشام: ٢٨-٥-٢٠١٢

يوم حداد.. واحد!

عيوننا تنزف دمًا على أطفال الحولة

وكذلك عيونُ أطفال السويد

وعيونُ العالم

فإذا كان النظام بريئًا فليخجل منا، ويعلنِ الحِدادَ يومًا

يومًا واحدًا فقط!

دمشق الشام: ٢٨-٥-٢٠١٢

إلى الفنانة سهير السباعي.. في مهجرها

نعم، يا ابنتي، إنه «الجبان» الذي يغطي عينيه حتى لا يرى، وهو موصوف بالغباء أيضًا، والأنفَ والشفتين!

هل أحدّثك عن واحد من هؤلاء؟ يقول: إنّ تعبيرنا عن مشاعر الألم مما نرى، هو «استعراض»! وإنّ الجماهير التي تطالب بالحرية اليوم لا تستحقّ أن تمارس التصويت غدًا، لأنها «غوغاء»! إنّ اختيارك لموضوعاتك في هذا الزمن الصعب، يرفع فنَّك إلى مستوى يُقدِّرك فيه وطنُك، اليوم... وحتى زمن قادم سوف يطول.

إعجابي البالغ، ابنتي.

دمشق الشام: ٢٨-٥-٢٠١٢

رسالة من طفل سوري.. إلى أبيه الشهيد

أعترف بأنّ هذه المقطوعة الزجلية (التي استأذنتُ صاحبها في نشرها عندي

وسمحتُ لنفسي بأن أضع لها عنوانا)، قد أحدثت في نفسي رِعدة. مردُّ ذلك إلى ما ترشَح به من صدق العاطفة والتصوُّر، فأتعرّف عبرها إلى شاعر يُبدع من ألمه ما يبقى ويُذكِّر.

يا بيّي! ما هيك[1] علّمتنا

ولا هيك ربّيتنا

وبالمدرسة كمان قالولنا: حبّوا بعضكم

شو عملوا أخواتي ورفقاتي يا بيي!!!

أختي «أحلام» بالسكين دبحوها

متل ما بيدبح لحّام حارتنا الخروف

ليش أختي بيتّاكل لحما، يا بَيّي؟!

وخَيِّي ربطوا إيديه وقوّسوه وسيّحوا دمّاتو.. ليش يا بَيِّي؟!

وأمّي بعجوا بطنا، وكان في بُبّو زغير جُوّاتو.. ليش يا بيِّي؟!

وابن جارنا أبو العز اسمه «حمّودي» كانت أمو حطّتو عنّا قالت: رايحة تبيع حليب البقرات وراجعة

عمر حَمّودي ثمان شهور يا بَيّي... بالمطرقة كسروا جمجمة راسو

ليش يا بيّي؟!

كمان ما عرفت!

..... شكرًا إلك يا بيي، لأنك من تحت السرير سحبتني

---

(١) يا أبي ليس هكذا

وع إيديك شلتني

بعد ما وقع الباب على رِجلي

وعالمشفى بعرف كنت راح تاخدني

بَعذْرك يا بيي، بسبب قنّاص ما قدرت تكفّي مشوارك

يا بيي أنا ما زعلان منك

بس بدي أبعت معك لأخواتي ألعابن

ولأمي بوسة كبيرة كتير

ولجارنا الزغير ببرونت الحليب

لأن علمونا بالمدرسة أنّ الشهيد عالجنّة بيروح

وبعرف إنك رايح لعندون

بَوّسلي ياهن

أوعا تنسا

بحبك يا بيِّي

كتير بحبك

مهنّا الصوفي الإثنين ٢٨-٥-٢٠١٢

لو أنّ القائد يكون فاتحًا لا غازيًا

أيقَظني، بُعَيد منتصف الليل، رنينُ الهاتف، يُبَشّرني بأنّ «الفيسبوك» قد عاد إلى الظهور، فاستنارت عيناي بمن اسمه «نور الدين» يقدّم أطروحته:

«إلى القائد السوري التاريخي سيف الدولة الحمْداني: وسوى الروم خلف ظهرك رومٌ[1].. إلى الجيش السوري العظيم حامي الوطن: وسوى الروم خلف ظهرك روم..».

فكتبتُ، وكنت أول من كتب، وربما الوحيد الذي كتب:

«لو أنّ سيف الدولة ترَكَ غَزْو الروم (الذي كان يعود منه في كل مرة غانمًا) وتحوّل إلى «فاتح»، لكان أتيح له أن يسبِق العثمانيين في فتح بيزنطة (بلاد الروم، تركيا اليوم)، ولَمَا أخفق في عام ٣٥١هـ (٩٦٢م) في الدفاع عن مملكته، عندما اجتاحها القائد البيزنطي «نِقْفور فوكاس»، الذي استباحها، ونهَبَ ودمَّرَ قصرَ سيفِ الدولة في ظاهر المدينة، ولم يدمّر حلب لأنه كان يفكّر في أن يعود إليها في السنة التالية ليتّخذ منها قاعدة، ثم اضطر إلى الانسحاب بعد تسعة أيام لِمَا ترامى إليه من إعلان المسلمين الجهاد، وقد سبى من المسلمين والمسلمات بضعة عشر ألف صبي وصبية.

ولما عاد سيف الدولة إلى حلب جلب لها سكانًا من مدينة «قِنِّسْرين»، ولم يُعَمَّر بعد تلك الواقعة إلّا خمس سنين، ومات شابًّا في الثالثة والخمسين.

وأما بطولته فهي التي سجّلها له الشاعر المتنبي قصائد.

فعلّق بعد دقيقتين:

«لأنّ الروم الذين كانوا خلف ظهره كانوا أخطر من الروم الذين في صدره.. وها هي أعراب النفط في ظهور جيشنا العظيم».

فقلت: «أنت في تعليقك لم تقل شيئًا أي شيء... نوّر الله قلبك، يا نور الدين».

---

(١) شطر من بيت للمتنبي، وقصد بـ"روم" الثانية: أعداء الداخل من المسلمين الذين يقفون خلف ظهرك. يريد: بني بُوَيه.

فأجاب كالمتواضع: «أنا أقول حسب معرفتي، ومنكم نستفيد أستاذ فاضل».

وساد ما يخيَّل إليّ أنه صمت.

دمشق الشام: ٣١-٥-٢٠١٢

ليس اختلاف المعارضة بالضرورة ضعفًا

عندما يختلف أركان المعارضة في الخارج، فإنّ ذلك لا يُعَدّ بالضرورة ضعفًا، بل هو عَرَض طبيعيّ عند مثقفين ظلوا زمنًا طويلاً ممتنِعًا عليهم تبادلُ الآراء في الوطن. واليوم جاء كل منهم من واد ليتجمّعوا في المنفى. وليس رئيسهم، اليوم أو غدًا، بالذي يفرض الرأي الواحد، ويتحتّم على الأتباع أن يهزّوا الرؤوس منصاعين.

إننا نقدّر اختلاف الرأي بين المعارضين وهم في المنفى، بقدر ما نتمنّى أن نراهم متفقين جدًّا.

دمشق الشام: ٢-٦-٢٠١٢

ملاك الربيع!

أعترف بأني لم أفاجَأ بالحكم على «مبارك» بالسجن مدى ما تبقّى له من عمر، ولعلني لا أفاجأ أيضًا إذا ما سمعت عما قريب بأنّ عفواً خاصًّا قد صدر عنه من رئيس البلاد القادم[1].

ذلك أنه في جلوسه ثلاثين عامًا، إنْ كان قد كَثُر تزويرُه تشبُّثًا بمنصبِه، فإنه قد قَلّ

---

(١) وهذا ما حدثَ لاحقاً، بل حدَثَ ما هو أغرب، إذْ تمّت تبرئته مع معاونيه من جميع القضايا المنسوبة إليه في شباط ٢٠١٤.

ما سفك من دماء شعبه، ما يسمح لنا بأن ننظر إليه على أنه مَلَكٌ من ملائكة الربيع العربي، يتأكّد لنا ذلك إذا ما قارنّاه بمن تلاه من رجالات الربيع!

دمشق الشام: ٣-٦-٢٠١٢

إيقاع التصفيق

لم تختلف الوجوه إلا قليلاً.

ما اختلف هو إيقاع التصفيق. لقد جاؤوا متحمّسين لمواسم القِطاف.

دمشق الشام: ٣-٦-٢٠١٢

دائرة التشبيح

... وبعدما عجَزَ التشبيحُ[١] عن تحقيق غايته هنا، وسّعوا دائرته ليشمل هناك، وهم يرفعون الصوت بأنّ الآخرين يريدونها حربًا طائفية!

دمشق الشام: ٣-٦-٢٠١٢

سحب الدبابات

أقول لـ كوفي عَنان[٢] بالصوت الجهير: كيف تسمح لنفسك بأن تطلب من النظام أن يسحب دباباته من المدن! وهو الذي كان قد أعلن أنه إنْ سحبَها فإنّ المحتجّين

(١) الشَبّيحة: (مفردها شَبّيح) هو مصطلح دارج في سوريا كان في البداية يُطلق على العصابات والأفراد الخارجة عن القانون والتي كانت تستخدم العنف والتهديد بالسلاح، ثم شمل كلّ مَن يتزلّف إلى النظام ويمجّده أو يبرر جرائمه، والتشبيح مصدر من شبّحَ.

(٢) أمين عامّ سابق للأمم المتحدة، بين عامَي: ١٩٩٧-٢٠٠٦م. لكن في شباط ٢٠١٢ عُيّن عَنان مبعوثاً للأمم المتحدة إلى سورية في محاولة لإنهاء الحرب فيها.

سيملؤون الساحات العامة في اليوم الثاني، وفي الثالث يزحفون نحو القصور الحكومية.

ألا يجرّدك طلبك هذا من صفتك الدبلوماسية الرفيعة، أنت المبعوث من الأمم المتحدة؟

أيّ ساذجٍ أنت، يا كوفي عنان! دمشق الشام: ٣-٦-٢٠١٢

الشبّيح.. والمثقف

أيها الشبّيح، الذي يغتصب امرأة في وطنه، ويذبح طفلاً بسكين، ويحرق المحاصيل الزراعية، هل تعلم أنك تسجّل من الفظائع ما لم يفعله عدُوٌّ بعدوه؟

وأنت أيها المثقف، الذي يشاهد هذا ثمّ يدع قلمه في صمته... هل تعلم أنك ترتكب أكبر مجزرة في تاريخ الفكر؟... فأنت والشبّيحُ سواء.

دمشق الشام: ٤-٦-٢٠١٢

معاذ الله...

أحقّاً بلغَ الفقر بالمواطن السوري أن يشارك في الاحتجاجات ليقتل، خِلسةً، أخاه السوريَّ طمعًا بدريهمات تافهات؟

إننا، مع هذا القول المجرّد من الحقيقة، نفترض السؤال عمّن أوصل الفقيرَ إلى هذا الحضيض المادّيّ والأخلاقي. وما عُرف عن الناس في بلاد الشام عبر التاريخ إلا الشهامة والشجاعة. والدليل أنهم يَخرجون اليوم لتشييع شهيد، فيعودون وقد سقط منهم شهداء!

دمشق الشام: ٤-٦-٢٠١٢

إلى من تنتمي تلك العصابات المسلحة؟

عصابات مسلحة اغتالت يوم أمسِ الأحد، ومجلس الشعب في انعقاده، الدكتور عدنان وهبي أحد أبرز الناشطين في مدينة دوما، بطلقة في الرأس. هذا الطبيب الذي جرى على معالجة جرحى المتظاهرين دون تردُّد.

عصابات مسلحة، نعم، لكن إلى أية جهة تنتمي؟

دمشق الشام: ٤-٦-٢٠١٢

أقول للنظام: شكرًا!

في قمع النظام للشعب، بهذه الشدّة كلّها، فضيلة:

أنه وحّد الفصائل والأطياف، ولم يبقَ منها خارجًا إلا مَن له عنده مصلحة. وأما العقيدة الصادقة فتتجلّى عند المحتجّين، الذين يَصمدون في مواقفهم رغم الأذى.

أقول: شكرًا للنظام، لأنه بقمعه الشديد وحّدَنا، وحرّضَنا على أن نرفع الصوت مطالبين بالحرية وبالإصلاح.

دمشق الشام: ٤-٦-٢٠١٢

يا جَوْلان

خمسة وأربعون مرّت، وأنتَ، يا جَوْلان، مغَيّبٌ في عالم النسيان. وحين، بالأمس، تذكّروك، بعثوا إلى الحدود من ماتوا على الحدود. فلما استيقظ الشهداء على وقع الموت سقط منهم في الداخل آخرون.

خمسة وأربعون من الأعوام مرّت، والسؤال ما زال معلّقا على الشفاه المُدَمّاة:

لماذا أُعلن سقوطُكَ قبل السقوط؟ هل مِن رَجْع صدى يأتينا عبر روابيكَ الخُضْر؟ يا فِلذةً فُصِلتْ من كبد الوطن، يا جولان!

دمشق الشام: الخامس من حزيران ٢٠١٢

الجَرّ إلى اقتتال طائفي!

ممّا يلاحظ في الانتفاضة التي تعمّ البلاد أنّ النظام ما زال يحاول أن يجرّها إلى اقتتال طائفي بسلسلة المجازر التي يرتكبها (الحولة، القبير[١]...)، والناس يمتنعون في كلّ مرة عن أن تكون ردّةُ الفعل عندهم من جنس الاعتداء. وذلك ما يُحبط النظام ويُحرجه، بمقدار ما يدلّ على وعي رفيع المستوى عند الجماهير التي تسعى إلى تحقيق هدفها بصبر فِطْريّ حكيم[٢].

دمشق الشام: ٧-٦-٢٠١٢

أيها الشعب السوري الواعي

لتعلموا، أيها المطالبون بالحرية والعدالة والعيش الكريم، أنّ المجازر التي تُرتَكَب في الآونة الأخيرة، مخططٌ لها وليست بالأمر العارض.

إنّ الشبّيحة، بعد أن أخفقوا في القضاء عليكم ورأوا انتشار حركتكم، عمدوا إلى

---

(١) القبير: قرية صغير من قرى مدينة حماة، حدثت فيها مجزرة في ٦ يونيو ٢٠١٢، إذ اقتحمها الشبيحةُ وقوات النظام، وقتلوا أهلها وأطفالهم ذبحاً أو بالرصاص من مسافة قريبة، وحرقوا المنازل، وبقي بعد المجزرة على قيد الحياة من أهلها أربعة أشخاص فقط.

(٢) فكرة جيدة، يريد الكاتب أن النظام من البداية كان حريصاً على إخراج الثورة من ثوب السلمية. وسيتكلم على هذه الفكرة لاحقا.

أن يباغتوا القرى الآمنة والمزارع الوادعة في أحضان الطبيعة، مزوّدين بالنار والسلاح الأبيض، يذبحون الصغار أمام أعين الكبار، ويُصَفّون الآباء والأمهات، ثم يشعلون النار في الجثث وفي البيوت والمحاصيل الزراعية... يقصدون بذلك استفزازكم وجرّ أقدامكم إلى اقتتال طائفي شنيع، وعندئذ يرفعون الصوت مخاطبين العالم: «انظروا.. إنهم يقتلون الأقليات!».

إنّ أروع ما في انتفاضتكم، أيها الشعب العريق، أنّ يدًا منكم لم تمتدّ بالأذى إلى أيّ من الأقليات، الذين يشكّلون في طول البلاد وعرضها جزءًا من نسيج المجتمع. ونحن جميعًا نستظلّ قيم حضارات تليدة تعاقبت على بلاد الشام منذ فجر تاريخها، بدءًا من أوغاريت وإيبلا، مرورًا بـ يوحنّا فم الذهب[١]، وهشام بن عبد الملك، وصلاح الدين الأيوبي، إلى سلطان الأطرش وفارس الخوري ويوحنّا إبراهيم.

دعوا العالم يشهدْ جرائمهم فينا، ولْتخذلوهم في أن تكتحل أعينهم برؤيتنا نقتل بريئًا، بسوى الدفاع عن أنفسنا بما نملك. وأول ذلك رفعُ صوتنا بالحق.

دمشق الشام: جمعة «الثوار والتجار..» ٨-٦-٢٠١٢

تمييز العاملين في مجال حقوق الإنسان

أيها النظام!

نراك لا تُفرّق بين فئة من الناس جريتَ على اتّهامها بالتحضير لإيقاع الأذى بفئة أخرى، وبيننا نحن العاملين في مجال حقوق الإنسان الذين نتصدّى لكلّ متجاوز على

(١) قدّيس لاهوتي ذو شأن لدى الكنائس الشرقية الأرثوذكسية والكاثوليكية، وكان بطريرك القسطنطينية في القرن الرابع الميلادي، ولقّب بـ"ذهبي الفم" إشارة إلى بلاغته المشهورة، إذْ كان من أكثر المؤلفين إنتاجاً في الكنيسة القديمة.

الحريات الأساسية. نرجوك ميِّز بيننا، وبينهم، وبين نفسك، أنت الذي ما زلت توقِع بنا الأذى ولا تظنّ أنك تفعل سيِّئًا!

دمشق الشام: ٩-٦-٢٠١٢

من مِرّيخ القرى المجاورة

أوى الأطفال في تلك الليلة إلى النوم وهم يحلُمون بأن يستأنفوا اللعب عند الصباح، والأمهاتُ بجمع الحليب لصنع جبنة الغد، والرجال بعضهم ينزل إلى المدينة للتسوّق وآخرون يدرُسون البيادر.

ولكن أناسًا هبطوا عليهم من مِرّيخ القرى المجاورة... قيل: إنهم يُشبهون البشر!

دمشق الشام: ١٠-٦-٢٠١٢

ليلة كبّر الناس وهم في شرفات بيوتهم

تنادى الناس بدمشق إلى الوقوف في شرفات منازلهم يرفعون أصواتهم بالتكبير. فلما خرجوا، في هزيع من الليل، وانطلقت حناجرهم بكلمة «الله أكبر»، لم يفاجَؤوا كثيرًا بأن انطلقت رشّات الرصاص تحت أبصارهم في «ساحة الميسات»، فدخلوا الغرف يتابعون التكبير من وراء النوافذ المعتِمة! وهم أيضا لم يفاجَؤوا بأنّ أبواب بيوتهم أخذت تُقرع، وقد جاء الشبيحة يبحثون عمّن رفع صوته بالتكبير!

دمشق الشام: ١٠-٦-١٠

تأمّلوا...

إنّ الأطفال في لندن، التي كانت العاصمةَ لأعرقِ دولة استعمارية في العالم، خرجوا اليوم بتظاهرة يطالبون فيها بتأمين الحماية لأطفالنا، رافعين لافتات كتبت فيها أسماء الأطفال الذين ذُبحوا في الحولة والحَفّة[1] والقبير... فتأمّلوا!

دمشق الشام: ١٠-٦-٢٠١٢

عزيزتي بيانكا

تحية طيبة.

إنّ إيماني بحرية الرأي مكّنتني من الإبقاء على كلمتك «يوميات في الصحافة والأدب، لأجلك الموت النبيل» التي نزّلتِها في صفحتي...

أفلم يمكنك إيمانك المماثل من أن تُبقي في صفحتك كلمتيّ القصيرتين: «تأمّلوا» و«ليلة كبّر الناس وهم في شرفات بيوتهم»؟ دمشق الشام: ١١-٦-٢٠١٢

وتصل المرارة إلى القلم!

في عام ١٩٧١ أجرى المكتب المركزي للإحصاء في سورية عملية سمّاها «بحث تكاليف المعيشة». وفيه تُوزَّع دفاتر مخصوصة على أُسَر قد تمّ اختيارها عشوائيًّا، لتُسجِّل كل أسرة فيه مصروفاتها اليومية، ويقوم موظفون مكلفون بزيارة البيوت كلَّ عشرة أيام، يأخذون الدفتر وقد امتلأ ويعطون آخر. وفي الأسر الغني والمتوسط والفقير والمعدم أحيانًا.

موظفةٌ دخلت بيت رجل طاعن في السنّ يعيش على صدقات الجيران. تسلّمت

(١) الحفّة من قُرى اللاذقية، كانت ضحيةَ مجزرة من مجازر النظام السوري في ذلك العام.

الدفتر فوجدته خاويًا... أجابها: «يا بنتي، ما كنت بعرف أني فقير لهالدرجة!»، والدموع تسيل حتى لحيته. وذلك ما ضمّنتُه قصةً كتبتُها في ذلك الحين وسمّيتها «دفاتر معطرة».

اليوم... أنظر إلى الفيلاّت والقصور والسيارات الفارهة يقود بعضَها مَن سماهم المجتمع «الشبّيحة»... وأنظر إلى معاشي التقاعديّ (أنا الذي كانت آخر وظائفي في الدولة مديراً في وزارة التعليم العالي)، فأراه عشرة آلاف ليرة بعد الزيادة (أي مئتي دولار قبل هبوط العملة)! الفارق بيني وبين هذا المعدم: أنه سالت دموعه حتى لحيته، وأنا مِداد قلمي ما زال يسيل، يَرعفُ، مرارةً، ألمًا، وجعًا، في التعبير عما أحسّ وأرى وأسمع.

ولكن دموعي سالت هذه اللحظة... ليس بكاءً على نفسي، لكن على مجتمعي، وأنا أقرأ الآتي: «سئل أردوغان رئيس وزراء تركيا: كيف استطعتَ تحويل خزينة تركيا من عجز إلى فائض؟ فأجاب بكل بساطة: لا أسرق!».

ومع ذلك يطمَح النظام عندنا إلى أن يبقى إلى الأبد.

دمشق الشام: ١٣-٦-٢٠١٢

أقلامٌ ترعف ألما...

بعد المجازر التي لم يشهد تاريخ البلاد لها مثيلاً، لاحظنا أقلامًا، دافئة دامعة، بدأت في الظهور، تكتب فترعف ألما: تتذكّر ملاعب الطفولة التي أتى عليها الدمار، وبيوتا قُصفت فقُضي على أفراد الأسرة، وتبكي حتى الموت على أطفال ذُبحوا بسكاكين الحقد والجهل.

ألا يرى النظام أنه بذلك يثير العواطف والخواطر، ويُفجّر المواهب، على نحو ما وقع للفلسطينيين منذ النكبة؟

في الخمسينيات أنشد شاعر البعث مندّدا بـ«دكتاتورية» ذلك الزمان: جاء التتار... متذكّرا هولاكو وتيمورلنك، وأفرد لذلك ديوانا سمّاه «شاعر في النظارة» ثم «شاعر في السلاسل»[1]... ترى لو واتته الموهبة اليوم ما تراه يكتب؟

وأقلام اليوم، التي فقد حاملوها ملاعب الطفولة والمأوى والأهل كل الأهل، ما تراهم يكتبون بها بعد اليوم!

دمشق الشام: ٤-٦-٢٠١٢

المُوالي يتكلم بطلاقة.. وللمعارض فُتات القول!

نلاحظ أن المُوالي يتكلم بحرية، ويسمّي من الأمور ما لا أستطيع أنا، المتتبّع والمقيم في الوطن، أن أقاربه بالحرية نفسها ولا بالقليل منها، هو ينطِق بلسان النظام، وله الحرية المطلقة التي ينال عليها المصافحة وشدَّ اليدّ، والمعارضُ ينال شيئًا آخر! وأما أنا ففي صف الفقراء. لاحظوا ما أقول: في صف الفقراء، وفي صف المثقفين المضطهدين.

يخطر لي الآن ما كنا نسمعه من أنصار النظام يخاطبون المعارضين في الخارج، يقولون لهم كلاما يُضحك: إذا كنتم معارضين فتعالوا وناقشونا هنا! وكأنهم يدعونهم لحلقة نقاش ديمقراطي يرافقها عشاء عمل. وواقع الأمر أنَّهم إن جاؤوا، فإلى «بيت

(١) يقصد بشاعر البعث: سليمان العيسى. واسم ديوانه: "أعاصير في السلاسل".

خالتهم»[١] رأسا. والذين كانوا في الوطن انسحبوا واحدًا بعد الآخر (هيثم المالح، ميشيل كيلو... و.. و...)، والمقيمون مهددون، بل يدخلون السجون ويخرجون منها، وأحيانًا يتم الانتقام من أولادهم (ولدا فايز سارة)... "وبعدين كونوا شجعان، يا رجال المعارضة، وتعوا لعنّا[٢]"! ما أظرف دعوتهم!

والله إنه لمؤلم أن يطلع متكلم من أبناء السلطة ويأخذ راحته، ونحن لا نملك من حرية القول إلا الفتات!

قهر مستمر...

ذلك ما ظللت أعبّر عنه في أدبي القصصي منذ ضِقتُ ذَرْعا في ١٩٦٦.

دمشق الشام: ١٥-٦-٢٠١٢

هل الطائفية حقيقة؟

عندنا في البلاد طوائف منذ فجر التاريخ... فالطوائف وليدة الأديان، كما أنّ الأحزاب وليدةُ الحِراكِ الديمقراطي في العصر الحديث. ولكنَّ المرفوض هو: «النزعة الطائفية» «الروح الطائفية» البغيضة... وهذه لم نَسْمَعْ بها إلا اليوم. ومُرَوِّجُها والعازف على أوتارها -مع شديد الأسف- هو النظام، لاطئًا تحتها محتميًا بها...

في صغري، كان جيراننا في حيّ الجميلية بحلب من اليهود.

نحترمهم، نتبادل الزيارات، ويدعونني وأنا طفل لأطفئ لهم عداد الكهرباء بيدي مساء السبت! هاجَروا، وما زالت ذكراهم في نفوسنا.

---

(١) من كنايات السوريين عن السجن، يكنون بها تجنباً لذكر كلمة السجن أو المعتقَل، فللجدران آذان.

(٢) تعالوا عندنا

هذا عن اليهود، فما بالك بالمسيحيين؟

كثير من أصدقائي من المسيحيين، عندما أسافر إلى بيروت أنزل في بيت صديق لي مسيحي من القامشلي، فنان رسام اسمه «زكريا كايا».

من أين طلَعتم لنا بنغمة «الطائفية» تخوّفون بها العباد؟!

دمشق الشام: ١٥-٦-٢٠١٢

الموت.. والصمت!

لعل أهمّ منجزات النظام، منذ أعلن العزم على البدء بالإصلاح، أنه استطاع -وبامتياز- أن يجعل الموت جزءًا من حياتنا اليومية، نستيقظ عليه في الصباح، ونتغدّاه عند الظهيرة... وفي الليل نسمُرُ معه!

هل نقول: إن الصمت، هنا وهنالك، حليف له؟

دمشق الشام: ١٦-٦-٢٠١٢

أطفالنا.. أكبادنا تمشي على الأرض

مما قيل عن الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١: إنه لوحظت- بعد تسعة أشهر من سقوط البرجين- زيادةٌ في المواليد في الولايات المتحدة الأمريكية، فسّروا ذلك بأنّ الناس هناك دفعهم الخوف وحبّ البقاء إلى التلاقي في تلك الليلة.

والأمر نفسه يمكن ملاحظته في سورية وعلى ليال ما تزال تتوالى. ولكنّ ما يلاحظ في الحياة العائلية ظاهرةُ الخوف على الأطفال، والمبالغةُ في حبهم واحتضانهم، واتخاذ الحيطة لحمايتهم... بلغ ذلك الذِّروة بعد «الحولة» و«الحفّة» و«القبير».

دمشق الشام: ١٩-٦-٢٠١٢

وقع أمس في ضاحية قُدْسَيّا

إنْ ظلّوا في منازلهم تعرّضوا للقصف، فإنْ غادروها نُهبت...

يا للأمان الذي وفّره نظامٌ عمره خمسون إلا سنة! ثمّ نسمعه يقول: انتظروني حتى أقوم بالإصلاح! ويتعجّب لأنّ الناس ضجّوا!

دمشق الشام: ١٩-٦-٢٠١٢

بعد الحولة.. الروائية الجزائرية تعتزل الكتابة!

«بعد مذبحة الحولة ما عدتُ كاتبةً. أنا أمّ تنتحب. لا حِبر يتطاول على الدم... يومًا، إذا تجاوز دمعي ذهولَه، سأكتب...» [باختصار]

لو كنت تَعِين، يا أحلام مستغانمي، مَشاهدَ الثورة الجزائرية، من دم قد أهرقه الاستعمار الاستيطاني في شباب وشيوخ ونساء وأطفال، لكان لك أن تُوازني فتدركي التشابه ما بين مدفع الغريب الذي يقصف، وبين سِكّين القريب التي تذبح الأطفال وهم في عزّ نومهم...

إنها «الثورة الجزائرية الرقم ٢» بامتياز، يا أحلام، بعد نجاح الأولى منذ نصف قرن من عمر الزمان. هناك مليون ونصف المليون شهيد، من أصل عشرة ملايين كانَها الجزائريون... وهنا -زعموا- أنّ الشهادة سوف تطوي ثُلث الشعب المطالب بالحرية، الذي يبلغ اليوم ٢٤ مليونًا. رقم يثير الشهية!

دمشق الشام: ٢٣-٦-٢٠١٢

من هنا تبدأ الديمقراطية

هم فرحون بفوز مرسي رئيسًا لمصر المحروسة.

وأما أنا فإنّ فرحتي الكبرى بولادةٍ صِحيّة لديمقراطية صحيحةٍ تجلّت في اللجنة التي حققت وأعلنت قرارها.

أقول: من هنا تبدأ الديمقراطية. هذه التي لا تولد كما الطفلُ تلده أمُّه، ولكنها ولادةٌ كما لو أنها من الخاصرة، تَستكمِل تكوينَها على يد النخبة من أبناء الوطن العزيز.

أمَا ترون إلى الديمقراطية الفرنسية، التي استغرقت ولادتُها تسعين من الأعوام، حتى كانت «الجمهوريةُ الفرنسية الأولى» عام ١٨٧٨؟ فيكون طيّبًا أن يتأتّى لمصر أن تختزلها إلى ستّين!

تحية للشعب المصري في ابتداعه النهضة العربية أيام محمد علي... وتحية لنضال شباب مصر اليوم في تأسيسهم جمهوريتهم الأولى.

دمشق الشام: ٢٤-٦-٢٠١٢

هل يهنّئ أحمد شفيق محمد مرسي؟

في أول كلمة ألقاها محمد مرسي على الشعب المصري، قال: «وُلّيتُ عليكم ولست بخيركم»، ومنَحَ وعودًا -بدت لنا صادقة جدًا- بأنه سيكون لكلّ المصريين، فاتحًا صفحة في الحكم جديدة.

وأحسب أنّ أحمد شفيق، لو كان الفائز لقدّم وعودًا مشابهة، وما كنت لأشكّ في صدقه. ذلك أنّ زخم الثورة ضدّ الفساد وملحقاته، وما عاناه الناس من قهر وفقر، لن يدَعا مجالًا للحاكمين، سواء منهم الطالعون من رحم الثورة وأولئك الذين عُدّوا

فلولا للنظام الذي رحل، إلّا أن يكونوا -في ظلّ الديمقراطية الوليدة المصحوبة بحرية التعبير- كما يهوى الشعب، صدقًا وإخلاصا.

ودعوني، أيها الأصدقاء، أسترسلْ في أحلامي الرومنسيّة غيرِ المَنْسِيّة، فأتساءل: هل يخطر في بال أحمد شفيق أن يهنّئ، الليلة أو صباح غد، محمد مرسي على فوزه، مثلما فعل الرئيس السنغالي «عبد الله واد»، الذي هُزم، في انتخابات الرئاسة في الثالث من إبريل الماضي، عندما بادر، بعد النتائج الأولية، إلى تهنئة خصمه الفائز «مَكي سال»؟

لنغضَّ الطرف عن الدول الغربية وممارساتها الديمقراطية، ولنحوّل النظر نحو دولة صديقة تقع في طرف القارّة السمراء... ونتعلّم.

دمشق الشام: ٢٥-٦-٢٠١٢

عندما يُطلَب الولاء

أحقًا، يَتوقّع النظامُ الولاءَ المطلق من جنودٍ ما زال يقتل آباءهم وإخوتهم، ويغتصب أمهاتهم وأخواتهم، ويذبح أطفالهم في المهد بالسكين، ويقصف ديارهم، ويشعل النار في محاصيلهم، ويُسقط أمام أعينهم قمم المآذن، ثمّ يدّعي، ببراءة الأطفال، أنّ ذلك كلَّه بفعل «عصابات مسلحة»؟

إنهم إنْ صدّقوا فذلك يعني أنهم بلا عقول، بلا قلوب، ومن ثَمّ فهم فاقدو الأحاسيس الإنسانية والمشاعر الوطنية، وغيرُ جديرين بأن يحملوا السلاح دفاعًا عن الوطن!

أيها النظام... أما تتعرّفُ الوقائع والحقائق، فتضعَ نهايةً لمأساة شعبٍ أنت تنتسب إليه؟

دمشق الشام: ٢٧-٦-٢٠١٢

إلى حفيدي نبيه هنانو في عيد ميلاده

يوماً كتبتُ عن مسيرنا، أنا وخالتك سهير وزوجها بشار وخالك فراس، في كورنيش يسمى «فينيس» يحاذي ساحلاً يستلقي على ذراع «المحيط الباسيفيكي» قريبا من لوس أنجلوس (غربيّ أمريكا). قلت، في هذا المقتطف، عن الأزهار التي صادفتني هناك:

«وبين النباتات في أفنية البيوت، استرعى انتباهَنا شجرٌ خفيض قد تفتّحت على سطحه أزهارٌ أَشبهت الياسمين، بنُجَيماته الخمس وبياضه الناصع، لولا أن تخلّت عنه عِطريّةُ ياسمينِ الشرق. وفوجئنا أيضًا بأزهار "العَسَليّة" النادرة ذات الرائحة العاطرة، ذكّرتني بالوطن، فتقدّمتُ لأشمّ عبيرها، فإذا هي بلا عبير. ظننتُ أنّ برودة الجو عطَّلت عندي حاسّة الشمّ، فالتمست من ابنتي أن تشمّ... وإذا بياسمينهم وعسليّتهم زهورُهما خاليةٌ من الرائحة!».

أرأيت ما يفعل حبُّ الوطن في النفس، يا نبيه؟ ياسمين الشام أطيب رائحةً من ياسمين أمريكا بقارّتيها الاثنتين!

وكل عيد ميلاد وأنت سعيد بنجاحك في عملك بدولة «الإمارات»، يا حفيدي العزيز نبيه هنانو!

المقتطف مقتبس من فصل سيصدر مع فصول أخرى في أدب الرحلات بكتاب عنوانه «قمر لا يغيب»

دمشق الشام: ٢٧-٦-٢٠١٢

ثلاث وعشرون سنة.. خيبات!

أليس عجيبًا أن يتحرّك ضابط، فيستولي على الحكم بحجّة عجز الديمقراطية عن قمع تمرّد قام في الجنوب! حتى إذا تقضّى من الزمن عشرُ سنين، أو عشرون وزيادة، كان التمرّد -الذي استفحل في زمنه- قد بلغ مرحلة الانفصال.

وبدلًا من أن يتوارى هذا المغامر خجلاً، فإنه لا يزال يَهُزّ عصاه فوق الرؤوس، مطالبًا جماهيره الغفيرة الفقيرة بالتقشّف، بعد أن ضَيَّعَ ما أغدقت عليه الأرض من خيرات النفط.

دمشق الشام: ١-٧- ٢٠١٢

مهداة إلى المناضلة بأدبها الصادق جمانة طه

العنوان (دم.. لسوريّة)

في سوريّة فقط

الجرحى يلزمهم دم

والحكّام أيضًا!

دمشق الشام: ٢-٧-٢٠١٢

أعناق الأطفال

أصبحتُ في الآونة الأخيرة، كلما التقيتُ طِفلا، أطفالا، في طريق أمرّ به، في حديقة أرتادها، في بيوت الأصدقاء والأقارب، تتملّكني رغبةٌ غريبة: أن أقبّل رؤوس الأطفال، وأنا أمدّ يدي إلى أعناقهم، أتلمّسها، خائفًا على نحورهم الطريّة من أن يقع

لها ما جرى لأطفال «الحولة» و«الحفّة» و«القبير»!

أعترف بأني لم أعد، في خواطري ومشاعري، إنسانًا سويًّا.

دمشق الشام: ٤-٧-٢٠١٢

في انشقاق العميد مناف طلاس

لنتذكّر قول الرسول الكريم: «من دخل بيت أبي سفيان فهو آمن.....». وما هكذا، يا معلّقي «ثورة جبل الزاوية»، يكون استقبالُ المنشقّين، الذين يعاني كلّ منهم همّه ويحمل وزره ويخضع لظرفه، والمحاسبة العادلة تكون فيما بعد.

دمشق الشام: ٧-٧-٢٠١٢

وللمجازر.. ذكرى لا تمحوها الليالي

اليوم... يُحْيون في البوسنة ذكرى استشهاد ثمانية آلاف من المسلمين كانوا قد قضَوا عام ١٩٩٥ في مدينة سربرينتسا على يد الحقد الصربي... وتُردّد الألسنُ أنّ تلك المجزرة وصمة عار في جبين أوروبا القرن العشرين.

ولكنّا لم نرَ، في شهر شباط الذي مضى، مَن يُحيي الذكرى الثلاثين لاستشهاد ثلاثة وثلاثين ألفا من الأبرياء في المدينة المحميّة، على أيدي مَن ينتمون إلى الوطن، دينًا ولغة وحياة مشتركة. وقع ذلك في ظلّ «غضّ نظر» من أمريكا، ووسط ابتهاج موسكو السوفياتية، التي وجّه واحدٌ منهم إلينا سؤالًا في مقرّ اتحاد الكتّاب بدمشق، وهو باسم الثغر: «حدّثونا، حدّثونا، كيف أجهزتم عليهم، أولئك الرجعيين؟»".

ونتساءل: متى يؤون الأوان لأن تُردّد الألسن أنّ تلك المجزرة هي وصمة عار في جبين القطبين العالميين؟ والتذكير هنا ليس دعوةً للثأر والانتقام، ولكن أملاً في

التوقف عن التكرار. دمشق الشام: ١١-٧-٢٠١٢

أرحام النساء!

انشدّت أبصارُ العالم إلى «مجلس الأمن»، وتوقّعوا أو لم يتوقعوا. تفجيرٌ بجوار بيتي غيّر المواقف والمعالم، وتقدّمٌ في الساحات... وأقرأ كلمة موجزة خطّتها أنامل سيدة سورية: «السوريون، عقمت الأرحام أن تلد أمثالكم»، نقطة آخر السطر.

دمشق الشام: ١٢-٧-٢٠١٢

التريمْسة.. والجرّ إلى حرب طائفية!

لم نسمع قبل اليوم باسمها، ولم نكتشف ما حلّ بها إلا بعد أن نفَضَ القتلة أيديَهم من دماء أبنائها وغادروها -كما دخلوها- بلا ضمير!

عند الفجر (أمس الخميس ١٢-٧) طوّقوا بلدة التريمْسة (غربيّ مدينة حماة) من جهاتها، بعد أن قطعوا عنها الاتصالات والكهرباء، وأخذوا يقصفونها بمدافع الدبابات، ويُمطرونها بالقذائف من المروحيات (غدًا يكذبون: إنها «العصابات المسلحة»!). بعض أهلها الذين خرجوا من تحت الدمار هائمين على وجوههم، تمّ تناولهم بالرشّ بالرصاص، وبالذبح بالسكاكين، وبإشعال النار فيهم أحياء وأمواتًا.

في الليل، قام أهل البلدة المنكوبون يجمعون ما عثروا عليه من جثامينَ في الطرقات والحقول، بعضها متفحِّم (منهم ثلاث عائلات مُبادة بالكامل)، ويُحصون: مئة، مئتان... والمتوقع أن يتجاوز العدد الثلاثمئة.

مجزرة بربرية أخرى يرتكبها النظام بدم بارد، ونستقبلها نحن ككل مرة بالدمع ينزف من القلب، وبالدم تذرفه العيون.

وليس للقتلة من عذر إلا الترويع والتمادي فيه، وإلا قصدٌ في التهجير والتطهير، وإلا الاستفزازُ في اتجاه حرب جانبية ما زالوا يخططون لها في الظلام، وينفّذون في وضح النهار.

التريمْسة AlTremseh، البلدة الصغيرة الغافية على ضفة نهر العاصي، دفعها النظام إلى واجهة الإعلام العالمي، فهي منذ اليوم شاهدٌ آخر على وحشية القتل التطهيري وعلى سوء النية والقصد، وعلى انتفاء أهلية النظام للحكم. ولكن الشعب، المتعايش منذ قديم الزمن، سيظل محافظا على «سِلمية» انتفاضته، ولن ينجرّ إلى ما يريد له النظام من حرب طائفية، مرفوضة من البداية... حتى يوم النصر الآتي.

دمشق الشام: ١٣-٧-٢٠١٢

تميم مأمون

في اليوم الأول كانت بيننا صداقة عبر «التواصل الاجتماعي»، وفي اليوم الثاني هأنذا أهنئك بعيد ميلادك المبارك، يا أستاذ تميم مأمون مردم بيك، وأمامي «ساحة المرجة» _كما أعرفها منذ ستين سنة_ التي شئت أن تتخذ منها غلافا لصفحتك. أياماً سعيدة مصحوبة بالصحة والعافية.

دمشق الشام: ١٥-٧-٢٠١٢

سقوط ورقة التوت

النظام، في تبرُّئه مما وقع في «التريمسة»، سارع إلى ترداد مقولته التي اعتدنا سماعها: «العصابات المسلحة»!

وخلال توقيفه للمراقبين الدوليين على أبواب البلدة المنكوبة، ادّعى أنه ما دخلها

إلا استجابةً لنداءات استغاثةٍ من أهلها لتخليصهم من فتك العصابات المسلحة (يا للغوث والإنجاد!).

نأمل من المواطنين الغيورين الذين يتصدّون لهذه المقولة المكرورة، أن يكفّوا بعد اليوم عن تفنيدها وبيان بطلانها... فما فعل النظام في هذه البلدة -بعد الحولة والقبير... - هو بمثابة سقوط ورقة التوت الأخيرة.

دمشق الشام: ١٧-٧-٢٠١٢

شيخ الضاحية.. ما بالُه؟

أمسِ سمعت شيخ الضاحية[١] يرفع صوته حزينا على ضحايا «الأمن القومي»، ونحن مثله حَزانى.

ولكنا ما رأيناه قبل اليوم يأسى على العشرين ألفا ممّن قُتلوا برصاص كان سدّده إليهم ضحايا أمس، ولا على العشرين أو الثلاثين ألفا الذين ماتوا تحت التعذيب، ولا على المئة ألف من المغيَّبين في المعتقلات، ولا على الأطفال المذبوحين في «الحولة» وما حولها بسكاكينَ لا يجهل هو أصحابَها، ولا على المئة شهيد الذين قضَوا قُبيل خُطبته بالقصف في «الحجر الأسود» وهم يشيّعون شهيدا... ولا أبدى أقل التعاطف مع مئات الألوف من اللاجئين إلى ما وراء الحدود ولا على المليون من النازحين داخلها.

ونحن، أيها الشيخ، من كنا فتحنا بيوتنا وصدورنا لاحتضان نازحيك أيام حربك التمّوزيّة الخاسرة... حتى وصل شَتاتهم إلى مزارع حلب شماليّ البلاد، أنت الذي ما زلت تسعى إلى أن يغتسل الفُرْس بمياه البحر المتوسط!

(١) يقصد به حسن نصر الله زعيم حزب الله.

قليلاً من الإنصاف، يا مَن يعتني بتنميق لحيته أكثر من عنايته بتنمية عواطف المحبة والتفاهم بين المسلمين في مشرق ومغرب!

دمشق الشام: ١٩-٧-٢٠١٢

لماذا كان صوت التفجير مخمليًّا؟

بعد تفجير الأربعاء في مبنى «الأمن القومي» الذي لا يبعد عن بيتي سوى خطوات، ما زلت أتساءل لمَ لمْ يبلغ دويّ الانفجار سمعي:

هل مردّ ذلك إلى أني رجل قد بلغ الثمانين وتجاوزها؟ أم لأن التفجير كان «مخمليّا» ما يناسب «حيّ الروضة» الذي أسكن في أحد طوابقه الأرضية؟

دمشق الشام: ٢١-٧-٢٠١٢

الخبز.. وجرائد الصباح

بعد الخبز الذي افتقدناه، وليس في مقدورنا أن نستعيض عنه بما اقترحتْه يومًا ماري أنطوانيت، افتقدنا كذلك الخُضَر والفاكهة، وذلك بعد أن أصبح متعذِّرًا على العامل الزراعي الوصولُ إلى أرضه.

وماذا نقول في نظامٍ استطاع بثقافته الأمنية أن يضيف إلى إزهاق الأرواح إرهاقَ الناس بحرمانهم من القوت!

ولكنّ النظام ما زال يؤمِّن لموزّعي الصحف اليومية الرسمية توصيلها إلى أيدي المشتركين في باكر الصباح، أملاً في غسل الرؤوس ممّا علق بها من أفكار في سواد الليل.

دمشق الشام: ٢١-٧-٢٠١٢

أيام يسجّلها التاريخ!

أشهد، ويشهد الملايين من الناس، أنّ الشعب السوري ما توحّد في أمر، بطوائفه ودياناته وإثنيّاته، مثلما هي حاله اليوم، إزاء القتل الجماعي، ودكّ البيوت والأحياء السكنية، والتهجير من المدن والقرى، والنزوح حتى ما وراء الحدود.

إنها أيامٌ يغَصّ التاريخ بها، وهو يضيفها إلى ما تَسجّل في صفحاته من صروف الدهر ونوائب الزمان.

دمشق الشام: ٢٦-٧-٢٠١٢

من ذكريات الطفولة

كان جدي «الحاج سليم المفتي السباعي» (القادم من حمص إلى حلب عام ١٩١٥، مستوطنًا غير نازح!) يخصّني بمحبّته الغالية، التي عرفتُ منذ طفولتي الأولى أنها تعود لكوني أولَ أحفاده، وأيضا لأنّ لحفيده -كما كان يردّد- عينين تُشْبِهان عينَي أبيه الذي فارقَه في حِمص.

ومما ظلّ عالقًا بذاكرتي أني، ونحن في الليوان[1] متحلّقون ساعةَ الغداء حول المائدة التي هي صينيةٌ كبيرة، كنت ألاحظ أنه، بعد أن يرفع اللقمة إلى فمه، يُغمِض عينيه عند المضغ، فسألته: «جدّو، ليش بتغمّض عينيك وأنت عم تاكل؟»، فضحك -رحمه الله- من سؤالي وأظهر ابتهاجًا، وما زاد على أن قال كلمته التي كنت أسمعها منه كثيرا: «أبوس حَجَر عينيك!».

---

(١) جزء من الدار العربية القديمة، وهو مكان واسع ذو جدران ثلاث، ومفتوح على ساحة الدار، من جهة الشمال عادة، ليكون بارداً صيفاً. وأصلُها: إيوان.

وفيما بعد عرفت أنّ الغَمض منه كان ليُحكِم المضغ بأسنان قد أوهنها كرُّ السنين.

دمشق الشام: ٢٧-٧-٢٠١٢

ضباط عربٌ شرفاء

هل يخطر في البال أن يُعدّد أحدنا أسماء الضباط العرب الكبار الشرفاء في النصف الثاني من القرن العشرين الذين كانوا ضد الانقلابات وحاولوا الإنقاذ؟

أنا أدلّكم:

العميد سامي الحناوي (السوري)،

اللواء محمد نجيب (المصري)،

العميد عبد الكريم النحلاوي (السوري ثانية)،

المشير عبد الرحمن سوار الذهب (السوداني)...

وفي أوائل هذا القرن: اللواء محمد ولد فال (الموريتاني)...

وهؤلاء الضباط الأربعة، أو الخمسة، كان لا بد من أن يَضيعوا في زحمة الأيام، ما بين مغتال، ومعتقل، ومغيّب أو منبوذ... وما نجا إلا سوار الذهب الذي مُنح جائزةَ الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام (١٤٢١هـ/ ٢٠٠٤م).

وارتفع صِيت العابثين بشعوبهم وبالتاريخ، هذا الذي سيُصحَّح في الزمن الآتي.

دمشق الشام: ٢٧-٧-٢٠١٢

كتب أحدهم

في «حيّ الصاخور» بحلب الذي يسكنه الفقراء خرجتْ عند الإفطار امرأة

تحمل طعامها بين يديها وقدَّمتْه لأفراد من «الجيش الحر» وهي تقول: (خدوا كلوا انتو عم تضحوا بأرواحكن أنتو أحسن منا)

وظلت دموعها تلتمع على الخدين بسبب التجاعيد.

دمشق الشام: ٢٧-٧-٢٠١٢

أطفالنا يكتسبون ثقافة جديدة!

حدثتْني على الهاتف أمٌّ شابة عن أنها كانت تعتزم الذهاب بأطفالها لزيارة أسرة صديقة، فترامى إلى سمعها دويٌّ انفجار شديد، فعدلت عن الزيارة.

هنا سألتها ابنتها بنت السادسة ما إذا كان الأمر يتعلق بإطلاق «رصاص» أم بـ«تفجير»؟

وأدركت الأم، وها نحن نعرف الآن، أنّ أطفالنا قد اكتسبوا «ثقافة» جديدة يمكننا تسميتها ثقافة حرب أو اقتتال، قبل أن يدخلوا الصف الأول الابتدائي.

دمشق الشام: ٢٨-٧-٢٠١٢

أهل النخوة في حلب

لم يكن مفاجئًا لأهل حلب، من سكان «حيّ صلاح الدين»، أن يُضطرّوا إلى النزوح من بيوتهم، تحت قصف المدافع، في هزيع من الليل، دون أن يتاح لهم أن يحملوا متاعًا أو طعامًا.

ولكن المفاجئ لهم، بعد أن فُتحت أمامهم أبواب المدارس والمساجد، أن يروا كثيرًا من الرجال والنساء يدخلون عليهم، ليقدّموا لهم الغطاء والوطاء، ووجَباتٍ من

طعام مصحوبةً بقناني الماء البارد، والدواء أيضًا.

وما كان «ملائكة الرحمة» هؤلاء إلا متطوّعين، شبابًا مثل الزهور، مُسلمين ومَسيحيين،... وما حملوه كان تبرّعًا من كرماء حلب التجار والصناعيين، وقد استعدّوا لأداء هذه المهمة الإنسانية الجليلة من قبل وقوعها.

تحية لأهل النخوة في حلب، من متطوّعين ومتبرّعين، فقد أكدوا بصنيعهم الجميل مدى التضامن والتكافل بين أبناء الأمة بجميع طبقاتها وطوائفها. وأما النازحون، فالأمل أن يعودوا إلى بيوتهم عما قريب، آمنين في ظلال الحرية والكرامة.

دمشق الشام: ٢٨-٧-٢٠١٢

أُمّ المعارك.. أَم تدمير وتهجير

بغضّ النظر عمّا سمّاه النظام عند توجيهه كتائبَه المحاربة إلى حلب: «أمّ المعارك»، وذلك ما نراه التسمية الغلط، لأنّ «حرب العصابات» التي تخوضها كتائب الجيش الحر، لا يُقضى عليها القضاء المبرم ما ملكت القدرة على التحرك فلا يُعرف مكان لها يمكّن من القضاء عليها...

أقول: إنّ ما يذهب إليه الجيش النظامي لتحقيق انتصاره، لا يعدو أن يكون تدميرًا للأحياء السكنية يُسفر عن تهجير ساكنيها نحو المدارس والمساجد، وإلى الهيمان على الوجوه حتى بلوغ أقرب الحدود واجتيازها طلبًا للأمان.

فهل يسجّل النظام بذلك انتصارًا له في واقعة يسميها «أمّ المعارك»، تلك التسمية المشؤومة التي أودت بمُسمّيها إلى ما نعرف؟ أم إنه تهجيرٌ يسبقه تدميرٌ لإحدى العاصمتين في البلاد، هي الاقتصادية اليوم وهي التراثية منذ زمان؟

دمشق الشام: ٢٩-٧-٢٠١٢

تلقيت اللحظة رسالة من سيدة بحلب

هل تعلم أنه كانت أمس يوم الإثنين هدنة بين الطرفين المتنازعين (الجيش النظامي والجيش الحر)

وتدخّل الصليب الأحمر لنقل الجثث المرمية في الطرقات، ولكي يؤمّن للناس الغذاء والحاجات الضرورية، وللذي يريد النزوح إلى ما وراء الحدود، وأخيرًا ليتعرّف الطرفان على الخسائر في الأرواح والمال، و... ولكي يفكروا من جديد في.....

وانتهت الرسالة.

أقول: يا لها من حنكة في معالجة أمور الوطن!

دمشق الشام: ٣١-٧-٢٠١٢

الرابح المؤكَّد

سواء أظَفِرَ النظامُ في «أمّ المعارك»، أم حظي الشعب بالحرية المنشودة فإنّ ذلك المتفرّج من وراء الحدود، الذي يرى الحجر وتحته البشر، ويشهد الجنازات المشيَّعة، والنسور تنهش الأشلاء المضيّعة، ودبابات معطوبة، غابات محروقة، أمة منكوبة أصبحت فيها البنى التحتية أثرًا بعد عين.. إنه هو الرابح المؤكَّد.

دمشق الشام: ٣١-٧-٢٠١٢

وطرَقَ الربيع بابنا

أنت تعسّفتَ معنا، أيها النظام، وظلمتَنا طويلاً، واستعنت علينا بغرباء من شمال

وشرق وشرق بعيد، ثم ادّعيتَ أننا نحن من يأتمر بالأجنبي!

لم نعد قادرين على أن نُزيّف القول: نحبّك!

لقد طرق الربيع بابنا، وأسكرَنا بأنسامه العِذاب، وأثار فينا أشواقًا إلى ما كنتَ حبسته عنا زمنا: الحرية.

لن نصحو إلا بإطلالتها من الأفق الشرقي.

دمشق الشام: ٣١-٧-٢٠١٢

في أمّ المعارك

لتعلموا أنتم، يا من تسمّيتم بـ«الجيش الحر»، أنّ مَن تقتلونهم في «أمّ المعارك»، ليسوا إلّا رفاق السلاح الذين كنتم بالأمس وإياهم معًا قبل أن تنشقّوا عنهم وتنتقلوا إلى الضفة الأخرى؟!

ولتعلموا أنتم، يا من سمّيناكم منذ البدء بـ«حماة الديار»، أنّ الذين بالطائرات تقصفونهم وبالدبابات ترمون بيوتهم، وهم متحلّقون حول موائدهم ساعة الإفطار أو عند السحور، هم مَن أوكِل إليكم الدفاعُ عنهم في ساحات الوغى؟!

فتريّثوا، أيها الفريقان المُلتَحِمان، وليترفّق بعضكم ببعض، ولا تأخذنّكم العزّة بنصر ملتبس... فما أنتم إلّا كمن يَحُزّ عُنُقَ نفسِه بسكين أو يَغُزّ صدره برمح!

اتّقوا الله فينا، في هذا الشهر الفضيل، أيها المتقاتلون في «ساحات الوطن»!

دمشق الشام: ١-٨- ٢٠١٢

حماة الديار

مهداة إلى السيدة ر. م. ع

ذات يوم، ذات ساعة، تراءى لها أن تفتح نافذة بيتها المطلّ على «أوتوستراد المزة»، أملاً في أن تستَرْوِح أنساما تظنّها عليلة.

فراعها أنْ رأت رتلاً من آليات عسكرية نظامية تمشي الهُوَينى في الشارع العريض وكأنها في نزهة، وترشّ بالرصاص الأبنية على الجانبين، تتسلى بلعبة الموت!

أغلقت النافذة. حزمت الحقائب. واستسلمت لأول طائرة تحلّق عاليا، وتمضي بها إلى أبعد مكان في العالم!

دمشق الشام: ١-٨-٢٠١٢

صيام مشترك

مبارك صيامكم، يا إخوتنا المسيحيين في وطن المحبة.

مبارك للسُّريان أبناء البلاد الأصليين الذين أغنَوا الثقافة العربية بما نقلوه إليها من خلاصة الفكر الإغريقي، ومبارك لسائر الطوائف المسيحية الأصيلة في بلاد الشام ومن قَدِم إليها وأقام فيها حبًّا وكرامة. دمشق الشام: ١-٨-٢٠١٢

شافيز.. يأسف!

بعد أن قالت المذيعة: إنّ «شافيز يأسف...»، طار بي الخيال إلى أنّ الزعيم الشعبي الثوري في بلده فنزويلا، قد شاهد الدمار الذي يحلّ بنا وانتابه الحزن الشديد على أطفال الحُولة والحَفّة والقبير... ولكن خاب ظني وأنا أتلقى بقية الخبر: يأسف لأنّ الدول الأوروبية تمدّ الإرهابيين بالمال والسلاح.

فهو إذن لم يشاهد التدمير والتهجير، لا ولا سمع بأخبار السفن التي تعبر الدردنيل وتلك التي تأتي إلينا من الطريق الأبعد ملتفّةً حول القارة الأوروبية.

ترى لو كان شاهد وسمع... هل كان يُغَيِّر؟

دمشق الشام: ٣-٨-٢٠١٢

مَجازر.. بلا حدود!

في آخر العام ١٩٧٧ زرت -وأنا في باريس- أحد أشقائي في عاصمة ألمانيا الغربية، فحدثني وزوجته السورية عن أنهما شاهَدا في التلفاز الألماني ريبورتاجاً عن «مجزرة تل الزعتر» في بيروت... فعجبا من أن يُمكّن الوجودُ السوري في لبنان، أُناسا يقومون بقتل الفلسطينيين العُزّل في مخيّمهم، وقالا: إنهما أخذا يبكيان، وهما أمام التلفاز، مثل أطفال فقدوا الأحبة!

ترى، كم ذا من الناس، من العرب، من سكان العالم، سوف يبكون في المستقبل وهم يشاهدون صور ما يحلّ بنا من دمار، وقتل وتمثيل! تضاف إلى ذلك مجازر في مخيم اليرموك الفلسطيني بدمشق!

لماذا يصرّ النظام على أن يحملنا على البكاء مثل أطفال فقدوا الأحبة؟

أهي رسالة يريد أن يؤديها لنا، وللعالم!

دمشق الشام: ٤-٨-٢٠١٢

في حديقة صغيرة منتصف شارع أبو رمّانة

يتصل بي صديق من الكتّاب. نقضي معًا بُعيد الإفطار سويعة في «حديقة ابن سينا» العامة (في منتصف شارع أبو رمانة في العاصمة)... نسمع ونحن في الحديقة دويّ انفجار، فلا يذهب بنا الفزع أي مذهب، نتنبّه قليلاً، ثم نستأنف السمر! يعيش الناس في أرجاء الدنيا أفراحهم اليومية.

ونحن في سورية نستمع إلى القذائف تُطلق من قمة قاسيون على أماكن في أحياء عاصمة الأمويين... تدكّ بنايات، تقضي على من يفيء إليها من حرّ النهار في هذا الشهر الفضيل، أو على مَن يحاول غمض العينين في هزيع الليالي. ثم يمازحنا النظام: إنها عصابات مسلحة، ولا نضحك للنكتة. ملاحظة: ترامى إلى سمعي، وأنا أكتب هذه الكلمات، دويّ ثلاثة انفجارات! دمشق الشام: ٤-٨-٢٠١٢

تداوُل المكان!

فَرِحت الأمّ بأنّ ابنتها الوحيدة قد وُفّقت وزوجها في التخلّي عن بيتهما في طرف من المدينة، مستبدلين به بيتين اثنين -كتباهما للولدين على حياة عيونهما! - في ذلك المكان الذي كان قريةً وادعة، ثم اتّسعت حدودها فغدت مدينة صغيرة زاهرة، ازدادت بذلك قربًا بمن سكنها من المتوسّعين، يبيعون هنا ويشترون هناك.

وبينما كان الزوجان في سويعة صباح، يرتشفان القهوة، سَمعت الأسرة طلقات نارية، ثم رشّاً كثيفًا: كان الجيش الحر يتقدّم ويتراجع الجيش النظامي، أو لعله العكس. ونَفَذت في أثناء ذلك من الشباك رصاصات، ارتطمت بالجدار المواجه وتساقطت شظاياها! لم يكمل الزوجان قهوتهما، حملت الأسرة ما خفّ، وغادروا، ليس إلى البيت الذي تخلّوا عنه، لكن إلى بيت الأمّ-الجدّة، حيث التأم الشمل!

ولكن ها هو ذا اقتتال ينشَب في الشارع تحت. وكانت المدينة الصغيرة تلك قد وقعت في قبضة أحد الفريقين. فتوجّهوا إليها جميعًا آمنين.

ثمّ إنّ قتالًا جديدًا نَشِب، بينما ساد في المكان الآخر هدوء. فانتقلوا. وبعدئذ تغيّرت الأحوال فعادوا.

إنهم ما زالوا يتنقّلون على نحو يحاكي إيقاع المعارك التي تدور، يكون ذلك سويعة شرب قهوة، أو تناول طعام، أو حين يُرنِّق النعاسُ في الجفون، منتظرين أن ينتصر فريق على فريق فيما سُمّي «أمّ المعارك»! دمشق الشام: ٤-٨-٢٠١٢

حكمُ التاريخ

قد يتساءل المرء عن الحكم الذي يُتوقّع أن يُصدره التاريخ حين يوازن -وهو يسجّل- بين أولئك الذين يبذلون الروح من أجل تحقيق حلم عظيم يراودهم، وأولئك الذين يجابهونهم بحديد يَدِبّ على الأرض، وبحُمَمٍ تُصَبّ من السماء!

دمشق الشام: ٨-٨-٢٠١٢

خطأ في الاتجاه

في تبنّي النظام شعار «المقاومة» يطلقه منذ أربعة عقود من الزمان، تمنّيت وتمنّى الناس كلُّهم لو أنه أطلق مرة واحدة رصاصة باتجاه العدو، إلى أن فاجأنا بإطلاق النيران الكثيفة على الداخل.

فعرفنا كم ذا هي البوصلة معطلة عنده!

دمشق الشام: ٨-٨-٢٠١٢

صانعات الرغيف الصاجيّ

قبل حينٍ شاهدت في إحدى الفضائيات مسابقة لربّات بيوت من الريف، تقعد كلُّ واحدة أمام موقد عليه صاج، تتناول قطعة من عجين، فترقّقها بيديها، وتلوّح بها مُنداحةً في الهواء، قبل أن تُلقيها على الصاج الساخن. والتي تخبِز أكبر عدد من هذه الأرغفة في مدة محددة تنال جائزة.

صدّقوني أني وددت تلك الساعة لو أني وسط هذا الجمع المبتهج، لأنحني فأقبّل هذه الأيدي التي تخبز، وتعمل في البيت والحقل.

ولكن لم يخطر لي أنّ هؤلاء الأمهات كنّ يربّين أولادًا، شبّوا، ومن حناجرهم انطلقت هتافات الحرية تجتاح البلاد.

دمشق الشام: ٨-٨-٢٠١٢

أمّ المهالك!

بالأمس قال النظام بأنه مستعدّ للرحيل لكن بطريقة «حضارية». وهو منذ أسابيع يتهيّأ لأن يخوض بحلب ما سمّاه «أمّ المعارك»، فلما باشرها أمس الخميس في حي «صلاح الدين»، تبيّن لنا مدى حضاريّتها: قصفٌ من الجو، تدمير وتشريد، وأرض محروقة، فهي «أمّ المهالك»، خرج فيها الناس من بيوتهم هائمين، إلى الأرياف المحيطة، بلغوا تركيا شمالًا، ونزلوا دمشق جنوبًا، يسأل كلٌّ عن أهله: أين أصبحوا؟

نظامٌ «مقاوِم»، بدلًا من أن ينجز وعده بتحرير فلسطين، أو أن يستردّ أرض الجولان التي أُخذت مثل شربة ماء، فإنه يعود بنا إلى ما يشبه المربع الأول الذي كان (الخامس عشر من مايو ٤٨): لاجئون مشردون.

فتاة من حي صلاح الدين، تجد نفسها صباح هذا اليوم (الجمعة العاشر من أغسطس) بدمشق، فتبعث عبر «مجموعة حركة كفى»، بهذا النداء: «بتول فيض الله» العمر ٢٠ سنة، من محافظة حلب، منطقة صلاح الدين، موجودة الآن في مدرسة الفالوجة، دمشق/ مخيم اليرموك. لمن يعرف أي معلومات عن أهلها أو أحد أقاربها الرجاء الاتصال على رقم هاتف المدرسة ٦٣٣٧٣٣١ – ٠١١

أيها العالم، المغمِض عنّا عينيه، وأذنيه، ولسانه، وقلبه، أما آن لك أن تستيقظ! إنّ صمتك يزيد فينا القتل والدمار. دمشق الشام: ١٠-٨-٢٠١٢

أوجاع الزمن الرديء!

يوم رأينا، في مستهلّ الربيع العربي، رجلَ أمن يطرح على الأرض أحد الهاتفين بالحرية وينهال عليه لكْمًا وركْلاً... أعترف بأنه لم يفارقني ذلك الوجعُ إلا يوم رأيت لابسَ خاكي آخر يتناول بالعطف طفلاً من ذويه ويُجلسه إلى جانبه فوق الدبّابة!

ولم يفارقني الوجع، كذلك، منذ شاهدت أولئك الذين اقتحموا، وهم على البغال والجمال، الميدان الذي يعتصم فيه المطالبون بالحرية، وأخذوا يضربونهم بالحبال المجدولة، التي أحسستها تَسُوطني... ولم يفارقني الوجع إلا ساعة رأيت «المشير» ينزل إلى الساح، ويصافح الناس بمودّة كان من شأنها أن أفضت إلى الصلح الوطني!

ولكني أتساءل: كيف يمكنني أن أتخلّص من أوجاعٍ ما تزال تتوضّع طبقات فوق طبقات، وأنا أرى قمم المآذن تتساقط برمي المدافع؟ وترى أعيننا مواطنين قد ذُبحوا بالسكاكين؟ وننام ونستيقظ على قصفٍ للأحياء السكنية يُحيلها إلى ركام، ويُحَوِّل ساكنيها إلى هائمين على الوجوه يبحثون عن ملاذ وعن لقمة مغمّسة بالدم؟

إنها أوجاع الزمن الرديء! دمشق الشام: ١٦-٨-٢٠١٢

الذين قصفوا أعزاز!

ممّا كان يُروى بحلب أيامَ الحكم العثماني ما يتعلق باعتزاز الأتراك بالإسلام بمقدار اعتزازهم بـ«تركيّتهم»، وهم يرون دولتهم العثمانية في ذلك الزمان إحدى الدول العظمى، أن عربيًّا في حلب كان يجاور عثمانيًا، فخطر له أن يُذكّره بأنّ «الرسول

الكريم عربي»، فما كان من التركي إلّا أن قال محتدًّا: «إذا كان محمد عربيًّا فإنّ الله تركي!»... وانتهى الحوار بتلك النكتة.

أمس (الخميس) كان حوار بيني وبين سيدة مثقفة ما تزال تعلن ولاءها المطلق للنظام، ناسبةً في ذلك كلَّ الكوارث والمحن التي تتنابنا إلى الشعب الذي لم يتجمّل بالصبر ليرى النظام وهو ينجز حزمة الإصلاحات التي وعد بها. وقد طال بينا الحوار على غير طائل، إلى أن خطر لي أن أسألها فأُفحمها، عن رأيها فيما كان أمس (الأربعاء) من قصف قام به الطيران الحربي لمدينة أعزاز، حيث قُتل جرّاءه مئة ودفن ما يقارب ذلك تحت الأنقاض، فما كان منها إلا أن أجابتني بأعصاب باردة بأنّ الذي قام بالقصف هو «الطيران التركي»!

ولم أتبيّن ما إذا كان قولها مشابهًا لما كان فاه به ذلك العثماني القديم، أم أنه صادر منها عن قناعة. ولكن كانت في القول نهايةُ الحديث.

دمشق الشام: ١٧-٨-٢٠١٢

سقوط الورقة الأخيرة!

قد رأيناك، أيها النظام، وأنت تقصف الأحياء السكنية في كلّ مكان حتى تسوّيها بالأرض.

ولكنّا ما تصوّرنا أنك تعتاد قصف الصائمين ساعة يتحلّقون حول موائدهم في هذا الشهر الفضيل!

ذلك ما جرّدك من آخر ما تكتسي به من أوراق، فلم تعد جديرًا إلا... بالرحيل.

دمشق الشام: ساعة الإفطار ١٧-٨-٢٠١٢

الذي وحّد القلوب..

لا يغيب عن البال أنّ تصرّفات النظام، ابتداءً من نزع الأظافر في الجنوب، إلى قصف تلك المدينة الوادعة في الشمال، مرورًا بكلّ ما يموج في البلاد شرقًا وغربًا، استطاع نظامنا -بتصرّفاته هذه البعيدة عن الحكمة- أن يوحّد القلوب، فإذا هي في جسد واحد، ثائرًا على كلّ ما يخالف سُنَن الحياة.

ولكنّ ما لم يستطع النظام فهمه، أنّ مَن يراهم حوله، من الأدنى إلى الأعلى، إنما يتحرّكون في صفوفه، وعيونهم ترنو إلى..... وقلوبهم أيضًا.

دمشق الشام: ١٨-٨-٢٠١٢

أليس منافيًا لقوانين الطبيعة...

أليس أمراً منافيًا لقوانين الطبيعة البشرية ما يتوقّعه النظامُ من رجاله أن يستجيبوا له في التنكيل بأهليهم المطالبين بالحرية، وملاحقتهم في النزوح واللجوء؟ فإنْ هم عصَوا وهمّوا بالفرار نفّذ فيه حكم الإعدام حسب قوانين الحروب؟!

دمشق الشام: ٢٠-٨-٢٠١٢

حقل تجارب!

مما لاحظت، وأنا نزيل «لوس أنجلوس» قبل أعوام، أنّ الناس حولي كانوا شديدي العناية بالقطط، يقتنونها في بيوتهم، ويعرّجون بالقطّ -الذي يفضّلونه صغيرا- على الطبيب البيطري، حيث يَنزِعون مخالبه بجراحة محكمة وقايةً لأثاث البيت، تليها عملية إخصاء تَسُلّ من القط فحولته حفاظًا على نظافة المكان يوم يبلغ القط عمرًا معيّنًا... فاستوحيت من ذلك قصة كتبتها وأنا في مغتربي الموقوت.

وأعترف بأنه ما كان لي أن أمضي في إنجاز هذا العمل القصصي لولا أني عزمت على «تَسْييسه»، بأن جعلت بطل القصة -الذي سمّيتُه «الباشا»- يقتني عديدا من القطط، تنام في مأوى خاص بها، وتتناول طعاما ذا نكهة، وترتشف الماء عذبًا من منهل فكأنها تستقي من رأس نبع!

ولفهم مغازي القصة يتعين القول بأني جعلت القطط تتكلم، متجاذبةً الحديث فيما بينها ساعات النهار ومتسامرة في الليل عندما تأوي إلى مهجعها، وإنها لكذلك تفهم «لغة البشر»، إلا أنّ الإنسان -مع الأسف- ما كان يسمع منها إلا المُواء!

وفي التسييس الذي حرصت عليه، جعلت الباشا واحدًا من «المتنفّذين» الجُدد، يتحكّم بالرقاب مثلما ينتهب الأموال. وهو يحيي في بيته السهرات الملاح، تلك التي تسلل إليها مرة القط الصغير «لاكي» (المحظوظ)... فكان أن سمع ما سمع!

والمشهد الذي أودّ اقتطافه من القصة (وقد سمّيتُها «عيون ملوّنة» لاختلاف لون العينين عند هذا القط، ونزلتْ في كتابي «تقول الحكاية»)، ينحصر فيما أتيح له أن يسترقه من حديثهم:

«كيف يسوس الحاكمُ الرعيّة؟ كيف يسوق القائدُ مرؤوسيه؟ كيف يصعد، يرتفع، يدوس الجماجم؟...»، ذلك ممّا لم يستوعبه القط الصغير، ولكن استرعى انتباهه، بعد ما أخذ الباشا يعدّد ما عنده من القطط، متباهيًا بمدى عنايته بها، من إرسالها إلى البيطري لنزع المخالب، وللإخصاء، ولحلاقة الوبر، أنّ أحدهم، ذاك الأعلى صوتا ذا الدالّة، قال مخاطبًا ربّ البيت: «كأننا نراك، يا باشا، تجعل من هذه القطط في بيتك "حقل تجارب"، تتمرّن بها على سَلّ قوة الرعية، وتطويعها،

وتدجينها؟».

وهنا تقول القصة: ويا له من ضحك صدَر عن الجميع صاخبًا معربدا، قبل أن يُسكتهم رفعُ الكؤوس إلى الشفاه! أجل، أيها الأصدقاء! أردت أن أنتقل بكم إلى دنيا الأدب، ففعلت، ولكن وجدتُني مثقَلاً بالسياسة!

دمشق الشام: ٢٢-٨-٢٠١٢

خنساوات.. بلا حدود!

بالأمس فَقَدت أمٌّ سورية أبناءها الستة، فعُرفت بين الناس بأنها «خنساء دير الزور».

واليوم نسمع، نقرأ، نشاهد «خنساء مدينة الحراك». لما دخلوا عليها بدأتهم بالقول: «السلام عليكم يا حماة الديار»، فكان الردّ أن ذبحوا أمام عينيها أبناءها الثلاثة (عصام ومحمد وأحمد)، ولا أزيد في الشرح والإعلام حتى لا أزيد في الوجع والإيلام.

يراها الناس اليوم تروي ما جرى لها، وإلى جوارها امرأتان، نراهنّ يَندُبن، يلطِمن، ويَشكين أمرهنّ إلى الله، وقد جفّ الدمع في المآقي.

في علمنا أنّ هناك «خنساء» قرأنا عنها في كتب التاريخ والأدب ونحن على مقاعد الدرس، وما كان يخطر في بالنا أن نرى في عمرنا خنساوات... بلا حدود!

دمشق الشام: ٢٣-٨-٢٠١٢

الأستاذ الأخضر الإبراهيمي

في الترحيب الفائق بصداقتك الغالية، يطيب لي أن أعبّر عن تفاؤلي بوساطتك في

مأساتنا السورية المعقدة، فأنت الديبلوماسي العريق، وأنت ابن الثورة الجزائرية التي عانت وعانيتَ فيها مذ كنتَ فتى يناضل شعبُك من أجل الحرية.

لي الشرف، سيدي. دمشق الشام: ٢٦-٨-٢٠١٢

ولو مرة واحدة!

يخطر لي، أحيانًا، أن أتساءل: نظامنا، ألا يخطر له مرة أن يُدير نظره نحو التاريخ؟

دمشق الشام: ٢٦-٨-٢٠١٢

درس بليغ في الكرامة واسترجاع الأرض!

قرأت أمس بجريدة يومية، أنّ النظام يرى في الأسير الذي تمّ تحريره من أبناء الجولان: «درسًا بليغًا حول سبُل استعادة الكرامة واسترجاع الأرض».

ولم تتأخّر ذاكرتي في استحضار الجولان العزيز مكبّلاً منذ أربعة عقود من عمر الزمان، منضافًا إليه المواطنون الذين يَقضُون يوميّا تحت سنابك النظام، قصفًا وذبحًا وإعداما، حتى تجاوز العدد غداة تحرير هذا الأسير الأربعمئة من المواطنين الأبرياء الأطهار.

ولم أقع إزاء ذلك في حيرة، فإني فيها منذ أربعين أو خمسين من السنين!

دمشق الشام: ٢٦-٨-٢٠١٢

عندما يفيض الحنان..

صرّح محافظٌ بأنّ الحكومة تعتزم أن توظّف فردا من كل أسرة ليتولّى الإعانة والرعاية. فأكبرت هذا الحنان يفيض في قلب النظام وإن جاء متأخراً نصف قرن.

ثم تساءلت عمّا إذا كان النظام يفكر في أولئك الذين يموتون، منذ عام ونصفِ العام، تحت القصف العشوائي في بيوتهم، وفي الأزقة الضيقة والحقول المفتوحة... فمن ذا الذي يُعيل غدًا ويرعى؟ أم أنهم مستحقون للموت، فلا وظيفة ولا تعويض، وليذهبوا إلى... العدم!

دمشق الشام: ٢٦-٨-٢٠١٢

هل نقولها: شكرا لك، أيها النظام؟!

فأنت استطعت، بظلمك الفاحش عبر سنين طويلة، أن توحّد قلوبنا، فأصررنا على نيل الحرية مهما كان الثمن!

دمشق الشام: ٢٦-٨-٢٠١٢

صباح الخير، أيها النظام!

تريد بقصفك أن «تطهّر» البلد منهم، وقد فاتك أنك أنت مَن زرعهم في جسد الأمة، فهم يصرّون على ألا يبرحوا إلا إلى الأفضل.

أكتب... ودويّ تفجيراتك يقرع سمعي في هذه الساعة من صباح دمشقي، فلا أنت تَكُفّ ولا أنا يدركني الخوف.

لقد عوّدتَنا فتعوّدنا.

دمشق الشام: ٢٧-٨-٢٠١٢

في زمن الديمقراطية

هل أقدّم لكم شاهدا على العمل بشروط الديمقراطية في بلد استطاع بالجهد أن يتحرّر إبّان الربيع العربي؟

منذ قريب، وقعت «حوادث مسلحة» راح ضحيّتَها أفراد، فارتفعت -في ظلّ الديمقراطية الوليدة- أصواتٌ تُسائل الوزيرين الأمنيين عن ذلك، وقد اضطرّ وزير الداخلية إلى تقديم الاستقالة للظنّ بأنه «تراخى في حفظ الأمن».

وقبل ذلك، في تسعينيات القرن الماضي، تراءى لأمنيّ كبير في هذا البلد عينه، أن يُصَفّي ألفًا وأكثر من المعتقلين السياسيين، في ساحة سجن، في ساعة نزق، وأنجز ما تراءى له. وربما مشى بعد ذلك مختالًا لا يَرِفّ له جفن!

دمشق الشام: ٢٧-٨-٢٠١٢

في سماء دمشق

إنّ من حقّ المواطن أن يسأل: هؤلاء الطيارون الأربعة، برتبهم التي نالوها بالخبرة على مرّ السنين، الذين تحطّمت بهم ضحى اليوم مروحيّةٌ كانوا يقودونها، لعطل فني أو لإسقاطها بفعل فاعل...

السؤال: لمصلحة من بذلوا أرواحهم الغالية، التي ظلّ الوطن يرعاها ويدّخرها، للدفاع عن الحدود ضد العدو، وليس لتتحطّم في سماء عاصمة الأمويين؟

دمشق الشام: ٢٧-٨-٢٠١٢

في سماء دمشق... ١٩٧٣ و٢٠١٢

في حرب ١٩٧٣، كنا نخرج لنتفرّج على الطائرة الإسرائيلية ومضاداتنا الأرضية تسقطها بما ملكنا من صواريخ «سام ٧»، فنرى رأي العين القذيفة تلاحق الطائرة المعادية، ثم نرى الطيار ينقذف بمظلة، وتهوي طائرته محترقة... ونصفّق في شوارع دمشق مبتهجين.

واليوم، أي شعور ينتابنا ونحن نرى طائرتنا تحلّق في سماء الوطن، تقذف، ثم تسقط محترقة وهي تضمّ أبناءنا الضباط!

ماذا تفعل بنا، أيها النظام؟

إنك تجرح العواطف، تغيّر المواقف، تمزّقنا، تدمّرنا.

لن يغفر التاريخ لك هذا. دمشق الشام: ٢٨-٨-٢٠١٢

صورٌ.. تهزّ ضمير العالم

هل تذكرون الفيديو الذي يُظهر الطفلَ محمد الدرّة، وهو في مجال الرَّمي الإسرائيلي، وكيف هزّ ضمير العالم؟

وهل تذكرون الأب في قانا، عقب القصف الإسرائيلي، وهو يجري هائمًا وعلى ذراعيه جثة ابنته، تلك الصورة التي نال المصور عليها جائزة عالمية؟

أصبحنا نمتلك، اليوم، من هذه الصور، قدرًا هائلاً، جديرًا بأن يهزّ ضمير العالم لكل الأجيال القادمة (إن كان للعالم ضمير). والفارق أنّ الفاعل ليس عدونا التقليدي.

دمشق الشام: ٢٨-٨-٢٠١٢

بعد عام من الثورة... كتبتُ ونشرت:

«أنتم مسؤولون عمّا لم تقولوه حين كان القول منكم مطلوبًا»

وليس لهذه الكلمة أن توجّه إلى سميرة المسالمة أبدًا.

دمشق الشام: ٣٠-٨-٢٠١٢

ألم ترتوِ، أيها النظام!

منذ عشرة أيام، عشرين، ثلاثين... خمسين، وأنت تكثّف القصف والقتل، ودويّ التفجيرات يتوالى إلى سمعي، من جنوب وشمال وشرق، ومن قمة الجبل ورائي المطل على العاصمة!

أشاهِدُ أطفالًا يُسحَبون من تحت الأنقاض مسبَلي الأذرع مسترخي الأعناق. وأرى الناس هائمين في الحقول، يفترشون الأرض تحت أشجار الزيتون ويلتحفون السماء.

ألم ترتوِ، أيها النظام، من دماء شعبك المطالب بالحرية؟ أتراك تستمتع بجرّ الرجال من بيوتهم، وتقييد أيديهم إلى الخلف، وسَوقِهم إلى ساحات الإعدام الميداني!

أصبحت أرض الوطن في كلّ مكان مجبولة بدماء الأبرياء... وكلماتي، هذه التي أكتبها تحت وقع قصفك، باتت مضمّخة برائحة الموت!

أسألك، أيها النظام: ما الفكر الذي تحمل في رأسك؟ ما القلب الذي تُواري خلف ضلوعك؟

وأيضًا، ماذا تفعل، أيها النظام الذي يسمّى «وطنيًّا»، بنا نحن من نسمّى «المواطنين»؟!

دمشق الشام: ٣١-٨-٢٠١٢

يوم نَشِبت آخر المعارك

يوم نَشِبت آخر المعارك، هناك في مدينة «سَرْتْ»، وأسفرت عن دمار المباني وامتلاء الشوارع بالأنقاض، تملّكنا الإشفاق حتى فاضت العيون بالدموع.

واليوم نجد، في كل بقعة من وطننا، «سرت» أخرى، ولكنّ دمار الحجر هنا يرافقه دمار البشر: بيوت تُطبِق على رؤوس ساكنيها، ملاجئ لم توفّرها القذائف، وأولئك الذين يساقون إلى ساحات الإعدام الميداني.

وكان من شأن الإشفاق أن استنزف الدموع حتى جفّت المآقي.

دمشق الشام: ٣١-٨-٢٠١٢

التفكير بطريقة أخرى

أما يَلفِت نظرَك، أيها النظام، أنك كلما أفرطتَ في استخدام القوة، من قصف من الأرض والجو، وإعدامات، وتهجير وتشريد وتجويع، زاد الناس إيمانًا بموقفهم وصمودًا أمام جبروتك؟

أما تفكر بطريقة أخرى توفّر فيها على المواطنين ما يعانون؟

دمشق الشام: ١-٩-٢٠١٢

فقط.. لو يدري النظام!

إحدى الحرائر في سورية، التي تتولّى تحفيظ القرآن الكريم للأطفال هذه الأيام، تحدّثت فقالت:

بين الأطفال الذين أحفّظهم القرآن طفلةٌ عمرها تسع سنوات، كنت كلما طلبت منها حفظ سورة من «جزء عمّ» حفظت أكثر منها، ويوم أثنيت عليها وقلت لها: بارك الله بك، فوجئت بردّها الذي أبكاني: «والله، يا آنسة، لازم أخلّص الجزء بسرعة، الواحد ما بيعرف ايمتى بيستشهد»!

هذا ما نسمّيه «ثقافة الاستشهاد»، التي يزرعها النظام في النفوس ويُنمّيها وهو

لا يدري. ولو درى لأدرك أنّ شعبًا بلَغَ هذه الدرجة من سموّ الإيمان، لا يمكن قهره أو زحزحته عمّا يؤمن به.

فقط لو يدري النظام. دمشق الشام: ١-٩-٢٠١٢

وتقصف الطائرات لندن

في بداية الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩)، كنا نتجمّع في بيتنا بـ«زقاق الزهراوي» بحلب، حول المَنْقَل الذي يتوسط الغرفة، لنستمع إلى «الراديو»، فيُخبرنا المذيع العربي (العراقي) يونس بحري، من إذاعة برلين، قارعًا جِسمًا نحاسيًّا صلبا بعد كل خبر، بأنّ الطائرات الألمانية، بعد أن أغارت على عاصمة العدو لندن، قد «عادت إلى قواعدها سالمة».

وما كان ليخطر في بالي، وأنا في العاشرة من عمري، أني -بعد أن أتجاوز الثمانين- سوف يُقدَّر لي أن أرى رأي العين على شاشة التلفاز، طائراتنا السورية، التي دفعنا ثمنها من دم القلب، تُقلع من كلّ مكان في أرض الوطن، لا لتقصف العدو الغاصب، بل لتلاحق المواطنين في بيوتهم التي إليها يأوون، والملاجئ حيث يختبئون، والحقول التي فيها يزرعون ويعملون...

ولا تخبرنا المذيعة الحسناء، المخضَّبةُ الشعر بالأشقر اللماع، وليس في يدها ما تقرع به جسمًا نحاسيًّا صلبًا أو غير صُلب، أنّ الطائرات عادت إلى قواعدها سالمة، لأنّ مَن أعدّوا لها النشرة ربما يخجلون مما يفعلون، فيدّعون أنّ القصف كان من فعل عصابات مسلحة، دون أن يشيروا إلى عزمهم على ملاحقتها!

دمشق الشام: ١-٩-٢٠١٢

ليس زواج شفقة

تثور اليوم، في شبكة التواصل الاجتماعي وفي الإعلام أيضا، ضجّةٌ حول ما يُعرب عنه بعض الرجال العرب من الرغبة في الزواج من بنات سوريات، ممن تقطّعت السُّبل بهنّ وبأهليهنّ في هذه الأيام العصيبة. وقد وصل التنديد بذلك حدّ أن أثار النخوات ضد هذه النزوات، وقد شاركت فيه أقلامٌ عربية ينتمي إليها أصحاب تلك الرغبات أنفسهم.

وإني أرى في مثل هذا الزواج، الذي ينطلق من العطف على المرأة وهي في حالة انكسار، نوعًا من «زواج الشفقة»، الذي هو أهون زواج وأسرعه إلى العطب، لأنه ينتفي فيه شرطُ أن تكون الفتاة تعيش بين أهلها في ظرفٍ مُوات، حيث يدخل الشاب طالبًا اليد -بعد تعارف أو دونه- ثم... يصحب عروسه، معزّزة مكرّمة، بأن يُردِفها خلفه على جواد كما يفعل فارس الأحلام!

ثمّ اسمحوا لي أن أذكّر بأنّ مثل هذه «الرغبات» كان قد «تلمّظ» بها بعضهم، أواسط تسعينيات القرن الماضي، حين اندلعت الحرب في البوسنة، ورأى «الراغبون» البوسنويات الرافلات بالحسن غارقات في الحزن. وما أظنّ أنّ هذا الزواج كُتب له النجاح إلا في الحالات التي استقرّ الزوج هناك مشاركًا أهلها النضال.

دمشق الشام: ٣-٩-٢٠١٢

أمجاد بني أميّة

كلما تلقّينا القهر المقرون بالموت، ازددنا حبًّا لدمشق وبلاد الشام، وارتفعت أصواتنا تتغنّى بأمجاد بني أميّة، الذين كان همّهم أن يُعدّوا الجيوش، ويفتحوا الأمصار، وينشروا الحضارة.

دمشق الشام: ٣-٩-٢٠١٢

طفا التسامح

طفا التسامح النبيل في كلماتك الشجية، يا أنس الهنداوي، حتى كاد ينسيني الألم، لولا أن علمت أنهم اليوم ألقوا على حيّ بحلب قذيفة مستحدثة، برميلاً فيه ما فيه، فهدم بنايتين في لحظة، وقضى على اثنين وثلاثين طفلا هم الذين كانوا، والبحث جار عن البقية!

ومع ذلك سوف نسامح.

دمشق الشام: ٣-٩-٢٠١٢

صور التعذيب

وإنّ المواطن ليتساءل، وهو يشاهد ما تبثّه الفضائيات من صور التعذيب يجري في غياهب الأقبية المظلمة الظالمة، عمّا إذا كان النظام يسمح بذلك قصد التخويف والترهيب؟ أم أنّ الخفافيش يسرقون ذلك من وراء الظهور؟

فإن كانت الأولى، فإنّ بثّ هذه الصور من شأنه أن يزيد في التصميم على الخلاص! وإن كانت الثانية فبئست الدريهمات الخسيسة يتقاضاها جبناء في المتاجرة بدماء المواطنين وبيع تعذيبهم للإعلام! دمشق الشام: ٣-٩-٢٠١٢

دخول التاريخ من أبوابه

لأنّ الإعلامية سميرة المسالمة قالت يومًا «كلمة حقّ»، أزعجوها، ودفعوها – دون أن يدروا– إلى أن تدخل تاريخ سورية الحديث من أجمل أبوابه: المنافحين عن

الحرية!

وهم، أيضًا، دخلوا التاريخ!

دمشق الشام: ٥-٩-٢٠١٢

ليست النخاسة من طبع العربي

كان المرابون اليهود في الأندلس قديما يرافقون جيوش المتحاربين من الطرفين، الأندلسيين والإسبان، وعند انجلاء غبار المعركة يتولّون شراء الأسرى والسبايا.

لا نريد لشباب الخليج أن يغتنموا الفرص الآنية ويمارسوا نوعًا من الابتزاز الممجوج: أولئك كانوا يستغلون بدافع المتاجرة، وهؤلاء اليوم تَحْدوهم الشهوةُ الطارئة، وهي في الحالتين نخاسة مرفوضة.

ونحن إذ ندرك أنها حالات محدودة، نذكُر بالخير كرم النشامى منهم الذين يتبرعون بالمال قصد تحسين وضع المخيم الذي ضاق باللاجئين وتعذّر تأهيله إلى المستوى المطلوب.

للكرماء احترامُنا، وللشباب نصحُنا بأن يعودوا إلى أصالتهم العربية، فيروا في اللاجئات السوريات شقيقاتٍ لهم وبناتًا يستحقِقْنَ العون لا أي شيء آخر. دمشق الشام: ٦-٩-٢٠١٢

أهملوا.. هؤلاء العابثين!

إلى الأصدقاء الأعزاء في شبكة التواصل الاجتماعي في كل مكان.

أشير إلى ظهور فئة من الناس تقوم بفبركة أخبار وطرح مسائل لا معنى لها، قصد إشغال الناس عن الحقيقي والثمين.

أنصح بتجنّب المشاركة في هذه الموضوعات حفظا للوقت.

وإليكم هذا النموذج: (الأخبار الواردة من حلب: حالة قرف شديدة بين صفوف الحلبيين من المسلحين الوهابيين الذين لا يتوانون عن القتل والسلب وتدمير كل شيء في طريقهم).

أهملوهم، اهجروهم، «طنّشوهم»[1]، هؤلاء العابثين!

دمشق الشام: ٦-٩-٢٠١٢

هل الغرب منافق؟

يوم لاح، في منتصف تسعينيات القرن الماضي، شبح انهيار الاتحاد اليوغسلافي، عمدت حكومة بلغراد إلى توجيه إحدى قطعها الحربية البحرية إلى سواحل إقليم «كرواتيا» المطالب بالانفصال عن جسد هذا الاتحاد. واتفق أن كانت هناك روابطُ ما، تاريخيةٌ، بين هذا الإقليم المحظوظ وبين دولة ألمانيا (المتوحّدة حديثا)، جعلت برلين تضع ثقلها لوقف «العدوان»... وما أسرع ما أصبحت كرواتيا دولة مستقلة دون سفك دماء!

وأما عندما بدأ الصرب في ذبح مسلمي البوسنة والهرسك، المطالبين بالانفصال أيضًا، فقد كان من سوء حظّهم أن لم تكن ثمة روابط تاريخية ما بينهم وبين أيّ من الدول الأوروبية، بل كانت، على العكس من ذلك، في الخواطر ذكرياتٌ غير مريحة، عن القائد «محمد الفاتح»، الذي تأتى له أن يقرع أبواب «فيينا» فيما سلف من عمر الزمان (مثلما فعل «الغافقي» حين قرع أبواب «بواتييه»)... ذلك ما جعل الغرب

---

(١) لا تُعيروهم اهتماما

يدع هؤلاء المسلمين لمصير قاس، طوال مدة كان فيها الذبح والجزر والسلخ، ومنها مأساة «سربرينتسا»... وبعد ذلك جاء الغرب، جاء العالم المتحضر، يتهادى متدخّلاً.

تُرى، ألا يغفر لشعبٍ سورية، عند الغرب، أنّ وطنه كان مهدًا للحضارات، وأنّ أول أبجدية في التاريخ ظهرت في «أوغاريته». الشامخة في إطلالتها على المتوسط، فيكفّ «الدبّ الروسي» عن رفع يد الرفض، ويجاريه «تنّين» الشرق الأقصى، ويضع العالم بذلك حدا لمأساة شعب أمام الأنظار يُباد!

ويَظهر الغربُ لنا وكأنه خلع مُسُوح النفاق!

دمشق الشام: ٨-٩-٢٠١٢

لايكات مضيّعة!

أصدقاء لي ومعارف في عمر أبنائي وأحفادي، إن التقيتُ أحدهم عابرًا بادر يحدّثني -وهو يتلفّت حواليه- عن إدمانه على الدخول إلى صفحتي، وعن منتهى إعجابه بخواطري وتعليقاتي.

ولم يخطر لي مرة واحدة أن أسأل أحدا من هؤلاء الأصدقاء عن سبب افتقادي لايكات الإعجاب منهم، لأني أعرف أنهم... موظفون في الدولة!

دمشق الشام: ٨-٩-٢٠١٢

حرب السفر بَرْلِك

في أربعينيات القرن الماضي، كان لي رفيق في «ثانوية المأمون بحلب» (التجهيز الأولى)، يحدّثني عن خالٍ له، كان قد سُحب إلى حرب «السفر برلك» (عام ١٩١٥) ثم لم تكتحل عينٌ بمرآه أبدًا، وأمه ما تزال تتحدّث عن أخيها بعد انقضاء ثلاثين سنة

على غيابه وحزنها عليه ما كان له أن ينقضي.

واليوم... أيّ أحزان ترعَف بها قلوبُ الناس، وهم يخوضون، في عقر دارهم، حربًا هي أشبه بحمامات دم، فيها يغتسلون، صباح مساء، في المنازل والشوارع والحقول؟

تُرى إلى أيّ سنة، إلى أيّ زمن، تظلّ هذه المعاناة حاضرةً في النفوس، ماثلةً في الخواطر، تُروَى غدًا وبعد غد للأبناء والأحفاد ولكل الذراري الآتية؟

تلك حرب كان يُقطَع البرّ سفرًا إليها، لذا سُمِّيت «السفر برلك»... وحرب اليوم هل نسمّيها «..... برلك»؟ دمشق الشام: ٨-٩-٢٠١٢

على باب المدرسة

عندما قالت الأمّ لأطفالها: «غدًا تفتح المدرسة أبوابها»، رقصوا من الفرح. ولما ذهبوا صباح اليوم التالي، قرؤوا على باب المدرسة: «مغلقة بسبب القصف»، فعادوا إلى البيت يبكون.

دمشق الشام: ٩-٩-٢٠١٢

الآمنون في بيوتهم

قد يتمادى عدوّ فيقصف أعداءه الآمنين في بيوتهم، وقد يكرّر قصفهم حيثما ارتحلوا وحلّوا في أرض وطنهم، ثمّ يجدّد قصفهم وهم يحاولون اجتياز الحدود إلى دول مجاورة نجاة بأرواحهم. ذلك ما يفعله عدوّ بعدوه.

ولكنْ أن يقترف «نظام» مثل هذا في حقّ شعبه، فذلك ما لم يسجّله التاريخ في أي حقبة من حقبه الحالكة السواد!

دمشق الشام: ١٠-٩-٢٠١٢

فوق الأنقاض

تُقصف بيوتهم، فيموتوا تحت الأنقاض. وفوقها... يذهب الأطفال ليتعلّموا: مقاعدهم الحجارة، وكتابهم ذاكرةٌ تستوعب ما يتلقّون من العلم، وما تلتقط أعينُهم من مشاهد الحياة.

ذلك ما رأيناه في دير الزور الأبيّة، أمس.

أيها الشعب الذي إليه أنتمي! اسمح لي أن أتخلّى عن التواضع لحظة، لأقول لك: ما أعظمك!

أحيانا... أحيانا أصدقائي، وأنا أكتب، يغلبني الدمعُ فيمتزج بالمداد... ولكنّ الكلمات تبقى ناصعة.

دمشق الشام: ١٠-٩-٢٠١٢

وثيقة وفاة

عندما يهدم النظامُ السقفَ الذي أظلّني طفلاً، ويدمّر البيتَ الذي ترعرعت فيه، والزقاقَ، والشارع، والحيّ بأكمله، ويُسقِط براميل ملأى بالحقد والانتقام على المدن والقرى والحقول، أماكن لها في ذاكرة الناس مليون مليون قصةِ حبّ وحكايةِ وجع، فإنه يكون قد وقّع وثيقة وفاته قبل أن يتسنّى له أن يدفن مشاعر شعب تتأبّى على الفناء.

دمشق الشام: ١٠-٩-٢٠١٢

.. وكفّ الفستق الحلبي عن الغناء!

اعتاد الحلبيون أن يَخرجوا، في المواسم الصيفية، إلى كروم الفستق، يستمعون إلى «أصوات» الفستقات لحظة تنشقّ فيها الفلقتان العظميتان، في ضوء القمر، محدثةً «طقطقة» صغيرة، تنبعث من هذه الشجرة وتلك، ويحلو لهم أن يسمّوا ذلك «غناء»، وتلك فرصة يغتنمها أصحاب الكروم فيدعون إليها الأصدقاء في الليالي القمراء.

ولقد امتنع عليهم هذا الصيف -وربما في الأصياف القادمة- أن يستمتعوا بهذا الغناء، بعد أن بلغ القصف كروم الفستق شرقيّ المدينة، مثلما طالت الجرّافاتُ في العاصمة بساتين تين الصبّار، تلك الفاكهة الشوكية، التي يَنصِب لها باعتُها المظلات، على أرصفة «أبو رمّانة»، ليقدّموا لبّها مبرّدًا إلى زبائنهم، ليلاً تحت الأضواء المتلألئة.

أجل... كل شيء يتغيّر.

دمشق الشام: ١١-٩-٢٠١٢

فلول.. أم رعاع؟

يتساءل المرء عن أولئك الذين قاموا، أمس، بإضرام النيران في القنصلية الأمريكية بطرابلس الغرب، فمات السفير وبعض من معه: هل هم فُلُول النظام الذي قضت عليه أنسام الربيع، أو رياحُه العاتية؟ أم أنهم رَعاعٌ لا ينتمون إلى غير الفوضى التي ترعرعوا فيها واقتاتوا من غثائها!

فإن كانوا الفُلُول، فإنهم أولئك الذين ما آن لهم أن يصدّقوا أنهم غدوا في عداد الغرقى بعد أن كانت مراكبهم تتهادى على سطح بلا موج. والمسؤولية في ذلك تقع على ذلك «القطب» الذي دأب، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، على صنع المراكب

واصطناع الراكبين، أمانا له وتحقيقا لمصالحه، إلى أن يتمرّد القبطان وينقلب عليه.

فإن كان الرَّعاع هم من فعلوا، فإنها لكذلك مسؤولية القطب الكبير ذاك، الذي -بصُنعه واصطناعه- لم يدَع الشعب يحكم نفسه بنفسه، مبتدئا مهمة التربية السياسية كما التربية الاجتماعية والأخلاقية.

وها هم أولاء، الفُلول أو الرَّعاع، ينتهزون الفرصة وكلَّ فرصة آتية، ليُلحِقوا الضرر، ليس بمن ماتوا اختناقا بدخان النيران المحبوسة، ولكن قبل ذلك بأصحاب الربيع، الذين قصلوا الرأس وبقي عليهم أن يتعرّفوا على أدران الفساد فيستأصلوها، فسادٌ كان قد نبت كما الخضراء في رُكام الدِّمَن.

دمشق الشام: ١٢-٩-٢٠١٢

شيء عادي جدًّا!

في وَضَح النهار، وهم يتوجّهون إلى مقاصدهم اليومية، تقع أعينُهم على جثة مرميّة على قارعة الطريق هنا، قد قنصها «شجاعٌ» من فوق سطح بناية، وعلى جهة أخرى أصابتها شظية من «برميل قذائف» ألقي هناك... ويتابعون سيرهم وكأنهم لم يروا!

يا لهول ما ترى العيون، وما يبقى في الذاكرة!

دمشق الشام: ١٣-٩-٢٠١٢

الذهاب بعيدًا

عندما يعرف المرء أنّ نظاما لا يتحرّك أيُّ «مسؤول» فيه إلا وهو مرافَق من قبل مَن أُوكِل إليهم أمرُه، في ذهاب وإياب، يُحصون عليه الأنفاس، حتى إنهم يلطؤون

وراء أبواب المخادع، مخافة أن يذهب بنفسه بعيدًا عنهم، فإنه يدرك تماما أنّ هذا النظام آيلٌ للسقوط.

دمشق الشام: ١٣-٩-٢٠١٢

سوء تفاهم.. أم سوء فهم؟

كتبت في صفحتي قبل يومين خاطرة «فُلُول.. أم رَعاع!» عن أولئك الذين هاجموا القنصلية الأمريكية في بنغازي. ومما جاء فيها عن الفاعلين الذين أحرقوا المكان، أنهم إن كانوا الفلول، «فإنّ المسؤولية في ذلك تقع على ذلك «القطب» الذي دأب، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، على صنع المراكب واصطناع الراكبين، أمانًا له وتحقيقا لمصالحه...»، وجليٌّ أنّ المقصود بـ«القطب» هنا هو الولايات المتحدة الأمريكية.

ثم كان من بين التعليقات عندي مَن سجل تعليقين اثنين: أولهما عشر إشارات استفهام؟ والثاني عشر إشارات تعجّب! وأعترف بأني عجزت عن الفهم. إلى أن قرأت في إحدى الصفحات ما كتبه المعلق نفسه، يقول وهو يعنيني: «آلمني أنّ هذا الرجل الكبير (زعلان) لمصرع السفير الأمريكي في ليبيا.. لا أفقده الله عزيزًا» (الخميس ١٣-٩).

أسأل: كيف يفهم مثقف مثله بأني زعلان على مصرع السفير الأمريكي (وطبعا تؤسفني ردات الفعل المتهورة التي نشاهد)، ولا يلاحظ أني أتهم أمريكا بأنها هي التي صنعت الانقلابات وصنّعت الانقلابيين منذ منتصف القرن الماضي؟

هل هو سوء تفاهم... أم سوء فهم؟

دمشق الشام: ١٤-٩-٢٠١٢

لنجعل احتجاجنا.. حضاريًّا

إنّ شخصية الرسول العربي الكريم، وإنّ الرسالة المنزّلة، وإنّ المنجزات التي حققتها الأجيال اللاحقة، هي أمور حقيقية وراسخة في نفوس المسلمين على مرّ العصور. ولنقل أيضًا: إنّ اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم، هي أكثر اللغات في التاريخ احتفاءً من قِبل أبنائها، وليس هناك من لغة تضاهيها بمثل هذا الاهتمام.

وإنّ الفتوحات، التي أنجزها المسلمون -ولا أقول العرب وحدهم- في مشرق من الأرض ومغرب، بها عمّ الإسلام، وانتشرت اللغة العربية، التي إن لم تكن محكيّة فهي في الأقطار الإسلامية مقدّسة يقرؤون بحروفها القرآن الكريم. هذا إلى أنه ليس من قُطر فُتح إلا ظلّ فيه الإسلام سائدًا، وما شذّ عن ذلك سوى الأندلس. وهناك أقطارٌ شاسعة أخرى امتدّ إليها الإسلام دون فتح، أعني أواسط إفريقية والشرق الأقصى.

أقول: إنّ هذا الثبات والرسوخ في الإسلام لا تَضيرهما، مثقالَ ذرة، روايةٌ ألفها مرتدّ في إنكلترا، أو رسوم عملها إعلاميّ في بلجيكا، أو شريط سينمائي أنتجه نفر مغرضون في هولندا. وردًّا على ذلك بِحسْبنا أن نرفع أصواتنا معترضين هنا وهناك، لا خوفاً على الإسلام فهو راسخ، بل احتجاجاً نتوخى أن يجيء حضاريًا.

وأروع مثال على ذلك ما قامت به، أمسِ في لندن، جماعة إسلامية من توزيع مئة ألف نسخة من القرآن وسيرة الرسول، باللغة الإنكليزية مجانًا على غير المسلمين، فإنّ من يتلقّون الكتاب سوف يعرفون، والمعرفة تنفي الجهالة كليًّا أو جزئيًّا، فهل آن لنا أن نجعل احتجاجاتنا حضارية؟

دمشق الشام: ١٥-٩-٢٠١٢

النزوح..

ننام على قذائف تتساقط فوق رؤوسنا، وفي الصباح يخطفوننا من أحلامنا. ونتابع النزوح في كلّ اتجاه. يريدون أن يعوّدونا. قد تعوّدنا ننزح، ولا نتزحزح

دمشق الشام: ١٥-٩-٢٠١٢

أموت هنا...

ذات عام، زارني في بيتي معيدٌ بكليةٍ للآداب بإحدى الجامعات الجزائرية، التي جرت على أن تمنح المعيد مهمّة سفر مدة شهر يقضيه في إحدى الدول العربية، وهو اختار دمشق لأنه يحبّها... ومن لا يحبُّ بلاد الشام... خبّروني؟

في حديقة بيتي استروح المعيد (الذي غدا فيما بعد أستاذا مرموقا) عبيرا حملتْه إلينا أنسام الصيف العليلة. سألَ، فقلت: إنه عبير زهر يسمّونه عندنا «كولونيا». فقال: وعندنا نسمّيه «عطر الليل»... فأعجبني الاسم.

رغم القصف، الذي يقرع أسماعنا في أيامنا الظلماء ونتلقّى قهقهاته البليدة، فإني ما زلت أستروح عطر الليل، وأصغي إلى ثرثرة النافورة، تتساقط منها قطرات الماء، أراها فقاعات صغيرة ما تلبث أن تنداح على سطح البِركة.

ابنتي، المقيمة في أمريكا منذ عقود، ما زالت تناديني للذهاب إليها، نجاةً بنفسي من قصف الليل والنهار. أقول لها: لن أغادر، من أجلك يا عطر الليل، ويا أيتها الكؤوس العِذاب أقطفها من تحت مطر النافورة. أموت تحت الأنقاض ولا أغادرك يا وطني!

أيها النظام!

ماذا تفعل ببلاد الشام التي يحبّها كلّ العرب؟

أأنت على يقين من أنك لن تعَضّ بنان الندم، ولن ترزح تحت عذاب الضمير، وذلك إن لم تقع تحت المساءلة العادلة؟

دمشق الشام: ١٥-٩-٢٠١٢

بيوت.. جدرانها من قماش!

من يأتِ حلب، اليوم، قادمًا إليها من جهتها الغربية، يرَ على طرفَي الطريق بيوتًا مرتجَلة، لا هي من طين ولا خشب ولا بلاستيك، ولكنّ مادّتها مُلاءاتٌ جعلوا منها حدودا فاصلة بين البيت والبيت، وقد غرسوا أعمدة في التربة المسوّاة، شدّوا ما بينها حبالا، علّقوا عليها هذه الملاءات التي انتزعوها من الأسرّة التي كانوا ينامون فيها... فأمسى لكلّ أُسرة في هذا العراء «بيت»! ويا له من بيت يأوي إليه ساكنوه، في شهر أيلول المبلول آخره، والخريف يتهادى.

أيها النظام! ماذا تفعل بشعبك، وعيونُ العالم تنظر؟

دمشق الشام: ١٦-٩-٢٠١٢

زمان التعايش..

في «زمان الأمان»، كنا -مثل كلّ البشر- إذا سمعنا صوت انفجار نهرول لنتوارى في أقرب باب أو نحتمي بجدار.

اليوم، فيما أسمّيه «زمان التعايش»، أصبحنا إذا رأينا القذائف تنهال علينا من الراجمات أو تتساقط من الطائرات، نقف ثابتي الجنان، نرفع أعيننا لنرى ما إذا كان

هناك قذيفة ثانية قادمة فنعمل على تحاشيها!

تصرّفات النظام العاتية تقوّي القلوب، وتُعلّم التعايش.

دمشق الشام: ١٦-٩-٢٠١٢

هل أنا.. برجوازي؟

في صيف ١٩٦٦ قُدّر لي أن أنتقل بوظيفتي الحكومية من حلب إلى دمشق، واستأجرت البيت الذي ما أزال أَشْغله (أرضيّ، تتقدّمه حديقةٌ ذات شجر وبركة ماء). اتفق لي أن صَحِبتُ يومًا إلى بيتي أحدَ المعارف الجدد، وكان كاتبًا يعتنق الماركسية ويعمل في صحافة البلد. وأذكر أنّا لما اجتزنا الحديقة ودخلنا الصالة، ووقعت عيناه على لوحات عندي للفنان «لؤي كيالي» (شقيق زوجتي، ومن ثَمّ الخال لابنتيّ التشكيليتين سهير وخلود) معلقةً على الجدار، رأيته كمن يأخذ نَفَسًا عميقًا، ثم يقول: «أشمّ رائحةَ برجوازية!»، وتلك كانت من العبارات التي يتداولها الثاقفون بين جِد ومزاح.

أمس الأول نشرتُ على حائطي خاطرة «أموت هنا..»، وفيها أشرت إلى بيتي هذا -الذي ما أزال أسكنه وحيدًا بعد أن شبّ الأبناء وتفرّقوا- وأتيت على ذكر الحديقة، والبركة، والنافورة، وعطر الليل.

في اليوم التالي هتفت إليّ سيدة من العارفين بشؤون الحياة، ولفتت نظري إلى أنّ بعض المتصفحين سوف يرون فيّ برجوازيًّا، وأنّ هذا البيت لا بد أن يكون داخل أملاكه!

وتوضيحًا للأمر أقول: إنّ البيت ما زال مستأجَرا، وقد كانت الأجرة الشهرية

يوم حللت فيه تلتهم خمسَي راتبي الشهري، إلى أن أسعفتنا الدولة -وكان الحكام يجهرون بالاشتراكية- فأصدروا في العام ١٩٧٠ القانون المشهور، الذي خفّض أجور المساكن ٢٥٪ وحال كذلك دون أن يلجأ المالك إلى القضاء في الدعوى التي يسمّونها «التخمين». ثم كان أن ارتفعت في الأعوام التالية الأسعار، واستحكم الغلاء، فلحق مالكي البيوت من الغُبْن قدْرَ ما حظي به المستأجرون من الغُنْم. وذلك إلى أن اغتنى الحكام، فانحازوا إلى الأغنياء، وأصدروا في العام ٢٠٠١ قانونًا يمكّن من التخمين. وإذا الأجور الجديدة تلتهم معاشي التقاعديّ، ولا تبقي لي منه شيئًا.

لذا لزم التنويه!

دمشق الشام: ١٧-٩-٢٠١٢

في إعادة بناء الديمقراطية...

إنه لمن السهل جدا تحويل نظام ديمقراطي في بلد ما، إلى نظام يحكمه فرد، ولكن ليس سهلا أن يتحوّل نظام استبدادي إلى ديمقراطي بفعل ربيع أتى!

ففي الأول يكفي أن يدوس بُسْطارُ العسكر مؤسسات المجتمع المدني فيلغيَها، وأن يرفع قبضةً من الشعارات البرّاقة يخلب بها الأبصار! وأما في الثانية فإنّ التحويل يحتاج إلى وقت تُشيَّد فيه المؤسسات الديمقراطية، ابتداءً من رياض الأطفال التي أفسدوها، وصولا إلى عالم الكبار، أولئك الذين سكن الخوف جوانحهم حتى أصبح بعضهم يخشى غياب ظلّ الديكتاتور. فمن ذا الذي يحمي الديار؟!

دمشق الشام: ١٨-٩-٢٠١٢

فرحة إسرائيل

لو نتصور الفرح الذي يعتري إسرائيل اليوم:

فإنّ ما يجري في الساحة السورية -البلد المقاوم منذ ١٩٤٨- يُدمّرها جيشًا وشعبًا وبُنًى تحتية، زد على ذلك أنه يوشك أن يُغيّب عن أذهان العرب قضيتهم الأولى.

دمشق الشام: ١٩-٩-٢٠١٢

تطييب الخواطر.. في ذلك الزمان!

بعد جلاء المستعمر عن بلادنا عام ١٩٤٦، أخذ، في يوم من الأيام، بيّاعٌ في «سوق الهال» بدمشق طفله الراسب في الصف الرابع الابتدائي، ودخل به على الرئيس في «القصر الجمهوري»، ذاك الذي ما زال يُطلّ على «سكّة المهاجرين»، وقال له معاتبا: «هل يرضيك، يا شكري بك، أن يسقط ابني في الجغرافية التي يُعلمون فيها أولادنا أنّ الأرض تدور!».

يومها قدّم الرئيس شكري القوتلي لضيفه القهوة المرة، وطيّب خاطره، وجرى توديعه حتى الباب.

ترى... كم يتعيّن، اليوم، على نوّاب الرئيس أن يستقبلوا من الآباء ويطيّبوا من الخواطر، لأولئك الذين قَصفت الطائرات أطفالهم، أو فاجأهم الشبّيحة في عتمات الليالي؟!

دمشق الشام: ١٩-٩-٢٠١٢

أما يكفّون عن ازدراء معتقدات الآخرين!

مع أخذهم بالحرية، فإنهم يصرّون على تجاهل أنّ حدودها تنتهي عند حدود الآخرين.

لم يعمل الغرب حتى اليوم على إصدار تشريع -وليكن دوليًّا- بأنّ ازدراء الأديان الأخرى أمر معيب، ويشكّل جريمة هي بحجم الجناية. ولكنهم فهموا أنّ إنكار «الهولوكست» -المزعومة أو المبالغ بها- هو جريمة بامتياز، بها جرّوا إلى القضاء المفكر الفرنسي معتنق الإسلام «روجيه غارودي»، لأنه أَلَّفَ حولها كتاباً أنكَرَ فيه وفنّد.

ربما يشعر بعضهم هناك بلذّة تقترب من حالة المرض، بأن يمارسوا الإساءة إلى الإسلام، يستفزّون، ويستنفرون منا الغوغاء والمتربّصين، ثم يُشيرون إلينا قائلين: أولئك هم أنتم!

ومن المؤسف أنّ بعضنا يحقّق لهم غرضهم الدنيء!

دمشق الشام: ٢٠-٩-٢٠١٢

نساء باب الحارة

في استمتاع المِصريين بمشاهدة مسلسل «باب الحارة»، الذي تعود حوادثه المتخيّلة إلى عهد قريب مضى، راق لشبابهم أنموذج المرأة الشامية المطواع، فأقبلوا على طلب الأيدي. وفاتهم أنّ ثمة فارقًا زمنيًّا بين المرأة الشامية بتاع أمس وبين المرأة اليوم.

فكانت المفارقة، وكان الفراق.

دمشق الشام: ٢٠-٩-٢٠١٢

اكتشفت أني من الأقلية!

نعم... أنا عربي، سوري، مسلم، سُني. ولدت في زقاق الزهراوي بحيّ «وراء الجامع» بحلب، الذي سبق أن أقام فيه «سليمان بن عبد الملك» و«عمر بن عبد العزيز» قبل أن يصبح كل منهما خليفة من خلفاء بني أمية العظام.

اكتشفت أني من «الأقليّة»... كيف؟

ففي الوظائف التي شغلتُها على مدى خمس وعشرين سنة في وزارات الدولة (من ١٩٥٧-١٩٨٢)، كان يمكن لأي «بَعثيّ» مهمّ أن يكتب بحقي تقريرًا سرّيًّا ويقترح تسريحي من الوظيفة الرسمية.

وعبثًا كنت أحلُم بأن «يستكتبوني» في وسائل إعلامهم لأعيش من قلمي جزئيًّا كما يقع للمحظوظين منهم.

وفي اتحاد الكتّاب (وأنا عضو مؤسس فيه منذ ١٩٦٩)، لم يوافقوا على أن ينشروا أيًّا من مؤلفاتي (البالغ عددها اليوم أربعين كتابًا، وقد تُرجمت بعض قصصي القصيرة وكتبي إلى لغات شتى، عشر لغات).

وكانت المشاركة في الوفود الثقافية إلى خارج الوطن دائما من نصيب غيري، الذين لا تصل «قامات» بعضهم إلى كتفي.

ويوم ألقيتُ قصة من قصصي الناقدة في محفل ثقافي عامّ، سمحوا لأنفسهم بأن يقتادوني، لدى انصرافي، إلى السجن، ونمتُ في عزّ الشتاء على البلاط، بطانية واحدة تحتي وأخرى فوقي وكانتا في منتهى القذارة، فقلت فيما بعد بإحدى الإذاعات الناطقة بالعربية: «فكأنهم يريدون لسجين الرأي أن يموت من القهر والبرد والجراثيم!».

وإذن، والحالة هذه، فأنا من «الأقليات» المضطهدة... ومع ذلك يتهمونني بأني من «الأكثرية» التي تعدّ العدّة لإيذاء الأقليات. دمشق الشام: ٢١-٩-٢٠١٢

بيان.. حول عرض الدكتور أنس القواص

عند فجر اليوم، نقلتُ إلى صفحتي عرضا سخيا من طبيب إنساني هو «الدكتور أنس القواص» بجامعة هارفارد لمساعدة الأطفال الجرحى في وطني الجريح. وقد قام الطيبون من أبناء الوطن بنقل هذا العرض كمشاركات عندهم.

ثم ساورني شك في حقيقة هذا العرض. وإننا نبحث، أرجو التريث في التعميم.

دمشق الشام: ٢١-٩-٢٠١٢

عند الامتحان.. يُكرم المرء..

طَوال تسعة أعوام دراسية متواصلة، كانت «زين» تأتي بـ«الجلاء المدرسي» طافحًا بالدرجات العالية، وتحزن لأنها حازت ٣٧٠ أو ما حولها (من أصل ٣٩٠)، بينما نالت صديقاتُها الحبيبات، المتنافسات، كذا درجة أكثر أو أقلّ... ويطول بعدئذ الحديث على الهاتف.

كان الجدّ تأتيه الأخبار، يصغي ويشاهد، ويتساءل عما إذا كانت هذه المدرسة الخاصة، المتميّزة، تتعمّد أن تسخو بالدرجات، تشجيعًا للتلميذات والتلاميذ، الذين لا يصل عددهم في الصف الواحد إلى عشرين! ثمّ يحدّث نفسه: في امتحان «الكفاءة»، غدًا، لا كلام إلا لورقة الامتحان!

في أيامه، هذا الامتحان المرتقب، أصبحت الأسرة ترى الصبيّة، لدى عودتها من امتحان كلّ مادة، تجلس، تحسب، ليس ما تستحقّ من درجات، بل ما فاتها التطرُّق إليه

في إجابتها عن هذا السؤال أو ذاك... ثم تُبدي امتعاضًا يُعقِبه ندم.

ويوم إعلان النتائج، طاف الحزن على الوجه الجميل: ذلك أنها فقدت (من المجموع التام، وهو ٣١٠) ثلاث عشرة درجة، فما حازت إلا ٢٩٧!

إنها «زين السباعي»، حفيدتي، الابنة البكر لابني فراس.

لما اتصلتُ بالجريدة اليومية لينشروا اسمها وصورتها في مواكب المتفوّقين، أجابني المحرر المسؤول كالمعتذر: «ايتِني بثلاثة أسماء أخرى لأنشر الأربعة معًا»! ذلك أنّ الناس -في زمن القصف والقهر والموت- بدؤوا ينسون الفرح.

دمشق الشام: ٢٢-٩-٢٠١٢

سكان الثغور.. والكهوف

من يقرأِ التاريخ يمسّه الحزنُ على سكان مدن الحدود بين دولتين متنازعتين، في مصيرهم الذي يؤولون إليه يوم يتغلّب العدو فيأخذهم أسرى وسبايا، ينتفع بالشباب منهم، كلٌّ فيما يُسّر له، ويرتقي في ذلك الأذكياءُ إلى مواقع عليا. وأما البنات فإنهنّ يُتّخذنَ جواريَ، والأجمل والأذكى يستأثر بهنّ القادةُ والأمراء، ويلدنَ لهم مَن يصبحون فيما بعد من ذوي الشأن العظيم.

أجل، ينتابك الحزنُ والإشفاق إزاء ذلك التغيّر المذهل، الذي يطرأ على حياة سكان الحدود، القاطنين مدنًا تُسمّى في تاريخنا بـ«الثغور». مع أنّ الناس كانوا يرتَضون تلك المصائر بحكم ما تُعورف عليه في أزمانهم من قواعد الحرب والسلم بين الدول المتعادية.

تُرى... هل يُماثل ذلك ما يَحيق اليوم بالآمنين في ديارهم؟

أم هو أرحمُ، لأنْ ليس فيه ذلّ السبي والرقّ؟

أم أنه أشدّ وطأةً، لأنه يأتي من ابن الوطن، ولأنّ فيه هيامًا على الوجوه في كل اتجاه، ونزوحًا، وسُكنى في الكهوف (عودة إلى العصر الحجري)، وتُرى فيه الأشلاء مبعثرة تَنوشُها جوارح الطير، وأنّ فيه دفنًا في قبور جماعية؟

أيّ عجب هذا الذي يريد لنا التاريخ أن نراه بأمّ الأعين وأن نستوعبه بكل الحواسّ، قبل أن يُدوّنه هو في صفحاته المظلمة!

دمشق الشام: ٢٣-٩-٢٠١٢

أمّ صغيرة..

يوم رحل زوجها عن الدنيا لم تكن تملك ما يمكّنها من سِداد أجرة البيت الذي تسكن، والإنفاقِ أيضًا على ولديها، إمّا هذا وإما تلك. وكانت أمّها قد فارقت الحياة قبيل ذلك، فاستدعت الضرورةُ أن تنتقل «الأم الصغيرة» إلى بيت أبيها لترعاه برموش العين، داعيةً الله ليلَ نهار أن يمدّ في عمره، ففي بقائه بقاؤها والولدين في هذا البيت.

ثلاثة أعوام مرّت على هذا المنوال، حاز خلالها الابن «الثانوية» وتهيأ لدخول الجامعة، ونجحت «البنّوتة» في «الكفاءة» مستعدّةً لدخول ثانوية المتفوّقين.

كل الأمور كانت تسير بانتظام، رغم الحراك الشعبي وما رافقه من تقهقر اقتصادي. ولكنّ ما لم يكن في الحسبان أن يسيطر «الجيش الحرّ» على الحيّ -الذي يُسمّى «سيف الدولة»- فيُثير بذلك حفيظة النظام، الذي أخذ يرجم الحي بشُواظ من نار، فيدمّره حارةً بعد حارة، والناس ينسلّون من بيوتهم قبل أن يقضوا تحت الأنقاض.

كان للأسرة في الريف بيتٌ من طين، قد جعلوه مستودعا لسَقَط الأشياء، فعمدوا إلى ترميمه، والتمّوا فيه: الشيخ الطاعن، والأم وولداها، والإخوة والكنائن والأصهار جميعهم، يتناولون طعامهم على سُفرة واحدة ويتناوبون النوم فيه. ولم يَفُتْهم أن يُعيدوا إلى البيت بعض رونقه الذي كان: جدّدوا زراعة الياسمين في فِنائه، والفلّ والتمرحنّة[١].

بعد أن فقدوا بيوتهم في المدينة، يُخيفهم اليوم أن يلاحقهم القصف حتى هذا البيت المرميّ في عَرَاء الوطن. والأم الصغيرة ما تزال ترنو بعينيها الجامدتين إلى أفق مدرسة تُؤوي الأولاد النازحين، متسائلةً: كيف يمكن لولدها أن يتردّد على الجامعة، هناك في المدينة، ليحقّق من طموحه ما تقدّم وما قد يتأخّر كثيرًا.

دمشق الشام: ٢٤-٩-٢٠١٢

مداد التاريخ

إنّ العيون لترى الرجال وهم يُزيحون من الطرقات الأنقاض تمهيدًا للعبور، ونرى الشباب والفتيات يكنسون الأرض تسهيلاً للمرور.

وقبل ذلك نكون قد رأينا الطائرات وهي تحلّق عاليًا، مسقطةً هداياها تلك التي تجعل الأبنية ركاما.

فنتساءل: تُرى ألا يخطر في بال النظام: ما لونُ المِداد الذي به يكتب التاريخ صفحاته: من ظلمة هو، أو من نور؟!

(١) شجرة تمر حنة، شجرة متوسطة الحجم، متساقطة الأوراق، وتعتبر من أشجار الزينة الجميلة بجمال أزهارها الجذابة.

دمشق الشام: ٢٥-٩-٢٠١٢

من ذا الذي يقصف من الجو؟

حين كفّ النظام، أو خفّف من القول عن «العصابات المسلحة»، فإنّ محاوِرًا، ينتمي إلى قطر عربي، جاء قُبيل ساعات يرفع عقيرته مؤكدًا أنّ من يقصف الأبنية ويُسوّي البُنى التحتية بالأرض، هم العصابات المسلحة.

فأثبت أنّ من الأبواق من ما يزال على قيد الحياة. دمشق الشام: ٢٦-٩-٢٠١٢

الأولاد.. في ظلّ القصفّ

كانت فرحة «جودي» -التي ودّعت بالأمس مدرسة «الروضة»- كبيرةً بدخولها الصف الأول الابتدائي. وساعة استيقظ الصغار، صبيحة اليوم، يغسلون الوجوه ويُسوّكون الأسنان ويهمّون بتناول الفَطور، هزّ الضاحية ونوافذَ البيت كلَّها دويٌّ انفجار مروّع، ما كان له أن يبثّ الخوف في نفوس الأشقاء الأربعة الذين تعوّدوا. وأما الأمّ، فقد أسرع لسانُها يعلن أنْ لا مدرسة اليوم!

أزعج هذا القرارُ الصغيرة جودي، فأخذت تحاور أمَّها: «ماما! هذا مجرد انفجار، يقول التلفاز: إنه في "الأمويين" ومدرستنا هنا في الضاحية!».

وعندما كان الصغار في المدرسة يتلقّون العلم، هزّ انفجارٌ جديد أركان المبنى، عرفوا أنه «قصف»، فقد بَدؤوا يُميّزون. وخفف من خوف المعلمات ما لمسنَ في وجوه تلاميذهنّ من معالم الثبات... وتابعن التدريس.

دمشق الشام: ٢٦-٩-٢٠١٢

أحجار شِطرنج!

صديقٌ من عهد الطفولة بحلب، نشأنا معًا في حارة واحدة، وظللنا نستمع، فيما بعد، إلى ما ترويه الوالدتان من أنهما كانتا إنْ جفّ الحليب يومًا في صدر إحداهما ذهبت بطفلها إلى جارتها. فأنا وهذا الصديق «أخَوان بالرضاع».

لمّا شببنا عن الطوق، اتجه كلٌّ منا فكريًّا في اتجاه: عزّز عندي إيماني بالديمقراطية أني درست القانون وانغمست في الكتابة وفي دنيا الأدب. وأما أخي -الذي كان ينتمي إلى أسرة قلّ مالُها- فقد مال إلى الفكر الثوري، فانتسب إلى حزبٍ سرعان ما ضحك الزمان له، أو أضحك هو الزمان، فتسلّم المقاليد.

ولأنّ صديقي كان بينهم من الرعيل الأول، فقد بادروا إلى تعيينه رئيسًا للبلدية، وتوالى صعوده إلى منصب محافظ حلب. وأشهد أنه كان، إلى تواضعه، يتمتّع بالنزاهة والعدل.

وفي دوران عقارب الأيام سقط صديقي. وفي تضييقهم عليه، وعدهم بالتخلّي عن العمل الحزبي والسياسي نهائيًّا، فصدّقوه وتركوه.

في زيارة مني له بحلب، قبل نحو أربعين عامًا، أخلَدْنا إلى ركن في بيته، الذي تكسو جدرانه الساعات الأثرية -وكانت له في جمعها غرام- اقترحت عليه أن يدير عقارب إحدى الساعات، تلك المدلاة من السقف حتى الأرض، ويستعيد لي دقات زمنها الذي ولّى. فلما انقضت الدقات، سألته ما كنت أنتويه: أن يوجز لي، بكلمتين، رأيه فيما وقع له وللرفاق الذين تبعثروا؟ فأجابني: «كنا أحجار شِطرَنج في يد لاعب!».

إنه صديقي الحميم، أخي الذي أرضعته أمي، «المهندس عبد الغني السعداوي»، يرحمه الله.

دمشق الشام: ٢٧-٩-٢٠١٢

مخطط عمراني.. لدمشق الكبرى

طلع علينا الإعلام أمس بالحديث عن مخطط عُمراني يتَهَمَّم النظامُ لتسويقه، في الجنوب الشرقي من دمشق، في تلك الأحياء السكنية التي جرى قصفها على مدى أشهر. وإذن فإنّ قصف تلك المناطق التي سمّوها «العشوائيات»، كان تمهيدًا لهذا المشروع الرائد، الذي أطلقوا عليه عنوان «دمشق الكبرى»!

وتبقى أسئلة:

لماذا حجب النظام هذه الميزة الغالية عن العشوائيات المدلّلة، التي لم ينزل عليها «برميل» واحد ولا أصابتها رصاصة طائشة؟

ولماذا طال القصف الأحياء السكنية النظامية، في حمص مثلا: بابا عمرو، والخالدية، وجورة الشياح، وفي حلب: سيف الدولة، وصلاح الدين، وهنانو (تحمل أسماء أمراء وقادة ومجاهدين)؟ وإذا كان الهدف بناء مساكن وثيرة... طيب، والأبرياء الذين ماتوا في منازلهم جرّاء القصف؟ منهم من أخرجت جثثهم معفرة بالتراب ومنهم من تعذّر فبقيت مدفونة تحت الأنقاض... هل يردّ المخطط لهم الحياة؟

والحقول التي أُتلفت محاصيلها ودمّرت فيها البيوت الارتجالية الوادعة، وتلك الأشجار المعمَّرة التي أحرقت في الغابات... هل يأتيها خيرٌ من التنظيم العمراني، أو الزراعي؟

إنه استهتار متناه بالقيم، ابتداءً من إزهاق الأرواح، مرورًا باحتقار العقول، وانتهاءً بازدراء كل ما أبدعته البشرية على امتداد عمرها من المعاني السامية!

دمشق الشام: ٢٨-٩-٢٠١٢

وتصبح سيرة الزعيم.. مُلكًا للتاريخ

في السهرة التي تجمعنا كلّ شهر، في نادي الصحفيين بـ«طلعة العفيف» بدمشق، نحن الأصدقاء من زمن الفتوة، قلت ذات ليلة لصديقنا ابن «أديب الشيشكلي»:

«اسمع، يا إحسان، يا رعاك الله! والدُك مرّ في زمان البلد مثل شهاب. نحن هنا نتحدّث عمّن مرّوا وراحوا. وإنّ الوالد كان قد استولى في سنواتٍ من خمسينيّات القرن الماضي، وحكم، أصاب وأخطأ. وهو في ما كان منه، قد تجاوز أن يكون أبًا لك وحسب، وأصبح مُلكًا للأمة التي أنجبته، ملكا للتاريخ الذي يُكتَب في معزل. فنحن إمّا أتينا على ذكره هنا فبهذه الصفة، وليس بصفته الأب الحنون الذي رعاك!».

عن الرضا عبّر صديقي «إحسان الشيشكلي»، الذي يتمتّع بقدر عال من الثقافة العسكرية، كان قد حصّلها في «كلية سان سير» الفرنسية، مضيفًا إليها معرفة نثرها في دراسات هنا وهناك في الشؤون العسكرية والثقافية.

للتاريخ أقول هذا. وإحسان اليوم غائبٌ عن الوطن، يَذْرع المَهاجِر بحثًا عن الحقيقة الإنسانية.

دمشق الشام: ٢٩-٩-٢٠١٢

دموع..

عرفه العاملون شديدًا في موقفه ممن ينتقدون النظام. وهو إنْ خطر من أمامهم

خفتت أصواتهم وتحدثت قلوبهم بما لا يرضي.

في صباح ذلك اليوم، دخل عليه رئيس الديوان. رآه يوصد الباب خلفه، ثم يشرع في الحديث عن مجزرة اليوم: قد وصل الشبّيحة إلى حارته، ذبحوا فجر اليوم تسعة عشر من سكان المبنى المجاور، بأمّ عينيه رأى رؤوسا مفصولة!

لم يتمالك المدير نفسه من التعبير عن الألم، غطّى وجهه بكلتا يديه وأجهش في البكاء.

قُرع الباب. أسرعا يمسحان الدموع. كان القادم «المرافق الأمني»، هذا الذي يكنّ له العاملون في المؤسسة كل الكراهية ويَصِمونه بـ«الشبّيح» الأصغر... انحنى: المجزرة، رؤوس مفصولة!

لم تمتزج الدموع، لكنّ القلوب كان يضمّها حضن خندق واحد.

وقبل أن يُقرع الباب مرة أخرى، كان الثلاثة قد مسحوا الدموع... وانطلقوا يستأنفون يومًا جديدًا.

دمشق الشام: ٣٠-٩-٢٠١٢

الذين يَسحلهم التاريخ..

الذين يقتلون الناس، ويذبحون بالسكاكين، ويدمّرون المدن، ويضرمون النار بالمحاصيل، والذين أحرقوا يوم أمس سوق المدينة بحلب، الدرّة الأثرية في جبين العالم... سوف يلاحقهم تاريخ الإنسانية، يَسْحَلهم من أقفيتهم، يسحبهم من الأقدام، يجعل الرؤوس تتجرجر على الأرض... هذا في التاريخ.

وأما في الواقع، فسوف ينالون عقابهم بمحاكمات عادلة، يقفون فيها كالجُرْذان

المذعورة، حيث لا ندم، ولا استغفار، ولا دموع.

دمشق الشام: ١-١٠-٢٠١٢

وحدة، حرية، اشتراكية

ويظلّ في الخاطر سؤالٌ بريء ثالث وأخير:

لماذا يحرِص النظام على أن يُبقي الثالث في شعاره الثلاثيّ، «الاشتراكية»، التي تعني نزع الملكية من يد الأغنياء وتوظيفها في خدمة الشعب، مع أن ثوّار الأمس الفقراء أصبحوا في عداد أغنياء العالم، حتى إنّ ودائعهم في البنوك العالمية قد طالها الحجز والتجميد لأسباب لا محلّ لذكرها؟!

دمشق الشام: ١-١٠-٢٠١٢

النظام.. والشعب والوطن

سؤال بريء رابع، خطر لي اللحظة:

في الكتب أنّ النظام، كلّ نظام في العالم، يحبّ شعبه فيحميه ويقدّس وطنه فيقيه من عاديات الزمان.

ولكننا نرى أنك تقتل شعبك، حتى الأطفال تذبحهم بالسكاكين، وتدمّر وطنك بأن تنسِف البُنى التحتية حتى إبادة الآثار.

أتساءل وأنا في ذهول: كيف؟

دمشق الشام: ١-١٠-٢٠١٢

مِن يدِ: م. ع. منجونة

في أول أربعينية الشتاء من عام مضى، أُودِعتُ زِنزانةً منفردة في سجن بدمشق، لا أتكلم ولا أتلقى كلامًا من أحد، أنام فوق البَلاط على بطانية قذرة، وألتحف بأخرى أشدّ منها قذارة. والمخدّة كانت كيسًا من نايلون يضمّ «البيجامة» التي استغنيت عن لُبْسها مفضّلاً أن أبقى مرتديًا بدلتي، وأنا منتبذٌ ركنًا من الزنزانة أو مستلقٍ تستجدي عيناي النوم. وكان كلّ تواصلي مع العالم الخارجي، أني أسترق النظر من خلال ثلاثة ثقوب في الباب، فتبيّنتُ يوما جَلَبة في الممرّ، مصدرها أنّ السجناء «القدماء» يُمنحون في اليوم الواحد استراحة ثلاثين دقيقة، يخرجون فيها إلى الفِناء، يمشون، يتحركون، فغبطتُهم على هذه النعمة التي يُحرم منها النزلاءُ الجدد.

في استراقي النظر لمحت واحدا من السجناء أعرفه، فرفعت صوتي مناديًا إياه، فتوقف يستطلع. كان صديقي المحامي «أسعد علبي». من أنت؟ أنا... وحصل التعرّف. كانوا هم الثلاثة والعشرين مثقفًا، الذين سُمّوا «معتقلي النقابات العلمية» لمطالبتهم بالحرية، في ربيع ١٩٨٠، وقد زُجّ بهم في غيهب غرفة واحدة ذاتِ اتساع. وأقبل عليّ منهم من أعرف ومن لا أعرف، يبادلونني الحديث، ومع الحديث نتبادل الألم والإشفاق... وكان منهم المحامي الوزير السابق محمد عبد المجيد منجونة.

ما أودّ ذكره هنا أنّ نزلاء الزنزانة الجماعية هؤلاء، كانوا يتمتعون بمنحة استثنائية أخرى، أن يُسمح لهم بإعداد وجبة غداء يرفعونها على النار، في الممرِّ ما بيننا، وقد وصلت إليّ من ذلك روائح كان من شأنها أن قَدّم إليّ، عبر المصراع الصغير في الباب، الأستاذ منجونة، بيديه، شيئا مما كانوا يطبخون: «محشي ملفوف»، فكانت تلك الملفوفات ألذّ ما تناولت في حياتي، وقد كان يشتري لي مَن أوكِلَ إليه أمري من البقال

المجاور شيئًا من زيتون وحلاوة طحينية وجبنة مع الخبز.

ويتعين عليّ أن أوضّح أنّ مدة توقيفي لم تتجاوز الأيام السبعة، وأنّ ما قضاه الثلاثة والعشرون معتقلاً قد تجاوز سبع سنين عجافًا، فهم كانوا ينتمون إلى «منظمات»، وأما أنا فكان ذنبي أني تخطّيت، في نص قرأته أمام الملأ، الخطوط الحمر، ولكنْ لأذكر أنّ «الداخل» في تلك الأيام -كالحال اليوم- مفقود والخارج مولود.

ومِن قدرِ الله أنّ الذين أطلّوا عليّ وأنا في زنزانتي في ذلك اليوم، قد انتقلوا إلى ديار الحق. وبقينا -منجونة وأنا- نناضل في سبيل الحق والحرية. دمشق الشام: ٢-١٠-٢٠١٢

عندما يعتذر المسؤول الكبير

ذات عام قال الخليفة العادل عمر بن الخطاب قولة سكنت في ضمير الزمن: «مَن يَرَ منكم فيّ اعوجاجًا فليُقَوِّمْه...». وأمس سمعنا واحدا من مسؤولينا العرب الكبار يقول: «أقدّم اعتذاري لليبيين جميعا عن كلّ ما يُمكن أنْ أَزِلَّ فيه أو تخونَني فيهِ العبارة. وصدري سيكون رحبًا لكلّ توجيه أو تسديد أو نصحٍ يقدمه أيُّ ليبيّ إن رأى فيَّ اعوجاجاً، وليقل لي بملء فمه: "اتقِ الله! "... وأنا أقول لكم: "لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فيَّ إن لم أسمعها وأقبلها".

كم ارتفع في نظرنا الدكتور محمد يوسف المقريف، رئيسُ المؤتمر الوطني العام في ليبيا، وهو يعلن اعتذاره بفصاحة، وسماحة، وشفافيّة، وأَرْيَحيّة!

أجل. أمتنا لا تنسى الاقتداء بعظمائنا، ولا تَحيد عن اتّباع الفطرة السليمة والبديهة الحاضرة.

فقط كُفّوا عن الادّعاء بأننا أقلّ شأنًا من بعض أمم الأرض، ولا تسلُبونا حقنا في القول، والفعل، والتجريب، وفي الاعتذار أيضا. والأمر المفارِق أنّ الديمقراطية إذا كانت تتفتّح في ظِلّها الأزاهير، فإنّ الطُّغيان يبدو عاجزا عن استئصالها، فإنه ما إن يُكتبُ له الزوال حتى تتفتّق الأكمام عن ألوان وعبق.

دمشق الشام: ٣-١٠-٢٠١٢

صديقي.. مخبر

في يوم يعود تاريخه إلى العام ١٩٨٣، هتف إليّ صديقي الأديب "أحمد"، الذي يُدرّس العربية في الجزائر المنفتحة على التعريب، يُعلِمني أنه جاء الوطنَ بزيارة خاصة في هذه العطلة الانتصافية، وأنه حلّ الساعةَ بدمشق قادمًا من حلب ليقضي أمرًا عند إحدى الجهات الأمنية.

فبادرت أقول: «أنتظرك عند الساعة الثانية».

كان ما بين بيتي في حيّ الروضة بدمشق، وبين الجهة الأمنية (التي يتعيّن على صديقي مراجعتها للحصول على موافقة بمغادرة البلاد) رميةُ حجر.

وقد رأيته لحظة استقبالي إياه مضطربًا. فحكى لي أنهم أحالوه ليمثُل أمام رئيس فيهم، جعل هذا يُزيّن له أن يقوم "بخدمة أمنية" هي أن يزوّدهم "بأخبار وتقارير" عن زملائه السوريين هناك، مبرّرًا هذا التكليف بأنّ الوطن يتعرّض للخطر، وأنّ على كلّ مواطن أن يشارك في الإخبار عمّا يرى ويعرف، دون أن تفوته الإشارة إلى أن هذا الماثل أمامه هو "ابن ريف" وأنه من "طبقة كادحة"، وأنه يجب التلاحم مع النظام لحمايته من المؤامرات والدسائس. ثم قدم له استمارة فيها "اسم حركيّ" له، والعنوان البريدي، ووعده بمكافآت، إن شاء تقاضاها على كلّ تقرير، أو أن يكون له راتب

شهري... وصديقي في ذلك كله لا تسمح له نفسه بالتعبير عن الرضا، ولا يجرؤ أيضًا على إعلان الرفض! وأنهى حديثه لي متضجّرًا: «يريدونني أن أكون مخبرا لهم على أصدقائي في الجزائر!».

وقد ترك صديقي "أحمد دوغان" تلك الورقة عندي. وعاد إلى الجزائر مستأنفا عمله فيها. ثم قضى بقية حياته بحلب، وفيها وافته المنية عام ٢٠٠٩.

وأذكر أنّ مجلة "الثقافة" الدمشقية (مدحت عكاش)[١] أَصدَرتْ في أحد أعدادها ملفّا ضمّ ما كَتبَ الأدباءُ عنه بعد رحيله. وأشهد أنّ هذا الصديق كان واحدا من قليل ممن عرفت، ليس بين الناس من يتلكّأ في محبته وتقديره.

دمشق الشام: ٤-١٠-٢٠١٢

وا معتصماه!

المنصف المرزوقي، الابنُ البارّ الأول للربيع العربي، يعتذر أمس لشعبه عن حالةٍ رفعت فيها حرّةٌ تونسية صوتها: وامرزوقاه!

تُرى، كم لنا أن نتلقى من اعتذارات لو تلبّس نظامُنا عباءة المعتصم، وشاء أن يعتذر عما جنته الأيادي حوله من حالات اغتصاب، وهدر دماء، وهدم بيوت، وحرق حقول!

إنّ بيننا من ارتدُّوا إلى عصور ما قبل التاريخ. ولكنّ بيننا من يرفُل بثياب الحضارة النبيلة قد بدؤوا بالظهور منذ انحسر الطغيان!

---

(١) مؤسس مجلة الثقافة، والتي توقفت عن الصدور بعد وفاته، ولذا وضع الكاتب اسمه بين قوسين، وكأنه علمٌ على المجلة.

دمشق الشام: ٥-١٠-٢٠١٢

من تحت دلفِ العنف.. إلى مزراب الحنين![1]

ما إن يجتازوا الحدود، ناجين بأنفسهم من تلك الهدايا التي يرسلها إليهم حماة الديار، ويجدوا أنفسهم تحت الخيام أو في المنافي التي اختاروها، حتى يغادرهم الغضب والحزن، ويستولي عليهم الشوق والحنين. حنينٌ إلى البيت الذي تركوه وما ودّعوه، وإلى الشارع الذي أضحى ركاما، وإلى الفراش الذي كانوا يعانقون فيه الأحلام، وإلى عطر الياسمين تحمله إليهم أنسام العشايا، وإلى شجرة الزنزلخت[2] يمرّون بها في رأس الحارة صباحَ مساء.

إنهم، الآن، يشتاقون العودةَ إلى الديار، مثلما كانوا حين حزموا أمرهم على الرحيل.

دمشق الشام: ٦-١٠-٢٠١٢

الأنموذج الشيشاني

في تسعينيات القرن الماضي انتفض الشعب الشيشاني ضد الحكم الروسي، وقد عهد الرئيس يلتسن إلى أحد رجالاته بمعالجة المسألة الشيشانية، فكان من حكمة هذا الرجل، وهو الجنرال ليبيد، أن اقترح الاستقلال لهذا الشعب، المختلف لغةً وديانة وقيَما، ولكن بدا أنّ هذا المقترح لم يرق للرئيس، فعاد يضع ثقته بمخابراتي عريق هو

---

(١) "قمنا من تحت الدلف إلى تحت المزراب" مثَلٌ سوري، يُضرَبُ تهكُّماً ممن أراد الخلاص من حال فانتقل إلى حال مشابهة ولم يستفد شيئاً. والدلف: مكان تساقط الماء من السقف لخللٍ فيه.

(٢) الزنزلخت: شجر جيد الخشب يزرع للزينة.

"بوتين"، الذي أخذ على عاتقه أن يقضي على الثورة ويدمّر الشعب بالسحق والمحق، فحاز الثقة لدرجةِ أن تولى حكم روسيا بعد رئيسها الذي كان قد تعْتَعه[١] السُّكر والإدمان.

السؤال: هل يظنّ هذا الحاكم -الذي يقدّم المشورات- أنّ ما اتّبعه في الشيشان هو الأنموذج الأمثل للقضاء على انتفاضات الشعوب المطالبة بحريتها؟

وقبل ذلك هل استطاع حقًّا أن يطفئ جَذوة النضال في شعبٍ ما انفك ينتفض عند كل سانحة منذ أن احتُلّ قبل نحو مئة وخمسين سنة من عمر الزمان؟

دمشق الشام: ٧-١٠-٢٠١٢

الحنين إلى الديمقراطية!

مصطفى أبو شاقور، المكلَّف بتشكيل "حكومة أزمة" في ليبيا المحرّرة، يقدّم إلى مَن انتخبهم الشعب ممثلين عنه، التشكيلةَ الوزارية، فترفضها الأكثرية، يعيد الكرة فتُرفَض ثانية. يتجمّع أنصاره أمام ممثلي الشعب، معتصمين بطريقة حضارية، محتجّين بأن الذين يرفضون كأنهم يريدون أن يحموا أزلام المقبور من أن يُجلَبوا من حيث هم ليُحاسَبوا.

يا لها من ديمقراطية، يتجاذبها رفضٌ واحتجاج واعتصام، يتّسم ذلك كله بالرقيّ، وقد كان بدلاً منه إملاءاتٌ تفرض ولا سبيل إلى أن تناقش أو ترفض!

شعب عاش تحت القهر عقودا من سنين، يتصرّف بعد التحرّر على نحو ما يفعل المحتجون في واشنطن وباريس وفي "الطرف الأغرّ" بلندن. هل أقول: إنه الحنين إلى

---

(١) التعتعة: العسر في النّطق، والمشقّة فيه.

الديمقراطية! ثقوا بشعوبكم، أيها العرب، فإنّ النفوس التي طالت معاناتها، تختزن كنوزا من المعاني السامية، وأنتم لا تعلمون! ثقوا بأنفسكم!

دمشق الشام: ٨-١٠-٢٠١٢

قاسيون.. المطلّ على دمشق

في خريف ١٩٩١ استقبلتُ بدمشق المستعربةَ الإسبانية "إيلُويزه ليافيرو رويث Eloiza Liavero Roiz"، القادمة من "جامعة لاس بالماس" لتشارك في "المؤتمر الرابع عشر لتاريخ العلوم عند العرب" المُقام عامئذ بمدينة الرقّة، والذي كانت لي فيه مشاركة أيضا. وأودّ أن أنقُلَ هنا ما كنت أوردتُه في مقدمةٍ أعددتها لكتاب "فضل الأندلس على ثقافة الغرب" (ط ١٩٩٧) تأليف المستشرق الإسباني الكبير "خوان بيرنيت"... قلت:

«.. ولقد أكرمتْني السيدة بأن نزلت ضيفةً عندنا بدمشق. واتفق أن صحِبَتْها أُسرتي بدمشق وحلب، في جولات على معالم المدينتين، فكانت هذه الأكاديمية المعنية بالتاريخ تعبّر عن إعجابها بهذا الذي ترى بها تملك من مفردات عربية. وأما حين أطلّت من قمة قاسيون، في ليلة رَقَّ نسيمها، على دمشق الرافلة بلألائها وجلالها، فإنّ لسانها نطق بعربية صافية: "هذا أسعدُ يوم في حياتي! "، ثم انتابتْها حالٌ من الوجد، فكفّت عن التعبير بالعربية، وأخذت تتمتم بلغتها كلامًا لم يفهمه أحد ممن حولها. هل تذكّرت هذه الإسبانية المثقفة، مدينتها غرناطة؟ أم أنها تجلّت لها في الشام المستلقية تحت بصرها، الأندلسُ، أندلسُها، التي غَبَرت، فهزّها وجدٌ وحنين؟».

ترى ما يكون شعور الدكتورة إيلُويزه ليافيرو رويث، المحبة لوطننا تاريخًا وحضارة، لو أنها ترى رأي العين القذائفَ تنطلق من المكان الذي وقفت فيه قبل

عشرين عاما، فتدمّر معالم حضارية، كانت قد انتقلت من دمشق الأموية إلى غرناطة الأموية أيضا، وتُبيد وتهجّر..، على نحو يفوق ما فعله أجدادها الإسبان وهم "يستردّون" من أجدادنا وطنا قالوا: إنه لم يعد لنا! ماذا يتوقع نظامنا أن يسجّل له التاريخ من مفاخر أو من مخازٍ!

دمشق الشام: ٩-١٠-٢٠١٢

وتنزف العيون دمًا!

عندما اجتاح الأمريكيون العراق في ٢٠٠٣، كنا نرى جنودهم المدجّجين يقتحمون البيوت لملاحقة المقاومين (العصابات المسلحة!)، فنراهم يُخْلون البيوت أولاً من ساكنيها. وكم من مرة رأينا أمًّا وقد تملّكها الفزع والهلع خوفًا على صغارها أن ينالهم الأذى، فنوشك، نحن المشاهدين، أن نبكي إشفاقًا!

اليوم، في وطننا الحبيب، نرى البيوت تُهدم على رؤوس ساكنيها دون استئذان، ونرى الرجال يُعدمون ميدانيًّا، والأحياء السكنية تُباد، والغابات تُضرم فيها النيران. نشاهد ذلك كلَّه على الشاشة الصغيرة، فلا تكتفي عيونُنا بتذراف الدموع، ولكنها تنزف دمًا! أيّ زمن نعيش! وأي "شهادة على العصر" كُتب علينا أن نؤدّي!

دمشق الشام: ١٠-١٠-٢٠١٢

على الرصيف..

... وقُدِّر لكلّ منهم أن يبني بيتًا بعرق الجبين، قد سهر على إقامة هذا الحائط هنا، ورفْع السقف هناك، وتركيب زجاج النافذة المطلّة، وتزويد المطبخ بما يلزم، واقتناء السرير والخزانة والثريا، ودقّ مسمار في هذا الموضع لتعليق صورة العائلة التذكارية،

ولُعبُ الأطفال تلك المتناثرة...

والآن. الآن يستلقي، في هزيع من الليل، على بطانية فوق رصيف، وأطفاله نيام حوله، غير ملتحفين بشيء فالدنيا صيف... ولكن إلى متى يأمن الفاقدون بيوتهم قصفَ الرعد، والخريفُ يأتيهم مستعجلاً، أو يأمنون قصفَ الطائرات التي تأتيهم وهي تتهادى في السماء، لتصبّ عليهم هداياها قبل أن «تعود إلى قواعدها سالمة» وضميرُ الفاعلين بألف خير؟ أيها الزمن! أية مشاهد تزرع في عيوننا لتبقى في الصدور مدى الحياة؟

دمشق الشام: ١١-١٠-٢٠١٢

لماذا يقتلون الأطفال؟

في أحد الأحواض في حديقة بيتي شجرةُ ياسمين عظيمة، أقطِف منها بُعيد الغروب وأعود أقطف سويعة الضحى، ويبقى من زهرها كثيرٌ كثير، يتساقط على الأرض، ويجفّ، فتعبث به أنسام المساء.

تزورني حفيدتي، فتقطف لي ما يملأ طبقًا تقدّمه إليّ، وهي تقول: «شمّ، يا جدّو، وأنت تكتب!». ثم تعود إلى الزهر اليابس، فتكنسه حتى تتجمّع منه كومةٌ صغيرة، فتأتي إليّ تسألني: «جدّو، ليش ما بتقطف كلّ الياسمين وهوّ على أمه!».

فلا أجد جوابًا إلا أن أقبّلها من عينيها، وجبينها، مصعِّدًا إلى رأسها.

أحيانا يكون ذلك على وقع قذائف تتساقط على الأحياء السكنية البعيدة والقريبة... فتسألني: «جدّو! لماذا يقتلون الأطفال!».

دمشق الشام: ١٢-١٠-٢٠١٢

الرئيس المصري يتراجع.. الديمقراطية تنتصر

أبعد الرئيس المصري محمد مرسي النائبَ العام عبد المجيد محمود عن موقعه، لأنه قضى بعدم مسؤولية أحد فيما سُمّي "موقعة الجمل"، اقترح مجلس القضاء الأعلى على الرئيس إلغاء قراره. الرئيس يستجيب.

أرى أنّ ذلك انتصار للديمقراطية الجديدة، أو التي اختُطفت منذ يوليو ١٩٥٢ (ويسعدني أني درست الحقوق على جهابذة القانونيين بجامعة فؤاد الأول ما بين ١٩٥٠ و١٩٥٤).

لم تعد قبضة الرئيس ديكتاتورية، بل ديمقراطية.

وإنّ في ذلك انتصارًا للرئيس المصري الجديد.

دمشق الشام: ١٣-١٠-٢٠١٢

إلى من لا يعرف حقيقتنا، فيتمادى في ظلمنا!

ما زلتم تتّهموننا بأننا نستقي معلوماتنا من "القنوات الأجنبية المعرّبة" وأنتم مرتاحون لهذه "الأكذوبة" التي تمنحكم الإحساس بـ"الطهارة"، فأنتم وطنيون شرفاء واعون، والذين يموتون تحت القصف سذّج مخدوعون!

يا أيهذا القاعد في وطنك، بعيدًا عن بلاد الشام التي منها انطلقت جيوش الفتح يومًا إلى بلادك، فعرّبَتْها وقدمت لها الإسلام دينًا، لتعلمْ أننا نستقي معلوماتنا مما يقع حولنا وفوق رؤوسنا، وليس من أي مصدر آخر.

مدينتي حلب، لأن المقاومين استولوا على مساحات فيها، استحقّت أن تتلقى براميل القذائف، تلك التي تقوّض البنايات، وتحيل الأحياء السكنية إلى ركام. الناس

اليوم ينامون على الأرصفة، وفي مداخل المدينة، وفي العراء. هل فقدتم الرؤية وحاسة الاتجاه؟ المواطنون يُقتل منهم كل يوم المئات، بينهم أطفال يذبحون بالسكاكين، بالسكاكين... هل تفهم معنى أن يذبح طفل بسكين، أيها الوطني الغيور؟ أنتم، يا من بأيديكم سَمَلتم عيونكم من محاجرها فغدوتم مكفوفي البصر والبصيرة، نصف أهلي بحلب غادروها، هائمين على وجوههم في كل اتجاه: أبنائي، أحفادي، إخوتي (أنجب أبي تسعة عشر من البنين والبنات) هَجُّوا[1] إلى دول الخليج ومصر وألمانيا وفرنسا والولايات المتحدة. وأنت ومن معك، تتاجرون بنا، تبيعوننا وطنية... أننا نستلهم الناتو! إنّ هذا منكم لأمرٌ قد تجاوز الجهل إلى الجريمة المتعمدة، انحدر إلى حدّ العار! إن كنتم لا تستطيعون العون، وغير مهيّئين للفهم والاستيعاب، فالزموا الصمت. اعذرني، أخي، أنا لا أكتب لك بالمداد، بل بدم القلب أكتب!

دمشق الشام: ١٣-١٠-٢٠١٢

في دنيا الأحلام!

لم أكن في حلم. أخذتْني سِنةٌ من نوم وأنا أمام التلفاز أشاهد ما تتفطّر له القلوب، ثمّ وجدتُني عند حلاق الحارة!

في البدء رأيته جالسا على الرصيف، في هذه الساعة المتأخرة من الليل، أمامه طاولة صغيرة، يشرب "المتّة"[2]، تشاركه في ذلك "حُرمة" إلى جواره بدا أنها زوجته، وشابةٌ تحتضن رضيعًا، وشاب يحنو على طفلة... وكان "عطر الليل" يتضوّع في الحارة قادما من حديقة الجيران.

---

(١) هَجّوا: رحَلوا لأسباب قاهرة أو مزعجة. من العاميّة.

(٢) المتّة هو مشروب ساخن من فئة المنبهات يعود منشؤه إلى أمريكا الجنوبية.

لم يثرثر في أذني على عادة الحلاقين. فجأةً ترامى إلى سمعنا سعالٌ من طفل في داخل مثابة تشبه غرفة مقتطعة من المحلّ، فوجدته يُهرَع، يحسر الستارة، يُطلّ، يطمئنّ، ويعود مستأنفًا. وحدّثني، كما لو أني في حلم: وقع في الضاحية احترابٌ بين طرفين، تلاه قصف، ثم براميل هبطت من السماء. السكان هربوا. البيوت تهدّمت... وقُدِّر له أن ينزح بأسرته، بالصغار، وبمن تزوّج من أولاده وبمن تزوجنَ... فالمحل غدا ملجأ لنازحين.

لم أزل أشعر، وأنا في بيتي، بأني في دنيا الأحلام... ولكنّ عطر الليل لم يفارق رئتيّ!

دمشق الشام: ١٤-١٠-٢٠١٢

ياسمين

بعيدًا عن الأحزان العامة، يوم دخلوا بها إلى بيتي وذكروا لي اسمها أسرعتُ أقتبس منه اسمًا جميلاً لها: «ياسمين». كانت ضئيلة الجسم مثل أترابها من بنات الشرق الأقصى. وسرعان ما تبيّنتُ أنها تستجيب لتعلّم فنّ الطبخ. وصحبتُها مرتين إلى "سوق محيي الدين" (في سفح قاسيون، القريب من بيتي)، فتعرّفت على طريقة التعامل مع الباعة، تختار الأفضل، وتُفاصِل في الأسعار.

وقد رأتني أطيل الجلوس إلى الشاشة الصغيرة، فتمنّت أن تتعلّم التعامل مع "الفيسبوك"، ويسّرتُ لها صفحة باسمها (الأصلي، فقد رفضت الاسم المستعار!)، وأصبح لها معجبات ومعجبون، وراسلتْ صديقاتها من العاملات في الوطن العربي، وخاطبتْ أترابها في وطنها إندونيسيا بالمكتوب والمسموع والمرئي، فالكاميرا بين

يديها. والخواطر التي أنشرها أصبح في مقدورها أن تنقلها، تترجمها ببرنامج bing وتقرؤها، وتقف على جديد الأخبار، الممتع والمؤلم، وتناقشني.

قلت في البداية: "بعيدًا عن الأحزان العامة.. " ولكن الذي كان أخيرًا أنّ المخاوف استولت عليها مما يحدث في الوطن، فأعلنت عزمها على الرحيل. وهكذا بات عليّ أن أعود إلى "المربع الأول": أسهر على العناية بنفسي، وأنا رجل قد تجاوز الثمانين.

لست آسفًا لأنني علّمتها كثيرًا من الأشياء، فحرية الإنسان عندي أثمن.

دمشق الشام: ١٥-١٠-٢٠١٢

ما قالته أسماء فارس الخوري يومًا

كان يحلو لرجل الدولة الكبير فارس الخوري أن ينادي زوجته بـ"أسماء"، حريصًا على إضافة الهمزة إلى الاسم، وكانت تحمل -وهي الفلسطينية الأصل من مدينة عكّا- اسم "أسمى بنت جبرائيل عيد"، وكانت تتّسم بقدر من الذكاء والوطنية يعادل ما عُرف به زوجها الزعيم فارس الخوري، المترفّع عن كل شيء، والمتماهي في دين الوطنية. ممّا تعيه ذاكرتي من أمور الزمان أنه، في الانتخابات البرلمانية التكميلية بدمشق عام ١٩٥٧، وقفت أسماء الخوري في صفّ المرشح الوطني الإسلامي المعتدل الدكتور مصطفى السباعي، مقابل مرشّح الذين تَسَمَّوا يومئذ بـ"التقدُّميّين".

تقول الحكاية: إنه في دخول أسماء الخوري مركز الاقتراع لتُدلي بصوتها، تهجّمت عليها مناصِراتٌ للفريق الآخر متّهِماتٍ إياها بالعمل لصالح الرّجْعِية وأمريكا، وارتفع صوت سفيهة منهنّ: «طالعي طالعي الدولارات من شَنْطتك!». وتقول زوجة الزعيم الخالد فارس الخوري -كما ذكرت جريدة "الأيام" يومئذ-: «ولمّا فتحتُ

حقيبتي لم يكن فيها إلا العملة السورية!». وهكذا لا يتورّع المتطرفون من أهل السياسة عن التشنيع على الآخرين ورميهم بصفاتٍ، يدركون هم قبل غيرهم أنها تصبّ في خانة الباطل.

دمشق الشام: ١٦-١٠-٢٠١٢

المسجدان الأمويّان في بلاد الشام

كان الخليفة الأموي "الوليد بن عبد الملك" قد رأى أنّ مسجد دمشق -وهو الوحيد فيها- بدا عاجزًا عن أن يستوعب أعداد المصلّين المتزايدة، وكان قد أقيم على النصف الشرقي من "كنيسة القِدّيس يوحنا"، فصالحَ نصارى دمشق على أن يأخذ منهم النصف الآخر من الكنيسة مقابل أربع كنائس كان قد استولى عليها خالد بن الوليد عند دخوله الباب الشرقي عُنوة. وعَمَد الخليفة الأموي إلى أن يوسّع المسجد (عام ٨٩هـ/ ٧٠٨م) ليصبح على ما هو عليه اليوم. ولنعلم أنه أول مسجد في العالم الإسلامي[١].

وكان في حلب أخو الخليفة "سليمان بن عبد الملك" (الذي تلاه في الخلافة الأموية)، فتهمّم لإقامة مسجد مماثل، فصالَحَ نصارى حلب (والإسلام يحترم الملكية الخاصة) على أن يأخذ البستان الملحق بكنيسة "القديسة هيلانة" (هي اليوم "المدرسة الحَلَوية")، وبنى على أرضه جامع بني أمية الكبير، جالبًا له "الآلة" (الرخام والفسيفساء) من أوابد كانت هناك في المناطق القريبة، أراد سليمان بذلك أن يضاهي

---

(١) ليس هو أول مسجد، فبنيت مساجد قبله. وأقدم مساجد الشام: الأقصى ومسجد الشعيبية في حلب. وبُنيا في عام ٦٣٧م.

ما عمل أخوه الوليد بدمشق. وقد ظلّ هذان المسجدان الجامعان صامدَين على مدى الزمان، إلى أن وقَعَ أمسِ بحلب ما يُدمي العيون قبل القلوب: قصفٌ طال مئذنة الجامع، تلاه حريقٌ أتى على معظم أركان هذا الصرح الأثري التاريخي. ونكاد نقول: أصبح الجامعُ أثرًا بعد عين!

أجل، أيها المواطنون، يدٌ في الماضي المضيء تبني، ويدٌ في الحاضر الجائر تحرق وتدمّر، ويدُ التاريخ تكتب بحروف من نور وبحروف من نار.

دمشق الشام: ١٧-١٠-٢٠١٢

نصر الله.. والتاريخ؟

تناقلت الأخبار، اليوم، أنّ حسن نصر الله رفع صوته يقول: «المسيحيون جاء بهم البيزنطيون إلى الشرق»!

ولكن التاريخ يقول عكس ذلك، أيها الشيخ اللبيب، الذي يكشف اليوم عن جهل مريب!

التاريخ يقول: إننا نحن في سورية القديمة، الآرامية والسريانية، نحن في بلاد الشام، أعطينا المسيحية للبيزنطيين، ولأوربة، وللعالم كله، مثلما أعطينا بعد ذلك للعالم الإسلام!

أإلى هذا الحدّ يجهل التاريخَ شيخُ الضاحية، الذي يعمل جاهداً لجلب الفرس إلينا كي يغتسلوا في مياه المتوسط؟

لقد اعتنق أهل الشام المسيحية منذ بدايتها، ولاقوا كثيرًا من الاضطهاد على أيدي الحكام البيزنطيين (الذين يسميهم تاريخنا العربي: الروم)... استمرّ الاضطهاد

حتى القرن الرابع الميلادي، حين مال إلى المسيحية الإمبراطور "قسطنطين" (الملقب بـ"الكبير"، وأمّه "هيلانة" التي اعتُبرت فيها بعد قديسة)، وقام (عام ٣٣٠م) يُجدّد بناء المدينة التي انتقل إليها وجعلها عاصمة: القسطنطينية (اليوم إسطنبول).

في عهد هذا الإمبراطور انتشرت الديانة المسيحية في بني قومه، نقلاً عمن سبقهم إليها من سكانِ سورية، وهو من دعا إلى "مجمع نيقية" (عام ٣٢٥م)، فأوجد بذلك فكرة "المجامع الدينية". والأمر المفارق في هذا الرجل أنه لم يُعمّد مسيحيًّا إلا وهو على فراش الموت (عام ٣٣٧م).

أقول: إذا كان شيخ الضاحية يجهل ما أوردته المصادر التاريخية العالمية، فأولى به أن يتّبع "دورة تاريخ"، بعدَ أو قبلَ دورةٍ في التسامح، والوفاء للشعب الذي حسبه يومًا نصيرًا للحق، فقدَّم له خيرًا كثيرًا.

دمشق الشام: ١٨-١٠-٢٠١٢

رحيل رجل الأمن العربي الأول

كان تأسيس "فرع المعلومات" بلبنان بموافقة الكل، وعندما نجح في تعقّب "المتخابرين" انحسر عنه شيء من التأييد.

يمكننا القول: إنّ العميد وسام الحسن كان «رجل الأمن العربي الأول»، الذي لم يعمل في خدمة النظام، بل في خدمة الوطن كله، لذلك استحقّ الموت.

مضى وسام اليوم شهيدًا، بعد أن أفلح في تأسيس "مدرسة أمنية وطنية" قادرة على تصيّد الخونة والمتآمرين.

لروحه الطاهرة أقول: أنت، يا وسام، وسام في صدر مؤسسات الأمن العربية

النظيفة.

يرحمك الله، ويحمي رفاقك المخلصين.

دمشق الشام: ١٩-١٠-٢٠١٢

قتل مواطن.. مسألة فيها نظر!

يوم شَنّت الدولُ الثلاث عدوانَها على مصر في التاسع والعشرين من شهر تشرين الأول ١٩٥٦، قامت الجماهير بحلب بمظاهرات تندّد بالعدوان، واتجهت إلى "مدرسة اللاييك"[1] التي رأوها تنتسب إلى فرنسا.

كان وزير الداخلية يومذاك "أحمد قنبر" (صاحب جريدة "النذير" بحلب)، خشي أن يعمد المتظاهرون إلى إحراق المبنى، فهتف من مكتبه بدمشق إلى محافظ حلب " بدري الجراح"، يوعز إليه أن يمنع المتظاهرين من الوصول إلى المدرسة، وإن اقتضى الأمر فليأمر بإطلاق النار عليهم.

لم يمتثل المحافظ للأمر. ومع اقتراب المتظاهرين من المبنى، اتصل الوزير به ثانية، وأمره بإطلاق النار، وأشهَدَ على نفسه أنه يأمره بذلك في حضور وزراء سمّاهم وكلّموه... ومع ذلك لم تُطلق نار، وأضرمت النيران في مدرسة اللاييك.

فهل كان قتل مواطن، عند ذلك المسؤول، أخطرَ من إحراق مبنى؟

دمشق الشام: ٢٠-١٠-٢٠١٢

---

(١) اسم "اللاييك" أخذتْه البعثة العلمية الفرنسية التي أسّست المدرسة في الثلاثينات من القرن الماضي في دمشق وحلب، من اللغة التركيّة، بمعنى العلمانية.

لماذا؟

يتساءل المرء: لماذا؟

ألأنه سلّ المتآمرين من أوكارهم، أم لأنه تركهم يسرحون؟

ألأنه قنَصَ المتخابرين مع العدو، أم لأنه غضّ الطرفَ عنهم؟

ولم يدركوا، وهم يخططون لاغتياله[1]، أنه كان وصحبُه يؤسسون مدرسةً في الأمن الوطني حفلت بكثير من أوسمة الشرف وأعمدة الحق.

دمشق الشام: ٢١-١٠-٢٠١٢

سيف.. وشرف!

حين كان محتضَنًا من قبل "النظام"، متنقّلا بين مواقع الأدب، يكون ذلك تارة على مقاسه وتارة فضفاضًا، كان... كان يرمينا بحجارته ويضربنا بسيفه!

ويوم تراءى لي أن أقدّم إلى المؤسسة التي امتدّت فيها ذراعُه طولاً وفعلاً، مخطوطةً لي تضمّ خمس عشرة قصة متميّزة بعنوان "حزن حتى الموت"، وأنا آمل -كما يأمل كلّ كاتب – أن تحظى بالرضا فتظهرَ كتابا في منشوراتهم المتألقة، رأيته يسعى إلى أن يمنع ذلك بكل ما أوتي من مكر ودهاء.

ما أظنه جادًّا في تقديره للإبداع واحترامه للمبدعين، فقد ظلت المخطوطة في حَوْزته عاماً ادّعى بعده أنه افتقدها، ثم عاماً آخر وزيادة، ليُعدّ قراراً بالاعتذار عن النشر. حجزَ المخطوطة هذا الزمن بطوله، قبل أن تظهر كتابًا في بيروت بطبعات

---

(١) يقصد اللواء اللبناني وسام الحسن رئيس شعبة المعلومات في مديرية الأمن اللبناني.

ثلاث متتالية، والرابعة بإصدار جديد في الدار التي اضطررت إلى تأسيسها لأنشر فيها أعمالي، وكان الإصدار الخامس باللغة الفرنسية في باريس تحت عنوان D une tristesse a en mourir. ويوم فرغ النظام منه غادر البلاد إلى منفى اختياري، أخذ فيه يرفع صوت المعارض، بقدر ما كان يمارس من فعل به يُؤذينا نحن الذين لم نغادر الوطن، وظللنا فيه ضميرًا، يلاحظ، يعاني، ونكتب في ذلك ما نستطيع، ونحتضن الباقي في الأفئدة.

أمس قرأت ما نقل عنه هاو: «بلادي تحترم الغبيّ والجاهل والدعيّ والتافه»، وفاته أن يضيف: والمرائي أيضا... ويتابع: «وتضطهد المبدع وتنبذه»، ونسي أنه جعلني أنتظر على باب مؤسسته عامين وبعض العام لأحصد العدم!

ولأكمل، أيها الأصدقاء، نصَّه... يقول: «في بلادي لا يجرؤ ديك على الصياح فوق مزبلة إلا إذا كان قد ظَفِر بإذن من وزارة الداخلية ووزارة الإعلام ونقابة الفنانين»، متعمّدا أن يُغفل ذكر "اتحاد الكتّاب... " الذي كان فيه "مالكًا سعيدًا"!

بعد سياحته في المنافي، ولم تكن به من حاجة إلى ذلك، بدا لي كمن يتذكّر الإساءاتِ التي ارتكَبَ بحق "القامات" المنتصبة. يوم قَدِمت ابنتي الفنانة التشكيلية "سهير" من الولايات المتحدة إلى قطَر في حزيران الماضي (٢٠١٢) لتشارك في الأسبوع الثقافي الذي حمل عنوان "وطن يتفتّح في الحرية"، حدثتني أنه قال لأحدهم: «أنا بعرف، أبوها ما بحبّني!».

الحق أقول: إنه أديب مبدع... ولكن السؤال: كيف أباح له أدبُه وإبداعه أن يؤذي أندادَه الأدباء المبدعين حين كان في قبضته السيف، وهم معتصمون بالشرف!

دمشق الشام: ٢٢-١٠-٢٠١٢

مطر الخريف

ببرده ومطره أقبل الخريف... وليس في بيتي -أنا الثمانينيّ يعيش وحيدًا- نقطة مازوت.

ولكنّ عينيّ تذرفان الدموع على أولئك الذين فقدوا المِدفأة والسرير والبيت كلّه، فهم يفترشون العراء، تفصل بعضَهم عن بعض ملاءة، بيضاءُ أو ذات ألوان، معلّقةٌ بحبل رفيع.

قبل أيام عبّرت أديبة عن فرحتها بالمطر الهاطل... فبادرتُ أكتب في صفحتها: «المطر غيث، يا "أماني"! ولكنْ... أولئك النازحون الهائمون على وجوههم في كل مكان!»، قالت: صدقت! وأحسب أنها بكت أمام اليوتوب تكفيرًا عن فرحتها بالمطر، وأنا حزنت لأني أفسدت فرحتها!

دمشق الشام: ٢٣-١٠-٢٠١٢

هكذا علّمني الحزن!

وأنا طفل صغير توفّيت جدتي لأمي، فذهبنا إلى بيتهم لنمارس الحزن والبكاء.

كانت أمي مع نسوة الحارة في إحدى الغرف، تندب وتنوح، وهنّ يُهَدّئنَها تارة ويدَعْنَها تبكي لتُفرغ ما في الصدر تارة. وأنا مع أولاد الحارة في أرض الحوش.

فجأة صدرت عني ضحكة طفل، بلغتْ سمعَ أمي، فارتفع منها صوت: «تضحك يا حبيبي، وجدّتك التي كانت تدلّلك ميتة أمامي!»... فتذكّرتُ حزني وارتفع صوتي بالبكاء، فسمعتُهنّ يَلُمنَها: «حرام عليك، اتركي الولد!».

أيها الشعب السوري الذي يُقتّل تقتيلا! هل يحقّ لك أن تضحك، حين يموت

منّا في كلّ يوم مئات، وتهدم بيوت وحارات، ويهيم الناس في كلّ اتجاه!

أيها الحزن! هكذا جعلتَني أتكلم!

دمشق الشام: ٢٣-١٠-٢٠١٢

نازح.. يمرّ في حيّ "الروضة"!

لحظةَ شددت الباب خلفي وغدوت على الرصيف، قابلتني قامةُ رجل، استوقفني وجعل يغمغم بكلام بانَ لي فيه أنه يعرض حاجة ما.

قبل أن أروي لكم، أيها الأصدقاء، حكايتي مع الرجل تقبّلوا اعترافي بأني، منذ عملت موظفًا في الشؤون الاجتماعية (قبل خمسين عامًا ويزيد) متولّيًا الاطلاع على أمور الجمعيات بحلب، ومنها الخيرية التي فيها تلك التي تكافح التسوّل، وأنا غير قادر على أن أتخلّى عن نظرتي السلبية إلى المتسوّلين. وكلهم محترفون. ولعل آخر نموذج لهؤلاء ذاك الذي كان يقتعد الرصيف خلف مبنى البرلمان، عارضًا طفلاً -ربما مستأجَرًا أو مستعارًا! - يكشف لك عن بطنه فيُظْهِر لك فيه جرحاً نازفاً ما هو إلا قطعة من بلاستيك حمراء مصنّعة، ثم -عند إمعانك النظر- يُغطّيها! الشاب، الذي استوقفني ظهيرة اليوم على رصيف بيتي في "حيّ الروضة" (يسكنه الموسرون، ولستُ منهم!)، كانت خلفه شابة في هندام ريفيّ مرتّب وعلى زَندها طفل، بدأ يشرح لي حالته، لم أمكّنه، قاطعتُه: «منين انت؟»، فتابع حديثه بانكسار أوجع قلبي: «أنام أنا ومرتي والولد في... »، عدت أسأله بشدة: «قل لي انت منين؟»... لما سمعت جوابه، مددت يدي إلى جيبي وأخرجت ما فيها -وهو قليل على كلّ حال -، ونفحتُه إياه. فكان ما طفَح على وجهه من استغراب لا يُماثله إلا ما طفَرَ من عيني من دمعة ساخنة سالت على الخدّ. وتابعتُ طريقي.

صَبَرنا عُقودًا من سنين. فلما تحرّك المظلومون تحرّكت النخبة. ولكنّ أولئك تملّكوا وتمكّنوا، فهم لا يتركون الأرض إلا محروقة.

أيها النظام، لو تدرك، لحظة واحدة، ما تخطّه أناملك في صفحات التاريخ!

دمشق الشام: ٢٤-١٠-٢٠١٢

الشبّيحة.. في كلّ مكان!

بدل الساعات الخمس المعتادة يستغرقها السفرُ من حلب إلى دمشق، قطع بهما "البولمان" المسافة بثماني ساعات. حاجزٌ بعد حاجز. توقّفٌ وانتظار وتفتيشٌ يستنفد الاصطبار.

أرخى الليل سُدوله. ومطرٌ خفيف يبلّل الأرض. والأمّ وابنتها وقفتا تترقّبان مرور إحدى السيارات الصفر تقلُّهما من كراج الوصول إلى بيت أسرةٍ مِضيافٍ يقضيان عندها الليل، وفي الصباح تبرحان إلى المشفى، حيث تبقى الأم للمعالجة، وتعود البنت مساء إلى الأسرة، التي رحّبت -رغم حداثة المعرفة- في أيام التهجير والنزوح.

توقّفت أمامهما سيارة "ميكروباص". السائق يعلن، بصوت عريض، للمنتظرين أنه لم يعد لسيارات الأجرة أن تصل إلى هنا. فأقبل عليه الناس، وصعدت المرأتان، دون أن يدري أحدٌ أنّ للسائق هذا شيئا من صفاتِ مَن باتوا يُعرفون بـ"الشبّيحة"!

لم تكن، عند السائق، أجرة محدّدة للركوب، فهو يقرّر ويفرض، وعلى الركاب أن يدفعوا.

ولكنّ ثلاثة، رجلين وامرأة، احتجّوا، دفعوا له زيادة ولكنه يريدها فاحشة،

فرفضوا وهم على الرصيف ومضوا، فقال على مَسمع من الركاب متوعّدا: «طيّب!».

ثمّ بادر يتكلم في جوّاله مفتريًا: «ثلاثة من "الجيش الحرّ" نزلوا من عندي الآن!»، وأعطى أوصافهم، ما يرتدون من ثياب، وهم رجلان وامرأة، ثمّ رفع صوته مقهقهًا: «هلّق خلّيهم يخلّصوا حالهم!».

لحظةَ غادرت المرأتان الميكرو كان الرذاذ قد غدا وابلا، وتعيّن عليهما أن تترقّبا سيارةَ أجرة تقلّهما إلى بيت الأسرة.

لما دخلتا البيت أحسّتا بالدفء والأمان، وأخذتا ترويان للمضيف ما كان. فاستأذنهما بأن يكتب هذا في "خاطرة" ينشرها على الناس عبر وسيلة "التواصل الاجتماعي"؟ لم تفهما ما قال، فهما تعانيان -عدا المرض- أنهما خرجتا من تحت أنقاض بيت، في حيّ شعبيّ، تمّ تدميره بالكامل، وهما تعيشان اليوم عند أسرة أخرى!

قضتا الليلة في انتظار انبلاج الفجر. والمضيف ذهب إلى غرفته يكتب.

لما توجّهتا عند الصباح إلى حيث تبدأ المعالجة. كانت الخاطرة قد صيغت، ووجدت طريقها إلى أذهان الناس: "الشبّيحة في كلّ مكان".

دمشق الشام: أول أيام عيد الأضحى- ٢٦-١٠-٢٠١٢

بناء.. وتدمير!

في مسألة البناء والتحديث والتطوير لا يملك المشاهد هذه الأيام -مسلمًا كان أو مواطنًا عالميّا- إلا أن يعبّر عن منتهى إعجابه مقرونًا بالدهشة إزاء ما تراه العيون في الديار المقدّسة، من توسيع للأمكنة، والاستزادة من المرافق ذات الطوابق، والقوافل من السيارات، واليوم من القطارات لتنقل الحجيج، وذلك بغية استيعاب هذا التجمّع

البشري الهائل، الذي ما كان ليزيد في الماضي القريب على مليون نسمة، وهو اليوم يتجاوز الثلاثة ملايين، يجتمعون في آن، ويتحرّكون معًا، وقد توفّر لهم كل شيء، من الماء المبرّد والطعام الشهيّ والمهجع المريح، وانتهاءً بالانتقال جوًّا إلى حيث أتوا، مثلما جاؤوا، على جناح السرعة. هل أقول: إنها بعض منجزات العصر العظيمة في مضمار الإعداد للتجمّعات البشرية، التي يلتئم شملها في حين، ثم سرعان ما يتفرّق؟ ربما كان هناك من يعزو هذا الانجاز العظيم إلى المال. وأقول: المال أولا، نعم. ولكن هناك العزيمة الصادقة، والإدارة الرشيدة، والرغبة من مقاربة الكمال. وحمدًا لله أن منحنا العيون والعقول، لنبصر ونتبصّر، ونفرّق بين البناء وبين التدمير!

دمشق الشام: ثاني أيام عيد الأضحى المبارك- ٢٧-١٠-٢٠١٢

حوار مع واحد من الشبّيحة

اليوم دخلت، بالمصادفة، في حوار مع واحد من الشبّيحة، وألقيت تساؤلا عن رمي البراميل والعنقوديات، فكان جوابه الآتي (أنسخه نسخًا): «... يا لطيف شو مليان قلبك... للعلم فقط!! البراميل تَنسِف "نسفًا" ما بتنزَتّ "زتّاً"[(١)] على الرؤوس»! ثقافة جديدة تفرزها الأحداث. دمشق الشام: ٢٨-١٠-٢٠١٢

الغَيْرة على سمعة الوطن

في ضحى ذلك اليوم، الإثنين العشرين من آذار ١٩٧٨، تعنّيتُ الانتقالَ، أو ما يشبه السفر، من ضاحية "كاشان CACHAN" جنوبيّ باريس إلى قلب العاصمة الفرنسية قريبًا من متحف اللوفر، متنقّلاً من الحافلة إلى المترو حتى "شاتليه

(١) تُرمى رمياً. من العامّيّة.

Chatelet" ثمّ التغيير فيها. وفي مكتب البريد أو الهاتف، سألت عمّن أشكو إليه ذلك المستخدم المناوب حين نادى عليّ باسمي، وأنا في مقاعد المنتظرين، بطريقة أقرب إلى الصراخ، أن أسرع إلى "الكابين" لأتحدث مع دمشق، ثم ما كان بيني وبينه بعد تمام المكالمة من حوار ساخن، ازدادت فيه فظاظته، فبدلاً من أن يعتذر رأيته يتصل لاسلكيًّا بدورية الشرطة التي أسرعت بالاستجابة... ثمّ لم تجد داعيًا لذلك، فأضاف الرجل إلى فظاظته استهتارًا!

دَلّوني... إلى حيث دخلت على موظفة، بدا أنها المفتشة أو المحققة. رأيتها عالية القامة، تَدْلِف إلى الستين، ولكن استرعى انتباهي فيها رقةٌ في الصوت وفي قسمات الوجه مع البدانة الملحوظة. وأخذت أروي لها ما لقيت من ذلك المستخدم الليلي المناوب، وكانت بجوارها موظفة شابة تسجّل ما أُدلي به.

لما فرغت من حديثي رأيت الرقة في هذه المرأة تتحول إلى عطف وتعاطف، وأحسب أنه زاد في ذلك ما أشرتُ إليه من أني ما أزال -منذ نزلت فرنسا قبل أشهر- أدوّن انطباعاتي وأستوحي قصصًا أنشرها في مَجَلاّتنا العربية، وسوف أجمعها غدا في كتاب!

هل أقول: إنّ ما جرى على لساني من تعريف بنفسي كاتبًا، قد أيقظ فيها حبَّ وطنها فرنسا، وأثار غَيْرتها على سمعتها؟

قالت المفتشة: إنها تأخذ بعين الاعتبار كلَّ ما قلتُه، وهي سوف تحقق مع المستخدم المناوب، وسوف ينال ما يستحقّ... ثمّ... ثمّ رأيتها تأخذ كفي، وتضمّها بين كفيها مثل يمامة (اضحكوا قليلاً!)، وترفعها إلى ما فوق صدرها العالي، وترجوني بحرارة ألا أكتب عن فرنسا إلا كل جميل... ولأتذكّرْ وأنا الكاتب -قالت- موليير

وفكتور هيغو وبلزاك وسيمون دو بوفوار (كانت في قيد الحياة)... فإنّ هؤلاء سوف يوحون لك بنصوص جيدة جدًا... وفي أثناء ذلك كانت ترفع كفي المضمومة حتى عنقها!

وخرجتُ من مكتبها تغمرني عواطف الابتهاج والرضا، عواطفُ لا يُدانيها إلا إعجابي بمواطنة تمتلك هذا القدر كله من الحبّ لوطنها والغَيْرة على سمعته.

واليوم أتذكّر... وأوازن بين تلك الغَيْرة، التي ما تزال تلفحني حرارتُها منذ بضعة وثلاثين عامًا، وبين ما يَجري في وطني من... هل أقول: من تبديد للسمعة، أم من تبديد للبشر والحجر والشجر؟

دمشق الشام: ثالث أيام عيد الأضحى المبارك- ٢٨-١٠-٢٠١٢

ثقافة الموت والحياة

عندما كنا أطفالاً صغارًا، كان يصعب علينا أن نفهم معنى الموت، أن نتصوّر إنسانًا يفقد الحركة، ينام ولا يستيقظ. وما كان للطفل منا أن يدرك معنى الموت إلا إذا فَقَد عزيزًا من أهله، فغاب عنه ولم يعد يراه أبدًا.

اليوم... الصغار، حتى الذين يَحْبُون على أربع، عرفوا حقيقة الموت. فليس هناك من حارة، من مبنى، من بيت في الوطن إلا فَقَد أطفالٌ فيه، أعزّاءَ كانوا يمنحونهم الرعاية والعناية، فغابوا عن أعينهم، وهم في ذلك يرون أجسادهم الممزّقة، وأوصالهم المقطّعة، وأعناقهم المفصولة، وجماجمهم المهشّمة، والدماء تنزف، وربما كان طلوع الروح تحت أبصارهم، ويشهدون التغسيل، والتكفين، ويشاركون في التشييع، والتلاوة، وإلقاء التراب... قبل أن يعودوا إلى البيت دونهم! شكرًا لك، أيها النظام،

لأنك زوّدت أبناءنا، في وقت مبكّر جدا، بثقافة الموت. بقي عليك أن تعلم أنك زِدْتَهم بذلك قوةً وصلابة، ومقدرةً على المحافظة على الحياة، وحرصًا على المطالبة بالحرية.

دمشق الشام: ٢٩-١٠-٢٠١٢

حين يسقط "الباستيل"

بلغةٍ وطنية شعرية، عبّرتْ -في ثاني أيام عيد الأضحى المبارك- المواطِنةُ المغتربة "ديانا الجابري"، عن أملها في سقوط الـ"باستيلات"[1] المنتشرة في أرجاء الوطن، ورأت، بعين الخيال والجمال، أنها «تتهاوى أركانُ دولة المخابرات، تنهار أعمدة إمبراطورية الرعب والسجون، ويشقشق الفجر المشتهَى كحبّة فستق حلبيّ أخضر»!

فتذكّرتُ، وأخذت القلم: يوم كنت في باريس، قبل بضعة وثلاثين سنة، لم أفوّت على نفسي فرصة الذهاب إلى حيث كان "الباستيل". وجدتُه ساحةً يؤمّها الناس وتعبُرها السيارات! ترى كم من مكان في بلادنا سوف يَؤُمّه الناس ساحاتٍ تدور فيها السيارات وهي تزمّر فرحًا!

دمشق الشام: رابع أيام عيد الأضحى المبارك- ٢٩-١٠-٢٠١٢

أحزان سوري مغترب

بعد افتراق زاد على أربعة عقود، عَثَر -يقول- على عنواني في عالم "التواصل الاجتماعي"، فكتب، وتمّ التلاقي الافتراضي في شهرنا هذا الذي نحن في آخره، تشرين الأول ٢٠١٢.

أديبٌ من وطني الحبيب، التقيت به أول مرة ومرات تَلَتْها، وأنا في بيروت ربيع

---

(١) كناية عن السجون السياسية.

١٩٦٨، أشرف على طباعة روايتي "رياح كانون" (المطوّلة، مئة ألف كلمة)، التي أوشكت مراجعاتي لتجاربها الطباعية أن تنال من عينيّ. وفي سويعة العصر من بعض الأمسيات كنت أتوجّه إليه في مكتبه في سوق الناشرين، "سوق الورّاقين" (بناية درويش، شارع سوريا)، وأحتسي وإيّاه فنجان الشاي الانكليزي ذا النكهة المتميّزة جدا twiniing with jasmine، ذلك الذي ما كان لعَبَقه أن يغادر صدري أبدًا.

لمّا ذكّرتُه بهذا، عبر الرسائل التي أخذنا نتبادلها، بدا أني زِدتُه غَرَقًا في الحنين إلى الوطن، الذي لم يعد فيه قادرا على العوم.

قال: إنه، في مروره عند الناشطة السورية سميرة المسالمة، قرأ لي، فأسرع يطلب الودّ، وما كان به من حاجة، فالودّ -رغم تمادي الزمن- موصول.

«رحل الأصدقاء -يقول "مَظْهر"- وبقيتَ أنت كالسنديانة (عفوًا، أنقل لفظه!). لما دخلتُ صفحتك أنعشتْني كلماتُك وملأتْني فرحًا وأمَلا في الإنسان... ردّت إليّ الروح... أما تذكر رواية "عودة الروح" للحكيم؟ لماذا يقع هذا في وطني؟». وكتب: «هل أقول، يا صديقي: إنّ تاريخ بلدي بدأ يُكتب من لحظة أن خرج أطفالُ درعا يكتبون على الحيطان؟ »".

ترك صديقي مظهر لبنان، بُعَيد الـ ١٩٦٨، بحكم العمل، إلى المملكة المغربية، ثم تجاوز إلى كندا والولايات المتحدة، وعاد ليَبعُد ثانية لكن هذه المرة إلى الشرق الأقصى، أستراليا، فهو فيها مع زوجته الأسترالية، الكاتبة، وولديها، وله في لبنان ابنة من زواجه الأول.

ذات صباح رأيته وكأنه يغرّد: «صباح الياسمين الدمشقي، أيها الصديق... (ثم

اعترى قلمه الحزن) تُرى، هل يتاح لي أن أشمّه يومًا؟ سورية تُدمَّر، تدمَّر... ومعها تدمّر روحي. أموت في كل يوم عشرات المرات، وأنا أقول: لماذا؟ وإلى متى؟».

وما سها صديقي، اليوم، في يوم مولدي، عن أن يعبّر عما يحلُم به: «ليتني في سورية الآن!»... وكيف، وهو الذي زارها في يوم "عفو عام"، فألقوا القبض عليه على الحدود، وزجّوه فيما يسمى "فرع فلسطين" السيّئ السمعة، ليُلحّوا عليه في السؤال: «أخبرنا ما جرى من حديث على العشاء في بيتك، قبل ثلاثين عامًا، مع أكرم الحوراني وسامي الجندي؟»... يا لها من ذاكرة للنظام لا يعلوها صدأ! ومن يومئذ غادر ولم يعد!

في البدء قال، وأخّرتُ ذكره إلى هنا: «لكلماتك، لقامتك... اسمح لي أن أهمس في أذنك: لي في بيروت بيتٌ جاهز وسيارة هما رهن إشارتك. أكرمْني بالموافقة، ولا أرضى منك اعتذارًا في هذه الأيام الصعبة!».

إنه الصديق، الذي التقيتُه في ربيع العام ١٩٦٨، الكاتب السوري المنشقّ عن "حزب البعث" منذ شباط ١٩٦٦، "مظهر المَلّوحي"، صاحب الروايتين المكررةِ طباعتُهما "ضائعة في المدينة" و"الليل الطويل". اقتبست مقتطفات من رسائله لأحدّثكم عن: نصف الكأس الملآن.

دمشق الشام: ٣١-١٠-٢٠١٢

مَن يَكسِر عظم الآخر!

ليس ما يقع اليوم في سورية "حربًا أهلية"، وإنْ زعم الإبراهيمي ذلك، فهذه تقتضي أن يحترب الأهالي ضد الأهالي، وهو ما تنفيه الوقائع على الأرض.

وكذلك تجاوَزَ ما يقع أن يكون "انتفاضة"، لأنّ المنتفضين امتشقوا السلاح، بعد

ما أباح النظام سفك دمهم، واستباح حتى المقدسات، وأَثْخن فيهم، فهو يدمّرهم تدميرًا.

وأرى أنّ ما يجري قد تحوّل إلى "حرب"، أجل حرب، لكنها حرب بين النظام من جهة، وفصائل من الشعب تتزايد أعدادها، وتحوز يومًا بعد يوم مساحات، وإن كان الشعب يدفع ثمن ذلك غاليًا وغاليًا جدًا.

وهي -كما نراها- حرب ضَرُوس، شديدةٌ مهلكة للناس ولمقدَّرات الوطن. نقرأ في وقائعها أنّ النظام غير قادر على دحر الثائرين، فهو يسجّل تراجعًا وخسائره تتعاظم، هذا إلى أنّ الشعب الثائر يستحيل عليه النكوص، فمطلبه، الواضح مثل عين الشمس، هو الحرية، بعد جوع إليها اشتدّ وامتدّ عقودا من سنين.

إنها، بالاختصار، معركة "كَسْر عَظْم"، ينتصر فيها من يقوى على الصمود فيكسر عظم الآخر.

ومؤكّدٌ أنّ الشعب سوف ينتصر. فلم يحدّثنا التاريخ مرة أنّ شعبًا باد وبقي الحاكم، بل تبقى الشعوب ويمضي حكامها، مستبدّين كانوا أو عادلين.

دمشق الشام: ١-١١-٢٠١٢

صلاح الدين الأيوبي.. أهو عربيٌّ أم كرديّ؟

في نشري، ليلة أمس، خاطرتي "صلاح الدين.. مثال الفروسية الكاملة"، قصدت التنويه بما اعترف به الغرب في القرون الوسطى، بالتسامح الذي بدَرَ من صلاح الدين الأيوبي لدى عفوه عن الألوف من الأسرى الفَرنجة يوم استرداده بيت المقدس (عام٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) بأعقاب معركة حطين الشهيرة... ثم بدا، من

التعليقات التي تواردت، تساؤلٌ عمّا إذا كان هذا القائد عربيًا أو كرديًا؟

وللحقيقة والتاريخ إنّ صلاح الدين ولد في مدينة "تكريت" بالعراق (عام ٥٣٢هـ/ ١١٣٨م)، من أبوين كردِيَّي الأصل. وحين سار إلى مصر بصحبة عمّه "شيركوه"، القائد اللامع الذي كان يعمل في خدمة نور الدين زنكي، كانت تشغله أمنيات منها: مواصلة الجهاد ضدّ الفرنجة.

وللحقيقة والتاريخ أيضًا، إنّ أمّتنا في تلك الحقب من تاريخها، لم تكن معنيّة بالتنقيب في أصول حكامها، وهي تبني بيد وتدافع باليد الأخرى عن وجودها ضد غزاة حقيقيين أو محتملين، وكانت ترتضي بأن يحكمها أيٌّ من أبناء الأمم المنضوية تحت لواء الإسلام. وفكرة "القومية العربية" إنما اتخذت في مطالع القرن العشرين، وسطعت بُعيد الحرب العالمية الثانية إلى أن خبا بعض بريقها عقب النكسة التي حلّت بالعرب في حزيران ١٩٦٧.

دمشق الشام: ٣-١١-٢٠١٢

الحضارة.. التي أبدعتها الأمم الإسلامية

لست أدري لماذا يعبّر بعضهم عن عدم الارتياح عندما نشير إلى أنّ هذا البطل وذاك العَلَم في حضارتنا ينتمي إلى هذه الأمة أو تلك ممّن اعتنقوا الإسلام في زمنهم، ونراهم كما لو أنهم يريدونها حضارة عربية خالصة، على حين أنها إسلامية الروح بقدر ما ينطق لسانها بالعربية.

أحبّ أن أذكر هنا أني عندما هيّأت كتابًا للنشر بعنوان "الأندلس في عصر بني عبّاد، دراسة في سوسيولوجيا الثقافة والاقتصاد" من تأليف الباحث المغربي الدكتور أحمد الطاهري، التمس مني -التماسَ مقتدر لا التماس محتاج- أن أضع للكتاب مقدمة

وتمنى أن تكون مستفيضة.

ما يهمّني قوله هنا أني حرصت في إعدادي المقدمة على الإشارة إلى انتماء المؤلف إلى قومه "الأمازيغ" (البربر، كما يرد في كتب التراث)، هذا الباحث الذي دخل في أعماق الحياة الأندلسية في أيامها الزاهية، «فأنطقَ التاريخ، ورسم الأشكال والألوان والظلال بريشة بارعة جامعة...»، وفي ذلك تراءى لي أن أشير إلى الشاعر أحمد شوقي، فقلت: «أعاد الشاعر المصري من أصول كردية أحمد شوقي الأندلسَ إلى الذاكرة العربية، عَبر شعر أرسَلَه وهو في منفاه بإسبانيا، واليوم يعيدها إلى الأذهان الباحث المغربي من أصول أمازيغية أحمد الطاهري، عبر كتاب نثريّ قد ألّفه وهو في مُقامه بإسبانيا...».

وفي الوقت الذي همس لي الطاهري بأني، في إلحاقي اسمه باسم الشاعر العظيم، قد أخجلت تواضعه، فإنّ صديقًا لي اقترب من أذني ليقول: إنه لم يكن ثمة داع لأن أشير إلى "إثنيّة" الرجلين وقد خُيِّل إليه أنّ هذا ينال من عظمة حضارتنا. وكان عليّ أن أبيّن له أنّ ذلك مني كان لأدلل على أنّ حضارتنا العربية الإسلامية قد أسهم في تشييدها كلُ الأمم التي دخلت في الإسلام، الذي وسّع لهم بأن أعطاهم وأخذ منهم، فهو دين عالمي بحقّ.

ولن أضع القلم من يدي قبل أن أشير إلى دور المسيحيين، السُّرْيان منهم خاصة، في هذا البناء والإعمار. وإنّ كتب التراث حافلة بالثناء على ما نقلوه من العلوم والمعارف إلى العربية، ابتدأ ذلك من حُنين بن إسحاق، وما كان له أن ينتهي عند اللبنانيين الذين أسسوا في العصر الحديث بمصر المحروسة الدُّور لنشر الثقافة والصحافة، مثل نجيب متري صاحب دار المعارف، وجرجي زيدان صاحب دار

الهلال.

إنها حضارتنا التي ازدهرت بفضل العرب والأعاجم (بأجمل معاني الكلمة)، مسلمين ومسيحيين. وعندما أذكر سيبويه الفارسي ومحمد الفاتح العثماني وفؤاد صروف المسيحي اللبناني، أشعر بالاعتزاز مثل ما يعتريني وأنا اذكر أبا عمرو الجاحظ ابن البصرة والطبيب عبد الملك بن زُهْر الإشبيلي والشاعر السوري بدوي الجبل.

إنها حضارة الفُسَيفساء البديعة... فلا يَسُؤْكم إشادتنا ببُناتها المختلفي الأعراق والأديان، أيها المثقفون المعتزّون بعروبتكم.

دمشق الشام: ٤-١١-٢٠١٢

سيّارة.. كأنها طيّارة!

لم أكن قد التقيت به منذ زمن بعيد، حتى إنّ اسمه غاب عن ذهني، فذكّرني، وجعل يحدّثني، ويُسهِب، عن ذلك المسؤول -الذي نعرف أنه من أتباعه- وما بات يملك من عقارات ومقتنيات. وتوقّف طويلاً عند سيارته الباذخة، يصفها بما لا أعرف من الصفات، حتى أوشكت أن أظنّها طيّارة!

فتراءى لي أن أسأله عما إذا كان، هو وسيده، يعرفان أنّ في الناس فقرًا، وأنّ هناك ذبحًا للأطفال بالسكاكين، وقصفًا للبيوت يموت ساكنوها تحت الأنقاض، ولا يُستطاع انتشال جثثهم أو معرفة مصيرهم؟

فرأيته يلوذ بالصمت، وكأنه يسمع بهذا الذي قلت لأول مرة.

دمشق الشام: ٥-١١-٢٠١٢

تحرير المدن الذي يسبق تحرير الأرض

يتساءل المواطنون بعَجَب:

كيف يمكن تحرير أرض يحتلّها الأعداء في الجنوب منذ خمسين سنة، بالبدء بتحرير المدن التي يسكنها الناس في الشمال منذ آلاف السنين!

دمشق الشام: ٥-١١-٢٠١٢

لكلّ امرئ ما يستحقّ!

أخذ صديقي، العائد من البعثة الديبلوماسيّة في الخارج، يحدّثني بأنهم يعرضون عليه اليوم، وقد بلغ الستين، منصب كذا... وكذا... وهو حائر، يفكر. ثمّ سألني: «وأنت ماذا تعمل؟» قلت: «والله، نحن لنا... الفُتات الذي يتساقط من موائدكم العامرة!». ولم أظنّ أنه شعر بكبير حرج ولا بصغيره، فإنه يعتقد أنّ لكلّ امرئ ما يستحقّ!

دمشق الشام: ٥-١١-٢٠١٢

خبر عادي

لم أجد عند الفرّان أيّ نوع من أنواع الكعك، الذي اعتدتُ شراءه من عنده بين الحين والحين، مختصِرًا به فَطور الصباح مع كأس الحليب. قال: إنّ العامل، الذي كان يقوم بصنع الكعك، قد انطمَرَ هو وأفراد أسرته تحت أنقاض بيته منذ أسبوع!

ما لاحظته أنه كان يقول هذا وكأنه يقدّم خبرًا عاديًّا!

دمشق الشام: ٦-١١-٢٠١٢

القذيفة الثانية!

كان قد وعَدَ، في عشية العيد، أولادَ الحارة بأن يُلاعبهم بالكرة في ساحة الحيّ التَّرِبة، فليس هناك بعدُ من أماكن للّهو والتسلية في أيام العيد، والقذائفُ تتوالى إلى حيث لا يدري أحد.

في أثناء اللعب نزلت قذيفةٌ على مقربة. لم يُصَب أحد من الأولاد بسوء. أصواتُ استغاثة ترامت إليهم من هناك تُطلقها نساء. أمَرَهم بأن يلبَثوا في أماكنهم لا يَبْرحوها، وهُرع هو وشبابٌ من الحارة: نساءٌ محاصرات تحت السقف الهابط.

و... تسقط قذيفةٌ ثانية فوق المُغيثين، ممزِّقةً أجسادَهم.

وصوتٌ من بعيد جاء مجروحًا: كم مرة قلنا: لا تتجمّعوا بعد القذيفة الأولى!

دمشق الشام: ٦-١١-٢٠١٢

سؤال صغير.. للعالَم!

هل تُصغي إليّ لحظة، أيها العالَم، لألقي في سمعك سؤالًا في غاية الإيجاز؟

أسكن في سفح جبل شمالَ غرب العاصمة في بلدي التليد، ما زال يطرق سمعي، في كثير من ساعات النهار والليل، هديرُ طائرات حربية، تَسرح في السماء وتمرح، لتُلقي حمولتها من القذائف الثقيلة وبراميل المتفجرات، على هذا الحيّ السكنيّ أو ذاك، شرقَ المدينة وجنوبها، مبيدةً في ذلك أُسَرًا بكامل أفرادها، تبقى أجسادهم تحت الأنقاض وليس من سبيل إلى انتشالها.

أسأل: هل استُبيح وطنٌ في العالم، في أيّ حقبة من حقب التاريخ، على هذا المنوال؟ أم أنّ وطني يقدّم لكم الحالة المُثلى للاستباحة... وعيونكم تنظر؟!

دمشق الشام: ٦-١١-٢٠١٢

ذكريات.. ممزّقة!

في بيتها الدمشقيّ كانت تجلس وحيدة، لكنها لا تخلو إلى نفسها، فهي تشاهد "مسلسل" الدمار الذي ينزل بحلب... حلب البهيّة الجليلة، التي ارتبطت فيها بصداقات لا حصر لها مع أدبائها وأديباتها، تعرف أزِقَّتَها وحاراتِها وشوارعَها... فتكفر بـ"النظام" الذي عملت في خدمته سنين طويلة.

فجأة رنّ الهاتف. إعلاميةٌ حديثة العهد، تُحيّيها، تسألها بلطف زائد عن الأحوال والأعمال. ثمّ تعرض أن تستضيفها ساعة في برنامجها التلفزيوني الجديد، تتحدث خلالها عن أدبها، الذي تُرجم بعضُه إلى اللغات، وتسترسل في ذكرياتها عن...

لم تدرك الإعلاميةُ الشابة ما اقترف لسانها!

ـ وأية ذكريات، أيتها العزيزة! حلب... حلب الورد والفلّ والزنبق البحري، حلب الفستق والتين والزيتون، حلب التاريخ والعظمة، حلب الحضارة والعمارة، حلب يَقصِفون قلعتها دون رحمة، حلب الأزقة الظليلة، المتعرجة بحنان، تمتدّ فوقها البيوتُ من جانب إلى جانب متواصلةً متعانقة. إنّ الحجر يتعانق، وهم يدمّرون الحجر والبشر. الجامع الأموي، الذي بناه والي حلب قبل أن يصبح بدمشق الخليفة الأمويّ السابع، يقصفون مئذنته، ويحرقون أروقته، وينهبون مقتنياته، وتأتين إليّ الآن، يا صبيّة، تريدين مني أن... أن أسترسل بالحديث عن ذكرياتي؟ هل تركوا لنا ذكريات إلا مزّقوها وبعثروها؟ عذراً منك، زميلتي التي أتعرّف إليها الآن، لكن قولي لهم على لساني: لا أحبكم، أكرهكم!

وأغلقت الهاتف، وذهبتْ تبحث عن علبة المحارم.

دمشق الشام: ٧-١١-٢٠١٢

ليبيا.. مطلع شمس جديدة

مصطفى عبد الجليل.. وجهٌ أشرق في الربيع العربي بليبيا، ترأَّس ما سُمّي "المجلس الوطني المؤقت" الذي استطاع أن يؤسّس للثورة بحكمة وحنكة. محيّا هادئ وكلمات نافذة واعدة. رجلٌ أُعجبنا به وأحببناه.

أمس نقلت إلينا الأخبار أنّ هذا الزعيم يُحال إلى النيابة العسكرية للتحقيق معه في قضية مقتل اللواء عبد الفتاح يونس، الذي كان قد انشقّ عن قوات القذافي والتحق بالثورة.

أقول: إنّ حزني -الذي كان- على مقتل اللواء يونس، وإن حزني الجديد على إحالة مصطفى عبد الجليل إلى القضاء، لا يُضاهيهما إلا فرحي بقضاء يمتلك من العدالة المستحقة ما يجعله يدعو أحد أقطاب الثورة الظافرة ليمثل أمام النيابة العامة مثل أي مواطن.

أحيّي ليبيا المولودة من قريب. أحيّي قضاءها النزيه وحكمها المترفّع. دولة استطاعت أن تقشع ظلمة ديكتاتورية تُعدّ الأكثر غباءً وعماء، وتجيءَ بدولة النظام والقانون.

أصدقائي، لا تتقوّلوا على العرب. هاهم أولاء يحفِرون بأظفارهم مطلع شمس جديدة.

دمشق الشام: ٨-١١-٢٠١٢

من "الجميليّة".. إلى "باب النصر"

يريدون الانطلاق من حيّ "الجميليّة". يدخلون الساحة الكبرى. يقطعون "جادّة الخندق". كلّه طريق مستقيم، يُفضي بهم إلى "باب النصر".

كان كلٌّ منهم يستعجل الآخرين. والدان وثلاثة أولاد. استيقظوا باكرًا. يتناولون فَطورهم على عجل: هذا يَصُبّ الشاي في الكؤوس، وذاك يَسكُب مربّى الكرز في الصحن. خبزٌ وجبن وزيتون.

يريدون أن يتفقّدوا بيتهم، الذي "نزحوا" عنه قبل أسبوعين: هل سطا عليه اللصوص؟ أصابته قذيفة فانهدم، أو احترق؟ سيأخذون منه حاجات خفيفة للاستعمال. الأمّ تريد أن يحملوا منه لُحُفًا يتغطَّون بها في أيام البرد القادمة.

لا مواصلات، في هذا الصباح الباكر. الجوّ ندِيّ. والقصف لمّا يئن أوانه بعد.

عبروا الساحة، التي تتوسّط البلد.

لحظةَ خرجوا منها ضاع أثرُهم. تفجيرٌ هائل نَزَّل المباني على الأرض. وهم انطمروا، انقبروا، تحت الركام. بات مستحيلاً انتشالُهم لانعدام الوسائل، وسوف يُجهَل مصيرُهم لانعدام الأخبار.

دمشق الشام: ٩-١١-٢٠١٢

أحلام الحرية الجميلة

أيّدتُ "جورج صبرا" ولستُ مسيحيًّا، وأيّدتُ "عبد الباسط سيدا" ولستُ من أصول كرديّة، وما أيّدت "برهان غليون" لأنه من ديني ومذهبي... وإنما كان تأييدي لهم لأنهم، لأننا، نعمل لاسترداد حريتنا المسلوبة وكرامتنا المُهْدَرة.

وأما الاختلاف، الديني والإثني والمذهبي، فقد رأيت فيه تنوُّعًا ثقافيًّا يُحسَب لنا وفسيفساء تميزنا عن سائر الشعوب. وقد تمّ التفاهم بيننا -ضمنًا وعلنًا- على أنّ للآخر، لكلّ آخر فينا، حريتَه المستحِقّة الجديرة بالاحترام.

وأما الأجندات الإيديولوجية الخاصة -والمقدّرة بطبيعة الحال- فإنّ على كلّ منا أن يودعها عند أمين الباب لحظة يدخل حرم الوطنية، ليتاح له أن يقف بخشوع أمام محراب العدالة والنزاهة والشرف.

ندركُ أنها أحلام، أحلامٌ جميلة، نَجِدّ في تحقيقها، بعدما جرّحت الديكتاتورية بزمنها المتمادي ما في الصدور من الآمال والأماني، تجريحًا كان من شأنه أن عمل على نموّها وتعاظُم جوهرها ومقدارها.

دمشق الشام: ١٠-١١-٢٠١٢

النقد الأدبي.. في ظلالهم

تربّى في أحضانهم منذ نعومة الأظفار[1]، فلما بزَغت شمسهم نزل إلى الساح، فإن لم يكن متدرّعًا بالإبداع فليمارس "النقد الأدبي"، فهو -على رأي- إبداعٌ آخر.

تناولَ عملي الروائي "ثمّ أزهر الحزن" بدراسة نقدية ملتبسة: تقرأ هنا عبارة فيخيّل إليك أنه يتلمّس بها المزايا، ثمّ -بعبارة تليها- يُلغي، يُجرّح ويُثخِن، ذلك كان دأبه.

في دراسته المطوّلة، تلك التي مضى بها إلى القاهرة ليُلقيها على طلاب "معهد البحوث والدراسات العربية العالي"، وقع في تناقضٍ مردّه إلى سهو أملاه "الغرض".

---

(١) يقصد بهذا المنشور: الدكتور حسام الخطيب، الباحث والناقد، وأستاذ الأدب المقارن.

لقد ألوى على الرواية -التي أحبّها القراء حتى وصفها بعضهم بأنها «تأخذ بمجامع القلوب»- حريصًا على تهميشها وتهشيمها.

يقول بالحرف: «إنّ معظم شخصيات هذه الرواية -إن لم نقل كلّها- مسطّحةٌ، رِخْوة، غير متشكّلة، ما يقودنا إلى الإحساس بأنها من ورق»... وليس أسوأ من هذا رأيٌ يُرى في عمل روائي!

ونسي ناقدي أنه كان في دراسته نفسِها، قد امتدح الفتاة النابهة "هالة" -التي ظلّت تروي بضمير المتكلم أحزانَها الذاتية وأحزان أسرتها على مدى أربعمئة صفحة- بكلام ولا أروع... نسي أنه قال في هذه الفتاة الحلبية السورية العربية ما نصّه:

«... وليس لقارئ الرواية أن يُنكر أنّ شخصية هالة لم تكن نمطاً اجتماعياً قط، لقد استطاعت بما توافر لها من الاستقلال الشخصي وذكاء الفطرة وصفاء النفس ورشاقة الحركة ما يجعلها شخصية لا تنسى»!

فكيف ساغ عنده أن يُدرج هذه الصفات الطيبة للبطلة، التي استأثرت بحوادث الرواية رصدًا وإحساسًا وتعبيرا، ثم يُزري بشخصيات الرواية مجتمعة وأولها هالة! ما ذاك إلا أنّ "الغرض" يُعمي ويُردي.

وما كانوا يمكّنوننا من الدفاع عن النفس وعن الأدب الذي نَخُطّ، في مواجهة هؤلاء الكتّاب إلا في أضيق مجال، ولكني كتبت في الرد ما أثلج الصدور، في مجلة تصدر وراء الحدود.

كان ذلك في عام ١٩٧٥... ذكّرني به اليوم قول للصديقة الجديدة "ثناء البارودي".

دمشق الشام: ١١-١١-٢٠١٢

طالب بجامعة دمشق يندّد بتاريخ أمته!

بمروري فجر اليوم بصفحة ابنتي الفنانة التشكيلية "سهير" (فلوريدا، الولايات المتحدة)، وهي تستصرخ شهامة العرب لوضع حدّ للنكبة في سورية، قرأتُ تعليقا لمن يقول: إنه (طالب بكلية الفنون الجميلة بجامعة دمشق) يندّد فيه بتاريخ أمته، علّقت ابنتي، وعلقتُ... وإليكم ما كان[١]...

فاضل السباعي: لو تعلم، يا بسام أنّ العرب، أنّ الإسلام، ما دخلوا مِصراً من الأمصار إلا أشاعوا فيه الأمن والحضارة...

لو أنك تعرف فقط أنّ الصروح التي شيّدها أجدادنا في إسبانيا، في الأندلس على سبيل المثال، توفّر للحكومة اليوم موارد عظيمة، والسياحُ القادمون من أنحاء العالم يتفرجون ويَبْهَرهم الإعجاب، و"عربي" يحشرج من خلف الكواليس المعتمة يقول: «بحجة الفتوحات بنى [العرب] تاريخهم على السرقة والسلب تحت اسم غنائم»...

ما أجهلك بتاريخ أمتك، يا عدوّ نفسك! أنت مهيّأ لأن تكون واحدًا من المتخابرين مع العدو، أولئك الذين كشفهم فرع المعلومات البارع بلبنان، فقتلتم بالأمس رئيسه اللواء وِسام الحسن، واحدًا من أعظم الضباط العرب المعاصرين!

دمشق بني أمية: ١٢-١١-٢٠١٢

---

(١) وقد كتب المعلق: تنادين عرب الشهامة؟ بحجة الفتوحات بني تاريخهم على السرقة والسلب تحت اسم غنائم، وهو محلل بالقران! فكان الرد من فاضل السباعي.

التاريخ.. وضلال الرأي!

في جلسة حميمة بإحدى العواصم الخليجية، كان الجلساء جميعًا أكاديميين ومعظمهم من سورية، بينهم ابن شقيقتي الطبيب "م. ك"، واتفق أن انتقل الحديث من السياسة، كما يقع عادة، إلى التاريخ، التاريخ الأندلسي هذه المرة. وما كاد طبيب الجسم "م. ك" يبدأ بالحديث عن منجزات الأجداد في الأندلس، حتى تصدّى له ذلك الأكاديميّ، الذي كان قد ملأ الساحة الثقافية بدمشق، منذ مطالع السبعينيات، بمقولاته ومنقولاته قبل أن يغادر إلى أطراف الجزيرة العربية، تصدّى يقول مختزلاً دور الأسلاف في بناء الأندلس، بأنهم كانوا هناك كمن استولَوا على بلد ثم اضطروا إلى الرحيل عنه، لأنه ليس لهم (أو كلاماً من هذا القبيل)!

لم يتمالك نفسه الدكتور "م. ك"، الذي كان -إلى عمله طبيبًا ناجحًا- يعاني الثقافة، متناولاً القلمَ أُوَيقاتِ الفراغ، والألوانَ أيضًا... رفع صوته، مفنّدًا هذا القول العجيب يصدر عن أكاديمي ظلّ يعلّم طوال ثلاثين أربعين سنة في عاصمة الأمويين التي في زمنها تمّ فتح الأندلس! وذكر أنّ من الإنجاز الحضاري في الأندلس تلك الصروح التي بناها الأندلسيون المسلمون، مما لم يسبق أن ارتفع مثيلٌ لها في إسبانيا قبل دخول الفاتحين، ولا قام ما يناظرها في الجانب الآخر من شبه الجزيرة الإيبيرية إبّان العصور الأندلسية، لا ولا تابع الإسبان تلك المسيرة الحضارية المرهفة بعد خروج العرب.

مشيرًا في أثناء ذلك إلى أنّ "خاله" (وذكر الاسم) معنيّ بالتراث الأندلسي وأنه كتَبَ في ذلك كثيرًا!

بُهت الأكاديمي وانتابه قلق. ولم يكن ذلك من الردّ المفحم، بمقدار ما كان من أنه عرف أنّ "خال" المتكلم كان هو هو صاحب تلك الرواية، التي تجنّى عليها في نقده يومًا، ولم يفلح في استرضائه وسيط! وما عرفَ النومَ في ليلته... إلا بعد أن قام إلى الهاتف يعتذر.

ترى كم ذا يختلف ضلال الرأي عند هذا الأكاديمي المنتشر هنا وهناك، وعند ذلك الصغير الذي يبدو أنه يستعدّ لأن يكون في المستقبل ضالًّا آخر!

دمشق الشام: ١٢-١١-٢٠١٢

أمعقول ما يجري أمام أعيننا؟

قرأت اليوم بالعامية، وليس لي من فضل إلا "تفصيح" العبارة: مررتُ بالمحل الذي نزلت فيه القذيفة يوم أمس بـ"حيّ الوعر" بحمص، التي راح ضحيتَها خمسة أطفال وامرأة، طبعًا راحوا "شُقف شُقف"!

رأيت هناك رجلاً في نحو الخامسة والأربعين، ينحني على الأرض وكأنه يبحث عن شيء وهو يبكي، وعرفت أنه يبحث عن "بقايا ابنه"، عن مِزَق من لحمه... وكان يقول كمن يحدث نفسه: «معقول! حتى وهو ميت لا أجده! كنت أقطع عن نفسي لأطعمه حتى جعلته كبيرًا! الآن، هكذا، تبخّر، راح شقف!».

والتمّ حوله بعض الناس يواسونه، وأخذوه جانبًا، ثم جعلوا يبحثون هنا وهناك، حتى عثروا على قطعة لحم صغيرة فيها آثار دم... اعتقد الرجل أنها لابنه.

وذهبوا وإياه ليدفنوها.

دمشق الشام: الأول من المحرم ١٤٣٤/ ١٥-١١-٢٠١٢

حتى لا يتحوّل السُّبات.. إلى موت سريريّ!

قلت لصاحبي ونحن مختلفان رأيا:

أجل، إنّ من حقّ "حماس"، بل من واجبها، أن تنتفض في كلّ حين، فتوجّه إلى قلب إسرائيل ضربات موجعة (نزل رئيسهم إلى الملجأ!)، وذلك حتى لا يظنّ العدو أننا في حالة سُبات قريبة من الموت، وأنه هو في حالة استقرار تبثّ فيه الطمأنينة... ذلك يعزّز كيانه، ويلغي -مع الاستمرار- وجودنا. ولا كبير اعتبار لما يلحق بنا من خسائر، فإنّ القضية هنا حياة أو موت!

وأحسب أنّ على صاحبي أن يأخذ في التفكير وقتًا، فإنّ السُّبات حين يطول يصيب الدماغ بالزْهايْمر، أو يتحوّل إلى موت سريري.

دمشق الشام: ١٦-١١-٢٠١٢

التصفيق وقوفًا!

يقول جورج برنارد شو: «من عيوب الديمقراطية أنها تجبرك على الاستماع إلى رأي الحمقى!».

وأقول: إنّ الاضطرار إلى سماع آراء الحمقى في ظلال الديمقراطية، يا مستر شو، أهون من اضطرارنا إلى التصفيق عند كل عبارة ينطق بها ديكتاتور في خطاب لا نهاية له!

وأضيف: إنّ مسؤولًا سمعت به، جرى على أن يصفق واقفًا عند ذكر اسم الديكتاتور في الخُطَب، فيُضطر الحاضرون، مجاراةً أو انصياعًا، إلى التصفيق واقفين. ولما كان الاسم كثير الورود في الخطبة، فأنت تراهم قيامًا وقعودًا... فكرهوا هذا

المسؤول أكثر مما يكرهون صاحب الاسم.

دمشق الشام: ١٦-١١-٢٠١٢

بالتاريخ والجغرافيا.. محكومون

يوم أعلنوا أنّ "جورج صبرا" أمسى رئيسًا للمجلس الوطني... فرحت.

ويوم أعلنوا أنّ "أحمد معاذ الخطيب" انتُخب رئيسًا للائتلاف الوطني... فرحت أكثر.

ويوم سمّوا "منذر ماخوس" سفيرًا لسورية الجديدة بباريس... فرحت أكثر وأكثر.

ودعوني، أيها الأصدقاء، أنعشْ ذاكرتي: يومًا استمعت إلى خطبة بليغة للزعيم اللبناني "بطرس حرب"، يلقيها في برلمان وطنه متعمّقًا هذا المعنى، فأدركت كم ذا أنضجت التجربةُ والمعرفة هذا الراضعَ من ثدي الوطنية والإنسانية!

أجل، محكوم علينا، بالتاريخ والجغرافيا والاجتماع والأدب وبعناصر الحياة كلها، أن نعيش معًا على أرض واحدة. لنعلم هذه الحقيقة الجوهرية. لنتفاهمْ، لنتحابّ. الذين يبنون الوطن رجالُه كلُّهم، ولا يستأثر بذلك فريقٌ، مهما ظنّ في نفسه السموّ والاقتدار.

ولنتسامحْ، أيها الأصدقاء... إلا مع مَن قتل، وسرق، وأذلّ، وخان.

دمشق الشام: ١٩-١١-٢٠١٢

المتنصّلون

قرأت اليوم نثرًا بثّته في صفحتها صديقةٌ تعبّر به عن لوعة أمّ فقدت ابنها. فهي

تسأل، وهي تتلقّى الإجابات:

أم شهيد: يا سيادة الرئيس، ابني مات!

الرئيس: لا تخافي، بس تنحلّ الأمور رح نعطيكِ تعويض!

أم شهيد: يا سيادة رئيس الوزراء، ابني مات!

رئيس الوزراء: أنا ما شلحت الجاكيت من مبارح!

أم شهيد: يا وزير الداخلية، ابني مات!

وزير الداخلية: أنا ما عطيت تعليمات بقتل المتظاهرين!

أم شهيد: يا ناااس... ابني مااات...

الناس: الله يرحمو...

ام الشهيد: يااااارب... ابني ماااااات...

ذكّرتني هذه الأسطر القليلة الكثيرة بقصة كنت قرأتها قبل خمسين ستين سنة، للكاتب الروسي العظيم "تشيخوف" عنوانها "كآبة"[(١)]، صوّر لنا فيها حُوْذِيًّا (صاحب عربة تُقِلّ الناس) مات ولده، فكان يشكو، يحدّث ركّابه بحزنه ولا أحد يأبه به... في آخر النهار انكفأ على حصان العربة يحدّثه فيقول: ابني مات!

لا يكرّر التاريخ نفسه: في القصة هناك القدر... وهنا المتنصّلون!

دمشق الشام: ٢٠-١١-٢٠١٢

---

(١) اسم القصة الحقيقي: لمن أشكو كآبتي؟

ليسوا.. "عصافير الدوري"!

ليلة أمس صرّح الإعلامي الخائب بأنّ جيشنا الوطني استُشهد منه مئة ألف جندي خلال الانتفاضة القائمة في البلاد.

إنّ هذا الرجل، إنْ صدق، كان في قوله غَضٌّ من شأن الجيش الوطني في نظر ملايين المشاهدين المتجمّعين أمام الشاشات الصغيرة في كل مكان.

فإن كذب... فذلك يوجب على النظام الذي يفوّضه بالكلام، أن يغضب من أقبح كذبة تجري على لسان، منذ عشرين شهرا وزيادة، وأن يسحبه منه، من لسانه، إن أدركتْه شفقةٌ فلم يقطعه!

هل أعترف لكم بأني -لطيبة قلبي- صدّقت للوهلة الأولى وأوشكت أن أبكي حزنا وغضبا؟

ذلك لأنّ من هؤلاء "الشهداء" -بكلّ بساطة- بعض أبنائي وأحفادي، وأبناء إخوتي وأخواتي، وأبناء حارتي، ومدينتي، ووطني كله. وغنيٌّ عن القول أنهم "أرواح" بشرية، قد حضرنا مخاضَهم، ورافقنا تنشئتهم، وتابعنا دراستهم عاما بعد عام، وودّعناهم يوم التحقوا بالجيش جنودا للدفاع عن الوطن، ثمّ فرحنا بزواجهم وإنجابهم. وإنّ في رقابهم اليوم أسَرًا يُعيلونها. وهم -بكلّ بساطة مرة ثانية- ليسوا "عصافير الدوري"، تلك التي يتمّ اصطيادها ببنادق الرشّ، أيها السابح في مستنقع من الأكاذيب!

أقول: هناك من يُرَوُّون أرضَ الوطن بدمائهم الزكيّة، وهناك -كذلك- من يُبدعون الأضاليل ويحاولون بثَّها في شرايين الإعلام النقية.

دمشق الشام: ٢١-١١-٢٠١٢

ارحل

انقلبتَ على الديمقراطية في بلدك عام ١٩٨٩ بحجّة تهاونهم في قمع انتفاضة الجنوب. وبعد طويلٍ نضالٍ منك أتحتَ للجنوب أن يشكّل دولة، وقعدتَ تبكي على حصتك من النفط، التي ضاع من يدك كثيرُها وتعذّر عليك قبضُ قليلها.

ولقد عرفنا أنّ انقلابك كان "إسلاميّ" الهوى، وسرعان ما أطحت برفيق دربك وفكرك، تُغيّبه في السجون حينا وتظهره حينًا آخر. وأما مسلمو "دارفور"، ذَوو الأصول الإفريقية، فقد أثخنتَ فيهم وأفحشتَ فُحشًا كثيرًا.

وكان من فيض أياديك البيض نحونا أن أوفدتَ إلينا سيّئ السمعة ذاك، الذي خَبِرْنا من أمره أنه كان يُزَوّر الوقائع في ساعات النهار، ثمّ يجلس عند المساء على الموائد العامرة.

وقد ظللنا نراك، ونبتهج، كلما وقفت في جماهيرك خطيبا، تهزّ في يدك عصا، ما ندري: أهي "عصا الماريشالية"، أم تلك التي يهشّ بها الراعي غنمه؟ ونحن على يقين من أنك سوف تهزّها اليوم أو غدا ساعة تقف شاكيًا أنّ مَن هم وراء "المحاولة الانقلابية" أمس (الخميس) عملاء الأجنبي، فهي مؤامرة كونية تدبّر ضدّك.

هيّا ارحل، يا رابع الديكتاتوريين في إفريقية العربية، وكُفّ عن البحث عن مثوى آمن لجثّتك، ودع الديمقراطية تعود إلى وطنك، الذي أنجب المشير الذي "صحَّح" يومًا ما قمتَ أنت بإفساده فيما بعد، فكان هو مِن أشرفِ الضباط الغُيُر، وكنت أنت أكثرَهم تخبّطاً في الأخطاء والخيبات.

دمشق الشام: ٢٣-١١-٢٠١٢

أبي! لماذا أنت لست من المسؤولين

في ثمانينيّات القرن الماضي، وقد أنجب ثوار الـ٦٣ أولادًا شَبّوا عن الطوق وغدَوا في الإعدادي والثانوي، متربّين في ظلّ النفوذ الممتدّ، والنعيم الأمدّ، جرى هؤلاء الفتية على أن يأخذوا سيارات الآباء الرسمية، ويندفعوا بها مسرعين "مشفّطين" في الشوارع المحيطة بـ"حديقة الجاحظ" -مقلقين راحة هذا الكاتب العظيم- حتى شوارعِ "أبو رمّانة".

وكان شرطي المرور، إذا ما توقّف أحد هؤلاء عند الإشارة، ربما اقترب منه ووجّه إليه ملاحظة. فإنْ هو همّ بتحرير مخالفة نزل الفتى ومَن معه من زملاء المدرسة المنصرفين تَوًّا، الضاجّين بهجةً وفرحًا، و"عملوا قتلة" للشرطي المتجاوز حدوده. ولا شكّ أنّ هذا السلوك النابي أحرج الآباء المسؤولين. ولما لم يكونوا قادرين على لجم سلوك أبنائهم المدللين، فقد كان الحلّ أن يرافق كلَّ شرطي مرور واحدٌ من الشرطة العسكرية، ربما لحماية الشرطي وليس لتحرير ضبط مخالفة.

المؤلم لي أنّ ولدي الوحيد كان في تلك الآونة زميلَ مدرسة لهؤلاء، يركب معهم ويبتهج. وقد جاءني يوما يقول لي بحزن: «أبي! لماذا أنت لست من المسؤولين؟!».

وكنت، منذ ما قبل الثمانينيات، أكتب أدبًا يندّد بالفساد. هل أقول: إنّ عجزي عن إقناع ابني بالحقيقة والواقع كان مؤلما لي... إلى حدّ البكاء!

وبعيدًا عن الألم، أقول: لو أنّ الجاحظ، -الذي سُمّيت تلك الحديقة باسمه- يحيا بيننا اليوم، لكان ألّف عن هؤلاء الفتية المقلقين كتابًا سمّاه «الغارقون في النعيم»، وربما «الدُّخلاء»، يكون جزءًا متمّما لكتابه الشهير «البخلاء».

دمشق الشام: ٢٤-١١-٢٠١٢

ويمشي في الشارع.. الهُوينى!

يوم تمّ انتخاب الدكتور ناظم القدسي رئيسا للجمهورية العربية السورية من قِبل المجلس النيابي في أواخر العام ١٩٦١، علمتُ -وكنت مقيما في مدينتي حلب- أنه وجّه نُصحاً جميلاً إلى أفراد أسرته في مسقط رأسه حلب، بأن يظلّوا على ما هم عليه من التحلّي بالكياسة في تعاملهم مع الناس. وأستطيع أن أفسّر هذا النصح الراقي بألا يعتدّوا بأنّ عائلهم قد أمسى رئيسًا للجمهورية. ثمّ لم نسمع أنّ أحدًا من أفراد أسرته الكريمة، ومنهم ابنه "فيصل القدسي" (وهو اليوم رجل أعمال في لندن)، قد عَلِقت بتصرفاتهم، قبل وبعد، أيةُ شائبة من الشوائب.

وكان معروفًا عن سورية، في عهدها الاستقلالي الديمقراطي، شيوعُ الأمن في أرجائها، حتى إنّ المسؤول الكبير فيها لم يكن له، في أثناء تنقّلاته وجولاته، إلا أقلّ من القليل من المرافقين، فليس هناك أحدٌ يكمن لأحد يريد إيقاع الأذى به.

وأروي هنا ما حدّثني به يومًا صديقٌ دمشقيّ، من أنه رأى، في يوم من أيام الخمسينيات من القرن الماضي، رجلاً وقورا يمشي الهوينى في شارع، عاقدًا يديه خلف ظهره، ثم رآه يتوقّف أمام بناية ترتفع في ذلك المكان، ويتأملها، فهي جزء من الحيّ الذي يسكن فيه. ولم يكن هذا الرجل، المطمئنّ في مشيته وفي وقفته، إلّا ناظم القدسي، رئيسَ المجلس النيابي آنذاك، المكتوبَ له أن يكون عما قريب رئيسا للجمهورية.

حدِّثوني، أيها الأصدقاء: هل يستطيع مسؤول، متوسطُ الحجم والقدر أو صغيرُهما، في أيامنا -أعني ما قبل الانتفاضة الدامية- أن يمشي في شارعٍ الهوينى، ويتوقّف مطمئنًّا ليتأمل مبنى يرتفع في حارته؟

دمشق الشام: ٢٥-١١-٢٠١٢

الشوق إلى.. الديمقراطية!

في تعليقات الأصدقاء النازلة في صفحتي وفي رسائلهم المنزوية في عتمة "الدردشة"، حول ما أنشره من خواطر عن رجالات البلد في خمسينيات القرن الماضي، لاحظتُ أنّ هذه الخواطر تثير أسئلة، بل إنها تفتّق أشواقًا إلى الديمقراطية، تلك التي قصَفت الانقلاباتُ العسكرية عمرها وهي في المهد لمّا تزل، فما عرفت أجيالُ اليومِ منها إلا الوصف، ولم يقدّر للعيون أن تكتحل بمرأى الشكل.

تساءل أحد الأصدقاء غيرَ مصدِّق، عمّا إذا كان مسؤولٌ كبير في ذلك الحين يستطيع حقًّا أن يسير في الطرقات بين الناس آمنا دون حراسة؟

فقلت: أجل. لأنه كان يتحلّى بالأمانة في كل شيء: أمينٌ على ما استُودِع من أموال الدولة فلم يسرقها، أمينٌ على الأرواح المنوط به حمايتُها فلم يُزْهِقها، وأمينٌ على الوطن لم يُفرّط به. فممّ الخوف إذن؟

وكتبت إليّ طالبةٌ في الدراسات العليا تتمنى لو أنها كانت سبقت في العمر فعاشت في حقبة الخمسينيات، كي تستظلّ أفياءَ الديمقراطية التي طال سماعها بها، ولا ضيرَ عندها في أن يصيبها بعض الشرر في ظلّها ما دام صوت الاحتجاج يُرفع، ويَجد آذانًا تسمع.

ولها أقول:

لسوف يتاح لك، أيتها الشابة، أنت وأبناء جيلك، أن تُبدعوا ديمقراطية أفضل وأكمل وأجمل، لأنكم ستحتاطون فلا تُغفِلوا تحصينَها من المغامرين المحتملين الذين سيحاولون اغتيالها: بحجّة نصرة الفقراء وهم السارقون، وبالعزم على تحقيق الأماني

القومية وهم الكاذبون، وبالتّفاني في الدفاع عن الوطن وهم المتخاذلون.

ذلك كله بعد أن يرحل جيلُنا على بَكْرة أبيه، وقد أرهقه القهر وأذلّته الحاجة. ولكنّ زغرداتكم سوف تصل إلى أرواحنا، فنشارككم فرحة الخلاص من محنة، تجرّعنا نحن كأسها حتى الثمالة، وما ارتشفت شفاهكم منها إلا القليل، يا عزيزتي طالبة الدكتوراه.

دمشق الشام: ٢٦-١١-٢٠١٢

دمع على بغداد.. دموع على سورية

يوم كنا نسمع بخبر تفجير وقع في بغداد، وحصَد عشرين، ثلاثين، مئة إنسان... كنت أتألم حتى البكاء!

تُرى: كم هو مقدار الدموع التي يَذرِفها العرب وهم يسمعون بأخبار المجازر التي تقع في سورية، يوميّاً، ويذهب ضحيّتَها المئات من البشر، بينهم أطفال يُذبحون بالسكاكين!

دمشق الشام: ٢٧-١١-٢٠١٢

دمشقيّة.. من "حيّ الصالحيّة"

صعِدتُ اليوم إلى "سوق محيي الدين بن عربي" (في سفح جبل قاسِيون، في "حيّ الصالحية"). وأعترف بأني عجَزتُ وأنا أسأل عن "ليف" للاستحمام يكون من الليف النباتي، أين يباع؟ ثمّ رحت أسأل مَن أمُرّ بهنّ من النسوة، فقد خيّل إليّ أنهنّ أعرَفُ.

إلى أن استوقفتُ امرأة وسألتُها، فأخذت تدلّني بأريحيّةٍ، مشيرةً بيدها إلى أمام، وبدا أنها لاحظت أني أنظر إلى وجهها أكثر مما أتطلّع إلى حيث تشير، فإذا هي تخاطبني

قائلة: «لا تتطلّع في وجهي، انظر إلى هناك!».

واكتشفتُ أنا، واكتشفت هي، أني كنت أنظر إلى عينيها الساحرتين، اتساعًا وحَوَرًا، أكثرَ مما أنظر إلى هناك!

إنها دمشقيّة... من حيّ الصالحية.

دمشق الشام: ٢٧-١١-٢٠١٢

القناعة المطلقة

جعلت أنظر إليه باندهاش، وهو يتدفّق بكلامه: «لسوف تعلمون غدًا، عندما يفشل مشروعكم المرتبط بالأجنبي، هولَ ما جنته أياديكم في حق الوطن، من سفك دم وتدمير بنيان، وتندمون كثيرا وأنتم تتلقّون العقاب الصارم!».

أذهلَني صديقي، الموالي للنظام، بكلماته هذه... التي كنت على وَشْك أن أوجّه له مثلها، لولا أن سبقني إليها!

ثمّ أرخيت لخيالي العِنان... أتصوّر نهاية قتال يمتلك كلّ طرف فيه القناعة المطلقة بأنه على حقّ وبأنّ الطرف الآخر على ضلال!

دمشق الشام: ٢٨-١١-٢٠١٢

لم يعد في سوريّة تلميذٌ كسول

قالوا: إنّ عدد المواليد في الولايات المتحدة، بعد تسعة أشهر مرّت على الحادي عشر من أيلول، تجاوز المعدل... ذلك أنّ الناس هُرعوا في تلك الليلة إلى مهاجعهم إثباتًا للنفس بأنهم ما زالوا في الحياة!

واليوم في سورية:

لأنّ القصف تناول المدارس، فيُضطرّ التلاميذ إلى تلقّي الدروس في الأماكن المرتجلة أو في الخرابات، فإنّ حبّ التعلّم عندهم فاق الحدّ، فليس اليوم في سوريّة تلميذٌ واحد كسول!

ولأنّ القصف طال المساجد، فإنّ المصلّين أصبحوا أكثر حِرصًا على الصلاة وأدائها في أوقاتها!

ولأنّ وقود التدفئة شَحّ أو انقطع، فإنّ الناس زادت مقدرتهم على تحمّل أذى البرد والصقيع!

ولأنّ السوريين افتقدوا الحرية، وعلى مدى عقود من السنين... فإنهم استيقظوا اليوم، وهم مصرّون على قطف ثمارها مهما بلغت التضحيات!

والتاريخ يسجّل. دمشق الشام: ٢٨-١١-٢٠١٢

يُعلن انشقاقه

جاء يُعْلِمني بعزمه على الانشقاق. ولما كنت أعرف فيه البراعة في التسلّق والتملّق والتعلّق، فقد تراءى لي أن أجاذبه أطراف الحديث... قلت:

اسمع، يا صاحبي! ممّا أكسبتْني إياه الأيام، من معرفة الأنام، أنهم في علاقتهم بالنظام، كلٌّ منهم يكون واحدًا من أربعة، فأصغِ إليّ:

منهم من آمن بالنظام منذ البداية، وظلّ على الولاء مقيمًا.

ومنهم من نأى بنفسه عنه منذ البداية، وظلّ على مآدبه يتيمًا.

ومنهم من بدأ ضدّهم، ثمّ بدا له أن يلتحق!

ومنهم من بدأ وهو معهم، ثمّ بدا له أن ينعتق!

فأسرع لسانُه يعلن جذلاً: «أنا... أنا من هؤلاء الأخيرين!».

قلت: انتظر، لم ينتهِ كلامي... إنّ هؤلاء، الذين أرادوا الانشقاق والانعتاق، فريقان: مَن انقطعت عنهم الموارد فتركوا من يأس، ومَن صحا فترك وهو في شدّة بأس... فأنت من أيّ فريق من هؤلاء جميعًا؟

فرأيته يغتمّ لحظة، تنفرج بعدها أساريره، فيقول: «طيّب، وأنت... أنت، من أيّ فريق من هؤلاء جميعًا؟!».

فأدركت أنّ الرجل، بعد براعته في التسلّق والتملّق والتعلّق، جاءني يتقن المداورة والمناورة.

وعلى هذا تركته.

دمشق الشام: ٢٩-١١-٢٠١٢

صديق.. تغرّب!

في ذلك الربيع الذي مرّ قبل خمسين من السنين، وقفنا -أنا وصديقي- واجمَين حزينَين أمام الانقلاب الذي كان مقدّرًا له أن يسمّى «ثورة مجيدة». بقيتُ أنا في الوطن، وغرَّبَ هو إلى حيث عمل في الإعلام "العربي" موفقًا.

بالأمس، في الشبكة العنكبوتية تلاقينا: كيف الحال؟ من مات؟ من بقي؟... بعد أن أعلمتُه كتب: «أحلُم بأن تنتهي بي الحياة في الساحة القريبة من البيت الذي ولدت فيه [بحلب]، لتعلم، يا صديقي، أنه لو كان لي الخيار لما هاجرت واغتربت!».

وقرأ في صفحتي ما كتبت بعنوان "القناعة المطلقة" (٢٨-١١-٢٠١٢)... فكتب إليّ، وقد امتدّت ما بيننا المسافة في الموقع وفي الموقف، مشفقًا عليّ وعلى شعبي: «النار

التي أنتم فيها أرحم كثيرا من الجحيم الذي ينتظركم: فرنسا تريد العودة إلى دمشق وبيروت، وأمريكا تريد الأمن للُصوص فلسطين، فهل أكون معهم؟».

فجلست أكتب إليه: «لم أفهم ما تعني تماما... ولكن هل تظنّ، يا صديقي، أنّ في الدنيا أفظع من رمي براميل المتفجرات على المدن، والقذائف على المتجمعين أمام الأفران، ومن قصف الماشين وراء جنازة... ومن نزوح ثلاثة ملايين في أرض وطنهم؟!».

دمشق الشام: ٣٠-١١-٢٠١٢

انقطع النت.. جاء النت

ساعة انقطع الانترنت عصر الخميس ٢٩-١١ في أرجاء الوطن السوري، تساءلنا عن السبب؟ فسمعنا ممّن عرفناه يُتقن الكلام، أنّ العصابات المسلحة هي التي فعلت.

فتكرّر منّا التساؤل والتَسْآل: كيف تتمكّن هذه العصابات من الوصول إلى مرافق الشبكة العنكبوتية، تلك التي لا تتموضع في مكان واحد، وأن تستطيع أيضًا أن تخرّب الاتصالات الهاتفية بين المحافظات؟ ذلك كله في ساعة واحدة؟ يا سبحان الله!

هذا التعليل يُدلي به من يُنمّق الكلام مفرداتٍ ونبرةً، يقدّم الدليل على أحد أمرين: إمّا العجز عن الحماية، وإمّا التمتّع بذلك الحبل القصير -عفوًا- حتى النهاية.

فإن كان الأمر الأول، فلِمَ لم تُتّخذ الاحتياطات الكاملة لتجنّب المفاجآت الهائلة؟

وإن كان الثاني، أفلم يَئِن الأوان لأن يكفّ المتكلم عن هذا الكلام؟ وما زال في البال -عفوًا مرة أخرى- يومٌ خرج فيه على جمهور الفضائية، مصطحِبًا مَن اسمه

«هسام هسام هسام هسام» (نعم، مكررًا أربعًا وعشرًا!)، فأغرقَنا المصاحِبُ والمصاحَب (بالكسر والفتح) بسيل من التخيّلات ووضَعانا في متاهات الترَّهات!

نأمل ألا ينقطع الانترنت في سورية دفعة واحدة مرة أخرى، فإن حصل ذلك فبصريح العبارة أعلمونا، وما فيه زعل.

دمشق الشام: ١-١٢-٢٠١٢

غِشٌّ في الحليب.. غشٌّ في الوظيفة!

في مهمة رسمية نُدبت لها قبل أربعين عاما أتاحت لي التجوال في ريف دمشق وصولاً إلى محافظة القنيطرة، تعرّفتُ في بلدة "خان أرنبة"، وعبر زَمالة عابرة لاثنين من معلمي المدرسة فيها، على فضيلة ريفية، ما زالت فَحْواها ماثلةً في خاطري.

تمتلك كلُّ أسرة في البلدة غالبًا، بقرةً تستثمرها، ومن مؤدّى ذلك أن تَصنَع من لبنها (حليبها) المشتقات ويَنزل بها صانعها إلى المدينة يسوّقها.

وقد جرت العادة على أن تتفق جماعة من الأسر على تقديم نتاجهم، عند الصباح، إلى من اتفقوا وإياه على أن يُصنّع من الحليب ما يمكّنه -مع ما يتلقى- من أن يتوجّه إلى المدينة بنتاج أوفر. ثم يأتي الدور لسائر الأُسر، وهكذا دواليك.

وقد حدّثني المعلمان الشابان -وهنا بيت القصيد- بأنّ غشًّا في الحليب المسلَّم، بإضافة الماء إليه، لا يقع البتّة... كيف؟ لأنّ عندهم اعتقادًا بأنّ من يغشّ في حليب بقرته اليوم لا يأمن أن تنفُق غدا!

أقول: ليتهم يتحلَّون بهذه الفضيلة موظفو الحكومة، بأن يسري بينهم اعتقادٌ بأنّ من يغشّ، من يرتشي اليوم، تصعد روحه إلى السماء غدا!

ولن أدع القلم من يدي قبل أن أروي "سالفة" تتعلق بالغشّ أيضا، لكن في مجال آخر غير الحليب والوظيفة.

في الستينيات زرت في بيروت الكاتب الأشهر منير البعلبكي (أحد أصحاب دار العلم للملايين)، فروى لنا نحن زوّاره -وكان بيننا الشاعر الحلبي مصطفى البدوي الذي يعمل في الدار مدققًا لغويًّا- أنّ بائعَ حليبٍ في بيروت اعتاد الغشّ في بضاعته، ومع صعود بيروت لتكون عاصمة للنشر تضاهي القاهرة، تحوّل الرجل إلى ناشر (ناشر كتب)، فأخذ «يغشّ في النشر كما كان يغشّ في الحليب!»، وكان البعلبكي -رحمه الله- يضحك للنكتة أكثر مِن ضحك جلسائه.

دمشق الشام: ٢-١٢-٢٠١٢

ما يراه كلٌّ في الآخر!

أمرٌ مُفارِقٌ ومحزن يلاحَظ في المواطنين اليوم: إذا تحاور اثنان ينتمي كلٌّ منهما إلى فريق فإنّ الموالي يُشفق على المعارض من أنّ إفراطه في الخيانة والعمالة سوف يُفْضي به إلى الدمار والبوار! وإنّ المعارض يُشفق على الموالي من أنّ إسرافه في الانتماء والارتماء سيجلب له العار والشنار!

تُرى: أيّهما على حقّ أو على ضلال؟ أم أنهما يتقاسمان ذلك مناصفةً!

دمشق الشام: ٣-١٢-٢٠١٢

لا أستطيع أن أكتب إلا هذا!

ذات يوم اجتمعت وإيّاه في زاوية مقهى. لم تمنعني معرفتي بأنه يحتلّ مكانةً في صفوفهم، من أن أتجاوز التلميح إلى التصريح، وأن أنتقد الأحوال والأوضاع، وكان

يُصغي إليّ بجوارحه كلّها، يناقشني قليلاً، ويؤيّدني كثيرًا وهو يصعّد الآهات.

وعلى هذا افترقنا.

لما فتحت الجريدة، صباح اليوم التالي، قرأت له كلاما كثيرا يُثني فيه على النظام ويَبْصِم له بالأصابع العشر!

لم أتمالك نفسي. لا، ولم أجرؤ على أن أسأله بالهاتف.

لحظة رآني، لم ينتظر مني أن أسأله، بادر يقول كالخجلان: «اعذِرني صديقي! أنا لا أستطيع أن أفعل إلا هذا!».

دمشق الشام: ٣-١٢-٢٠١٢

بين المعارضة والمروق

صرَخَ بي في ألم: ماذا تظنّ؟!

أنت إنْ عبّرت عن آرائك، قالوا: إنك «معارض»! فإن عبّرتُ أنا، قالوا عني: «مارق»!

ماذا تظنّ؟ دعني في حالي!

فكان إشفاقي عليه يعادل غضبي منه.

دمشق الشام: ٣-١٢-٢٠١٢

العزف.. على إيقاع القصف!

في نحو الساعة الرابعة من مساء هذا اليوم (الاثنين)، غادرت بيتي أمشي على ضفّة "نهر تورا" (أحد فروع "بردى" السبعة داخل دمشق)، هذا الفرع الذي يخترق "حيّ الروضة" قادمًا من الساحة المسماة باسمها باتجاه ساحة "الجسر الأبيض".

فجأة، وأنا أمشي الهوينى باتجاه "ساحة الروضة"، طرق الأسماعَ صوتُ قذائفَ أربعٍ متتالية أعقبتْها أربعٌ أخرى. ومن عجبٍ أن أرى السيارات تتابع سيرها باتجاه مصدر الصوت غير عابئة بشيء، والناس كذلك يواصلون السير لا يبدو عليهم خوف أو ذعر، إلا فتاةً مرّت بي وهي تسرع الخطا، لا تجري ولا تهرول ربما لإظهار رباطة الجأش.

وأنا أنا، فقد توقفت عند "الصرّاف الآلي"، في منتصف هذا الشارع الذي أطلقوا عليه اسم الشاعر زهير بن أبي سُلمى، ساحبًا كلّ ما يحقّ لي. هل هذا مني خوفٌ من مجهول؟

وهأنذا أعود سليما وأدخل بيتي آمنًا، لأقول لكم- ولست أُذيع سرًّا-: إنّ النظام استطاع أن يعقد "ألفة" بين شعبه الطيّب وبين رصاص قنّاص غادر، وشظايا شاردة، وقذائف هادفة، وبراميل تنزل من السماء ليس لأحد أن يتّهم فيها "العصابات المسلحة".

أقوم الآن إلى الكمبيوتر، لأكتب هذه "الخاطرة"، أعزف لحَنها بأنامل غير مرتجفة، على إيقاع قصفٍ ما كان له أن يهادننا منذ شهور وشهور.

وتصبحون على... حياة.

دمشق الشام: ٣-١٢-٢٠١٢

من الرجل الذي يحكم سورية غدًا؟

[إلى ابنتي التي يؤلمها الوطن وهي في مغتربها البعيد، تكتب إليّ الليلة معبّرة عن أسفها لإصرار بعضهم على طرح هذا السؤال البغيض]

أقول، أيها السادة: نحن لا نبحث عن "حاكم" بديل، بل عن "نظام حكم" بديل. ولن يكون الرجل الذي يتسلّم القيادة حاكمًا مطلقًا، ذلك أنه سيكون معه، قبله، فوقه، شركاء في الحكم.

واسمحوا لي أن أتوسّع في الحديث، فأقول: إنّ الملك فاروق، حتى فاروق الذي أَهَنّاه طويلاً، لم يكن حاكمًا مطلقًا، كان يتقيّد بالدستور. ويوم فاز حزب الوفد بالأغلبية في انتخابات ١٩٥٠، خلافا للإرادة السامية، اضطر الملك إلى أن يعطي رئيس هذا الحزب، مصطفى النحاس باشا، الحقّ بتشكيل الوزارة، هذا الذي بادر إلى تعديل الدستور، فسمّي فاروق "ملك مصر والسودان" بدلا من "ملك مصر" تحقيقا للأماني القومية للشعبين المصري والسوداني.

من يحكمنا غدا؟

إنّ كثيرًا، وكثيرًا جدًا جدًا، من أبناء سورية الحبيبة، من المثقفين المتنوّرين، والعاملين في الإدارة والسياسة، كلّ واحد منهم حدير بأن يكون وزيرًا، نائبًا في البرلمان، رئيسًا للوزراء، رئيسًا للجمهورية:

أحمد معاذ الخطيب، جورج صبرا، منذر ماخوس، سهير الأتاسي، هيثم المالح، عمّار القربي، زهير سالم، بسام جعارة، وليد البني، رياض حجاب، حبيب الصالح،.... كلهم، كلهم صالحون، ولم لا؟

إن التوقّف عند السؤال: من الرجل الذي يحكمنا غدًا، هو -بالاختصار- وليد "تربية ديكتاتورية"! اسألوا، أيها السادة، عن الأفكار، التي يحملها الرجال الأبرار... وليس عن الرجل بحدّ ذاته.

دمشق الشام: ٤-١٢-٢٠١٢

قل، يا صديقي.. وامض!

صديقي، الذي اغترب منذ أربعين أو خمسين، وغفا في الأحضان هناك سالمًا منعّمًا، إلا من "حنين" -أراه ملتبسا- يعتاده إلى ملاعب الصبا. إنه لا يريد أن يستيقظ حتى إن قرعت سمعَه راجماتُ الصواريخ والبراميل الهابطة.

يقول: «ثواركم هم الذين استدعوا قصف (المتظاهرين) بالبراميل. وأي عاقل كان يُمكن أن يظن بأنهم بمواجهتهم الحاكم، بالسلاح المُعطى لهم من الخارج، وبالجهاديين المتطوعين المحاربين المرتزقة بالدولار الأمريكي النفطي.. سوف يرد عليهم بقصفهم بالورود والزهور؟.. إنه لا ريب سوف يدافع عن نفسه».

في الديمقراطية المصرية، الوليدة أو المستعادة بعد ستين من الأعوام عجافا، تتجمّع المعارضة، وتسير جحافل إلى حيث الرئيس، يمكّنونها من الوصول والهتاف والمطالبة، بحقّ أو بشطط.

وإني أفتخر بهذا حتى إن أفلحوا في إسقاط الرئيس المنتخب. إنها الديمقراطية، التي لا براميل فيها!

كاتب يتسلّح بالقلم، ناسيًا أنّ "الانتفاضة" إنما أشعلتْها أغبى "ردّة فعل" يتلقاها تلاميذ كتبوا على حائط في مدينة صغيرة، فاقتُلعت أظفارهم. فلما استفحل الأمرُ قُصِف مسجد وقُتِلَ العشرات على أبوابه، ثمّ عمّ اللهيب. إذا كان للأجنبي من دور فلعله هنا، عند من ابتدأ وانتهى إلى البراميل.

ثم يبيح لنفسه متحذلقا: «جهاديون، متطوعون، محاربون، مرتزقة بالدولار الأمريكي النفطي...». أي مقتل للحوار، للمنطق، للفكر، يا بعيدا عن الوطن حتى

النسيان إلا من أوهام حنين!

وبقية المأساة تكمن في أن أولئك يستطيعون أن يقولوا كل ما يخطر في بالهم، فهذه بضاعتهم يقدمونها للناس، ونحن... نحن لا نستطيع من الكلام إلا أقلّه!

ليقل، أفسِح له في صفحتي المجال، التي يقيم فيها المكلومون ويمرّ بهم البَطارى[1] أحيانًا، مع أنها أقوال سمعناها، وعرفناها، ومججناها.

قل، يا صديقي، لكن باختصار، وامض.

دمشق الشام: ٥-١٢-٢٠١٢

تأمين الأسرة

قرأت اللحظة، في الشريط الإخباري في إحدى الفضائيات العربية، نبأ استقالة "رفيق حبيب" نائب رئيس حزب "الحرية والعدالة" بمصر، واعتزاله العمل السياسي.

وسرعان ما خطر لي أن أتساءل بين الجدّ والهزل: تُرى هل أمّن الرجلُ أسرته قبل الانشقاق؟! أسأل عن ذلك بصفتي مواطنا سوريا يعيش حقبته التاريخية المتميّزة.

دمشق الشام: ٦-١٢-٢٠١٢

النظام.. واليمام

اعتاد أن ينثُر كِسَر الخبز الزائد لليمام، فيأكلها ويدعو له.

فلما نَشِبَ القتال، أخذ يحفظ هذه الكسر في كيس علّقه في حائط المطبخ.

ولما استعرت الحرب، وجرى النظام على أن يقصف المتجمّعين أمام الأفران،

---

(١) جمع بَطران. وفصيحُها: بَطِرٌ.

جعل يمدّ يده إلى الكيس، فيخرج منه كسرًا، يمسحها بالماء ويأكلها مبلولةً.

وتراءى له، في تَوحُّده، أنّ النظام... لا يحبّ اليمام!

دمشق الشام: ٦-١٢-٢٠١٢

الاعتذار عن الأخطاء

يخيّل إليّ أنّ "حمدين صباحي"، المتزعّم في مصر، سوف يظلّ "يعتذر" عن سابق قناعاته الخاطئة مرة بعد مرة.

اليوم تقرأ عيناي (وأرجو أن أكون واهما) أنّ مناصريه هتفوا في ميدان التحرير، في غضبتهم على الرئيس محمد مرسي: «كفايه ذلّ كفايه عار.. أوعى ترحل يا بشار»، وقد عَمِيت عينا زعيمهم عن مَشاهد قذف البراميل، وذبح الأطفال بالسكاكين!

وكنت قد رأيته قبل سنوات يعتذر عن فرط إعجابه بجمال عبد الناصر، وهو قد وُلد في عصره، بعد أن عرف -كما برّر- أخطاءه الفادحة!

دمشق الشام: ٦-١٢-٢٠١٢

هل نعود إلى المربّع الأول؟

من المواد المختلف عليها في الدستور المطروح على الاستفتاء بمصر اليوم، المادة التي تقول: إنّ الشريعة الإسلامية هي المصدر الأول للتشريع.

وإني أرى أنّ شريعتنا الإسلامية هي المصدر الأول للتشريع ولتفاصيل الحياة اليومية بأسرها، نصصنا على ذلك في الدستور (وقد نزل هذا لأول مرة في دستور ١٩٧١) أم أغفلناه. وإنّ الإصرار على هذه المادة يعني الاستئثار بالرأي، ومن ثَمّ

استفزاز الأطراف الأخرى. وذلك ما يثير مخاوفهم من أنّ النظام الجديد يتّجه نحو "الأَخْوَنة"، وأنّ المواد الأخرى المختلف عليها هي خطوات أولى.

يوم فوز حزب الحرية والعدالة بالأغلبية في الانتخابات النيابية قبل شهور، كتبت في صفحتي: «نريدها دولةً مدنية، في ظلّ الإسلام، نعم، لكن البعيد عن التفرّد والاستئثار والتكفير. تحلَّوا بشجاعة الوعي، الوعي الذي يغلب الذاتية، واستمرّوا. نريد للربيع العربي أن تتفتّق أزاهيره كلُّها، كلها، تنمو، تعلو، تسمُق[1]، في ظلّكم، وفي ظلال الجميع. لا نريد مربّعًا أول نعود إليه بعد اليوم. الخميس: ٢٩-٣-٢٠١٢».

فهل يعتزم المعتصمون في ميدان التحرير اليوم، العودة إلى ذلك المربع البغيض، بما يُعدّون ويُجيّشون!

دمشق الشام: ٧-١٢-٢٠١٢

أهذه هي الديمقراطية.. أيتها المعارضة المصرية!

أصدر رئيس الجمهورية التعديل المكمّل للدستور، احتجّ المعارضون على التعديل. حدّد الرئيس موعدًا للاستفتاء على مشروع الدستور، فزادت احتجاجاتهم. اعتصموا. احتشدوا. أضرموا النار في مقرّاتٍ للحزب "الحاكم". حاصَروا قصر الرئاسة. أهذه هي الديمقراطية التي ظللتم تحلُمون بها وأنتم تحت وطأة الديكتاتوريات التي تعاقبت فصولها على مدى ستين من الأعوام!

وإني لأرى هذه المعارضة وقد تشكّلت ممّن ساء حظهم في الجولات الانتخابية: عالمٌ قدير، ديبلوماسيّ محنّك، مناضل كان قد دخل السجن، وآخر ما زال يُجري

---

(١) ترتفع.

مراجعات لقناعاته القديمة.

هل تصالح هؤلاء مع رموز الماضي، الذي شدّ ما عانوا منه؟

هل توكّؤوا على القضاء الذي تربّى في أحضان الماضي القريب حتى الرخاء، فهو اليوم ما يزال يُبطل انتخاباتِ مجلس شعب، ويهمّ بمجلس شورى وجمعية تأسيسية، وكذلك كلّ ما قد يُصدره الرئيس من قرارات سيادية، فيتجاوز دوره من إحقاق الحقّ إلى تعطيل وتبطيل؟ وإذا العلاقةُ ما بين المعارضين والرئاسة تتحوّل إلى "معركة كَسْر عظم".

هل أحسنتم إلى الديمقراطية، لا أقول الوليدة لكن المستأنَفة؟ فإن الملك فاروق -مثلاً- اضطر بعد انتخابات الـ١٩٥٠ إلى أن يكلف زعيم الأغلبية مصطفى النحاس باشا، تأليفَ الوزارة، على كراهيته له. كانت هناك ديمقراطية ناشئة، أجهضَتْها "حركة الضباط الأحرار".

زد على ذلك هتافات بلغت سمعنا، تصاعدت في ميدان التحرير، تؤيد هذا الديكتاتور أو ذاك، فلم يبق إلا الهتاف للمقتول لو أنّ "حبل النجاة" استخلصه من الردى!

قبل سنوات قريبة، رأيت في إحدى الفضائيات واحدًا من رموزكم (هو اليوم متقاعد بسبب السنّ)، يُسأل: لو أنه نزل إلى الساحة يومًا الإسلاميون وابنُ الرئيس «أنت بتكون مع مين؟»، أسرع يجيب: «مع جمال مبارك!».

أعتقد، أنكم -بإفراطكم بالاحتجاجات القاهرة الدامية المرافَقة بوعيدٍ لمزيد- أسأتم إلى الديمقراطية المصرية، التي كنا نتوقع أن تكون الأنموذج يصدر عن مصر

شقيقتنا الكبرى. وكانت إساءةً بحجم ما أسأتم إلى الربيع العربي. أسأتم، حتى إنكم قدرتم ليّ ذراع الرئيس، فرئيسكم رمز لمصر.

دمشق الشام: ٧--١٢-٢٠١٢

في حلب.. الجوع يُهلك الناس بعد القصف!

حدّثنا طالب الدراسات العليا بجامعة دمشق، ابن حلب، "أحمد عمر[1]"، في صفحته اليوم، حديثًا مؤلمًا مطوّلًا عما يحلّ بأهل حلب من المآسي... أقتطف منها هذه الأسطر:

«... إن خطر الموت من الجوع يضيّق الخناق على أرواح أناس يَتَخَطَّفُهم الموت من كل جانب، إمّا نارًا، وإمّا جوعًا، وإما بردًا. رأيت بأمّ عيني في حلب رجلاً يمشي ويصرخ باكيًا: "ولادي جوعانين من يومين ما أكلوا! "... الخبز اليوم في حلب لا يأكله إلا الأثرياء!!».

أقول: ويتحدّثون عن الجوع في حرب السفربرلك!

دمشق الشام: ٨-١٢-٢٠١٢

الخوف.. من القصف!

حدّثني على الهاتف من حلب صديقٌ يعمل مديرًا لمدرسة ثانوية، كان أمس يروي لأسرته أنه لحظةَ دخل السوق ليشتري، فوجئ الناسُ بدويّ تفجير هزّ المكان، فأخذوا يركضون في كلّ اتجاه، وما عرفوا أمصدره سيارة مفخّخة انفجرت في السوق

---

(١) المقصود: الدكتور أحمد عمر أحد أعضاء تحقيق هذا الكتاب، الذي بدأت علاقته بالسباعي عبر الفيسبوك، ثم توطّدت العلاقة بينهما لاحقاً إلى زيارات ولقاءات، لتثمر كتابنا هذا.

أم برميل هبط من السماء؟

فسأله ابنه: «وهل ركضت مع الراكضين، يا أبي؟».

أجاب: «طبعًا، يا ولدي، الروح غالية، وكنت الأسبق لأني لم أكن أحمل مشتريات».

ثمّ اتفق أن كانا معًا في مكان، ووقع تفجيرٌ هائل، فأخذ كلٌّ منهما، الأب والابن، يركض بأقصى ما أوتي من سرعة.

وعندما شرع الأب يروي أمام أسرته ما وقع، كان الابن مطرقًا بعينيه إلى الأرض.

لقد استطاع النظام أن يعوّد المواطنين على ما لم يتعوّدوه.

لحظة جلست أعِدّ هذه الخاطرة للنشر، اطّلعتُ على ما كتب الصديق "أحمد عمر" في صفحته مما يُدمي الفؤاد، واقتطفت ما نشرته من كلمته المؤثرة قبل قليل. ولما عدت إلى خاطرتي وجدتها -صدّقوني- باهتة لا ترقى إلى مستوى المعاناة المتولدة عن شحّ الموادّ بحلب، وإن كانت تتحدث عن الموت ومحاولة الهرب منه. إنها أيامٌ يسجلها التاريخ، ونحن أيضًا بكلماتنا نُسهم في ذلك.

دمشق الشام: ٨-١٢-٢٠١٢

هل يُبكيكم هذا الكلام؟

لم تجد مَفرًّا من أن تنجو بنفسها من جحيم القذائف المنهمرة. توجّهت إلى القاهرة، وبصحبتها طفلها الوحيد وأمها وشقيقتها. بيت مفروش وتواضع في القروش.

مصادفةً التقت بسيدة سعودية تتهيّأ للعودة إلى وطنها. سمعت منها كلامًا... كلامًا يُبكي الحجر: «أيها السوريون والسوريات، نحن نبكي من أجلكم ليل نهار. أستحلفك بالله العظيم أن تكرميني بالإقامة في بيتي، أنت وطفلك وشقيقتك والوالدة الكريمة، ولك أن تَدْعي أسرتك كلها. والمقابل... المقابل، أيتها السورية الحبيبة، كلمة واحدة أسمعها منك: القَبول! أنتم السوريون أحسن ناس. أدعو الله أن يفرجها عليكم!».

وعندما دخلوا البيت ذا الغرف السبع ساكنين، كانت الدموع تترقرق في العيون.

دمشق الشام: ٩-١٢-٢٠١٢

مواطن.. لا يرعى النجوم!

في هزيع من الليل استيقظ على دويّ الانفجارات. نهض. لا نور في البيت، الكهرباء مقطوعة. يمشي بتؤدة، مخافةَ أن يصيبه مكروه. وحيدًا يعيش، فالأبناء والأحفاد كلّهم تفرّقوا في البلاد:

منهم مَن سَبَقَ للعمل، ومنهم مَن لَحِقَ نجاةً بالنفس من راجمات الصواريخ.

في تلمُّسه طريقه لمح هناك بصيصَ نور. سعى إلى النافذة، فتَحَها، جاءه هواءٌ بارد مُثقَل برائحة الموت. القذائف تلتمع في انطلاقها، تسقط على البيوت، تدمّر المباني والدروب. ساحات المدينة أصبحت ساحاتِ قتل، وأصبح الموت خبز الناس اليومي معجونًا بالدم.

وظلّ في النافذة يرقب السماء... هو «لا يرعى النجوم!»، بل «يسامر الصواريخ»، التي تعمل دون ملال في ساعات النهار والليل. دمشق الشام: ١٠-١٢-٢٠١٢

ليلة ينام الزوجان في بيت الحماة!

هل أعتذِر لأصدقائي عمّا تُسبّبه لهم خواطري الحزينة من الألم النفسي؟ قصفٌ وموت ودمار، وغلاء وفقدان مواد، وما نعانيه من الوحشة والاكتئاب؟ تخيّرت لاعتذاري هذه "الحكاية"، التي كثيرًا ما سمعتها من أفواه الناس وأنا في مقتبل العمر بحلب.

في «كتاب اللبّاد»، الشفوي، الذي ما زال يؤلّفه العامّةُ من نساء ورجال، تقول نكتةٌ فيه غيرُ بايخة: إنّ الحماة (الحماية) زارتها مرةً ابنتُها يرافقها زوجها، وباتا عندها، فدخلت عليهما لتقول لهما: «انضمّوا لبعضكن، أَدْفا[1]!». وزارها ابنها يومًا تصحبه زوجته، فأطلّت عليهما لتقول لكنّتها: «ابعدي عنه، حرقتيه بنَفَسك!». أضيف إلى هذه الحكاية: الحقّ مع الأمّ، لأنّ ابنتها وزوجها جاءاها في الشتاء، وجاء الآخران في الصيف.

دمشق الشام: ١٠-١٢-٢٠١٢

من يوميّات الخبز السوري - ١ من ٣

"ربطة خبز" من يدٍ لا أعدمها

بعد أن عدت من سوق "الشيخ محيي الدين"، أنا وصديقي -الذي يُجيد طبخ الفاصوليا الخضرا- وقد اشترينا كل المستلزمات، تذكّرت، وأنا أنقّي باقة الكزْبَرة، أنْ ليس عندي خبز!

---

(١) اسم تفضيل من الدفء.

أسرعت أهتف إلى جاري (ع. غ)، شابٌ لي عليه دالّة، فأجابني: «تكرم عمّو»، وما هي إلا دقائق حتى كان يقرع الباب ويقدّم لي أكثر من كفايتي من الأرغفة الطازجة.

فيما بعد سألته عن الطريقة التي يحصل بها على خبزه اليومي في هذه الأيام الصعبة، فحدّثني بأنّ زوجَه تنهض في باكر الصباح، تُعدّ الأولاد للمدرسة ثم تصحبهم إليها. وفي طريق عودتها تمرّ بالفرن الآلي بالمنطقة، هناك "صفوف" للرجال والنساء، ولكل منهما صفان أيضًا:

من يرغب في ربطة ينتظر حوالى الساعة، وللربطتين ساعتان.

منذ ذلك اليوم، أخذت الزوجة الكريمة على عاتقها أن تقف، مرة في الأسبوع، في صف الساعتين، لتقدّم لي هي وزوجها ربطة خبز هدية.

ما أعظم شعبَنا نظامًا وأريحيّةً! ما أجدرَه بأن يكون حرًّا ليمارس إبداعه في كل مناحي الحياة!

دمشق الشام: ١١-١٢-٢٠١٢

من يوميّات الخبز السوري - ٢ من ٣

خبز على رصيف

حدّثني قريبٌ على الهاتف من حلب، أنه بينما كان يمشي الهوينى قريبًا من بيته، فوجئ سيارة تتوقف إلى جواره، وينزل منها رجلان شديدا البنية، أخذا يَنقُلان إلى الرصيف كلّ ما تحمل، ولم يكن إلا "ربطات خبز" بكميات. وما وجدا حاجة إلى المناداة على "بضاعتهما"، فقد توافد إليهما الناس من كل فجّ قريب وعميق.

قال: فانجذبت. كانا يبيعان الربطة بأضعاف سعرها. اشتريت، واشترى الناس. وما هي إلا دقائق حتى كان الرجلان يمشيان على الرصيف، متخففين من كل شيء إلا ممّا جنياه من ربح غير مشروع.

وانصرف الناسُ يحمل كلّ منهم ما يسدّ به رمق أولاده. وذلك بعد أن كانوا يتلقّونه على باب الفرن، طازجًا وبالسعر الرسمي المدعوم.

دمشق الشام: ١١-١٢-٢٠١٢

من يوميّات الخبز السوري - ٣ من ٣

يومين لم يذوقوا الخبز!

ممّا قرأت أمس في شبكة التواصل الاجتماعي، وغاب عني الموقع، فأنا أكتب من الذاكرة، أنّ امرأة بحلب كانت تقف في الدور أمام فرن، وطال انتظارها والصفّ يمشي وئيدًا. فلما اقتربت من نافذة البيع أعلن الفرّان أنّ الخبز نفد، وأغلق!

فُجعت المرأة، التي تكرّر معها هذا الموقف في اليوم السابق، فارتفع صوتها بالبكاء والعويل: «والله العظيم أولادي من يومين ما ذاقوا لقمة الخبر، والله!».

وتعلّقت بالرجل الذي يحمل آخر ما أعطاه الفران، فما كان منه إلا أن تخلّى لها عمّا تحمل يداه، واستدار يخفي دموعه، ومضى.

كأني أسمع صوت واحد من المنتفعين حتى الإقامة في فنادقهم ذات "السبع نجوم"، يقول شامتًا: «بدكن ثورة؟ هي نتائج ثورتكن!». متغافلاً عن أنّ هذا نتيجة القصف والتدمير وقطع الإمداد... ولكن العمى يتجاوز البصر أحيانًا إلى البصيرة.

دمشق الشام: ١١-١٢-٢٠١٢

الديمقراطية.. المولودة من الخاصرة

رأيت أنّ من أخطر مراحل عمر الديمقراطية، المولودة من الخاصرة، أو المستأنَفة بعد زمن ديكتاتوري متطاول، أنها -لنعومة أظفارها- قد تبدو عاجزة عن منع معارضيها من أن يُجْهِضوها.

دمشق الشام: ١١-١٢-٢٠١٢

الحرية تحت ظلال الشعار الجميل ١-٣

مهداة إلى صديق الشباب.. الذي كان

وللحيطان.. عيون:

كنا، إذا التقينا في قارعة طريق وبدأنا الحديث عما يجري، أراه يزداد مني اقترابًا ويلتمس خفض الصوت، متلفّتًا في ذلك يَمنةً ويَسرة حَذَرًا من "آذان" تسترق السمع، فيجعلني وإيّاه في حالة ارتباك.

ولما دفعه فضولٌ قاهر للالتجاء إلى ابنه كي يُظهر له "كلماتي" في "التواصل"، كان -حدّثني الابن- يتلفّت حواليه وهو يقرأ، وكأنه يظنّ أنّ للحيطان عيونا.

أقول: بدلاً من أن يَدَعونا نتنفس الحرية، تلك التي وردت في ثاني الأقانيم في شعارهم الذي يردّده التلاميذ كلّ صباح، فإنهم زرعوا الريبة في النفوس، وحصدوها شُكوكًا في أن يرى الناس في كلّ ما يحيط بهم آذانا وعيونًا. دمشق الشام: ١٢-١٢-٢٠١٢

الحرية تحت ظلال الشعار الجميل ٢من ٣

أصوات.. وأسماء:

التبستْ علينا الأمور، فما عدنا نعرف ما يرتشق بيننا على الأرض وتُمطرنا به السماء: أهو من فعل العصابات المسلحة، أم أنه ممّا ترجُمنا به الراجمات وتُسَاقِطه الطائراتُ من براميل مثقلة بالهدايا؟

لما عبّرتُ عن ذلك وأنا في بقاليّة الحيّ، أسرع طفلٌ لم أنتبه لوجوده، يقول: «عمّو، أنا بعرف!». واسترسل يقلّد أصواتًا، ويُعرّف بقذائف، ويُسمّي جهات!

من "فضائل" النظام أنه قَرَن تعليمَه هذا بالتجربة الحسيّة.

دمشق الشام: ١٢-١٢-٢٠١٢

الحرية تحت ظلال الشعار الجميل - ٣ من ٣

زينب.. والإنترنت

لم يكن في بيت "زينب" إنترنت، ولكنه متاحٌ لها في المؤسسة التي تعمل فيها، فهي تتسلّل، وتشاهد وتقرأ، وتبلّ القلب وتعلّل النفس.

وهي تعرف كثيرًا من المواقع، وتعرف أيضًا أنهم إن اكتشفوا فِعلتَها تعرّضت للمساءلة، فهي إذن تخون النظام، وغيرُ جديرة بالراتب الذي تتقاضى. فكانت إذا أحسّت باقتراب أحد تحوّلت إلى حيث حديثٌ عن الأبراج، وإعداد المآكل الشهية، ومسامرات منتصف الليل.

مرة ضبطوا زينب، وكان مكتوبا على الشاشة، مرسوماً ما، لا يرضي مشاعر النظام، فاقتادوها إلى كبير الشبّيحة للتحقيق.

دمشق الشام: ١٢-١٢-٢٠١٢

خواطر تحت زَخّ المطر

١. يوم تُستأنَف الديمقراطية:

من المفارقات أنّ الانقلابيين يستطيعون حُكم الرعيّةَ بالأوهام وهم يُسَوِّقون شعاراتهم البرّاقة. ولكن يبدو أنّ الديمقراطية المستأنَفة ليس من السهل عليها أن تحكم الجِياعَ إلى الحريّة، الظِّماءَ إلى النور، ذلك يقتضي وقتًا تُكفكَف فيه الدموع، وتلتئم الجروح، وتهدأ المنازع والأهواء.

٢. الاغتسال من أدران الفساد:

ليس في إمكان النظام، أيّ نظام، أن يغتسل من أدران الفساد، إذا كان الفساد قد عَمَّهُ من قمّة الرأس حتى أخمص القدمين. فلو كان ذلك ممكنًا له لما سقط في وَهْدته ابتداءً!

٣. هل القادمون ظلاميّون حقًّا؟

قالت: أنا أرفض رفضًا باتًّا أن يحكمنا غدًا "الظلاميون"!

قال: وأنا أيضًا. ولكن لتعلمي أنْ ليس هناك أكثر ظلاميّةً ممّن يهدمون البيوت على رؤوس ساكنيها، ويقصفون المنتظرين أمام الأفران يطلبون الرغيف. وإذا ما بدا لنا غدًا أنّ في القادمين شيئا ممّا تتصوّرين انتفضنا عليهم، نحن الذين تمرّسنا في النضال واستقبلْنا الموت أشكالًا وألوانًا.

٤. القضاء بين الرشوة والسياسة:

أنْ تتفشّى الرشوةُ في سلك القضاء فذلك يعني فقدانَه دوره، فإن انغمس القضاة في السياسة فهم إذن فقدوا حاسّة الاتجاه.

٥. لو يفكر الديكتاتور لحظةً!

يعني... "ملك ملوك إفريقية"، الذي انحنى للعاصفة بعد اجتياح الأمريكان للعراق، إنقاذًا لبلده من مصير مجهول... أما كان له أن يفاوض ثوار الربيع، فيُنقذ نفسه من مصير معلوم، ويُجنِّب بلده الدمار!

دمشق الشام: ١٣-١٢-٢٠١٢

دموع.. تحت شجرة الزيتون

أرقٌ انتابني، أيها الأصدقاء، فجر اليوم، فنهضت إلى شبكة "التواصل الاجتماعي"، كما بتنا نفعل في زمننا عندما يُلِمّ بنا الأرقُ أو الوجع أو الاشتياق.

استوقفني، في "التجمع الوطني لمثقفي حوران"، منشورٌ كان قد نزل قبيل ساعة، صاغه بعاميّةٍ مرهفة مَن لم تكن بيني وبينه صداقة -ثمّ انعقدت بُعيد ذلك- "طه عزّ الدين".

في تأثّري بمضمونه الموجع حتى النفاذ إلى صميم الفؤاد، أحببت أن أقدّمه إليكم أيها الأصدقاء، وليس لي فيه من فضل سوى أني نقلته إلى الفصحى، ليعمّ تأثيره عند العرب الساكنين وطنًا يبعد عنا أميالًا، واضعًا له العنوان أعلاه.

يقول الراوي (الذي هو عمّ كاتب المنشور): ذهبت ذلك اليوم، وأنا في مدينة "الرستن" (المحاصرة منذ مطلع العام)، إلى بيت صديقي لأسأل عن حاله، فقالت لي زوجته: إنه في المزرعة.

لما وصلت هناك، رأيته يعمل في قطع شجرة زيتون، ولاحظت أنها الشجرة التاسعة التي تُقطع وإلى جوارها الثماني التي سبقتها. صرخت به: «يا زلمة، شو عم

تساوي؟».

أجابني دون أن يلتفت نحوي: «الولاد عم يبردوا في الليل».

وضعت يدي على كتفه وأخذته جانبًا. لما استدار رأيت دموعه ممتزجة بعرقه.

قلت بوداعة: «يا رجل، وحّد الله». فرمى المنشار من يده، وصرخ بصوت عال: «لا إله إلا الله»،

وعانقني وهو يجهش في البكاء، ويقول: «تعبنا، يا خيّو، تعبنا!».

وضمّني إليه بقوة... وامتزجت دموعنا معًا.

- - - - - - - - - - -

هل تمتزج دموعكم، أيها الأصدقاء،

بدموع الرجلين -مع غيابهما- و... بدموعي؟

دمشق الشام: ١٥-١٢-٢٠١٢

دموع أوباما..

بكى الرئيس الأمريكي باراك اوباما، وهو يلقي خطابه عقب حادثة المدرسة في مدينة نيوتاون بولاية كونتيكت، التي راح ضحيتَها عشرون طفلاً، وقد شاهدناه غير مرة يلتقط بسبّابتَيه، اليمنى واليسرى، دمعاتٍ سالت من عينيه في أثناء الخطاب.

هل كانت دموعه تترجم عواطف إنسانية؟

طيّب... فلم لم يحرّك عواطفَه وأنامله قتلُ ألف من أطفال سورية منذ عشرين شهرًا حتى اليوم... كان أولَها انتزاعُ أظفار، أعقبه قتلٌ بعيد عن الأنظار؟

ونحن ندرك أنّ مثل هذه الدموع لا تعدو أن تكون... دموعًا سياسية.

دمشق الشام: ١٦-١٢-٢٠١٢

بوتين.. محتال دستوري

في الدستور الروسي الجديد بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، يكتفي رئيسُ البلاد المنتخب بولايتين اثنتين.

فلاديمير بوتين لعب على الدستور... كيف؟

بعد أن استنفد الولايتين المتعاقبتين على مدى ثمانية أعوام، واستساغ الطَّعم، نزل -يوم حانت الثالثة- إلى رئاسة الوزراء ومكّن ميدفيديف من تولي الرئاسة الأولى، ولم يستعصِ هذا الرجل، بدا مطيعًا، عاد إلى رئاسة الوزارة، وبوتين صعد من جديد إلى رئاسة الجمهورية.

أتوقّع، بعد أن يقضي بوتين في السُّدّة ولايتين أخريين، أن ينزل ويصعد الآخر، ثمّ يعود هو إلى الصعود في ولايتين ثالثتين.

بوتين "محتال دستوري" عالمي.

دمشق الشام: ١٦-١٢-٢٠١٢

وكنت أمشي الهويني.. قريبًا من بيتي

ظهيرة هذا اليوم، بعد أن سدّدتُ فواتير الهاتف في "مركز الجلاء" (أعلى شارع أبو رمانة)، كان عليّ أن أتوجّه إلى حيث أسدّد كذلك فاتورة الكهرباء. اجتزت بقية "أبو رمانة" صعودًا حتى جامع الروضة، ثمّ انعطفت يمينًا نحو "شارع عطا الأيوبي".

لمّا كنت أمشي الهوينى في هذه الأماكن، التي أبيّنها لكم أيها الأصدقاء (وأنتم

تستغربون مني التفصيل)، كانت تطرق سمعي أصواتٌ هي أشبه بقذائف تأتي إليّ من بعيد، بين الواحدة والأخرى دقيقةُ أو ثلاث أو خمس.

وأعترف بأنه خطر لي أن أسأل ذلك الشرطيّ، الذي ألمحه عن بعد، مقتعدًا كرسيًا على رصيف "السفارة الفرنسية" (المغلقة من نحو عام)، عمّا إذا كان يسمع ما أسمع؟ لكني أحجمت حتى لا يقول بينه وبين نفسه: رجل... لا يميّز بين أصوات القذائف!

ثمّ إني عدت إلى بيتي. غداء وقيلولة. وأيقظني رنينٌ متكرّر من الهاتف: أهلي يتصلون بي، من كلّ فجّ عميق، من أرجاء الوطن، من الخليج، من ابنتيّ في القاهرة وفلوريدا، من ابني في ضاحية دمّر... يسألون عن سلامتي!

كانت قذيفة -لكنها هذه المرة مضادّة- قد حطّت، وأنا في قيلولتي، قريبًا من الأماكن التي كنت أمشي فيها الهوينى، مستمتعًا بأشعة الشمس الذهبية التي تبثّ فيّ الدفء ونحن في عزّ الشتاء، وأنا أفتقد تلك المادة التي تُشيع الدفء في البيت وفي الأوصال.

دمشق الشام: ١٧-١٢-٢٠١٢

عند الباحث الحلبي "عبد الله زنجير":

وإذن، فالضابط الحر رائد الفضاء محمد فارس من بانقوسا، حسب الرواية الموثقة من الشيخ الدكتور محمد بشير حداد، لا بأس... الجَلّوم غنية بأهلها وتاريخها.

هل نسيت، أيهذا الباحث عبد الله زنجير، أنّ الكاتبة الحلبية المعروفة "ضياء قصبجي" من أبناء الجلوم، وقد كتبت عن ذلك كثيرًا.

وأما أنّ مطربتنا المحبوبة "ميّادة الحناوي" قالت عن الثورة السورية ما قالت، فذلك لا يعني إلّا أنها فنانة الطرب ليس إلّا.

وأذكر، وأنا طفل، أنّ جدّي الحاج "سليم السباعي" (الحمصي ثم الحلبي، من سكان زقاق الزهراوي، وراء الجامع)، أخذني من يدي (ربما في صيف ١٩٣٧) إلى كتّاب من كان اسمه (الشيخ الأسد) يقع إلى يسار الداخل إلى "زقاق النظافة"، وكان للكتّاب حديقة فيها شجرة تين كبيرة! دمشق الشام: ١٨-١٢-٢٠١٢

نازحة.. اسمها "عبير"

تحت القصف نزحت "عبير" من بيتها في "دُوما" هي وزوجها إلى المدينة المجاورة "حَرَسْتا" (شرقيّ العاصمة). وكانت قد ودّعت وظيفتها مدرّسةً للغة الفرنسية منذ قريب، وهي تُجيد أيضًا تدريس الإنكليزية مع العربية.

الأبناء، ذكورًا وإناثًا، متزوجون، يعمل كلٌّ مع شريك حياته في دول الخليج. وقبل عام عاد الابن الأصغر ليأوي إلى بيت صغير اقتناه بعرق الجبين في ضاحية "قُدْسيّا" (غربيّ العاصمة)، يأمل أن تضمّه غرفتاه وعروسَه عمّا قريب.

ولكنّ القصف وصل إلى حرستا، فاضطرّت عبير وزوجها إلى النزوح عند الابن، الذي أخلى بيته، مستأنِفًا العمل في السعودية.

أصيب شقيق الزوج بجروح في قصف على المخيّم، فتجمّعت الأسرتان في هذا البيت الصغير: مداواة يتعهّدها المعالج متسلّلاً، وعبير النشيطة تتنقّل بين بيوتٍ يحتاج أبناؤها إلى التمكّن من لغات تتقنها.

ولم يكن متوقعًا أن يصل القصف إلى قُدْسيّا. ثمّ اطمأنوا لمّا عرفوا أنّ القتل

والتهجير لم يتعدّيا طرف الضاحية، "حيّ الورود" (ويا له من اسم يليق بالقصف!).

منذ قريب شاهدوا بالتلفاز المبنى الذي كان لهم فيه بيت بدوما، لُغمٌ، وانهارت بغير القصف طوابقُه الأربعة. لم يحزنوا كثيرا، ولعلهم فرحوا، ضاحكين، لأنهم غادروه في الوقت المناسب!

عبير دمشقية وزوجها من فلسطينيّي الـ٤٨. أخذت تسأله، في العشيّات المعتمة، ويحدّثها، بما تستوعبه الذاكرة من صور النزوح القديم. وكانا يذرفان الدموع أحيانا، دون أن يعرفا على أيّ "نزوح" يبكيان، وهما يتعانقان، فتمتزج الدموع على الخدود التي بدأت تغزوها التجاعيد...

ذلك كله ولم يكن القصف قد طال "مخيم اليرموك" بعد.

دمشق الشام: ١٨-١٢-٢٠١٢

قادم من.. حلب

كان عليّ أن أعتذر لضيفي العزيز، المتعب من وعثاء السفر الليلي، لافتقادي الوقود الذي به أشعل مدفأة البيت في هذه الليلة الباردة... فأسرع يقول: «لا، لا، يا صاحبي. أنا قادم من حلب، بلد البرد، والجوع، والموت... ما أحتاج إليه الذهاب إلى النوم بعد سفر ثماني ساعات مرهقة... فقط أريد أن أعدّ كأسا من الحليب الساخن!».

ومن حسن الحظّ أنّ الحليب كان متوافرًا عندي.

دمشق الشام: ١٩-١٢-٢٠١٢

فحم للفقراء

في سنوات الحرب العالمية الثانية وما قبلها، لم تكن قد شاعت في سورية المدافئ،

ذات "البواري" تُركَّب في الغرف وتوقد بالحطب (وليس بذلك السائل المسمّى اليوم "المازوت"). كانوا يستدفئون بالمنقل، بناره فوق الرماد وبالجمرات مدسوسة فيه... والجدّة ما تزال تدسّ في الرماد "ركوة" القهوة، حتى إذا غلت سحبتها إلى جانب، فتُصيب من الحرارة ما تحتفظ به طوال الوقت. ونحن الصغار نمدُّ أيدينا فوق المنقل، فإن تكاثرت تزاحمت ونال كلٌ منا ما يستطيع.

كانت دارنا العربية تقع في "زقاق الزهراوي"، ذلك الذي يلي جامع بني أمية الكبير، الذي احترق قبل أسابيع. والدار مفتوحةٌ -شأن الدور العربية- على الداخل، تُطلّ حجراتها على صحن الدار، الذي تتوسّطه بِركةٌ وزَريعات وشجر، والإيوان ذو الجدران الثلاثة المتّجه نحو الشمال، نسهر فيه بليالي الصيف. وإذا نزل الثلج في بعض الأشتية، استيقظنا لنجده وقد غطّى أوراق الشجر، وامتدّ فوق صحن الدار مثل سجادة بيضاء، فنقوم نفتح فيه دروبا تصل ما بين الحجرات!

ذات يوم، وقد عزّ الثلج في ذلك الشتاء، عبّرتُ لجدّتي، وأنا في غرفتها الصغيرة الدافئة، وركوتُها على طرف المنقل، عن التمنّي بأن ينزل الثلج... كي آكل وإخوتي "السويق"، نقطفُ من سطح الثلج أنصعَهُ ونجعله في طبق، ونرشُّ عليه شراب البرتقال مما تصنعه الأسرةُ لأيام الصيف، ونتناوله بالملعقة متلذّذين.

أجابتني الجَدّة بحنان: «أنت تفرح بأكل السويق، لكن الفقراء ما عندهم حقّ فحم، يا عين نانتك!». أعترف بأني أدركت، في وقت مبكر من حياتي، أنّ هناك أناسا فقراء لا يملكون ثمن ما يستدفئون به!

واليوم... ليس عند كثيرٍ من الناس في وطني "مازوت"، ولا مأوى، ولا أغطية،

ولا خبز، ولا أمان... فهم يموتون تحت القصف في الأقبية، ويندفنون تحت الركام.

هل أشكرُ "النظام" لأنه علّمني وأنا في الثمانين، ما لم تقصّه عليّ جدّتي وأنا في الخامسة من العمر.

دمشق الشام: ١٩-١٢-٢٠١٢

السلام الذي يجرّ إلى الكلام

بعد أن نشرت في صفحتي منذ قريب، من أني اكتشفت ساعة الغداء، وفي بيتي ضيف، أنْ لا خبز عندي، وأني قمت أهتف إلى صديق جار فأسعفني بحاجتي وزيادة، لاحظت أنّ الطيبين من الجيران أخذوا يُغدقون عليّ -في هذا الزمن الصعب- الخبز أنواعا؛ حتى أضحى في حوزتي منه ما أكاد أبحث عمّن أهديه إليه.

لكن بدا أنّ هدايا الجيران الكرماء تجاوزت الخبز إلى "الطبيخ". فإنّ جارة لي صديقة للأسرة -كانت لي عليها في سالف الأيام يدٌ بيضاء في مجال إبداعها الأدبي ونشره- أخذت تزوّدني بوجبات من مآكلها الشهية، بدأتْه بـ"الشاكرية باللبن" وما كان ذلك لينتهي... ذلك كله مع تفرّق ذرّيتي في الخافقين: في أرجاء الوطن العربي وفي بلاد الغرب، ولم يبق لي بدمشق إلا ابني الوحيد، الساكن في "ضاحية دمّر" (على مبعدة خمسة أكيال)، والذي يشغله السعي لرعاية أسرته المتزايد عدد أفرادها، في طليعتهم "زين" زينة الأسرة المتفوقة بدراستها، ولا أظنّ آخرهم الطفل "فاضل" حبيب جدّه.

أقول في هذا "الحنان": إنه مما فُطر عليه الناس في مجتمعاتنا العربية، من اعتياد المساعدة والمساعفة. وحلقتُه الأوسع ما نراه ونسمع به من ألوان العون، من تقديم المأوى والغِطاء والوِطاء، للهائمين على وجوههم في كل مكان، بعد ما حلّ بهم من الدمار المصحوب بالموت الزُّؤام.

ولكن هذا كلّه لن يجعلني أغضّ الطرف، أيها الأصدقاء، عن فئة من الناس قد امتزج البخل في دمائهم وجرى في العروق. وبعضهم ممن يقيمون خارج الوطن وممن أفاء الله عليهم من النعم.

دمشق الشام: ٢٠-١٢-٢٠١٢

ياسمين.. على ساحل الباسيفيك

... واستمتعنا، ونحن جالسون على بطّانيّات مددناها على الرمال مستظلّين بشمسيّةً قد غرسنا وتدها في الأرض عميقًا، بتأمُّل الطائرات المروحيّة تجوب الفضاء، فهي "دوريّة شرطة" تراقب الشواطئ... إلى أن أحسسنا بلسعة برد، فنهضنا نبغي المشي لنَبُثّ الدفء في الأوصال.

في مسيرنا الهادئ، مع انحدار الشمس نحو "المحيط الهادئ"، على الكورنيش في مدينة "فينيس Venice" (جنوبيّ ولاية كاليفورنيا)، كنا نرى المصطافين من كل لون وجنس وعرق. وبيوتُ الاصطياف تنتظم على جانب واحد من الطريق، لا ترتفع أكثر من طابقين، منفتحةً على الشاطئ والمحيط. بدا لنا بعضُها وقد مسّتْه أناملُ فنية تجلّت بتماثيل في الفناء وزخرفات على الجدران، وبنوافذ عالية تلامس السقف، دون أن تفتقد أعيُنُنا بيوتًا قد أكل الدهر عليها ولكنه لم يشرب!

واسترعى انتباهَنا في أفنية البيوت شجرٌ خفيض، برزت على سطحه أزهارٌ أشبهتْ الياسمينَ بنُجيماته الخمس وبياضه الناصع، وفوجئنا أيضًا بأزهار "العسليّة" (العراتليّة بلهجة دمشق) النادرة ذات الرائحة العاطرة!

ذكّرتني هذه الأزهار بالوطن، فانحنيت أشمّ عبيرها، فإذا هي بلا عبير. ظننت

أنّ برودة الجوّ نالت من حاسّة الشمّ عندي، فتقدّمتْ ابنتي سهير، وزوجها بشار، وابني فراس، يشمّون...

ولكن بدا أنّ ياسمينهم وعسليّتهم كانتا خاليتين من الرائحة!

مقتطف من كتاب «قمر لا يغيب، من أدب الرحلات» قيد الطباعة[1] (لولا الظروف) دمشق الشام: ٢٢-١٢-٢٠١٢

حكاية "الدال نقطة"

لم يكن هذا "المدلّل" في حاجة إلى لقب "دكتور"، ففي النفوذ الأدبي والفكري والسياسي الذي حظي به الكفاية، ولكن اتفق -وذلك قبل نحو عشرين عامًا- أنّ شيخا جليلا تراءى له أن يؤسّس جامعة خاصة به في "الجامع" الذي فيه يخطب ويَؤمّ، وكان مثل هذا التأسيس ممتنعًا في زمن لم تكن في البلاد إلا الجامعات الحكومية، إلا أنه مراعاة لخدمات الشيخ مكّنوه من تحقيق بغيته، في ظلّ "غضّ النظر"، لتكون جامعة دون ترخيص، ومحجوبًا عنها الاعتراف بما تمنح من إجازات جامعية!

وسرعان ما قام الشيخ يمنح مؤهّل الدكتوراه لمن يصطفيهم من أحباب النظام. ولسنا ندري ما إذا كان المدلّل الأولَ بين الممنوحين أم صاحب الرقم (٢٠). ولكنا نذكر أنّ ثلاثة من الأكاديميين جلسوا، مساء يوم، متربّعين على الطرّاحات[2] جلسةَ السلف الصالح، ليناقشوا...

---

(١) كان الدكتور أحمد عمر قد طلبَ من المؤلف حال حياته أن يُشرف على طباعة هذا الكتاب المخطوط ويهتم به، وفاءً لما بينه وبين المؤلف من صداقة. وبعد رحيل السباعي، تواصَل مع أولاده ليحصل على إذنٍ منهم في طباعته. والكتاب في طريقه إلى الظهور قريباً.

(٢) الطرّاحة: حَشِيّة يُجلَس عليها .

ولكن أين هو البحث، المبتكر والأصيل؟ كان كتابا من تأليف المدلّل، وذلك ما لا يجوز حسب التقاليد الجامعية المتبعة، ومع ذلك نال عليه لقب "د. مع مرتبة الشرف الأولى"، ولم يوصوا -كما جرت عليه التقاليد الأكاديمية العريقة في مثل هذه الحالة- بطبعه تعميمًا للفائدة، لأنّ المدلّل كان قد طبعه ونشره ثلاث مرات حتى لم تعد هناك مؤسسة في البلد إلا اقتنت منه ما وضعته على أرفف مكتباتها العتيقة.

ممّا رواه الخبثاء فيما بعد (ولا شيء يخفى)، أنّ أعضاء اللجنة ساعة دخلوا وخلعوا نعالهم، كان في العتبة "وصيفٌ" يتلقّى النعل بكلّ أدب، ويدسّه في كيس أسود ثمّ يضع الكيس في واحد من الدروج بجواره. ما وقع لحظة خرجوا أنّ أصواتا من الأساتذة كانت ترتفع وهم في العتبة: «هادا مو صبّاطي!»، وقيل: إنّ الوصيف -يا حرام- شوهد وهو يذوب بين النعال خجلاً!

والمدلّل أمسى، بعد ذلك اليوم، إذا خاطبه أحدهم بـ«أستاذ» حاف، رشقه بنظرة شزراء.

تقول الحكاية: إنّ خبر هذه "الجامعة"، شجّع آخرين على أن يطالبوا بحقّهم في إنشاء جامعات على غرارها، فأسرع النظام يغلق هذه الجامعة، فغدت وكأنها لم تكن، ولكنّ الذين نالوا ظلّوا متمتّعين بـ"الدال نقطة".

بعد سنين شاع أنّ واحدًا من أولئك الأكاديميين المحترمين صرّح، يوم حضرته الوفاة، بأنّ أكبر غلطة ارتكبها طوال حياته الأكاديمية هي مشاركته في تلك اللجنة... ثمّ صعدت روحه إلى السماء.

دمشق الشام: ٢٣-١٢-٢٠١٢

قبل مجزرة "حَلفايا[١]"

شكت إليّ عبر شبكة "التواصل الاجتماعي" -وكنت أقرأ كلماتها بكلّ جوارحي- من أنهم، بعد أن استولوا على حارتها بحلب، أخذوا يفتّشون البيوت، ويغلظون في القول، ويمدّون أيديهم أحيانا لتأخذ ما تطول. ثمّ تساءلتْ -وظللتُ بالجوارح أصغي-: «أهذه هي الحرية التي تطلبون؟!».

الذي كان مني أني أيّدتها بأنّ هذه أفعال همجيّة، وأنّ مرتكبيها، لا شكّ، متخلّفون لا يفهمون حقيقة الحرية المنشودة، ونذكر أنّ رؤساءهم ما زالوا ينزّهون أنفسهم عن هذه التجاوزات المخزية واعدين بمحاسبة فاعليها، وبيّنت لها أنّ هناك "زُعرانًا"[٢] بين المئة ألف مقاتل (من منشقّين ومتطوّعين)، وربما كانوا مدسوسين.

ثمّ سألتها -وهذا كلّه بالمكتوب المقروء- عمّا إذا كان في مستطاعها أن تستنكر -بالخطّ المرسل منها كما أفعل أو إن شاءت بالكلام أتلقّاه منها عبر الهاتف- تصرفات الطرف الآخر، الذي يدمّر البنى التحتية بما يُلقي من الأرض والجو، وخاصة ضرْبَه صفوف المنتظرين على أبواب المخابز؟ ولم أسألها عن مجزرة حلفايا، التي راح ضحيتَها مئة من الواقفين على باب المخبز، لأنّ هذه وقعت يوم أمس، وكتبتُ، وكتبت، وكتبت...

الغريب أنها لم تصمت عن الكتابة وحسب، بل رمتني بـ"بلوك" فَصَل ما بيني

---

(١) مدينة سورية، تابعة لمحافظة حماة. قصفَ طيران النظام قبل يوم من كتابة المنشور المتجمعين أمام المخبز الآلي في البلدة وما حوله، راح ضحية هذه المجزرة أكثر من ٣٠٠ قتيلاً، بحسب ما أعلن المركز الإعلامي للثورة آنئذ.

(٢) الأَزْعَرُ: السيِّءُ الخلُق الذي يتعب الناس.

وبينها إلى الأبد.

وتفسير الأمر عندي أنها تربّت في زمن الديكتاتورية فاكتسبت خلائقها، وعشت أنا في الحقبة ذاتها ولكني تحلّيت بالنقيض.

دمشق الشام: ٢٤-١٢-٢٠١٢

ويسألونني بالهاتف عن الصحة!

لست أدري لم يخطر لي، كلما هتف إليّ -وأنا مقيمٌ بدمشق لا أبرحها- أحدُهم من وراء الحدود، يسألني عن الصحة، أنه يقصد -في الحقيقة- أن يتأكّد من أني ما زلت على قيد الحياة، او أني حرٌّ طليق! تتعزّز هذه الخواطرُ عندي إذا ما كان السؤال آتيًا إليّ من بلد، أو من قارّة، أبعد! أم أنّ ما يعتادني من هذه الخواطر، لا يعدو أن يكون وهما!

دمشق الشام: ٢٤-١٢-٢٠١٢

في "معهد الدراسات الاستشراقية" بموسكو

مهداة إلى "محمد حسان السمان"

في شهر كانون الأول ١٩٨٣، حللت ضيفًا على "اتحاد الكتّاب السوفيات" بموسكو قادمًا من "اتحاد الكتّاب العرب" بدمشق. وكانت إقامتي في "فندق بكين" وسط العاصمة، الذي زارني فيه المستشرق "فلاديمير شاغال"، ومنه علمت، ونحن على مائدة العشاء في الفندق، أنه وزملاء له في "معهد الدراسات الاستشراقية"، كانوا وراء اختيار تلك القصص السورية الأربع عشرة، التي ضمّها كتابٌ بالروسية بعنوان «الصمت الذي لا يُقهر»، وكانت قصتي إحداها. وبدا أنّ موضوعها استهواهم فجعلوا منها "القصة-الأمّ" في الكتاب، مستعيرين اسمَها عنوانا له، ومثّلت لوحةُ

الغلاف موضوعَ القصة: عربيّ طاعن في السنّ، يحاول أن يتلمّس بكفّه وجهَ ابنه الذي أعاده إليه "الأمن" ولا حياة فيه.

وقد اقترح عليّ البروفسور شاغال، كبير المستشرقين في المعهد، أن أجتمع إلى زملائه، فكان أن التقيت في المعهد عددا منهم، ممّن لا محاضرات لهم تلك الساعة أو الساعتين، وقد بادروا -بلطف جمّ- يحدثونني عمّا يعرفون عني، أنا المهمّش في وطن أصرّت فيه مؤسساتٌ ثقافية على الاعتذار أو رفض ما أقدم إليهم من مخطوطات. وكانت من المضيفين أسئلةٌ، وكانت مني إجابات روت غليلهم، لأني لم أخرج فيها عن التحدث بالفصحى، ولو كنت خرجت لما فهموا ما أقول!

وقد رأيت البروفسورة "فاليريا كيربيتشانكو" حريصةً على مناقشتي في أطروحة تهمّها، كان من بياني فيها: أنّ الأدب العربي الحديث، إنْ كانت انطلاقته من القاهرة في مطالع القرن العشرين أو قبيل ذلك، فإنه ما إن تنصّف ذلك القرن حتى كانت إبداعاتٌ عربية متميّزة قد بدأت تظهر في العواصم العربية: بيروت ودمشق وبغداد والكويت والرياض، وو و... حتى الجزائر التي جثم الاستعمار الاستيطاني على صدرها ردحًا جاعلاً الفرنسية لغتها الرسمية.

ثمّ كان من اهتمام البروفسورة كيربيتشانكو أن التمست -فيما بعد- من أحد طلاب المعهد، سوريّ الجنسية، أن يزوّد مكتبة المعهد بالمفتقد من أعمال فاضل السباعي ابن بلده، ولكنه -وقد تربّى على أيدي أساتذة كان منهم مَن يعلن بغضه لي، اعتذر عن التلبية... إلا أنه، بعد أن عاد إلى الوطن وغدا أستاذًا للأدب نزيهًا، تغيّر، ومكّنه أدبُه الشخصي من أن يعترف لي ويعتذر، ليس بكلام ينطقه اللسان، بل برسالة خطية بعث بها إليّ، حرص على أن ينشرها على الملأ في جريدة "الأسبوع الأدبي"

بدمشق.

(نبذة من فصل عن زيارتي لموسكو، من الكتاب المعدّ للنشر «قمر لا يغيب» من أدب الرحلات)

دمشق الشام: ٢٤-١٢-٢٠١٢

في ضيافة أسرة فرنسية

في باريس، التي قضيت فيها بضعة أشهر موفدًا من قبل جامعة دمشق (التي شغلت فيها في السبعينيات وظيفة مدير الشؤون الثقافية)، جريتُ على أن أكتتب في الرحلات التي يعدّها "المركز الدولي للطلاب والمتدربين" (C I E S)، فكان أن شرّقت في ربوع فرنسا وغرّبت (ولن أضيف: وصعدت شمالًا ونزلت جنوبًا، حتى لا أثقل العبارة!). وكان همّي في ذلك يتجاوز متعة المشاهدة والاطلاع إلى حلاوة الاستلهام والكتابة.

يقتضيني الأمر هنا أن أشير إلى أنهم في بلاد الغرب يشجّعون الأُسَر عندهم على أن تستضيف مدة يوم أو أياما أجانبَ من المقيمين بين ظهرانَيهم، قصد التعارف والتواصل. وكان من حظي أنّ الأسرة، التي نزلت عندها في مدينة جيزورGisors (في مقاطعة النورمندي شماليّ باريس) في يوم من أيام حزيران ١٩٧٨، كانت من النبلاء: الاسم "De Bueil دو بوي"، تسكن في قصر يعود بناؤه -كما علمت بعد قليل- إلى القرن السادس عشر.

كان في استقبالي سويعة العصر، وراء بوابة حديقة القصر، الكونت دو بوي وزوجته الكونتس. طاعنان في السنّ، يرتديان العادي من الهندام، وصحباني إلى "غرفة

المعيشة"، حيث كان بعض أفراد الأسرة في الانتظار.

وبعد حديث اقترح الكونت أن أرافقه بجولة في حديقة القصر، أو قل في غابته الشاسعة. وبعد تجوال ساعة لاحظ أني قد اعترتني رعشة برد، فعدنا، لنجد الجمع وقد تزايد عدده بمن أقبلوا للتعرف.

وكان من لطف الكونت أن بادر يوقد الحطب في "الشومينيه" التقليدية، ليس استجلابًا للدفء، فليس ثمة حاجة، ولكن -أغلب الظنّ- كي يُمتع ضيفه القادم من الشرق، بمشاهدة اللهب وسماع أزيز الاشتعال. وقد سبق للكونت وزوجته أن قاما بزيارة لسورية وما حولها قبل بضع عشرة من السنين.

ودار بيني وبين الأسرة من الأحاديث الشائقة ما كان جديرا بالتدوين. وأذكر ما عبّرت عنه الكونتس، التي رأيتها الأقدر على إدارة الحديث، من دهشتها لحظة دخلت "سوق الحميدية" بدمشق، قائلة: «إنّ رأسي قد تحوّل كلُّه إلى عيون»، وأنها سمعت بمكتشفات "إيبلا" الخارقة، وأعجبت جدا بمتحف دمشق وقلعة الحصن، وأبدت بالغ الأسف لأنها وزوجها لم يتمكّنا لضيق الوقت من زيارة حلب، التي يعرفان عنها الكثير [أصبحت اليوم مدمّرة!!].

وأذكر أني عهدتُ، في تلك الجلسة الحميمة، إلى الابنة الصغرى "يولاند" بأن تتولى البحث في قاموس "المنهل" (فرنسي-عربي) الذي لا يفارقني، عن كلمةٍ طرقت سمعي لأول مرة، سائلاً إياها في دعابة عما إذا كان يضايقها أن تعمل سكرتيرة عندي في هذه اللحظة؟ فأسرعت الأم تقول: «ولكنها ستكون سكرتيرة لكاتب!».

عند الدخول إلى قاعة الطعام، عمدت الأم إلى أن تكون جلستي إلى يمينها وعن يسارها أجلست صهرها "جيرار". وجلس في الجانب المقابل الكونت دو بوي وإلى

يمينه "فيرونيك" (صديقة يولاند في الجامعة، القادمة من بلدها باريس) وإلى يساره ابنته المتزوجة "روزلين". وفي الطرفين جلست عن يميني الابنة "إيرابيل" تقابلها يولاند "آخر العنقود" كما سمّيتها لهم، حسب اللهجة العائلية الحميمة في بلدي!

بعد عودتي إلى باريس، تهمّمت لكتابة تفاصيل الزيارة وأنا في سكني بضاحية "كاشان Cachan" (جنوبيّ باريس). ومن دمشق فيما بعد بعثت بالفصل المطوّل فنُشر في إحدى المحلات الثقافية العربية. وبالبريد أرسلت نسخة من المجلة إلى الأسرة في جيزور. وكان أن تلقّيت من الكونتس ردًّا بخط يدها حزينًا. فبعد أن أعربت عن أسفها لأنّ جهلها بالعربية يحرمها من الاستمتاع بقراءة الموضوع، قالت بلوعة:

«ممّا آسف له أن تغيُّرا كبيرًا طرأ على حياتي منذ زيارتك إلى جيزور، زوجي توفي فجأة، يوم السابع عشر من أيار ١٩٧٩، تاركًا الأسرة كلها في حداد. كان يرى فيك إنسانًا دمثًا».

دمشق الشام: ٢٥-١٢-٢٠١٢

الفنان التشكيلي لؤي كيالي (٣٤ سنة على رحيله)

ما كان أحدٌ يتوقع أنّ الطفل المولود في "الزاوية الكيّالية" -التي كانت ملاصقةً للجدار الشمالي للجامع الأموي الكبير بحلب- سيكون رسامًا مشهورًا وقادرًا على أن يُحدث انعطافةً في مسيرة الفنّ التشكيلي في وطنه سورية، وإنّ بين الولادة والانعطافة ثمانية وعشرين ربيعًا لا أكثر.

ولد لؤي كيالي عام ١٩٣٤، بعد بنتين وتلتْه ثالثة. تربّى بعيدًا عن الأمّ، في

أحضان خمس عمّات، كان أبوهنّ -جدّه الشيخ إسحاق- يرفض "طالبي القرب" إن لم تتوافر فيهم عراقة النسب. لم تكن ميول لؤي إلى الدراسة النظرية ملحوظة. وإني أعلم أنه كان يحنو على أوراق الرسم وهو في أيام الامتحانات، حتى في الكفاءة والثانوية. وقد انتسب -على غير هوى- إلى كلية الحقوق في "الجامعة السورية" بدمشق عام ١٩٥٤، وكان من "نجاحاته" فيها أن شارك في معرض فني أقامته الجامعة فاز فيه بجائزة. إلى أن قدّر له أن يوفَد، مع عدد من شُداة الفن، إلى روما للدراسة في أكاديميتها، وتأخّر الالتحاق، بسبب العدوان الثلاثي، حتى مطلع العام ١٩٥٧.

وكان لنجاحه في روما وحصاده الجوائز والميداليات في المسابقات والمعارض هناك، أن مهّدا له طريق النجاح بدمشق عقب عودته إليها أستاذًا في "معهد الفنون الجميلة" الذي سرعان ما تحوّل إلى كلية جامعية.

وللحقيقة نبيّن أنه فضلاً عن تميُّز لؤي كيالي بأسلوب خاص به في تحضير اللوحة ثمّ المرور عليها بطريقة مبتكرة، كان يتحلّى بخصالٍ شخصية ما أسرعَها إلى امتلاك القلوب: قلوب الرجال النُّخبة من محبّي الفنّ، قبل النساء والفتيات وطالبات ثانوية "ساطع الحصري" بأبو رمانة، اللواتي كنّ يتواعدن للتلاقي على رصيف بيته في "العفيف" ليُكحّلن العيون برؤية الفنان وهو يمارس عمله في مرسمه، ذي النافذة العريضة، المفتوحة على مصراعيها حتى في الشتاء، المطلّة على الرصيف!

وممّا استطاع لؤي كيالي أن يحققه في مضماره، أنه حبّب للذين يملكون أن يشتروا اللوحة الفنية، معدّلًا مزاجهم في اقتناء التحف التقليدية: آنية من الصين فاخرة، وسجادة كاشانية نفيسة... وغدت تتصدّر البيوتَ لوحاتٌ له، تَشِفّ الوجوهُ فيها عن الحزن الذي تنطق به العيون العميقة، وتتبدّى الأنامل -التي برع في رسمها- وهي

تقول وتقول. لوحات شخصية يصوّرها للمعتزّين بالوقوف أمامه جامدين. وجوه فقراء قد أغرقهم الجمال الفني والبؤس معًا، فأغرقونا -نحن المتلقّين- بمحبتهم والإصرار على الوقوف إلى جانبهم (فهو أيضًا "فنان الفقراء").

هل أقول: إنّ إعجاب الناس بفنّ لؤي كيالي الجميل (والصفة هنا للفنّ وللشخص) قد أدّى إلى "احترام" اللوحة وأخذها بعين الاعتبار، فراج الفنّ التشكيلي في البلد، مدعومًا بعناية الإعلام، وتطوّر الظروف، وتغيُّر الأحوال؟

وأسأل ثانية: هل شغلَ الفنُّ لؤي كيالي عن الزواج؟

إنّ بين يديّ "يوميات" فتاة هي ابنة سفير، كان لؤي قد مال إليها في خريف ١٩٦٦ (وأنا منتقلٌ بأسرتي حديثًا من حلب إلى دمشق)، وعرض عليها الزواج، لولا أن ألمّت به بوادر "مرض الفُصام"، هذا الذي إن حلّ في النفس صدّعها كما تفعل الصدمةُ بالكريستال، وكان المرض يتراجع ثمّ يتفاقم، إلى أن أودى به محترقًا وهو بفراشه، وتوفي في مستشفى حرستا العسكري في مثل هذا اليوم (السادس والعشرين من شهر كانون الأول) من عام ١٩٧٨.

لم يتزوج لؤي كيالي، ومن ثَمّ لم يخلّف هذا الفنان النابغ فنانين، ولكن بدا أنّ الموهبة قد انتقلت منه إلى صبيّتين من أبناء إحدى شقيقاته، مدعومًا ذلك بالاعتزاز به خالاً فنانًا عظيمًا، هما:

«سهير السباعي» المقيمة في فلوريدا منذ ثلاثين سنة، وشقيقتها «خلود السباعي» نزيلة القاهرة في هذه الأيام العصيبة يرافقها ابنها التشكيلي الشاب المتميّز «ماجد هنانو».

ورحم الله خال أبنائي، الذي عزّ عليه المالُ في سنواته الأخيرة، ونراه اليوم يتدفّق على مقتني لوحاته بالملايين...

وذلك حظّ كثير من نوابغ الفنانين في العالم عبر التاريخ. دمشق الشام: ٢٦-١٢-٢٠١٢

في الفضائية العراقية يوم ١٤-٣-٢٠٠٣

ليلة الأربعاء الثاني عشر من آذار ٢٠٠٣، كانت حافلة بولمان تنتظرنا على رصيف في "ساحة العباسيين" بدمشق، وعند منتصف الليل تحرّكت بنا شرقًا باتجاه العراق، ونزلنا ساعة الضحى في فندق "عشتار شيراتون" المطلّ على "ساحة الفردوس" التي يتوسّطها ذلك التمثال الذي قُدّر له، بعد أيام، أن يُشدّ من عنقه -مع الأسف- إلى الأرض!

في الفندق جاءنا الإعلاميون يسألون، ونجيب: نحن جئنا نصرةً للشعب العراقي فيما يُعدّ له بوش من عدوان.

ولست أدري كيف ولماذا اختاروني أنا وزميلا من رفقاء الرحلة للتوجه إلى استوديو الفضائية للتسجيل (وكان ذلك عصر الجمعة ١٤-٣). وسمعت هناك الزميل "عزّ الدين" يبيّن لهم أنه من المعجبين بمؤسس الحزب ميشل عفلق، وهو يريد أن يتحدث عنه باستفاضة، وأما أنا فقد قلت للمذيعة اللطيفة بأني أفضّل أن أتحدث باستفاضة لكن حول الأدب!

وتحت الأضواء أمام الكاميرات، بدأت بسؤالي عما إذا كانت الرواية اليوم (وهي تعنيها كتابًا مطبوعًا) في تراجع أمام الدراما التلفزيونية؟ ولما كنت من أنصار الرواية

المكتوبة (وقد ساءني يومًا أن أُخذت إحدى رواياتي و"عفلقوا"[١] فيها ليجعلوها مسلسلا في حلقات!)، فقد استرسلت قليلاً:

إنه إذا كان قد قيل قديمًا: إنّ «الشعر ديوان العرب»، فإنّ الرواية اليوم هي ديوانهم. ولتذكُري، يا "أطوار" [وهذا اسمها]، أنّ حبّ الحكي هو من أحلى ملاذّ الإنسان، فالطفل منذ يعي يلتصق بجدّته مستمتعًا بحكاياتها الخرافية الساحرة. وأعتقد أننا -نحن أمة العرب- أفضل من حكى وقصّ وروى، وعنوان ذلك جدّتنا "شهرزاد"، هذه التي كان الحكي عندها يساوي الحياة، فإنها إن لم تحك، إن لم تُبدع في حكيها ما يُغري بالإنصات، فإنّ سيف "شهريار" ينتظرها عند الصباح.

وقلت: إن للدراما التلفزيونية روّادها، المسترخين في مقاعدهم الوثيرة، وللرواية من يقرؤها -وهم أقلّ استرخاء- في كتاب، يلذّ لهم أن يتلمّسوا في أثناء القراءة ورقَه!

ثمّ كان أن اختتمت أطوار اللقاء، الذي امتدّ ثلاثين دقيقة، بسؤال عن رأيي، ونُذُر الحرب تلوح في الأفق؟ فلم أتمالك نفسي، في أثناء الإجابة، من أن أصف ساكن البيت الأبيض بأنه... مجنون!

إلى أن ظهر لنا، في ربيعنا العربي، مجنونان: القذافي وابن صالح.

وأما نذر الحرب فقد أفضت، بعد أربعة أيام من عودتنا للوطن، إلى حرب (يوم العشرين من آذار).

وأما المذيعة اللطيفة «أطوار بهجت»، فقد عملت، بعد الحرب على بلدها،

---

(١) عفلقَ في العامية: تجول في الشوارع بلا عمل، مع إيذاء المارّة. وكأنه يقول: إنهم غيّروا في الرواية تغييرات سلبية.

مراسلةً "للجزيرة"، ولما أغلقوا مكتب هذه الفضائية عملت مراسلة "للعربية"، إلى أن كتب الله لها الشهادة بيد الغدر يوم الثالث والعشرين من شهر شباط ٢٠٠٦. رحمها الله.

من كتاب «قمر لا يغيب» من أدب الرحلات (قيد الطباعة)

دمشق الشام: ٢٧-١٢-٢٠١٢

الأسماك.. في أعماق البحار

بدأت علاقتي بالكويت، بوجهه الثقافي "اليعربي"، مع ظهور مجلة "العربي" التي أدارها باقتدار، على مدى بضعة عشر عاما متوالية، العالمُ الأديب المصري الدكتور أحمد زكي. كتبتُ إليه، بعد أن تملّيت النظر من عددها الأول (ديسمبر ١٩٥٨)، بأني آنسُ في نفسي الكفاءة -وكنت كاتبًا غضّ العود- لأن أضع استطلاعًا عن مدينتي حلب نسجًا على منوال ما وقفتُ عليه في ذلك العدد من استطلاعات متميّزة... فجاءتني منه موافقة متحفظة! فلما كتبت، حظي ما أرسلتُ، بالاهتمام البالغ: بعثة من المجلة تزور حلب عمّا قريب لأخذ الصور ملوّنةً على أصولها.

واستقبلت كبير محرري المجلة ومصورها، والتقطوا صورا تمثّل وجه حلب الحضاري، التليد والوليد.

ثمّ نُشر الاستطلاع في العدد ١٧ شهر أبريل/ نيسان ١٩٦٠.

تلك مقدمة...

ومن ١٩٥٨ أقفز إلى ٢٠٠١ (يا للزمن! ثلاثة وأربعون عاما تُطوى!)... في الأخير منها تُسمّى الكويت "عاصمة للثقافة العربية"، فكان أن أقيمت فيها الندوات

والمهرجانات، أحدها ذاك الذي تعهّدته مجلة "العربي" تحت عنوان "الثقافة العربية وآفاق النشر الإلكتروني". ولم تنس المجلة أني واحد من كتّابها الأوائل... وركبت المتن إلى عاصمة الثقافة العربية، في شهر نيسان/ أبريل ٢٠٠١.

في كتابي المعدّ للنشر، «قمر لا يغيب»، فصلٌ عن تلك الزيارة... فيه أنهم ذهبوا بنا يومًا -نحن المشاركين في الندوة- إلى صرح علمي كان قد افتُتح قبيل عام من يوم الناس ذاك: "المركز العلمي"، ترأس جولتنا رئيس تحرير "العربي" الدكتور سليمان العسكري، ودليلتنا ابنة هذا المركز، المتألقةُ فهمًا وأناقة "نوريّة". رأينا في ردهات المركز وسراديبه كائناتٍ حيوانيةً ممّا يعيش في الخليج العربي، قد استُخلصت من المياه الكويتية وشطآن الخليج وصحاراه، ومن شتى أنحاء العالم، وجيء بها إلى هنا.

لن أتوقف عند التفاصيل (وقد أوردتها في نصّ مطوّل، نزل مقالاً افتتاحيًّا في مجلة "الفيصل" السعودية، عدد ٣٠٥، ذو القعدة ١٤٢٢هـ، / كانون الثاني-يناير ٢٠٠٢)... ولكني أحبّ أن أشير إلى كلمة سمعناها من أنهم سوف يصحبوننا إلى "دار سينما" مستحدثة تسمى IMAX، لنشاهد «عرضًا يفوق الخيال»!

عند الدخول قدّموا لكلّ منّا نظارة خاصة قالوا: إنها "ثلاثية الأبعاد"، ودخلنا في العتمة إلى الصالة، من أعلاها، رأيناها شديدة التدرّج والانحدار. وفي تلمّسي طريقي بين المقاعد في العتمة الحالكة عرفت أنّ جلستي جاءت إلى جوار الرئيس العسكري.

مما عرضوا علينا فِلمٌ سمّوه "رحلة إلى الأعماق"، قاصدين أعماق البحار. في هذه الرحلة رأينا عوالم عجيبة: غاباتٍ، جبالًا، وهادًا، مستوطنات تسكنها أنواع لا تحصى من الأسماك، تتعايش، تتصارع، يأكل بعضها بعضا، كالحال عند الإنسان، أو أنّ

الإنسان يفعل كما السمك!

وخُيّل إلينا، في هذا الفلم، أننا نسبح مع أسراب السمك المتخذة في سباحتها اتجاهًا موحّدا تماما، وتتحوّل جميعها فجأة لتتخذ اتجاها آخر، إلى اليمين، إلى اليسار، إلى الأمام هناك في البُعد، ولكنها عندما تستدير إلى الاتجاه المعاكس، إلى حيث تستمتع أنت بالفرجة، فإنه يُخيّل إليك أنّ سرب السمك داخلٌ فيك، أو أنك غدوت بين الأسماك، فتقول في نفسك:

«رُحْنا!»، وفجأة تأتيك لحظة يتحوّل السرب عنك إلى اتجاه آخر، فتتنفّس الصعداء وتقول: «نجونا!». أقول: في مشهدٍ ما، بدا لنا نوعٌ من السمك بديعًا وديعًا، إلا أنه بارع في خداع فريسته، يبثّ فيها الطمأنينة حتى يقودها إلى الأعماق وينقضّ عليهاّ. هنا ارتفع صوت جاري الدكتور العسكري يعلّق بظرافة: «هذا السمك مثل العولمة!»... فضحكنا، نحن سامعيه، من الأعماق.

أجل، من الكائنات ما يتوسّل إلى الافتراس بالتظاهر بالوداعة، ومنها، منهم، من يقتل جهارًا نهارًا!

دمشق الشام: ٢٨-١٢-٢٠١٢

المشروع القومي إلى أين.. والإسلامي أيضًا؟

ذات ليلة من ربيع ١٩٩٧، دعا سفيرٌ عربي بدمشق عددًا من أصدقائه السوريين من مثقفين وكتّاب، مع عائلاتهم، إلى سهرة في بيته "غربيّ المالكي"، تتخلّلها حفلةُ شاي، وقد شرّفني بأن أكون واحدًا من العشرة الذين اصطفاهم. وتطيب لي الإشارة إلى التعارف، الطريف، الذي تمّ بيننا، فقد زرته قبل حين لأمر، وعرفت في أثناء اللقاء أنه أكاديميّ متخصّص بالتاريخ الأندلسي، وكنت -وما أزال- معنيّا على سبيل الهواية

بالشؤون الأندلسية، أدبًا وتاريخًا وتاريخَ طبّ على وجه الخصوص.

وإذا نحن -السفير وأنا- "نتبارى" في أن يتحدّث كلّ منا عن جانب مشرق من أيام الفردوس الذي فقدناه، فتأتّى لي أن "أدخل قلبه" وأن يدخل قلبي، وكان هذا لقاء أول، أفضى إلى دعوتي إلى هذه السهرة التي رافقتني فيها ابنتي الفنانة التشكيلية «خلود».

في تلك الليلة التقيت بمن كنت أعرفهم من قبل: رئيس اتحاد الكتّاب العرب، ورئيس مجمع اللغة العربية، ووزير تربية سابق، فضلاً عن زوجين أكاديميين: طبيبة (غدت بعد حين عميدة لكلية الطب) وزوجها (الذي غدا أيضا عميدا لكلية الحقوق)، وآخرين. وبين المدعوّين كان هناك عضو في "القيادة القومية لحزب البعث"، ينتمي إلى وطن السفير. ثمّ لم يكن بدّ من أن يتوزّع الحاضرون، بعد تناول الشاي، إلى حلقات صغيرة، حرصت على أن أنضمّ إلى حيث انتحى عضو القيادة القومية -وهو من كنت سمعت عنه كثيرًا- وثالثنا مستشار في مجلس الوزراء.

كانت تشغل الأذهان في تلك الآونة حوادثُ مؤلمة تقع في الجزائر الحبيبة، تمارسها جماعاتٌ يُزعَم انتماؤها إلى الإسلام، تمارس القتل والتنكيل، نسمع أخبارها ويعتصر الألم قلوبنا. وطرح المستشار سؤالًا وجيها: كيف يتفق لإسلاميين أن يقوموا بقتل الناس جزافًا! فتولّيت الإجابة بأنهم ما داموا يقتلون على هذا النحو الغاشم فهم ليسوا بالضرورة إسلاميين، وإن في تصرّفهم وفي وجودهم إشارات استفهام!

ولكني ما إلى هذا قصدت في حديثي. كنت أريد -وجليسنا مفكرٌ قومي عربي بامتياز- أن أستأنس برأيه ورؤيته في الحالة التي وصل إليها "المشروع القومي

العربي"، الذي ارتفعت النبرة في الدعوة إليه في سنوات الخمسينيات أيما ارتفاع. فأسأل عمّا إذا كان المشروع قد تراجع في الزمن الأخير؟

طرحت سؤالي هذا بتؤدة. فإنّ الرجل، بحُكم المعتقَد والموقِع، يُعدّ من أركان هذا المشروع. فرأيته وكأنه يستعيدني سؤالي بقوله: «سقط؟!»، فقلت في نفسي: قد ارتكبت خطأ في حضرة يَعْرِبيّ كبير! وتوقّعت أن يُلوي عليّ بشرح يصحّح متن السؤال، وإذا هو يتابع دون أن ينتظر مني جوابًا: «سقط! سقط المشروع القومي منذ نكسة حزيران!». ثمّ يُفيض في الشرح والبيان.

أقول: لمّا سادت الديكتاتوريات في أمهات الدول العربية، منذ يوليو ١٩٥٢، كان لواء القومية العربية أعلى ما هنالك من شعارات، تلقّته الجماهير العربية بالقبول والمحبة وبالاستعداد للتضحية، فأهمّ منجزات ذلك ستكون الوحدة، التي تعزّز وتقوّي وتُكرم، لولا أنّ ما مارسته تلك الأنظمة كان في مقدمته الارتيابُ من الإسلام، والنظر إليه "عدوًّا" متوقّعًا، واتجاههم، من ثَمّ، إلى التضييق على أهله: بدؤوا بالتعليق على أعواد المشانق، وانتهوا إلى إهلاكهم في الأقبية المعتمة وإبادتهم وهم في بيوتهم الآمنة، وكان أقل ذلك أنهم منعوا ذوات الحجاب من أن تطأ أقدامهنّ عتبات دوائر الدولة.

ثمّ انقشع ظلّ الديكتاتوريين، فكان المهادُ الذي انحسر عنه، أرضيّةً إسلاميةً بامتياز، فما نفع المنع والقمع إلا في ثبات العقيدة، وتأكد -وهنا المفارقة- أنّ ريبة دهاقنة الديكتاتوريات كانت في محلّها!

واليوم... هل يعمد الإسلاميون، الواصلون توًّا، إلى المعاملة بالمثل، فيسلكوا الطريق ذاته: تعليق وإزهاق، وأقله تضييق وإرهاق، رغبة في الإجهاز على ذوي

التوجهات القومية والليبيرالية والعلمانية؟

إن كان ذلك... فنحن عائدون إلى المربع الأول.

ويا لكَ من تعيس بين الأوطان، يا وطني الحبيب!

دمشق الشام: ٢٩-١٢-٢٠١٢

ديمقراطية ١٩٥٠

تمنّى الطبيب الضابط السوري المتقاعد الدكتور أسامة باكير، في صفحته هذه الليلة آخر العام، وهو اليوم يداوي أحباءه اللاجئين السوريين وراء الحدود التركية، أن تعود سورية (٦٢ سنة إلى الوراء)، إلى العام ١٩٥٠ وإلى دستوره وأخلاق السوريين وقتها...

وإليه أكتب:

في ذلك العام الذي تشير إليه، يا دكتور أسامة باكير، ١٩٥٠، أنت كنت في عالم الغيب، وأعلم أنّ مصدر إعجابك يعود إلى المتواتر من الأخبار عنه. وأما أنا فقد عشته، ابنَ عشرين، انتخاباتٌ نزيهة لجمعية تأسيسية نظيفة، وَضعت الدستورَ بديمقراطية نموذجية، ثم تحوّلت إلى برلمان.

أريد أن أقول: إنّ الذي أطاح بديكتاتورية حسني الزعيم وهيّأ هذا المناخ، هو العميد سامي الحناوي، الذي لم يختطف الحكم لنفسه، بل أتاح العودة السليمة لديمقراطية أمينة. لذلك عدَدْتُه في خاطرة لي سبقتْ، أنه واحد من أشرف الضباط العرب، وهو أولهم زمنيّا، يليه اللواء محمد نجيب، فالعميد عبد الكريم النحلاوي، وآخرهم في القرن العشرين المشير عبد الرحمن سوار الذهب، قاموا بانقلاباتهم للتغيير

والتعمير وليس للخطف والعنف.

تحياتي لك، وأنت تسعف وتداوي اللاجئين وراء الحدود التركية. أنت طبيب عسكري شريف نعتزّ به.

دمشق الشام: ٣٠-١٢-٢٠١٢

٢٥ شباط ١٩٥٤.. والعودة إلى الديمقراطية

في "خاطرة" أمس (ديمقراطية ١٩٥٠) سمّيتُ أربعة ضباط عرب شرفاء. ولكن يتعيّن عليّ الإشارة أيضًا إلى مصحِّحي الوضع في سورية عند فجر الخميس ٢٥ شباط/ فبراير ١٩٥٤، ولم يكونوا واحدًا بل ثلاثة:

العقيد فيصل الأتاسي رئيس أركان المنطقة الشمالية/ حلب، والعقيد أمين أبو عساف والمقدم كاظم الزيتوني رئيسًا أركان المنطقة الشرقية/ دير الزور، والمنطقة الغربية/ اللاذقية، الذين عَهِدوا إلى ضابط أصغر رتبة (النقيب مصطفى حمدون) لتلاوة «البيان رقم واحد» من إذاعة حلب، المعلِن عن التمرّد وانفصال المناطق الثلاث المذكورة عن حكم العقيد أديب الشيشكلي المتنصِّب رئيسًا للبلاد. وكان عذري في أني لم أضمّهم إلى الأربعة (والثلاثة من قبيلهم) أنهم جماعةٌ لا فرد واحد.

والحقيقة تقتضيني أن أنوّه بالحكمة التي بدرت في يوم التصحيح ذاك من الرئيس أديب الشيشكلي والمتجلّية في أنه -وقد فوجئ أو لم يفاجأ بهذا "الانقلاب"- لم يعمد إلى المقاومة والمقاتلة بل انسحب، تاركًا وراءه أحلامه، والوطنَ العازم على استعادة أيامه الديمقراطية.

حكايةٌ أحبّ أن أسوقها نكتةً في هذا المجال: أني عامئذ كنت طالبًا في السنة الأخيرة بكلية الحقوق بجامعة القاهرة، وأذكر أنّ عددا من الزملاء الطلبة السوريين

اجتمعوا ذلك المساء في بيتي في بناية الأوقاف بشارع الدقي بالجيزة، فرحين بما وقع في يومنا ذاك في ربوع الوطن. وقد فوجئنا بأنّ أحدنا (م. هـ) أخذ يبكي مثل طفل... لماذا؟ قال: إنه كان موعودًا من النظام المنصرف بأنهم سوف يعيّنونه في "السلك الديبلوماسي" عند تخرّجه بعد أشهر! وهكذا، بالأُعطيات، بالوظائف، تشتري الأنظمة الديكتاتورية النفوس.

دمشق الشام: ٣١-١٢-٢٠١٢

الجزء الثاني

٢٠١٣

قبل سبعة أعوام من الرحيل...

الطائر باسط الجناحين

في العصر العباسي شاؤوا أن يتخيّلوا العالم الإسلامي في صورة طاووس، صَدرُه في العراق وذيلُه يمتدّ حتى المغرب.

يبدو أنّ هذا "الطائر" قد تجلّى اليوم في خاطر العالم المتقدّم في دنيا الحضارة والإبداع، ولكنه لم يأت على شكل طاووس، بل باشقًا من الجوارح، عظيم الحجم والجِرم، صدرُه في "الشرق الأوسط"، والرأس متّجهٌ نحو الشمال، والجناحان، يذهب الأيمن حتى أقصى المشرق ويترامى الأيسر عند سواحل الأطلسي!

وإنّ هذا العالم ليمتلك موقعًا هو الأهمّ في دنيا الاستراتيجية العالمية اليوم، يَكمُنُ في باطنه ذهبٌ أسود وأصفر وأبيض وأخضر، وينطوي ترابُه على كنوز حضارية ترقى إلى آلاف السنين، تحتضن ذلك كلَّه ذكرياتٌ حميمة تَسري في العقول والقلوب والزنود.

هل أقول: إنّ عالم اليوم، المتصدّر، خاف هذا الباشق الخرافي، فابتعث في أنحائه الديكتاتوريات، تَحْكم، وتَعُوق، وتُدمّر؟ اتفقت في ذلك العواصم من موسكو، عبورًا لدول الغرب، وليس انتهاءً بواشنطن، فقد انضمّت إليهم بكين

ورغم هذا، فالجميع يَحْذَرون أن ينهض من تحت الرماد، ذلك الباشق المارد، الذي يقع قلبُه في بلاد الشام، أيها الأنام.

وإلا كيف أمكن أن يجتمع عالمُ اليوم كلُّه، في السرّ والعلن، على التلطّي[١] تحت هذا الصمت القاتل المريب!

دمشق الشام: الأول من كانون الثاني/ يناير ٢٠١٣

---

(١) تَلَطَّى على العدوّ: انتظر غِرَّتَهم، أو كان له عندهم طلبة فأَخذَ من مالهم شيئا فسبَق به.

القاهرة .. من لم يرها لم يرَ شيئًا

في ليلة صيفيّة، وأنا في حديقة بيتي أتحاور وأفكاري، تلقيت هاتفًا يخبرني بأنّ عليّ أن أتوجّه إلى القاهرة لحضور حفل تعتزم هيئة ثقافية، هي "مجلة ديوان العرب"، أن تقيمه لمن وصفَتْهم بأنهم «كتّاب وشعراء ومفكرون قد أسهموا في خدمة الثقافة العربية» وزعموا أني واحد منهم. فعزمت، وحزمت، وإلى عاصمة العرب توجّهت، وصعدت، مساء الثلاثاء الرابع من تموز ٢٠٠٦، إلى منصّة نقابة الصحفيين لأتسلّم دِرعًا من يد الكاتب المصري، الدمث، محمود أمين العالِم.

هل أقول: إنّ غياب فصل، من مشروع كتابي في أدب الرحلات «قمر لا يغيب» خاصّ بالقاهرة التي اكتسبت فيها ثقافتي الجامعية، جعلني أُرجئ العمل فيه؟ والآن بَدَوتُ عازمًا على أن أكتُبَ عنها أجملَ الفصول، فأخذت أتجوّل في القاهرة وأكثِرُ من التدوين. ومع هذا وذاك، حملت يوم عودتي بُرعُمَين اثنين من نبات "اليوغا"، وزرعتهما في حديقة بيتي.

وبادرت أكتب الفصل، وأنا على مقربة من نافورةٍ أنصت إلى غناء قطرات ماء "الفيجة" في تساقطها على صفحة البِركة. وفي آخر السطور كتبت ما يشبه المناجاة، قلت:

«من عاصمة العرب القاهرة المحروسة، بـ حاراتها وأحيائها، التي باح بأسرارها نجيب محفوظ في رواياته، أعود إلى دمشق الفيحاء التي فاح عطر ياسمينها في قصائد نزار قباني.

دعوني أقُل لكم، أيها الأحبّة، كلمةً احتفظت بها للأخير: ورد في "ألف ليلة وليلة"، أنّ مَن لم يرَ القاهرة لم يرَ شيئا. وإني لأرى في القاهرة، كلما زرتها، ما لم أرَ فيها من قبل.

ودمشق -وإن لم تقل عنها "ألف ليلة" ذلك- إنّ فيها لكنوزًا من العزّ والمجد والسّؤْدُد، فمنها انطلقت جيوش بني أميّة تفتح العالم، كلَّ العالم الذي كان معروفًا في ذلك الزمان، توحّده، وتُغدق عليه المعرفة والحضارة».

إني يوم مغادرتي القاهرة كان قد ملأ الأسماع وأثار المشاعر عملٌ بطوليّ اجترحه، في اليوم الذي سبق، مقاتلون من لبنان، أعقبه قصفٌ وحشيّ من العدو، ورافق ذلك نزوحٌ لبناني إلى سورية حتى وصل شتيتُهم إلى مزارع تقع في ريف حلب شمالًا.

أقول: ذهبت مسكونًا بالأمل والفرح، ثمّ قُدّر لي أن أعود في يوم تلته أيام تسربلت بالدماء على مدى ثلاثة وثلاثين يومًا، فلما آن للقتل والقتال أن يتوقفا، كانت قد غطّت أرض الجنوب مئات الآلاف من الألغام والقنابل الموقوته، مصحوبةً بدخول القوات المتعددة الجنسية ليحرسوا إسرائيل.

مساء الأربعاء الثاني من كانون الثاني/ يناير ٢٠١٣

تفصيلات مملّة

للمرة الثالثة أتوجّه إلى "الصرّاف الآلي" في حارتي، على رصيف "شارع زهير بن أبي سُلمى"، وأنت ذاهب -عكس اتجاه "نهر تورا"- من ساحة الجسر الأبيض إلى ساحة أبي العلاء المعرّي في أعلى "أبو رمّانة". في اليوم الأول قالت لي شاشةُ الصرّاف: إنه خارج الخدمة، وفي اليوم التالي رأيت صفًّا طويلاً من الناس مصطفّين "بالدور"، وذلك ما لم أعهده في السابق (يبدو أنّ الناس خائفين من الغد).

كان شارع الشاعر ابن أبي سُلمى، وأنا أسير على رصيفه بجوار النهر، غارقًا في العتمة، فهذه الساعة "دَورُه" في قطع التيار الكهربائي. خمسون عاما، ولم يستطع النظام أن يملأ حياة الناس بنور الكهرباء، على حين ملأ المسؤولون جيوبهم بالمال، حتى إنهم أخرجوا الفائض وأودعوه في بنوك الخارج. أقول: وكانت القذائف -وأنا أتعامل مع الصرّاف- تصل إلى سمعي بعيدةً، كالحال في سائر ساعات النهار والليل، نحسّ وكأنها تمرّ من فوق الرؤوس. قد

تعايشنا.

قبضت المعاش، ومقداره عشرة آلاف ليرة سورية، وهو أدنى معاش تقاعدي في الدولة، مع أني كنت أشغل وظيفة مدير في وزارة التعليم "العالي". كان قبل الانتفاضة يساوي مئتَي دولار، واليوم أقلّ من مئة، وغدا أقل وأقل.

توجّهت نحو الجسر الأبيض، ومنه إلى "طلعة العفيف"، متابعًا صعودي حتى ما قبل دخلة "سوق الشيخ محي الدين بن عربي"، وتوقفت عند دكان "الحَرَستاني" بائع الحليب الشهير، اشتريت من عنده نصف كيلو "لبْنة"، ونصف كيلو زيتون ومثله "عَطّون" (زيتون أسود)، وضفيرة واحدة من "جبنة حلّوم".

في نزولي عائدًا إلى البيت، رأيت بائع "الفول النابت" والكستناء، مشعلاً مصباحًا وهّاجًا فوق عربته، وهو جالس وراءها مع صاحب له يستدفئان بنار أعتقد أنهما أوقداها من أغصان الشجرة التي يستظلان بها.

دخلت الزقاق في ظَهر السفارة الفرنسية، مارًّا من أمام "رواق" الفنانين التشكيليين. وقرب بيتي هناك "الكولبا" الكبيرة، التي تتّسع لطاولة وكراسي وسرير، جاثمةً على رصيف بيت جاري، الذي كان حتى الأمس مسؤولا كبيرا، وغادر، ولكن لم تغادره "الحراسة" الدائمة له، فقد أمسى من المسؤولين القدامى.

دخلت بيتي. تعشيّت -وأنا متدثّرٌ فليس عندي محروقات للتدفئة- متناولاً شيئًا من اللبْنة والزيتون مع كاس شاي. ثمّ، على ضوء الشاحن، جلست أكتب هذه التفصيلات المملّة. نسيت أن أخبركم أنّ الحكومة أرسلت اليوم سيارة محروقات إلى ضاحية بدمشق. فلما تجمّع الناس حولها ليشتروا ما يدفئون به أولادهم قصفتهم طائرة ميغ. ومن ناحية أخرى لن أنسى -عملاً بالموضوعية- أن أبيّن لكم أنّ اتحاد الكتّاب يمدّني بتقاعد آخر يعادل تقاعد

الدولة.

جاءت الكهرباء. أرسل إليكم ما كتبت.

دمشق الشام: ليل الخميس ٣-١-٢٠١٣

يُخَيَّل إليك، يا سيدي

ليس عسيرًا علينا أن نتصوّر مواطنًا يلاحقه "الأمن" فيتوارى عن الأنظار. ولكنّ ما فعلتُه في قصتي تلك، أني جعلت بطلها قادرًا على التخفّي إلى حدِّ قدرتِه على أن يُغيِّر ملامح وجهه وشكله إذا ما وقع في قبضتهم ليقول لهم: أنا لست أنا!.

وأطبقوا عليه يومًا: أنت "جلال الدين عرنوس"! كم أعيانًا البحث عنك! وها نحن نظفر بك أخيرا!

فسألهم عمّا إذا كانوا يعرفون حقًّا جلال الدين عرنوس، ملامحه وشكله؟

وهنا أخذ مَن سمّيتُه "حامل الأوراق" يقرأ: العينان كستنائيتان، الشعر أسود فاحم، البَشَرة سمراء، الطول.

الذي كان من صاحبنا أنه استطاع، بلمحةٍ، أن يُغيّر لون عينيه إلى ما يُحاكي زرقة السماء الصافية، والشعر إلى شُقرة، وأصبح لون بشرته أبيض مُغْرِبًا، وكان نحيلا فتحوّل إلى قصير أكرش. وكلما رأى رئيسَهم يشكّك فيما تشهده عيناه، يقول له بسخرية شفيفة: «يُخيَّل إليك، يا سيدي! ».

وأخيرا سألوه: طيب، أنت لست جلال الدين عرنوس، فمن تكون؟ ما اسمك؟

فانتحل اسمًا: أنا... أنا جابر... اسمي "جابر كِنْدي"، من. سُلالة الفيلسوف العربي العظيم "يعقوب الكِنْدي"، المتوفى سنة ٣٥٨ للهجرة، أول من كتب في "علم البصَريات"!

هنا هتف حامل الأوراق: يا سيدي! إنّ عندي في قائمة المطلوبين واحدًا من آل الكندي!. وقلّب الأوراق: هو ذا جابر كندي، مطلوب للسلطة منذ زمن بعيد

تمتم جلال الدين عرنوس بينه وبين نفسه: يا للمصادفة الشقيّة! أنطقني لساني باسم مطارَد مثلي! أم أنّ الأسماء كلّ الأسماء مطلوبة للسلطة!

ومن فرط خوفه تساقطت عنه الأقنعة، وعاد إلى هيئته الأولى، فصاح حامل الأوراق: إنه جلال الدين عرنوس، يا سيدي!

فرغت من كتابة هذه القصة، التي سمّيتُها «الصورة والاسم»، يوم ٢٩-١١-١٩٦٨، ونشرتُها في مجلة "الآداب" اللبنانية (عدد كانون الثاني ١٩٦٩)، وعلى الهاتف عبّر لي رئيس تحريرها الدكتور سهيل إدريس عن تخوّفه من أن يُمنع دخول العدد إلى سورية.

ومتابعة لـ"ذاتيّة" القصة أبيّن أنّ المستعربة السويسرية Claude KRUL) كلود كرول) اختارتها لتكون واحدةً من القصص السورية التي ترجَمَتْها إلى الفرنسية، وصدرت في جنيف عام ١٩٨١ بكتاب يحمل عنوان SEVE ET SABLE) نُسْغٌ ورمل). وقد نزلت القصة في كتابي «حزن حتى الموت»، الذي اجتهد مسؤول النشر في اتحاد الكتاب العرب بدمشق في الحيلولة دون نشره، فصدر في بيروت بثلاث طبعات، والرابعة بدمشق بدار إشبيلية، وكان الإصدار الخامس باللغة الفرنسية تحت عنوان «D une tristesse a en mourir» عن دار alteredit بباريس عام ٢٠٠٢.

مساء الجمعة ٤-١-٢٠١٣

بُخلاء الثورة

ذات مرة تحدثت، في "التواصل الاجتماعي"، عن البخل والبخلاء، فقرأتُ لإحدى

الصديقات تعليقًا نافذًا بأنّ البخيل يضنّ حتى بالكلمة الطيبة يقولها في المواساة، ذلك أنه -إنْ تلطّفَ وسَخَا بالقول- خاف أن يودي به هذا إلى حيث يطمَع المواسَى به فيتوقع عونًا. ولله كم راقَ لي هذا التفسير!

في أيام الثورة، والناس يلسعهم الجوع والبرد، مثلما ينزل بهم أذى "الميغ"(١) وهم متجمّعون أمام أبواب المخابز والكازيات في طلب القوت والدفء لعيالهم، تكشّفتْ لي حالاتٌ من البخل لم أكن أتصورها، فتمنّيت -علم الله- لو أني أملك قلم مؤلّف "البخلاء"، إذن لرصدت من قصص هؤلاء ما يضاهي حكايا الجاحظ في كتابه الأشهر، وإنّ قصصي لتتميّز بأنها مستوحاة على وجه الخصوص من أيام المحن والكوارث، التي تجود بها الحوادث، فتقضي على البشر والحجر والشجر.

ولكني أعِدُ بأن أقدّم، بين الحين والحين، شيئًا مما يبلغ معرفتي. ولعلّ أوله هذا الذي سمّيتُه: (مباراة الكرماء)، يوم يعلم الكرماء بخبر مَن بلغَ حالةَ الاحتياج، فإنهم يتبارَون في التقدّم لإمداده، حتى ليَفيض العونُ فيطلب هو التوقّف. وهناك مباراة أخرى، فعندما يرى البخلاء محتاجًا يتلظّى، فإنّ كلاًّ منهم يقول: لماذا لم يتقدّم غيري؟ ويتّخذها ذريعةً، ويُحجِم مرتاحَ الضمير.

ليل السبت ٥-١-٢٠١٣

عندما أراد وزير أن ينفض الغبار

[مهداة إلى ابنتي الفنانة التشكيلية خلود، التي قالت: «وعرضت وزارة الثقافة على الوالد من فترة تكريما ورفضه بكل إباء...»، ٣ يناير ٢٠١٣]

---

(١) نوع من الطيران الروسي كان يقصف النظام به الناس.

في عام مضى تهَمَّمَ وزيرٌ للثقافة، منفتحُ الذهن والقلب، أن يشرع في نفض الغبار عن كُتّابٍ في الوطن قد همَّشَهم النظام على مدى سنين، وذلك بأن يقيم حفل تكريم لكلّ واحد من هؤلاء المبدعين، حيًّا كان أو راحلا، يتحدّث فيه الخطباء عن منجزاته، وتُصدر الوزارة بعدئذ كتابًا يضمّ ما قيل فيه وما سبق أن كُتب عنه، يحمل اسم الكاتب المكرّم.

وقد بدأ بواحد، وهمَّ بالثاني.

ذات يوم هتف إليّ صديقٌ كاتب روائي، معارض ولكنه يُساير (ولستُ كذلك)، يكلمني بصوت كأنه التغريد، بأنّ الوزير قرَّرَ أن يقيم حفل تكريم لي، مبيِّنًا الفوائدَ والمحاسن، ولست أشكّ في أنه توقع أن أستجيب لتغريده بتغريد. ولكنه فوجئ باعتذار! فأنا، ببساطة، أرفض أن أقف على منصّة أمام الجمهور، أتلقى تهنئة من وزير يجهل ما حلّ بحماة في شباط ١٩٨٢. وزدت بأنهم لو عرضوا عليّ منصب وزير لاعتذرت! وكان أن غاب صوت صديقي وراء الهاتف.

ما يجب أن أشير إليه أنّ الوزير، المتَهَمِّم لإصلاح ما أفسده الدهر أو النظام، أُقيلَ فجأة، ولست أدري لم؟! ثم إنه، في أيام الانتفاضة، مقيمًا خارج الوطن، طلب في "التواصل الاجتماعي" صداقتي. أصيل يعود إلى الأصالة.

وتوثيقًا، أو شِبْهه، أثبت هنا الحرف الأول من اسمه (ر)، والحرف الأول من اسم الصديق (خ)، ولا سِرّ في هذه الأمور.

وتصبحون على مواقف حرة.

ليل الأحد ٦-١-٢٠١٣

تغيُّر الظروف

بالأمس كان الناس، عندما يتلطّفون، يتمنّى بعضُهم لبعض دوام الصحة والعافية.

اليوم باتوا يتمنّون أن يبقَوا على قيد الحياة.

صباح الإثنين ٧-١-٢٠١٣

تأديب

في عام ما، اتفق لأستاذ سيّئ الحظّ أن تفوّه، وهو يعطي الدرس، بكلمة لم تُرضِ أبناء "شبيبة الثورة" الحاضرين في الصف، فتركوا مقاعدهم واندفعوا نحوه.

فتح المعلم الباب وهرب. لحقوا به. أخذ يجري في الباحة. تبعوه. وكان من حسن حظّه أنّ رأى باب المدرسة مفتوحا لمرور أحدهم، فانسرب منه ناجيًا.

ثم لم تَعُدْ عينٌ تلمح المعلم، بعد ذلك اليوم، أبدًا.

ظهيرة الإثنين ٧-١-١٣

ابن الحارة.. مسؤولاً كبيرًا

قبل أن يصبح مسؤولًا كبيرًا، كان جيرانه يلتقون به عند بقّال الحارة، ويتبادلون معه السؤالَ عن الأحوال، ويرَونه وهو "يَنْتع"[١] مشترياته ويمضي بها.

فلما ارتقى، نُصِبت له على باب بيته "كولَبا" تحتوي على طاولة وسرير وخمسة زلم، والرصيف احتُجز لسياراته المتعددة، وتَمَكَّنَ على الحارة فأضاء شارعها بثريات لا تتألّق إلا إذا كان حاضرا في بيته، وغاب عن العيون فلم تعد تكتحل بمرآه، فمن باب البناية إلى سيارته

---

(١) من العامّيّة السورية، بمعنى يجذب ويحمل. ولعلّها محرّفة من: نتَقَ.

يحجبه حُرّاسٌ أشدّاء.

الغريب أنّ ذلك كلّه بقي على هذه الحال حتى بعد الاعتزال. لم يشأ أن يعتزل المجدَ الذي اكتسب.

ليل الإثنين ٧-١-٢٠١٣

إعدام وزير الكهرباء

بعد أن أغرقتُ اليوم نفسي وأغرقتكم معي في الشدائد والأحزان، دعوني أقدّم إليكم ما قرأته لإحداهنّ (أنقله إلى الفصحى)، والفكرة مستوحاة من ظروف الناس بالغة القسوة والاضطراب التي يمرّون بها.

تقول المواطنة وهي -كما أتصوّرها- تتميّز غيظًا:

يوم تنتهي الأحداث، فإنّ أول ما أطالب به هو "إعدام وزير الكهرباء" أعدمه بسلاحه: "الكرسي الكهربائي"، على أن أقطع التيار عنه بعد كلّ صعقة، حتى يحسّ ما فعل بنا! ثمّ تسأل: «مين يأيّدني؟»

من ناحيتي لا أؤيّدها، بل نقدّم وزير الكهرباء إلى محاكمة عادلة، فإن كان قطعُه التيار تسليةً منه حبسناه، وأما إذا كان مضطرًا إلى ذلك تقنينًا لما عنده من طاقة أطلقناه. فنحن لا نريد الانتقام من رموز العهد السابق تشفّيًا،، من يؤيّدني؟

منتصف ليل الإثنين ٧-١-١٣

المال.. والقيم

تلقّيتُ، الساعة، عبر شبكة التواصل الاجتماعي، هذا الخطاب، من صديق يعمل في مجال الفكر والأدب، يقول:

هل كان محضَ مصادفة أن يقرع صديقي ساعي بريد حارتنا باب بيتي، ضحى هذا اليوم، ليُسلّمني -وهو بادي التردّد والخجل- بطاقةً تُنذرني بدفع أجرة البيت المستحقة عن العام الذي بالأمس ولّى، وإلا تعرّضت لإخلائه بحكم القانون!

كنت أجلس أمام التلفاز، أشهد، وأمسح ما يتحدّر من العين ألمًا على ما يحلّ بأهلنا في "مخيّم الزعتري"، من هجمة المطر على الخيام، تُغرقها، وتقتلعها، وتُضطرّ القابعين فيها إلى "النزوح"، يحملون أطفالهم وما تيسّر من متاع، الذي منه فُرُشُ الإسفنج يرفعون بها الأيدي حذرًا من أن يصيبها البلل فتمتنع عن أن تكون صالحة للاستعمال.

وكان لي أن أتذكّر، يا ابنَ مالكِ البيت الذي آوي إليه منذ عقود من السنين، هجمةَ "آذار"، التي اقتلعت المعامل من أيدي بُناتِها العِصاميّين، أولئك الذين بنوها في ظلّ نهضة صناعية عمّت البلد منذ يوم الاستقلال، فأقاموا صرح اقتصاد متين، ومنها معمل والدك يرحمه الله.

تذكّرت هذا وأنا أظنّ -وما أزال- أني وإياك نقف في خندق واحد: أنت ورهطك في مضمار الاقتصاد والإعمار، وأنا في مجال نشر القيم والأفكار.

تذكّرت، وذهب بي الخيال إلى أني، بعد انقضاء مهلة الثلاثين من يومي هذا، سوف أغادر البيت -ولن يكون موسم البرد والمطر قد انقضى- دون أن أستطيع أن أحمل من المتاع، ومن كتبي العزيزة التي تعرف، سوى مظلة تقيني من المطر، وإنّ الطريق، وعرٌ وخطر، إلى مخيّم "الزعتري" في الجنوب ومخيّم "أطْمة" على حدود الشمال.

أسألك أخيرًا: أما كان لك أن تزيد في صبرك عليّ قليلاً، وأنت تعرف أنّ معاشي التقاعدي زهيد، وأنّ ما أنشر من كتب قد كفّ الناس في هذا الزمن عن قراءته، وأنّ المجلات

التي جريت على الكتابة فيها: إمّا مُنعت من الدخول وإما امتنعت هي خشية عدم الوصول؟ وأنت مَن أغناه الله بما ورثت عن الوالد من عقار لم تمسسه أيدي ثُوّار آذار؟

ومع ذلك أمنحك العذر، لأني أدرك أنّ المال عند بعضهم أغلى من الروح، وأغلى كذلك من القيم، هذه التي ما زلت أفلح في تُربتها، وما آن لي أن أكحّل العينين برؤية ثمراتها، وإنْ كانت البشائر تُؤْذِنُ بانبلاج البراعم الغضّة في الأغصان النضيرة، يا مالك حجارة البيت الذي آوي إليه منذ خمسين من عمر الزمان!

دمشق الشام: منتصف ليل الثلاثاء ٨-١-٢٠١٣

لحظة استقبال المعتقلين

دخل عليّ واستلقى على المقعد متهالكا، ليحدثني عن أنه كان يمرّ قبل قليل بـ"شارع خالد بن الوليد"، فرأى تجمّعا أمام "قيادة شرطة دمشق"، وعرَفَ أنّ هناك "معتقلين" يَتوقع الناس الإفراج عنهم حالًا.

قال: فلما رأيتهم يخرجون، وهم في حالةٍ من الهُزال واللباس الزريّ الذي يبلغ العُري في صقيع هذا اليوم، لولا إشراقاتٌ في الوجوه، ما أحسست إلا وأنا أندفع لأعانق أيَّ واحد منهم ألتقيه، ولا أتمالك نفسي من البكاء! رأيت أنهم كانوا يمثّلونني وهم داخل السجن، إنهم طليعةُ مَن يدافع عن حريتي المسلوبة. تصدّق، يا زلمة: لم ألمح دمعة في عين أحدهم!

وبعد أن مسح دموعه، وجعلني أمسح دموعي، رأيته يتساءل وكأنه يصحو فجأة: ألا ترى أنّ "النِّسَب" في أعداد المفرج عنهم تشابه ما يقع في إسرائيل؟ ثمانية وأربعون إيرانيا مقابل ألفين ومئة وثلاثين سوريًّا! وفسّر: إنه "الفيض" في المعتقلين من فلسطينيين وسوريين!

أعترف بأنّ ما في حديث صاحبي، من التفصيل والتفسير ومن الدموع المعدية، حملني على أن أجعل من ذلك خاطرةً أرسلها إلى أصدقائي هذا المساء!

مساء الأربعاء ٨-١-٢٠١٣

معجزتان.. في هذا الزمن

قبل قليل طلبت "رانية ..." الصداقة. لاحظتُ من اسم أسرتها أنها تنتمي إلى مسقط رأسي حلب. دخلتُ صفحتها: تقيم في إحدى الولايات الأمريكية، التوقيت عندنا الفجر وعندهم منتصف الليل.

استرعى انتباهي آخرُ ما كتبت رانية في صفحتها: «إذا ممكن، في حدا ع الفيسبوك؟»، وقد أجابها "طارق" (ويبدو أنه من حلب): «نعم، خير؟».

كتبت رانية: «ما فيه شي، بس بدي أطّمن، قدِر حدا يتصل هاتفيا مع أهله بحلب؟«.

طارق يكتب: «حلب تحوّلت الليلة من اللون الأحمر إلى الأبيض، صارت عروس من تلج، بالنسبة لخطوط الهاتف: الموبايل ما بيعلّق من خارج سورية، والأرضي حسب المقْسَم».

يتدخل "ياسر" (من مكان ما): «مدام رانية! أنا استطعت أحكي من ساعتين مع حلب: كهربا ما في، ماء موجود. يعانون من البرد بسبب الثلج. المعين هو الله لأهل حلب».

رانية: «اوكيه! شكرا لكم».

وأنا أعلق هنا: إنها لمعجزةٌ في زمننا أن يتحوّل الألم إلى "قرية صغيرة"، يستطيع الناس أن يتخاطبوا فيها وكأنهم جالسون في حجرة. والنظام عندنا يجترح معجزة من نوع آخر: أن يفعل الأفاعيل في شعبه، الطيب، الذكي، المهذب، المبدع. وسجّل، يا زمن!

فجر الخميس ١٠-١-٢٠١٣

الشيخ.. والثلج

ساعة الضحى غادر فراشه. أطلّ على الدنيا، فرأى البياض يغطّي كلّ شيء. سمع صرير الباب:

- أنت صاح، يا عمّ!

جاره الطيّب، يأتيه اليوم بـ"ربطة الخبز". زوجته وقفت -بعد أن صحبت أولادها إلى المدرسة- "في الدور" على باب المخبز ساعتين، لتنال ربطةً إضافية له.

- سأعدّ لك كأس الحليب!

استحضر في خاطره ما كان قرأ، عند همنغواي، من أمر ذلك الفتى الذي يعتني بالشيخ العائد من صيد البحر! وصيدُه هو، كلماتٌ، ما زال يرسلها، يأمل أن تقوّي العزائم في صراع مرّ قد طال! غلبه الألم، وهو يتذكر، حتى كاد يخنقه البكاء. أسرع جاره الطيب يعانقه. امتزجت الدموع. ربّت ظهرَه:

- أيام تمرّ، يا عمّ!

بعد أن تناول فَطوره، وقف وراء النافذة، يتملّى النظر من الثلج الهاطل طوال الليل، يراه وكأنه يريد أن يكفّن آثام الأمس، ولكنه يذوب، فتظهر حمراء قانية.

الخميس ١٠-١-٢٠١٣

تونس.. والابتسام في الأيام الصعبة

كان كتابي «الابتسام في الأيام الصعبة» ثالثَ مخطوطة يعتذر اتحاد الكتّاب العرب بدمشق عن تبنّي إصدارها ضمن منشوراته، فتعيّن عليّ أن أتوجّه بها إلى ما وراء الحدود. وإذا كنت قد جريت قبل ذلك على النشر في بيروت والقاهرة، فأنا الآن ماض بها نحو تونس.

واتفق لي أن سافرت، في تلك الآونة، إلى الجزائر (شباط ١٩٨٢)، ممثِّلاً لوزارة التعليم العالي للنظر في تمديد الاتفاق الثقافي المعقود بين البلدين، فعرّجتُ في عودتي على تونس، وقمت بتصحيح التجارب الطباعية وأنا نزيل "فندق أميلكار" بضاحية قرطاج شمالّي العاصمة تونس، ثمّ صدر الكتاب مسحوبًا منه ثلاثة آلاف نسخة. (تحدثت عن ذلك في مشروع كتابي «قمر لا يغيب»، وقد أعيد نشر الكتاب بدمشق عام ٢٠٠٢).

ولعلّ من حقي القول إنّ هذا الكتاب، الذي انصرف عنه اتحاد الكتّاب، قد حظي بعد النشر بما يستحقّ من الاهتمام، لعلّ أول ذلك دراسةٌ كتبها الدكتور نسيب نشاوي بالجزائر، وليس آخرَها ما كتبه وليد معماري بدمشق، وبين هذا وذاك دراسة بالإنكليزية عُنيَ بنشرها الدكتور كاظم جواد في جريدة Syria Times. ولا بأس في أن أشير إلى ما قاله، في شبكة "التواصل الاجتماعي"، المغربيُّ عبد الرحيم الكوهن الناشط السياسي والأدبي، من أنه تربّى في شبابه وهو في "الدار البيضاء"، على أدب ولغة فاضل السباعي، مشيرًا في ذلك خاصة إلى الابتسام.

ولا بأس أيضا في القول: إنّ قصص هذا الكتاب الثماني كانت مستوحاةً من البيئة، أو البيئات التي مرّ بها مؤلفها، ترصد الواقع، وتنقده، عاداتٍ وعواطفَ إنسانية، بالمرح تارة الذي يغري بالابتسام والضحك، وبالسخرية المرّة تارة أخرى. وإذا كانت هذه القصص قد ابتدأت بأن جعلتُ الموظف البسيط، الذي سمّيته "زاهي" في قصة "المجاري"، يبتدع حلاًّ لمعضلة كانت قد أرّقت المؤسسة التي يعمل فيها (نُشرت في مجلة "العربي" الكويتية)، فإني انتقدت في آخر القصص "حوار للفصل الأخير"، "العدالة" التي تلفّق اتهامًا لمواطن بريء بأنه هو من قتل، أو اغتال، صديقًا له في منتصف تلك الليلة الليلاء (نُشرت في مجلة "البيان"، عن رابطة الأدباء بالكويت).

ولا بأس، مرة ثالثة، في الإشارة إلى أني قرأت يومًا في مجلة "الهلال" المصرية أنّ القصة الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة "نادي القصة" بالقاهرة وحاز صاحبها ميدالية طه حسين الذهبية، كان اسمها مماثلاً: "المجاري". ثمّ ما لبث أن نَبّه كاتبٌ مصري إلى أنّ القصة الفائزة منسولة من مجلة "العربي" ومسروقة من صاحبها السباعي! ثمّ كان تنويهٌ من النادي في العدد التالي من المجلة، واعتذار وتقدير، ولكنّ الميدالية الذهبية ذهبت. وذلك ما تحدث عنه بإسهاب المؤرخ للأدب والصحافة ياسر الفهد في أحد كتبه ضمن فصل عن السرقات الأدبية.

أجل، إنها ذكريات تتوالى فصولاً، وفيها أيضًا ما أستحضِره اللحظة من صورة رئيس الاتحاد وهو يقرأ عليّ نصوص تقارير المحكّمين الذين اختارهم "بعناية" (ومنهم زميلةٌ شاءت في "تحكيمها" أن تصفّي حسابات لها عندي، رحمها الله وغفر لها)، كنت تلك الساعة أقرأ في محيّاه الوضيء -وهو يقرأ بلسانه الطليق- التلذّذَ المعبّر عن ابتهاجه برفض نشر كتابٍ لزميل، هو من مؤسسي الاتحاد عام ١٩٦٩، حين لم يكن رئيس الاتحاد شيئًا مذكورًا.

تقولون، أيها الأصدقاء: لا يصحّ إلّا الصحيح. أجل، ولكنا ما بلغنا الشاطئ إلا بالصبر على الأذى زمناً امتدّ عقودًا من سنين.

منتصف ليل الجمعة ١١-١-٢٠١٣

الإلهام والاستلهام

في عهد الصبا الباكر (أربعينيّات القرن الماضي)، وأنا أُقبِل على قراءة الروايات الأجنبية بنهم، كان يتراءى لي أن "أثرثر" مع رفاقي الذين يشاطرونني القراءة، بأنه مستبعدٌ أن يكون عندنا أدبٌ روائي عربي خَلاّق، لأننا نفتقد الوسط الاجتماعي، البيئة، المناخ، العلاقات الاجتماعية المفتوحة المواتية للإلهام، على نحو ما يسود الحياة في ديار الغرب (أو كلام آخر

بهذا المعنى).

فلما فارقت تلك السنّ، تبيّنتُ أنّ كلّ مجتمع في العالم جديرٌ بأن يوحي ويُلهم. إذا ما تعمّق الكاتبُ مجتمعَه، ووضع يده على تفاصيل الحياة المخبّأة، فإنّ كلّ مكان فيه، كلّ مدينة وقرية، في كلّ انعطافة درب، في كلّ عِلّيّة تصل ما بين طرفَي زقاق مسدود، ثمّة حياة جديرة بأن تُسرَد، فقط على الكاتب أن يمسك بمطرقة الباب، ولا بأس أن يكون عتيقًا، ويَقرع، أو يدخل دون استئذان.

وغدًا،

غدًا سوف يجد المبدعون تحت أنقاض كلّ بيت هُدم، في كلّ حَجَرة انتثرت، في عمق التراب الذي تخضّب، نبعًا لا ينضُب من حكايات حزينة، انتهت إلى الانتصار.

ألا ليت الفاعلين كانوا قرؤوا التاريخ، وعرفوا معنى الأدب، إذن لفهموا ما يعني الإلهام والاستلهام!

الصُّروح الأندلسية.. من بناها؟

يوم أصدرتْ دار النشر، التي أنشأتُها بدمشق في أواخر ثمانينيّات القرن الماضي وسمّيتُها «إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع»، كتابَ "الأندلس في عصر بني عبّاد، دراسة في سوسيولوجيا الثقافة والاقتصاد" من تأليف الكاتب المغربي الدكتور أحمد الطاهري، بدا أنه قد آن لمسؤولي ولاية "الحُسَيمة" التي ينتمي إليها في "بلاد الريف" بالمغرب أن يقيموا حفلاً تكريميا لابنهم المُجلّي في بحوثه الأندلسية. وكان من بين المدعوّين إليه ناشرُ كتابه هذا بدمشق، مع عديد من الباحثين المغاربة والعرب والمستشرقين المنتمين إلى إسبانيا والبرتغال وفرنسا، ومنهم يهود من أصول مغربية كانوا قد "تفرنسوا" ولكن ظلّ حنينُهم إلى مسقط

الرأس في المغرب.

لدى وقوفي على المنصة لم أكن قد كتبت ما أنوي قوله، فارتجلت مستعينًا بما كنت نزّلتُه مقدمةً للكتاب، مما يتعلق بالصُّروح العمرانية الباذخة التي أقامها الأندلسيون هناك على مدى ثمانية قرون، والتي يعتزّ بها إسبان اليوم، وشاؤوا أن يروها "إسبانية الدم" غير معنيّين بأنها "إسلامية الروح".

قالوا: هذه حضارة "أسلافنا الإسبان"، فالعقول التي دبّرت، والأيدي التي مَهَرَت، والأجيال التي تابعت التدبير والإنجاز، كانت إسبانية لحمًا ودمًا، وكان من قبيل المصادفة- قالوا- أنّ أولئك البُناة دانوا بالإسلام ونطقوا بالعربية.

إنّا نقول في هذا كلمة: إنْ كان "الدم الإسباني"، الذي اغتذت منه عُروق الأندلسيين (ولم يكن بطبيعة الحال إسبانيّا خالصا)، هو العنصر الفاعل في بناء صروح هذه الحضارة، فلم لم يتأتَّ لهذا الدم الإسباني نفسه أن يفعل، أن يبني حضارة ماثلة في الجانب الآخر من شبه الجزيرة الإيبيرية، وقد كانت الرقعة المسيحية تتّسع شيئًا فشيئًا، وتظلّ مع ذلك قاصرة عن أن تقيم حضارة، على حين كانت الرقعة الأندلسية، التي تضيق باستمرار، تُنتج وتبدع، وآخر آياتها "قصر الحمراء".

وإذا كان الإسبان يدّعون أنهم هم بناة الحضارة الأندلسية، فلم لم يُبدعوا شيئًا من ذلك قبل الفتح الإسلامي؟ وأيضًا لماذا قَصُرت همّتُهم عن أن يتابعوا، بعد رحيل العرب، إنتاج الحضارة الأندلسية ويستمرّوا فيها؟

لن أتحدث عن التصفيق، ولكني أقول: إنّ الشابات الجامعيات من طلاب البروفسور أحمد الطاهري، الذي سبقني إلى الكلام في يوم مضى، كنّ -إعجابًا به- قد أطلقنَ "زغرودة" على طريقتهنّ المغربية، التي رأيتها لا تختلف إلا قليلاً عن زغاريد أهل الشام ومصر،

وتضاهيها رقة وعذوبة.

فلما أنهيت كلامي أعلاه، منحنَني هذه الزغرودة. ولله كم أحسست فرحًا وابتهاجًا! وساعة خرجنا من القاعة التفقنَ حولي، يُعبّرنَ عن رضاهنّ بما قدّمت من القول في حضور المستشرقين، فداخلني "الطمع" إذ أغريتهنّ بزغرودة أخرى، فأطلقنَها، والمنصرفون من القاعة يرون ويتبسّمون!

وقع ذلك في بلدة "إمزورِن" (التي ولد أحمد الطاهري بالقرب منها)، بولاية "الحُسَيمة" في بلاد الريف شماليّ المملكة المغربية، مساء يوم من ربيع ٢٠٠٩ وما أقدّمه لأصدقاء التواصل الاجتماعي اليوم، هو مقطع من فصل عنوانه "تداعيات أندلسية جنوبيّ غرناطة" من كتابي الموعود «قمر لا يغيب، من أدب الرحلات».

منتصف ليل الأحد ١٣-١-٢٠١٣

الخوف مِن وضعِ لايك

ساعة كتبت سيدة سورية في صفحتها، وهي في الولايات المتحدة الأمريكية: «إذا ممكن، في حدا عالفيسبوك؟»، تريد أن تطمئنّ على أهلها بحلب، وقد انقطعت عنها وسائل الاتصال وتقطّعت بها السُّبُل، أقول: استوحيت خاطرةً من ندائها اللهيف ومن مبادرة اثنين من مواطنيها الحلبيين، استطاعا أن يبثّا شيئًا من الطمأنينة في قلبها.

لقد كان في مناداة "رانية" من ولاية أوهايو (مناداتها التي تذكّر بما يتردّد في المأثور الشعبي: «يا سامعين الصوت»!)، من اللهفة ما انتفى معه الخوف عندها. وإني أشرت في خاطرتي "معجزتان.. في هذا الزمن!" بتاريخ ١٠-١-٢٠١٣ إلى "الشابكة"، المعجزة الحديثة، التي قد يضاهيها سلبًا ما يفعله النظام عندنا في أبناء شعبه! إنّ وصفي واستدراجي المعاني،

أغريا "غادة" في دمشق، بأن تسرع إلى وضع لايك، وتحته سؤال: «أستاذ، هل أنت مقيم في الوطن؟».

ولم أكد أهمّ بالإجابة حتى كان السؤال قد اختفى واللايك اقتُلع! فدخلت أسأل غادة عبر التراسل؟ فكتبت: «أستاذ، أنا معجبة جدا بما تكتب، ولكني لا أجرؤ على وضع لايك. عفوا، كتبتُ ثمّ حذفت». وما لم أشر إليه من أمرها بعد، أنّ خوفها كان قد منعها من طلب الصداقة!

أيها النظام! ماذا فعلت بمواطنينا؟ أنت زرعت الخوف في أعماق نفوسهم! تُرى كم ذا يستغرق اجتثاثه: هل يكفي جيل واحد؟

منتصف ليل الإثنين ١٤-١-٢٠١٣

الشعب.. يتكيّف

لحظة خرجتُ من "مخبز السفراء" في شارع ٢٩ أيّار، حاملاً كيس الكعك المالح، تلقّيت صوت قذيفة ثنائيّة الانفجار.

وبعد نحو نصف ساعة، وأنا أغادر مبنى البريد المركزي وقد أودعت رسالة مسجلة، ترامى إلى سمعي صوت قذيفتين اثنتين ثنائيّتَي الانفجار.

ثمّ ما إن وصلت إلى مركز انطلاق الحافلات تحت جسر الرئيس، حتى كان يصافح سمعي صوت قذيفة واحدة وأحاديّة الانفجار هذه المرة!

أنا، أيها الأصدقاء، ما أدّيت "خدمة العَلَم" بزماني، ولا أفهم بالقذائف وما يتبع. ولكني عجبت أن أرى الناس حولي يتابعون سيرهم، مَن هو مستعجل لا يركض، ومن يمشي الهوينى لا يوسِع خطاه، فكأنهم يرونها مَدافع تُثبت الشهر الفضيل، أو تقول العيد غدًا!

هل بإمكاننا القول: إنّ النظام استطاع أن يجعل الشعب يتكيَّف مع مستجِدّاتٍ أصبحت جزءًا من حياته اليومية؟ فما أبلغ ما يستطيع النظام! وفي هذه الحالة ألم يكن في مقدوره أن يحقق من الإصلاح، قبل آذار ٢٠١١ أو بعده، ما يجنّب شعبه الويلات والمحن؟

يا سبحان الله! يستطيع النظامُ هنا ويُخفق هناك!

مساء الثلاثاء ١٥-١-٢٠١٣

ربّما...

يوم نزلت قذيفة من السماء على مدينة "إعزاز" في الشمال السوري، فأحدثت حفرة قطرها ثلاثون مترًا، قالوا: لسنا نحن. ربما أتت من الجانب التركي!

وأيام ذُبح الأطفال بالسكاكين، في عتمة الليل وفي وَضَح النهار، قيل: فعلٌ من غرباء، لا نعرفهم!

وأيام تمزّقت أجساد الجائعين على أبواب المخابز الآلية، قيل: ربّما الجيش الحرّ!

وأيام تناثرت جثث البردانين أمام الكازيّات، قيل: ربّما النُّصرة!

وأمس قصفت الميغ طلابنا، زهرات المجتمع، في حرم جامعة حلب في عزّ الامتحانات، فقيل: ربّما طيّار منشقّ!

طيّب، لنَغُضّ الطَّرف عن الحقيقة والواقع، ونسأل: أليس من حقّ المواطنين أن يتولّى حمايتَهم من ذلك كلّه حماةُ الدّيار والذِّمار!

ليل الأربعاء ١٦-١-٢٠١٣

لافروف.. يا لافروف

في تصريح لرئيس الديبلوماسية الروسية، عبّر عن مخاوفه على الأقليّات في سورية، فهو يتمنّى، أو يوصي بألا تُمسّ بأذى. ما أرقّ قلبه!

وينسى أنّ شعب الشيشان عنده يمثّل الأنموذج الأفظع للأقليّة المستباحة، المبادة، عبر السنين: كان تعداد هذا الشعب، المختلف عن الروس دينًا ولغة، قبل مئة سنة، ثلاثة ملايين، ويُفترض أن يكون اليوم -حسب معدّلات النموّ الديمغرافي عند الشعوب المماثلة- ثلاثين مليونًا، ولكنه مليون واحد!

غداة تصريحه هذا قرأت، في شبكة التواصل الاجتماعي، كلمة لكاتب هو من الملايين الذين يرون ويدركون، يقول: إنّ لافروف واحدٌ من ديناصورات بريجينيف المحنّطة، من جِيَف الستالينيّة البائدة، ثمّ يتساءل كالمشفِق: تُرى كم يلزم روسيا من الزمن حتى يُتاح لها أن تتجدّد؟

ومِنّي: لو أنّ جائزةً تُمنح لأكثر الديبلوماسيين نفاقًا، لاستحقّها هذا البائس دون منافس.

منتصف ليل الأربعاء ١٦-١-٢٠١٣

أيها الباذلون دماءكم في سبيل الحرية

اسمحوا لي أن أشكو أمامكم ضعفي، وأن أعبّر عن خجلي من أني لا أملك في مِضماركم سوى الكلمات.

ليل الخميس ١٧-١-١٣

التاريخ يعيش حلمًا

الأصل أن يحبّ الحاكمُ شعبه، أن يخدمه ويرعاه، ويوفّر له الأمن والأمان.

أمّا أن يقصف بطائراته بيوت العلم، يوم يؤدي الطلاب فيها امتحاناتهم، قذيفة أولى، ويهبّ أهل النخوة للنجدة والإسعاف، فيرميهم بالثانية!!

يقينًا إنّ التاريخ يحلُم، يخضع لكابوس لم يمرّ به في زمانه البعيد الطويل.

منتصف ليل الخميس ١٧-١-٢٠١٣

قسوة القتل

إنّ نظامًا يمتلك قسوة القتل ويفتقد شجاعة الاعتراف، ليس جديرًا بأن يبقى في سدّة الحكم.

ليل الجمعة ١٨-١-٢٠١٣

أليس الغرب مسؤولًا عن التطرّف الإسلامي؟

ظلّ الغرب يقهرنا زمنًا ما آنَ له أن ينتهي. وعبْر الابتزاز والاستغلال أنشأ فينا دولاً، وقسّم أوطانًا، وفرّق أممًا، وبالمِسطرة رسم حدودًا غير طبيعية. وهو، في أثناء ذلك، يتقاضى منا ذهبًا أسود يُعزّز به منجزاته، ويقايضنا مستبدّين يُمعنون في قتلنا ونهب أموال شعوبنا.

وزاد بأن أغمد في قلب الوطن خَنجرًا، أراد له أن يبقى، يستنزف الدماء ويأكل الأحشاء.

ولم يخطر له، في غَطرسته المتمادية، أنّ المقهور قد تتحوّل أظفارُه المقلّمة إلى سيف، قذيفة، قنبلة موقوتة، طيارة تدخل في بروجه المشيّدة.

ألست أنت، أيها الغرب، مَن ظَلم وقهَرَ، واليوم تَرفع أصوات الاستغاثة؟!

منتصف ليل الجمعة ١٨-١-٢٠١٣

العزّ لهم.. ولنا عرق الجبين

في يوم من خريف مضى، اتصل بي مسؤول العلاقات العامة في "المستشارية الثقافية الإيرانية" بدمشق، يُبلغني بموعد سفري إلى طهران للمشاركة في "المؤتمر العالمي لتاريخ الطبّ في الإسلام وإيران"، وأفاد بأنّا سنكون معًا، ثلاثة مشاركين في المؤتمر: كاتب السطور (الذي مُنح القبول الكامل(، وطبيب (قُبل بحثه دون بطاقة سفر)، وكان ثالثنا طبيبًا ينضمّ إلينا مع أنّ بحثه معتذَرٌ عن قبوله وهو يجازف بالسفر اعتمادًا على منزلته الحزبية في المؤسسة الجامعية التي يترّس فيها.

ونحن على متن الريح، رأيت صاحبنا، الطبيب الثاني، يتّخذ مقعده في هذه الطائرة التي تعجّ بـ"الزوّار" الإيرانيين رجالًا ونساء عائدين إلى الوطن محمّلين بما استساغوه من المقتنيات الشامية. ولست أدري ما حملني على أن أنهض إليه: أهي حقًّا الرغبةُ في التعرُّف، أم أنها رغبة أخرى، دفينة، في أن أبرز إليه أنا مَن تفوّق عليه بقبولٍ حُرم هو منه مع تمتّعه بمنزلتَيه الجامعية والحزبية!

ساعة نزولنا من الطائرة والدخول إلى مبنى المطار، فوجئنا بازدحام هائل وفوضى تعمّ الأرجاء، فأيقنّا بأنّ علينا الانتظار سويعاتٍ يعلم الله مداها. وقد انضمّ إلينا في هذه الساعة المخرج التلفزيوني "هيثم حقي" الذي عرفْنا منه أنه مدعوّ لمهرجان فني يتضمّن تكريما له على عمل تلفزيوني كان قد عُرض عندهم.

ونحن في حيرتنا واصطبارنا رأينا صاحبنا، يتلقى تلويحة من هناك: موظفون من سفارتنا الحبيبة جاؤوا لاستقباله واستنقاذه مما يعرفون من وطأة الزحام والفوضى. ولله كم تمنّينا لو "يُلحِقنا" زميلنا بنفسه، فنخرج من المطار ونحن أقلّ إرهاقا، ولكنه تركنا لمصيرنا ومضى!

في فندق "هوتِلْ لاتَهْ" (ربما ترجمته: فندق الشُّرفة) جعل صاحبي يتحدث عن أنه يُساهِر

سفيرنا كلّ ليلة في مَقرِّه الديبلوماسي. والسفير كنت أعرفه، وبيني وبينه احترامٌ متبادل، وقد سبق أن بعثت إليه قبل عامين بمجموعة من مؤلفاتي الجديدة عبر الحقيبة الديبلوماسية بدمشق. وقد سألت صاحبي عما إذا كان قد ذكر في حضرة السفير اسمي بين المشاركين في المؤتمر، فأجابني بأنْ نعم، وأنا على يقين بأنه من الكاذبين. وعشية العودة أعدت عليه سؤالي وأنا في غرفته، فقال: «الآن نتّصل!». الذي كان، يا أصدقائي، أنّ السفير فوجئ بأني في طهران، وعاتب، وصاحبي أمامي يسمع مني ولا يرفّ له جفن! وفي باكر الصباح، لحظة المغادرة، أفاجأ بأنّ السفير، اللبق، أودع عند منتصف الليل في "مكتب الاستقبال" هدية لي مع بطاقة فيها ما فيها من جميل الاعتذار.

وساعة دخلنا مبنى مطار دمشق الدولي، انسرب صاحبي إلى "قاعة الشرف"، وتركني بين "العامّة" أمام النوافذ الأمنية.

أجل. العزّ كلّه، كلّه، لهم. ولنا نحن جهدُنا، عِلمُنا الذي نجنيه بعرق الجبين.

[ملاحظة: إنّ بعض الذي رويتُ هنا، قد ورد في بعض ما كتبتُ عن زيارتي لطهران، في فصل سمّيته «أذانٌ رخيم ينساب في فضاء الجامعة» في كتابي «قمرٌ لا يغيب». وأما صاحبنا، فقد غدا بعد ذلك اليوم في عداد سفراء البلد، إلى أن تقاعد، فهو "قاعد" اليوم حيث هو، نِسْيًا منسيًّا]

السبت ١٩-١-٢٠١٣

من أدب السلوك.. عند السوريين

ممّا لاحظت من الكياسة وحُسن التصرّف عند إخوتنا وأبنائنا في سورية، ما يندرج فيما أسمّيه "أدب السلوك عند الشعوب"، أنهم حين يدخلون قاعةً لسماع محاضرة يتجنّبون

الجلوس في الصفوف الأمامية، تحسُّبًا لأن تكون لمن هم أحقّ ممّن يتواردون على المكان. وهذا أدبٌ قد فُطِر عليه الناس في بلدي، في المدينة وفي الريف، ولم يتلقَّوه تعليمًا في المدرسة أو في البيت.

ولكني ما إلى هذا قصدت.

أردت أن أتحدث عن أنه في المؤتمرات العامة التي تقام في البيوتات العلمية والثقافية، يحدث أن يعمد القائمون عليها إلى إعداد "حفلة شاي" يوم الافتتاح، يجتمع فيها المشاركون والمدعوّون، بعد إلقاء الكلمات الافتتاحية، في مكان يلي قاعة الاحتفال، حول موائد مفتوحة، يقدّم فيها الساخن والبارد وشيء من المآكل الخفيفة، تُلتقَط باليد، فإن كانت الموائد أحفلَ اتُّخذت لذلك أطباق.

ما لاحظتُه، في بعض الأقطار التي زرتها عربيةً وشرقية، أنّ بعضهم يندفعون إلى هذه الموائد ويتزاحمون بالمناكب على نحو ينبو عن الذوق، ممّا يحمل المشاركين -أعني العلماء والأدباء أصحاب البحوث- على التراجع والإحجام.

في دولة ما، في جامعتها الكبيرة، رأيت "أبناء النظام"، الذين هم حرسُه وحماته، يهجمون على الموائد وكأنهم في ساحة وغى. والذي كان مني، تلك اللحظة، أني تراجعت أمتارا. واتفق أن كانت هناك موائد أخرى منفصلة مخصصة للنساء، اللواتي يترفّعنَ عن التزاحم، فكانت زوجتي -وقد رافقتني إلى هذا المؤتمر- تأتيني بطبق وهي تمشي الهوينى! ومن عجيب الأمر أن تَغفل عيون أولي الأمر عن ملاحظة هذه الحالة، فلا يمنعوها أو يحدّوا منها.

وأشهد أني، في كلّ ما شاركت من مؤتمرات في وطني الحبيب، لم أجد ما يمتّ إلى هذه الحالة أو الظاهرة بصلة. ويتساوى في هذا الأدب الجميلِ المشاركون والمدعوّون وسَدَنَةُ الاحتفال.

أقول: واليوم شبابُنا، زهراتُ مجتمعنا، طلابُ الجامعات، المتحلّون بهذه الفضائل وبغيرها، يُقتَلون وهم في رحاب الجامعة في أول أيام امتحاناتهم، بأن تُمطِرهم طيارة بقذيفة، وبعد أن يتنادَوا للإسعاف يقصفون بالثانية، فيكون الضحايا أكثر وأكثر!

ألا ما أبعده مِن بَون: بين أدب السلوك عند الشباب، وبين إبادة المتأدبين به وهم في بيت العلم!

حضارة، ودَركٌ أسفل!

مساء الأحد ٢٠-١-٢٠١٣

ووصل الحديث بالسياسة إلى الأطفال

[نكتة آخر الليل]

عند المساء سمعت "سلمى" أهلها وهم يقررون الرحيل هربًا من القتال إلى حيث يقيم العمّ في واشنطن. فحدّثت في اليوم التالي رفيقتها "سلوى" بأنهم سيسافرون إلى أمريكا.

فتوجّهت إليها زميلتها تنصحها باهتمام:

- لا، لا تسافروا لأمريكا، رئيسهم أوباما وعدنا بأن يوقف الحرب وما عمل شي. أوباما كذّاب!

لما نقلت سلمى قول رفيقة المدرسة إلى والديها، لم يحاولا أن يضيفا إلى "معلوماتها" أنّ هناك من هو أكذب من أوباما وأكثر نفاقًا اسمه لافروف، حتى لا يُثقلا على صغيرتهما بنت الصفّ الأول ابتدائي.

ليل الإثنين ٢١-١-٢٠١٣

مراكب في نهر إشبيلية

فتح العرب إسبانيا وسمَّوا هذا القُطر الذي دخلوه «الأندلس»، تسمية استمدّوها من اسم إحدى القبائل التي سبق أن حكمت إسبانيا والشمال الإفريقي الفندال Vandals، وقد كانت الأندلس ذات طبيعة من أجمل ما في بلاد المسلمين، لا يضاهيها إلا بلاد الشام التي منها جاء الفتح في عهد الخليفة الأموي السادس الوليد بن عبد الملك.

أقام الفاتحون في الأندلس حضارة زاهرة على مدى ثمانية قرون من عمر الزمان. وإذا كانت المؤلفات التي كتبوها مودَعةً في المكتبات العربية والعالمية، يخرج بعضها إلى النور بين الآونة والأخرى مطبوعًا بما يليق، فإنّ ما شيّدوا فوق الأرض من صروح باهرة يشكّل اليوم مصدرا كبيراً من مصادر الدخل القومي في إسبانيا.

ما أودّ أن أقوله الآن أنّ "دار إشبيلية" بدمشق نشرت في مطلع العام ٢٠٠٩، كتابًا من تأليف الباحث المغربي المتمرّس في الشؤون الأندلسية، البروفسور أحمد الطاهري، عنوانه «الأندلس في عصر بني عبّاد»، هو الحصيلة العلمية لدراسة اشتغل عليها بضعة عشر عاما. وقد كان لي الحظّ في أن أقدّم للكتاب بصفحات ضافية، أقتطِف منها الآن صفحة تجلو وجهًا مضيئا من وجوه الحضارة التي أشاعها أهلونا هناك، والكتاب -بصفحاته التي تجاوزت الخمسمئة- يتحدث عن زمن يعود إلى القرن الخامس للهجرة (الـ١١ الميلادي).

قلت: ويتحدّث الدكتور أحمد الطاهري عن الريف، الذي عمّره الأندلسيون بالفنادق والمطاعم والحمّامات والحوانيت والأسواق، ممّا يحتاج إليه التجار والمسافرون من خدمات على طول مسالك السفر، وقد بلغت من الكثرة في ربوع الأندلس حتى شاع الخبر في الآفاق بأنّ المسافر «حيثما سار من الأقطار يجد الحوانيت في الفلوات والأودية ورؤوس الجبال، لبيع الخبز والفواكه والجبن واللحم والحوت وغير ذلك».

ويشير المؤلف إلى تحسّن معاش الفلاحين ورُقيّ مظاهر حياتهم العامة، يتجلّى ذلك في الخصائص المعمارية لمساكنهم التي غدت، خلال عصرَي الخلافة [الأموية الأندلسية] والطوائف [عصر بني عبّاد]، «نهاية في الجمال لتصنُّع أهليها في أوضاعها، وتبييضها لئلا تنبو العين عنها».

ويبلغ إنطاق التاريخ حدّ الشَّدو والتغريد، حين يحدثنا المؤلف عن "وادي إشبيلية" [نهرها]، عن الرصيف المحتضِن للمراسي والمقصود بالتجارات، وأصناف المراكب المحمّلة بالسلع والخيرات، وقد حُصِّنت مداخله بالأبراج والمنارات، حتى قيل: «وليس في معمور الأرض أتمّ حسنًا منه». وعن كثافة المِلاحة النهرية على طول مجرى هذا النهر يقول: «وكانت القوارب تسير فيه –عدا النقل والتنقّل– للنزهة والسير والصيد».

وقد قلت معلّقًا على هذا: «أليس من حقّ الإسبان اليوم، الأكثر وعيًا للحِقَب التاريخية التي مرّت بها بلادهم، أن يحزنوا لأنّ الأندلسيين، أرقى شعوب أوروبة في القرون الوسطى، قد تعرّضوا للتهجير إلى الخارج، وللتدمير في الداخل، ممّا جعل عملية التقدّم في إسبانيا الأندلسية تتوقف، على حين استفاد الأوروبيون من كلّ المنجزات الحضارية التي قدّمها الأندلسيون؟».

فاضل السباعي– من تقديمه لكتاب "الأندلس في عصر بني عبّاد، دراسة في سوسيولوجيا الثقافة والاقتصاد" دار إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق ٢٠٠٩، ص ١١ و١٢.

أقول: ومثل هذه الحضارة أنجز أهلونا في بلاد الشام، غابرًا وحاضرًا. ولكنا نرى اليوم تدميرًا يتجاوز إبادة الإنسان إلى تدمير البنى التحتيّة. وا أسفاه!!

منتصف ليل الثلاثاء ٢٢-١-٢٠١٣

عشوائية جديدة. اسمها "طلعة بو علي"

ويقول لهم القائد: «ولَكْ كم مرة قلت لكم واحد واحد، يا أولاد الـ...!»، ويضحكون.

وجاءه الدور. أخذ حبالاً، وصفيحة دهان أحمر، وفرشاة عريضة، وفي سيارته الرسمية توجّه إلى سفح الجبل وبصحبته عناصر.

كان هناك جمعٌ ينتظرون. أمر بمدّ الحبل. والفرشاةُ المغموسة بالدهان الأحمر تمرّ على التربة وما يصادفها من حجارة. يقطّع أراضيَ هي من "أملاك الدولة"، ويرسم أزقّة ودروبا، ويبيع. يقول لهم: «سمّوا بكره هالمكان "طلعة بو علي"، باسمي واسم بيّي!».

وعندما كان طرف الحبل ينتهي في وسط نتوء صخريّ، كان يوعز بأن تتجاوز الفرشاة إلى ما بعد الصخرة: «وهاي زيادة، مشان خاطرك، يا بو محمد!». فيضحك أبو محمد، ويسيل لعاب المنتظرين متمنّين أن تعترض محاضرَهم صخراتٌ أضخم.

بحضور مشترين سابقين، قد باشروا بالعمار ودفعهم الفضول لأن يأتوا متفرّجين، باع أولاً ثلاثة محاضر لأشقّاء ثلاثة، منَحه القايد الحقّ في أن يبيع خمسين محضرا، يُنشئ "حيًّا" بأكمله، لكنه باع أكثر، المعلم كريم، يسامح.

يقبض دون إيصالات. البيع والشراء "على الثقة". والتعهُّد قائم بأن يصل إليهم الماء عند بدء العمار، والكهرباء بعد الفراغ منه. كل شيء على الثقة. القايد يرفع السماعة ويأمر، فيأتي الماء والكهرباء فورًا.

يقول لهم: «والله، أنا قلبي ع الفقرا!». ولكنّ قلبه لم يلهمه أن يدفع "إكراميّة" لواحد من عناصره، هؤلاء الذين يرون بأعينهم، والذين يصادر أول كلّ شهر معاشاتهم الزهيدة،

وهو يقول: «مو حرزانة»!

ولكنه دفع ما عليه للقايد، "فيفتي فيفتي"، على الثقة.

ثم أخذ إجازة، وسافر إلى الضيعة، ليقول لوالديه: « يا بيّي بو علي، ويا أمي أم علي! هاي المصاري كلّها، الله يطوّل عمر القايد، من بكره الصبح بلّشوا[1] بالعمار، أنا عملت اللي عليّ».

مساء الخميس ٢٤-١-٢٠١٣

إنّ اختيار اللوحات البديعة هو إبداع

إنّ اختيار اللوحات البديعة هو إبداع، هو فنّ آخر.

و«راية الراهب»، رايةُ الفنّ المرفوعة رغم الرهبنة في الاسم الجميل، ما تزال تقدّم لنا فنّها الذي تُبدع، مقرونًا بما تختار من ألوان الفن العالمي، وأخصّ اختياراتها يوم (١١-١٢-٢٠١٢)، تلك التي تمثّل رؤية للطبيعة مختلفة، تُبدع فنًّا مختلفًا جدًّا، يُحبّب للمتلقي العودة إليه، ليتزوّد بما يُمتع البصر ويُكسب البصيرة رهافةً ما تنقضي!

وعسى أن لا نكون، ونحن في انتظار أعراس الحرية، في بحر من دماء.

فجر الخميس ٢٤-١-٢٠١٣

اللقاء الأول بـ"السيدة المعتصمة"

ثمّ إنّ "زَنْد النظام" بدا حريصًا على أن يحاور "السيدة المعتصمة" التي ما تزال متوارية عن الأنظار، يريد -كما يقول "راوي" القصة- أن يصغي إليها ليتعرَّف حقيقةَ آرائها «ما

---

(١) ابدؤوا.

تأخذه علينا من أخطاء... حسناتنا، إن كان لنا في رأيها حسنات! وأؤكّد لك، يا قريبي من ناحية الأم، أنه لن يصيبها مكروه قط. أقسم لك بشرفي العسكري والمدني والـ...!! ».

مع ارتياب راوي القصة –التي سمّيتها "اللقاء الأول بالسيدة المعتصمة"– فقد ذهب إلى قريبته من ناحية العَصَبة، يحدّثها. وممّا قاله: إنّ الزند عبّر عن رغبته في "تسوية الخلاف" بين النظام والمعارضة، «ولست أدري، يا بنة العم، كيف سوّلت لي نفسي مداعبته، قلت: "تسوية خلاف" أم "تصفية حساب"؟! وقد أكّد لي أنها "تسوية خلاف بالحوار الديمقراطي، فإنّ القضية الوطنية لا يختلف فيها مواطنان صالحان. فالعدو على الأبواب. وعلى الجميع أن يتوحّدوا، ويطووا صفحة الماضي "...»، ويضيف الراوي: «لم أره رهيبا، يا ابنة العمّ. عدت أتقرّى فيه ملامح ذلك الطفل الذي كثيرا ما تشاجرت وإياه طفلاً!».

وبصورة غريبة وفائقة الالتباس، يتمّ اللقاء، يدخل زند النظام المكان، متبوعًا بمُرافق يناهزه جسامةً يتأبّط شيئا ما ملفوفًا بقرطاس. وما إن جلس الزند حتى كان مرافقه يقتحم الغرفة التي تتوارى فيها السيدة المعتصمة، يمسكها من شعرها الرمادي، وبخفة يفُضّ القرطاس تحت إبطه، وإذا هو ساطور ذو شفرة تلتمع، وينزل به على العنق. الرأس يتدحرج. شلال دم. و... شلال عويل يرتفع في المكان.

تلك قصة كتبتها صيف ١٩٨٢، ونشرتها في مجلة "البيان" عن رابطة الأدباء الكويتيين، عدد نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٨٣. وحين قدّمت، في عام ١٩٩٦، مخطوطة كتابي «آه، يا وطني!» (وفيه هذه القصة) إلى اتحاد الكتاب العرب بدمشق لإجازة النشر، هتف إليّ القارئ الرقيب –محمد أبو خضور– يستفسر عمّن أقصد بـ"زند النظام"، فأسرعت أجيبه: «صدام حسين»، فطجّ الختم، يرحمه الله. وصدر الكتاب بدمشق في أيلول/ سبتمبر ١٩٩٦، ولم تتناوله الأقلام في وطني الحبيب.

ليل الخميس ٢٤-١-٢٠١٣

وهل يتجمّد الزمن؟

ساعة أقلعت بي الطائرة من "مطار شارل ديغول" في باريس، كانت ساعة المطار - ومثلها الساعة في يدي- تشيران إلى السابعة مساء. وعندما حطّت بنا الطائرة في "مطار جون كيندي" في نيويورك، رأيت ساعة المطار تشير إلى السابعة مساء أيضًا! وما ذاك إلا لأني، في سفري غربًا باتجاه مسيرة الشمس، قد "أُسْلِفتُ" ساعاتٍ سبعًا، سوف يتعيّن عليّ ردُّها يوم أعود إلى باريس!

تملّكتني هذه الخواطر وأنا عند بعض أهلي في بروكلن، في بيتهم المطلّ على الساحة الواسعة المسمّاة "Plaza Street"، فأقلّوني في الغداة بسيارتهم إلى المكتبة العامة المطلة على الساحة ذاتها. وهناك كتبت عن الزمن الذي يتجمّد. وهو يتجمّد عند الأمم التي تسكن فيها رياح التطوّر والتغيير. ومن الأمم مَن تسرع في خطوها متجاوزة العقبات مسابقة الزمن.

كتبت وكتبت...

ولما آن لي أن أنصرف من المكتبة سلكت إلى البيت الطريق ذاته الذي منه أتيت، ماشيًا في الاتجاه المعاكس على رصيف هذه الساحة التي تتوسّطها أشجار باسقة تحجب عنك رؤية طرفها الآخر. وقد لاحظت أنّ الطريق قد طال، ثمّ تبيّنت أنّ البيت كان إلى جوار المكتبة، وأني ذرعت محيط الساحة الشاسعة كله تقريبا، فضحكت من نفسي، وقلت: «إنّ الغريب..... ولو بَصير».

الزمن يتجمّد، يُسلف ويُستردّ!

ولكني أراه اليوم، في وطني، لم يكتفِ بأن يتجمّد.

إنّ هدم البنى التحتية، إنّ تهجير الناس، ثمّ قصفهم ثانية حيث يتشرّدون، ذلك ما يتجاوز تجمُّد الزمن. إنه العودة إلى مثل ما كان في ١٩٤٨ حين فتحت سورية ذراعيها، وإلى ما قبل ذلك في ١٩١٥، حين فتحت حلب صدرها والأحضانَ لاستقبال القادمين من الشمال، وكان تعداد سكانها مئة ألف وقد استطاعت أن تستضيف مثل عددهم، وكان بعضهم يرحل إلى الشتات قبل أن يأتي مثلهم.

هل يريدون إعادتنا القَهْقرى إلى العصر الحجري، حين لم يكن هناك طائرات وراجمات وأسلحة دمار!

منتصف ليل الجمعة ٢٥-١-٢٠١٣

شاعرة منتصف الليل

[من حكايا الشابكة]

بعد أن تصفح المواقع والمجموعات ومرّ بصفحات الأصدقاء، وهمّ بأن يُغلق، ويتحوّل إلى حيث يكتب خاطرة اليوم في هذا الهزيع من الليل، أضاء ضوء أحمر صغير في تلك الزاوية من الشاشة "يطلب الصداقة": فتاة تُبدي إعجابها بأشعاره، وبما يُدلي من خواطر يومية في الشأن العام، تقول إنها تداوم على قراءته، وتضيف: «وأنا زميلة لك في الإبداع! »

كان لا بدّ لهذا الذي قرأ أن يجعله يُرجئ التحوّل إلى الكتابة. ولكنّ ما استرعى انتباهه اسمُها: «عبير حناين»، وسنّها التي لا تتجاوز السابعة عشرة إلا بأشهر معدودة، وقولُها إنّ والدها "سمير حناين" هو أحد معارفه القدامى، «إن كنت تتذكّر».

فكتب لها مرحّبًا: «أهلا عبير حناين ابنة صديقي القديم سمير حناين، ذكّريني قليلاً بالوالد، مع أني أعتدّ بذاكرتي إلا أنّ الذاكرة تخون أحيانًا».

أجابته: «صراحة لا أعرف كيف أذكّرك. لكن هادي مو مشكلة. المهمّ أنه شرف لي كبير أن أتحدث إليك، وأنا معجبة جدًّا بديوانك "قوس قزح فوق روابي الوطن"، والحلو فيه جرأته، اللي بدها إنسان عميق التفكير حتى يقدر يستوعب معانيه بالشكل الصحيح»!

وضغطَ حيث أصبحت عبير حناين من أصدقائه في الشبكة. فجاءه منها: «شكرا لقبول إضافتي سيدي الرائع»!.

الذي وقع لصديقنا الشاعر، أنه بعد القبول وانفتاح صفحتها أمام عينيه، لاحظ أنها تقدّم نفسها في "صورة الغلاف" فتاةً ذات حجاب، ولكنّ صورًا عديدة بعدها تظهر فيها سافرة، ومتبرّجة، وفي غاية الأناقة، بتصوير فني أخّاذ، متوِّجةً كلّ صورة بعبارة "صورتي الشخصية"! ولم يستطع أن يتبيّن ما إذا كانت هي هي، فقد كان الحجاب يُخفي كثيرًا من قسماتها!

سألها: «أنت متحجبة أم سافرة، يا عبير حناين؟» أجابته: «ما فهمت! ماذا تقول؟ لا، أنا متحجبة«.

قال: «إنّ ما يُحيّرني أنك تكتبين تحت الصور السافرة أنها صورتك الشخصية، كيف؟ ممكن تحدّثيني عن السيد الوالد، صديقي القديم؟».

قالت: «صورة البنت اللابسة حجاب هي أنا، والتانيات مو أنا. أستاذي الكريم، ممكن أعرض عليك شغلة وآخد رأيك فيها لو سمحت؟ ستقرأ لي صفحة بعنوان "أزاهير الحياة الطالعة" فيها مقطوعات نثرية لي، يشرّفني جدًّا جدًّا أن أسمع رأيك فيها، أن تقيّمني. وعلى فكرة أنا قدّمت أمسيات وكرّموني. وها هو الرابط».

وسَرْعانَ ما انفتحت أمامه الصفحة الموعودة، وطلعت له "أزاهير الحياة الطالعة"، عشر

مقطوعات. قرأها، وكتَبَ:

«يلاحظ أنك تمتلكين من الأحاسيس ومن الرغبة في الحياة ما يفوق سنك الـ١٧ سنة. وهي مشاعر ابنة المرحلة العمرية التي تعيشينها. خيال جامح، تفتّح للحبّ والحياة. المقطوعات متفاوتة في قيمتها. مستوى اللغة دون مستوى المضمون. قاربت المشاعر الوطنية أحيانا مع طغيان النزعة الذاتية. أخطاء في اللغة وفي الإملاء. أحسب أنّ هاجسك في الإبداع سيجعلك تتابعين المطالعة وتجاوزين الأخطاء، و... تصبحين على خير».

استنسخ صديقي الشاعر هذا الحوار، وبعث به إليّ هذا الصباح، وقال إنه فطن -بعد أن نشر خاطرته في الشابكة، ولحظةَ أخذ النعاس يرنّق في جفنيه- أنّ هذه الصبية استطاعت أن تجرّه إلى قراءتها، وتنتزع منه رأيا، وتؤخّره عن الكتابة حتى منتصف الليل!

فتراءى له أن يجدّد سؤاله لها عن الوالد "سمير حناين"، أين كان التعارف، وكيف، ومتى؟ ولاحظ أنّ تلك الصور السافرة، ذات المستوى في التصوير، قد اختفت من صفحتها!

منتصف ليل السبت ٢٦-١-٢٠١٣

الطفل "زاهر".. جيل جديد

[من حكايا الشابكة]

اعتدنا أن نقرأ لـ"هند مرشد" مقطوعاتها المرهفة التي تقدّمها لنا عبر الشابكة. وبدا أمس أنها أرادت أن ترسل أغنية ما إلى أصدقائها عُربونَ إعجاب، ولكنّ عجزها عن "التحميل" جعلها ترفع صوتها قائلةً، كاتبةً: ليس سرًّا أخفيه إنْ أعلنت أني شبه أمّيّة في موضوع النت والتكنولوجيا.

ومن جلستي في بيتي أمام الكمبيوتر كتبتُ كالمعاتب: ما هذا الاعتراف، يا هند؟

فضَحْتِنا!

ثمّ تذكّرتُ ما سمعتُ قبل يومين: لاحظت الأمُّ، وهي ترتّب بيتها في يوم عطلة، أنّ طفلها جلس أمام الكمبيوتر، فأهابت به أن يبتعد عنه حتى لا يُخرّبه، وإخوته الكبار سوف يستخدمونه بعد قليل. ولكنّ "زاهراً" ابن السنوات الأربع لم يعبأ بكلام أمّه، وظلّ يعمل في الجهاز باهتمام زائد. فلمّا جاءت الأخت الكبرى واتخذت جلستها أمام الجهاز، اكتشفت أنه لا يعمل. هنا ارتفع صوت الأمّ بعصبية: «خرّبت الكمبيوتر، يا زاهر! الآن علينا أن نطلب جارنا الفنّي ليُصلحه«.

تقدّم زاهر إلى الجهاز بهدوء، وهو يقول لأمّه: «لا تعصّبي!». وبكبسة زرّ عاد الجهاز يعمل مثلما كان.

سألته أمّه وهي تحنو عليه: «حبيبي زاهر، شو عملتلّه حتى اشتغل؟» فأجاب بأنّ "الآنسة" أعطتهم أمس في المدرسة درس في الكمبيوتر وهو طبّق الدرس الآن! فانهالت عليه الأسرة كلّها بالتقبيل بدل التقريع!

في اليوم التالي هتفت الأمّ إلى الآنسة، فحدّثتها بأنها بدأت في إعطائهم دروسا في استخدام الكمبيوتر!

مساء الأحد ٢٧-١-٢٠١٣

ما يقع..

ما يقع، كما في الأساطير،

طفلة، وردة سورية، شرّدوها

أمّ وطفلها تحت الدمار

أمّ تُحتَضَر وابنُها المدمّى يَبكيها

جثمان طاهر جُوِّعَ حتى الموت.

والقلم الراعف عاجزٌ عن الوصف، فما تشاهده الأعين أشبهُ بالأساطير الخارقة!

ولكن ثورة الحرية ماضيةٌ حتى النهاية.

مساء الإثنين ٢٨-١-٢٠١٣

كان عبد القادر عياش

كان عبد القادر عياش- رحمه الله- مؤرخًا "اجتماعيًّا وأدبيًّا" لدير الزور الغالية على قلبه وعلى قلوب السوريين، خاصة في هذه الأيام العصيبة.

كان بيني وبينه تعارف، مردّه إلى أننا كنا نكتب تلك الأيام في مجلة "الأديب" اللبنانية، وكان يزورني بدمشق أحيانا عندما يحلّ بها بين الحين والحين.

كان عبد القادر عياش لطيف المعشر دَمِثا، ودؤوبا في بحثه وعمله. وكان مؤسفا لنا وللتاريخ أن يرحل مبكرا. وقد كان الأمل أن يتابع بحوثه التي ليس لمثله فيها نظير، في دير الزور أو في من يؤرخ لبلده على غراره، إلا الأسدي خير الدين بحلب. رحم الله الباحثَين.

ويسرّني أنّ صاحبة الصفحة، طالبة الصداقة، فرات حوري، من سُلالته الطيبة.

دمشق الشام: الثلاثاء ٢٩-١-٢٠١٣

إلى من يمشي على قدمين

أخاطبك، وأنا موقِنٌ أنك لا تسمع، لا تبصر، لا تعي... لأنك بلا قلب، بلا ضمير.

خمسون، مئة، من أبناء وطنك، كانوا قد وقعوا أسرى بين يديك، قمت تتسلّى بإهانتهم وتتشفّى بتعذيبهم... وأخيرًا رميتهم -موثّقي الأيدي- في اليمّ!

أنت لست مواطنًا، أنت لست بشرًا، أنت... أنت لا مكان لك حتى بين الوحوش، ذلك أنّ الوحش لا يقتل، إنه يفترس عند الجوع ليقتات. أمَا رأيت بالأمس فهدًا من سباع الغابة يقف كالمُباغَت -بعد أن قتل قِرْدة- لأنه فوجئ بأنّ لها صغيرًا يبدو عليه الذهول!

ألا تتصوّر، يا من تتدنّى مرتبته عن وحوش الغابة، أنّ لهؤلاء العزّل بين يديك أمهاتٍ قد حملنَ بهم تسعةً، وربّينَ وسهرنَ الليالي؟ وأنّ لهم أخواتٍ وإخوةً وآباء، وزوجاتٍ وأطفالًا، وأصدقاءً وخُلاّنًا... وأنّ قلوبًا سوف ترعف حزنًا على الفِلذات التي أتلفتَ.

أبناء الوطن هؤلاء... ألم يكونوا في عداد الجيش المعدّ للدفاع عن الوطن، وهم عمالٌ، وزرّاع، وحرفيّون، وطلاب جامعات، ومثقفون؟

في النهر ألقيت أجداثهم الموجَعة المدمّاة، في مياه الربيع القادمة إلينا من ثلوج الشمال، فكانت مياه النهر الجارفة أحَنَّ عليهم منك، حين تولّت احتضانهم وجعلَتهم يَطْفون على السطح بهدوء، مناديةً أهاليهم أن تعالوا خذوا أكبادكم، قد غسلتُها وطيّبتها، أيها الحلبيون الصامدون! ولتعلم، يا فاقد الضمير، أنّ كلّ عناصر الطبيعة أرحمُ منك، وأكرم، ومفعمةٌ بالطهر والنبالة!

ليس لأحد -حتى إن كان من قبيلك- أن يظنّ أنّ ما قمت به من فعل ينتمي إلى الشجاعة والشهامة. إنّ من يلبس بِزّتَك كان أولى به أن ينزل إلى الساح يدافع في وضَح النهار، لا أن يَغتال في دهاليز الأقبية المعتمة!

هل لكَ، أنت يا من يمشي على رجلين، أن تدلّني على وصف يليق بك ألطف من «جبان» تأسر، تعذّب، تتشفى، وتوثق الأيدي إلى خلف، ثمّ ترمي في النهر!

سوف تُعرَف هُوِيّتك، أيها الخَؤون. ويومئذ، كن على ثقة، أننا -أنا وأندادي من أهل

الحرية- لن نسمح بالانتقام منك بتعذيب، أو إطفاء سكائر في الجسد، أو جَزْر أوصال، ممّا ظللت تمارس طوال عمرك المظلم... بل بالعدل تُحاكَم، ثمّ ترفع على أعواد، وتتأرجح... دون أن يخطر في بالنا أن يحُلّ سوء بذرّيتك أو أهليك، لأننا إنْ فعلنا كنا مثلك نَتيهُ في ظلمات التخلّف والضياع.

وموكب الشهداء الجديد هذا... لن تبكيه عيوننا، فقد جفّت الدموع في المآقي. وأما قلوبنا فقد كفّت عن النحيب، وهي مُتْرَعة بالعزم على بلوغ شطآن الحرية الجميلة.

وحلب الشهباء، هي اليوم «أم الشهداء»، وهي المدينة المدمّرة على بَكْرة أبيها، ولسوف تعيد سواعدُ أبنائها تشييدَ ما تهدّم من أحيائها، وشوارعها، و"سوق المدينة" التاريخي، وجامعها الذي تولى بناءه الخليفة الأموي "سليمان بن عبد الملك"، وكلّ صروحها وأوابدها التي أتى عليها الحقد الأعمى.

منتصف ليل الثلاثاء ٢٩-١-٢٠١٣

كسل المعرفة القاتل

قبل بضعة عشر عامًا من يوم الناس هذا، التقيتُه مصادفةً في مقرّ اتحاد الكتّاب العرب بدمشق، وقد كان يمرّ بها بعد مشاركته في مؤتمر ثقافي في بلد مجاور، ولمست فيه الأشواق لأن يتعرّف ما استطاع على كتّاب البلد، وقد أخذني بالأحضان، وهو الذي كان قرأ لي في وطنه، بلد المليون شهيد، ما قرأ. ثمّ بعد ذلك العام كثر تردّده على دمشق التي يحبّها -ومن لا يحب بلاد الشام حاضرًا وغابرًا- وكانت بيننا لقاءات، ضمّخها ودٌّ زيَّن لي أن أدعوه مرافَقًا بزوجته ضيفَين ينزلان في بيتي المتواضع وقت يشاء.

ثمّ إنّ التواصل ما بيننا تراخى لأسباب ما حتى الانقطاع... إلى أن أطلّ عليّ قبل أيام، معبّرًا عن منتهى فرحه بأنه اهتدى إلى أنّ لي صفحة في التواصل الاجتماعي.

وكان من قبيل المصادفات أني نشرت، عند منتصف تلك الليلة، أسطرا حول أولئك الذين طَفَت جثثُهم على سطح النهر في حلب، وكأنّ النهر ينادي: أيها الحلبيون الصابرون، تعالوا فخذوا جثامين أبنائكم، قد غسلتُها ورششت عليها الطيب!

الغريب أنّ "صديقي" فهم كلماتي، التي أدمعت العيون وأبكت القلوب، فهمًا معكوسا تمامًا: أني إنما أتوعّد -أدبيًّا- الثوارَ الذين هم من أجهز على الضحايا الخمسين أو المئة. فجعل يقول: «هذه للأسف أفعال من يزعمون أنهم يُقاتلون من أجل الديمقراطية والحرية والخلاص.. لو ثبت الفعل على الجانب الآخر لقامت الدنيا ولم تقعد ولتنادت عواصم التحريض عُربانًا وغُربانًا إلى مزيد من صبّ الزيت على النار».

فقلت، وقد حزّت في نفسي الجهالة أو المغالطة: «قد عاصرنا سنوات الثورة الجزائرية المجيدة. ولو أنّه تراءى لأحد من حولنا يومذاك أن يخطّئ الجزائريين في ثورتهم، التي هيّأ أسبابها الشيخ عبد الحميد بن باديس، ما كنا نكتفي بنبذه بل نفعل ما هو أشدّ. وتمنّيت أن يرفع المعْتصبون عن أعينهم عِصابات الجهل، ويدَعوا الكسل في التعرّف على الحقائق الجليّة، فإنّ شعبًا يطلب الحرية يُذبح.

وفي حواري معه تلك الليلة بعيدًا عن الأعين، رأيته يعتب على السوريين مطالبتهم بالحرية، ويردّد تلك العبارة الممجوجة التي تجرح المشاعر: السوريون ينفّذون "أجندة خارجية"... وتأتّى أن أعرف أنّ من مصادر معلوماته: فضائية "الدنيا" وجريدة "الديار"... فكففت عن التعجّب، وانتابني الإشفاق!

وبدا لي من ضعف حجته، أنه لم يجبني عن قصف الطائرات الحربية للمواطنين السوريين وهم أمام المخابز والكازيات، وساعة التشييع، وقصف الطلاب وهم في حرم الجامعة!

لا ولا فسّر لي ما يتّبعه النظام من سياسة "الأرض المحروقة" ليس في أرض العدو لكن في وطنه، حيث تُرى المباني المهدّمة، والشوارعُ المدمّرة، والبنى التحتية وقد أتى عليها الخراب، وجامع حلب الكبير محترقًا، وكذلك "سوق المدينة" الذي طالما تردّدتُ عليه صغيرًا حيث دكان أبي!

لا، ولم يستثر عطفه عليّ أنّ ذرّيتي بدمشق، من بنين وبنات وأحفاد وأسباط، قد تفرّقوا في أرجاء العالم، وكذلك بعض إخوتي وأخواتي وذراريهم بحلب، وأني مصرّ على البقاء ولو قضيت تحت الأنقاض في بيتي، الذي سهر في حديقته في بعض الليالي، واشتهى مرة عشية عودته إلى بلده أن يقطف ثمرة من "الكبّاد"، هذا المفتقد عندهم ثمرًا وتسميةً، ليُريها لآله!

أجل... كان من حقي أن أكفر بالكسل، كسل المعرفة، الذي حجب عنه الوقائع والحقائق، لينام قرير العين مرتاح الضمير، على مِخَدّة سمّوها "الأجندة الأجنبية"، على حين أنهم يرون وزير الخارجية الروسي يتحدث عن قضيتنا أكثر مما يتحدث وزير الخارجية السوري.

وكرّرت له قولي: لو أننا أيام الثورة الجزائرية (١٩٥٤-١٩٦٢) رأينا في سورية العروبة، أحدًا بيننا يدافع عن الاستعمار الاستيطاني الفرنسي لرجمناه! وقلت له: لا أسامحك، أنت وأمثالك من كسالى المعرفة والتقصي...اذهب.

منتصف ليل الخميس ٣١-١-٢٠١٣

ويظلّ الاحتجاج دليل عافية

عندما بعث الرئيس المصري في عام ١٩٦٢ بقوات إلى اليمن بعيدًا عن حدوده مع إسرائيل لخوض تلك الحرب المجانية... لم نسمع صوتًا يرتفع في بلده احتجاجًا على هذا التصرف المتهوّر، ولا نَحيباً على الأربعة والعشرين ألفًا من شهداء جيشه!

ويوم أُعلِن عن سقوط القنيطرة في حزيران ١٩٦٧.....

وحين قامت في الجزائر، منتصف التسعينيات، كتائبُ مجهولة الهوية بإبادة أبناء الأرياف، يرافق ذلك ادّعاءٌ من النظام بأنّ القتلة هم من الإسلاميين المتشدّدين... لم نسمع -مرة ثالثة ورابعة وعاشرة- مَن يفضح هذا الفعل الشنيع بصوت مجلجل أو خافت!

وقع ذلك في هذا المكان العربي أو ذاك... وكان الصمت، أو الخوف، هو الصدى الأوحد. وذلك تحت وطأة الحكم الفردي الذي يُكمّم، ويقهر، ويتمادى في ارتكاب فظاعات لا نهاية لها.

وبالأمس أعلن رئيس الائتلاف السوري لقوى المعارضة في الخارج استعداده للحوار مع أطراف النظام الحاكم، ممّن لم تتخضّب أيديهم بدماء السوريين، شرْط الإفراج عن المعتقلين الذين يتجاوز عددهم اليوم مئة وستين ألفا من السوريين، وغنيّ عن البيان أنه سوف يلي ذلك -إن تمّ-مفاوضاتٌ، عسيرة أو يسيرة، تتولاها مؤسسة الائتلاف، فلا ينفرد بها رئيسُه صاحب الاقتراح.

أقول: هنا هبّ معارضون لهذه المبادرة، مندّدين، ومتّهمين صاحبها بالتواطؤ، وبهدر دماء الشهداء، وبأمور أخرى! هذا مع أنّ المبادرة وُلدت ملقّحة بفيروس موتها، فإنّ النظام ما زال يستدرج "المبادرات"، عربيةً وأممية، إلى ملعبه، مناورًا مراوغا حتى الإجهاض.

تُصدّقون، أيها الأحبّة!

لقد أساءت تلك الاحتجاجات إلى الرجل النظيف، نعم... ولكني أرى أنّ ذهاب الناس فيها إلى التعبير عن صريح آرائهم هو دليلٌ على مُناخ ديمقراطي... كم ذا تاقت إليه النفوس في زمن كانوا يضطرّون، تحت رفع السوط، إلى خفض الصوت وابتلاعه!

نعم، دليل صحة وعافية... مع الأمل ألا يبلغ الاعتراضُ دَرَكا.

ليل السبت ٢-٢-٢٠١٣

لينا هارون، جميلة الوجه والقلب

صديقة التواصل الاجتماعي، التي تُمتعنا بتعليقاتها الذكية وبما تختار من طريف الأقوال والأشعار والصور.

لينا، حافظة تراث عمتها «عزيزة هارون»، سيدة المنابر الشعرية التي لا تنسى، أتمنى لك أجمل الأيام والأعوام في عيد ميلادك اليوم، وقد دخلت العشرين، وربما الثلاثين... هكذا تَبدين لنا!

دمت لنا، سيدة التواصل، وصديقة وحبيبة.

دمشق الشام: فجر الإثنين ٤-٢-٢٠١٣

كلام في ٢٠٠٢ عن المثقف العربي

في أثناء إعداد المستعرب السويدي فيليب سايار Philippe Saillard أطروحتَه بعنوان «رسالة في فنّ الفانتازيا في قصص فاضل السباعي»، كان من بين الأسئلة التي وجّهها سؤالٌ عن دور المثقف العربي في التعبير عن أماني الجماهير... فكانت هذه الإجابة:

«ليس المثقف العربي شخصيةً واحدة تستجمع الصفات كلّها. إنّ المثقفين تتوزّعهم، في كلّ مكان وزمان، أفكارٌ ومشاعر وأمزجة شتّى، فمنهم من آمن بحرية الفكر وجدَّ بحثًا عن الحقيقة، ومنهم نقيضه الذي "أكل خبز السلطان وضرب بسيفه"، وبين هؤلاء وأولئك مراتب تميل مبتعدةً عن الوسط إلى هنا أو إلى هناك وتزيد مَيَلانًا حسب الحال.

وقد رأينا في زمن الناس هذا، مثقفين من هذه المراتب كلها، فمنهم من ذاب عشقًا في

الحرية حتى الموت، ومنهم من ارتمى في أحضان السلطة يرضع من ثديها، ثمّ يدوس في بطون المثقفين من أصدقائه، وهذا هو مَن فَصَمَ العُرى بينه وبين المثقفين، ومن ثَمّ بينه وبين الجماهير.

ومن ناحيتي ليس لأحد أن يظنّ أنّ بإمكاني الانفصالَ لحظة واحدة عن الناس، الذين أحببتهم متعَبين يُحصّلون بالجهد كفاف يومهم، وأطفالًا أحاول أن أمسح الدمعة عن وجوههم، ونساءً قد أضناهنّ العناء والضجر والخوف، ورجالا قد أَصْلَتَ الظلم عليهم سيفَه ترهيبًا وتعذيبًا وتقتيلاً. إنّ المداد، الذي سفحتُ كاتبًا على مدى خمسين عامًا، هو الشاهد». مجلة "سطور" الشهرية (القاهرة، مجلة المثقفين والسياسيين)، عدد ٦٩، أغسطس ٢٠٠٢.

دمشق الشام: مساء الإثنين ٤-٢-٢٠١٣

النقد الأدبي بين الإنصاف والإجحاف

(نقد رواية "ثمّ أزهر الحزن" أنموذجًا)

كتبتُ "ثمّ أزهر الحزن" وأنا في مقتبل العمر (في شتاء ٦١-١٩٦٢)، ونُشِرت طبعتها الأولى في بيروت عام ٦٣ (والطبعة الرابعة قيد الإعداد أخرَّتْها الأحداث). وأزعم أنها لاقت رواجًا وأحدثت صدى عند القُرّاء والكتّاب في الوطن العربي، وأُعدّت عنها أطروحتا ماجستير في كلّ من موسكو ووارسو، وقُدّمت مسلسلاً تلفزيونيا بدمشق عام ٢٠٠٢، حرصوا على أن يستبدلوا بعنوانها الجميل عنوانا آخر "البيوت أسرار".

اسمحوا لي، أيها الأصدقاء الأعزّاء، أن أقدّم لكم مقتطفَين كنموذجَين من النقد، مُنصِف ومُجحِف، لكاتب مصري كبير (راحل) ولكاتب في سورية كان يملأ الساحة النقدية

في وقته متمتّعًا بكلّ ضروب الدعم والتأييد، وشدّ ما آذاني بكتاباته، قبل أن يُلملم أوراقه ويرحل متنقّلاً بين أطراف الجزيرة العربية.

محمد عبد الغني حسن (شاعر وكاتب مصري):

.... واستمعتُ إلى حديث "هالة" [البطلة المحورية في الرواية وكانت تروي بضمير المتكلم]، فأغراني حديثُها أن أنصت إليها، وتساءلتُ: أَبَلَغَ الحدُّ بفتاتنا العربية أن تتحدث مثل هذا الحديث الرائع، الطليّ، الواعي؟

وشدّني عنفُ القدر مع أسرتها إلى المضيّ في القراءة مهما بلغت قسوة الأحداث التي كانت تعتصر قلبي، وقلت في نفسي: إنّ فاضل السباعي بارعٌ حتى وهو يجرّنا إلى قراءة الأحزان جرًّا!

وهل أعترف بأني قرأت الكتاب، بصفحاته الأربعمئة، في ليلة واحدة؟

مجلة "الأديب" اللبنانية، يوليو ١٩٦٥.

د. حسام الخطيب (كلية الآداب بجامعة دمشق):

... وإذا وافقنا على المبدأ القائل بأنّ قوة أية رواية تكمن في قوة شخصياتها، فإنه يصعب أن نعتبر "ثمّ أزهر الحزن" رواية ناجحة، فمعظم شخصياتها -إن لن نقل كلّها- مُسطّحة، رِخْوة، غيرُ متشكِّلة... وتلك نتيجة لعُزوف الكاتب عن التعمّق في نفوس أشخاصه.

وإنّ مقارنة الوسط الاجتماعي في هذه الرواية بما يوازيه في بعض الروايات العربية، يكشف عن الكُساح الذي تعانيه رواية فاضل السباعي، وإنّ مقارنة مماثلة في مجال الشخصيات لا بدّ أن تقودنا إلى الإحساس بأنّ شخصيات "ثمّ أزهر الحزن" كانت شخصيات من ورق!

مجلة "الثقافة العربية (بنغازي، ليبيا)، سبتمبر ١٩٧٥.

دمشق الشام: منتصف ليل الإثنين ٤-٢-٢٠١٣.

المساجد.. للمسلمين كافّة

أمام باب بيته صباح اليوم سدّد إليه مهووسٌ أربع رصاصات فأرداه.

ولست في ذا أحمّل "حزب النهضة" التونسي التبعة مباشرة... ولكنها الحكومة التي يهيمن عليها، وقد بدت لنا مقصّرة، أو عاجزة عن أن تمنع المتشدّدين من أن يُفتُوا، وهم في بيوت الله، بقتل من يختلف معهم في الرأي بحجة أنهم "علمانيون"!

والسؤال: هل المساجد هي للمتشدّدين، يوزّعون فيها التهم ويزرعون الفتن؟

إنّ بيوت الله هي لعباد الله كافة، وليست وقفًا على من يؤمّها مصلّيًا أو خطيبًا أو إمامًا. وإلا لكانت مقارَّ حزبيةً لفئة تريد أن تسيطر انطلاقًا منها على سائر فئات المجتمع. وهذه "سياسة"، وإنّ للسياسة مقارّها، وأبوابها، وشبابيكها، وسراديبها، وفيها يكون الفعل.

أعترف لكم، أيها الأصدقاء، بأني اكتشفت في ذاتي -وأنا في مقتبل العمر- أني في عداد من عرفتُ فيما بعد أنه يُطلق عليهم مصطلح "علمانيون"، ولست أعي تماما كيف تأتّى لي أن أكون كذلك.

وأعترف لكم، من ناحية أخرى، بأني درجت على حبّ الإسلام انتماءً واضحًا صريحًا، لا لَبْس فيه ولا غموض ولا إشكال. وقد ظللت أجلس مع أفراد أسرتي حول مائدة الإفطار سعيدًا. وإني لأقدّر عاليًا عظمة المنجزات التي قدّمتها الحضارة الإسلامية للعالم، في مشرق من الأرض ومغرب، وأخصّ حضارة الأندلس التي عُنيتُ بتراثها الأدبي والعلمي والتاريخي.

وإنّ الشاهد على ما أقول هو ما كتبت من قصص وروايات يفوح منها عبير العروبة

والإسلام، وكذلك بحوثي التراثية التي قدّمتها في المؤتمرات القُطرية والندوات الدولية... حتى لقد اتهمني المتحذلقون الانتهازيون الملتفّون حول السلطة، بأني من أنصار الإخوان المسلمين، فحُرمت لهذا من حظوظ ومن حقوق، وتلقّيت سهامًا كان من شأنها التعتيم والتهميش والاضطهاد.

وعلى هذا فليست المساجد، ولا الإيمان بالإسلام، حُكْرًا لمن يستأثر به، فإنّ لكلٍّ منا أن يمارس دينه على هواه.

وأسمح لنفسي هنا بأن أستحضر من الذاكرة سالفة تعود إلى أيام الطلب بجامعة القاهرة في السنوات الأربع الأولى من خمسينيات القرن الماضي، فقد قرأت آنئذ في إحدى مجلات دار الهلال، مقالة للكاتبة الكبيرة أمينة السعيد، تُوجّه فيها لومًا شديدًا لشيخ تعرّض لما كانت كتبته في زاويتها في إحدى مجلات الدار. ومما قالت -وما زال ماثلا في الخاطر- إنه لا يحقّ له أن يوجّه نقدًا في موقع أو في مجال إلى من لا يستطيع أن يصل إليه للردّ عليه (أو كلام من هذا القبيل)، فكان أن تعلّمت درسًا أول في "أدب النقد والانتقاد"!

أقول: ليس من حقّ أحد أن يدعو إلى قتل أحد، من النخبة كان أو من الدهماء، لخلاف في الرأي أو المعتقد... فهي الفتنة إذن، يُروّج لها الفتّان من حيث يظنّ أن يفعل خيرًا كبيرًا، على حين أنّ في قوله شرًّا مستطيرًا.

منتصف ليل الأربعاء ٦-٢-٢٠١٣

النقد الأدبي.. وجهٌ آخر للإجحاف

في نقده الذي كتبه يومًا ذلك الناقد حول روايتي "ثمّ أزهر الحزن" (التي تقوم على محورين أحدهما سعيُ الأمّ لتأمين معيشة الأسرة بعد رحيل معيلها)، تراءى له -إمعانًا في الإزراء بعملي الروائي- أن يستشهد بنصّ لنجيب محفوظ من روايته "بداية ونهاية"... يقول

محفوظ:

«وكانت الأمّ تُرقّع البنطلون، حتى إذا بلغ اليأسَ قلبته، فإذا أدركه اليأسُ مرة أخرى قصّت أطرافه وجعلت منه سِروالًا داخليًّا، ثم تصنع من بعضه طاقية وتستعمل بقيته مِمْسحة، ولا يلفِظه البيت إلا فَتِيتًا» (مجلة "الثقافة العربية"، بنغازي - ليبيا، سبتمبر ١٩٧٥).

فكان أن علّقتُ على افتتان ناقدي ببنطلون نجيب محفوظ، بأن قلت:

«أورد الناقد هذا النص، ثمّ بدا مفتونا بـ«واقعية بداية ونهاية، وتُرابيّتها وحرارة التحدّي الذي صوّرته» [كما يقول]. ولكنّ افتتانه صرف انتباهه عمّا في هذا الكلام من غُلوّ أبعده عن أن يكون مستساغًا! فالبنطال إذا رُقّع وظلّ يرقّع إلى درجة اليأس تعذّر قلبه، فكيف يُقلب وهو مخرّق؟ إنه يقلب إذا اهترأ دون أن ينبعج أو إذا حال لون وجهه دون قفاه.

وأما أن تُقصّ أطرافُه ليُجعَل منه سروال داخلي، فتلك مبالغة غير مقبولة، فليس يُطيق أحدٌ أن يلبَس بنطالين أحدهما فوق الآخر، ولو كان معدَمًا، وليس مناخ مصر كمناخ سيبيريا. وإني لأعرف مدى تخفف الفقراء في مصر من اللِّبس، حتى إنّ بعضهم لا يلبس سوى "الجلاّبيّة" صيفًا وشتاء.

والثالثة أن تصنع الأمّ من بعض البنطال المرقع أو من بقايا السروال طاقية، ولكن ما الحاجة إلى طاقية مرقّعة يلبسها شاب لا شيخ في مدينة القاهرة، التي تُعتَبر مَشتى عالميًّا؟«.

وختمتُ ساخرًا: «إنّ الافتتان... يبهر ويُردي!» (مجلة "الثقافة العربية"، يناير ١٩٧٦).

وأتساءل عمّا إذا كان مستحقُّ الإزراء والازدراء هو العمل الروائي أم النقد؟

ثمّ أستأذن الأصدقاء الكرام في أن أتابع فأقدّم خاطرة ثالثة، فإنّ هذا النقد، وإن كان يجري في مضمار الأدب، له خلفيّةٌ مضمرة: فليس الناقد إلا واحدًا من أبناء السُّلطة

المدلّلين... وأما صاحب العمل المنقود، فإنه ممّن لم يستطيعوا الصمت، فهو يكتب -منذ ما يزيد على أربعة عقود- قِصصا، موشّحة بالفانتازيا، تُندّد بالقهر، وتحاول أن تبدّد شيئا من حُلكة الظلام.

ليل الخميس ٧-٢-٢٠١٣

ارحم نفسك أيها النظام

ألم يصل إليك اليقينُ من أنك غيرُ قادر على أن تسحق انتفاضةَ شعب يطالب بحريته المُغيّبة، ولا يُبالي بما يدفع من ثمن: دماء بنيه، سقوف بيوته، قوت يومه، وبُناهُ التحتيّة كلّها، وهو يزحف نحو أمله دون كَلال؟

أم أنّ اليقين وصل... وأنك تُصابر وتُكابر؟

ارحم نفسك، أيها النظام!

ليل الجمعة ٨-٢-٢٠١٣

الأديبة السورية الكبيرة ألفة الإدلبي (١٩١٢-٢٠٠٧)

وأجملُ ما في قصص أُلفة الإدلبي، عفويّتُها فيما ترويه لكَ من الحوادث، حتى لتَخالها تحدّثك حديثًا شخصيًّا، وأنت -في إصغائك إليها مُحدّثةً- تظنّ أنها تحكي لك قصة ممّا خطّه يَراعُها... وما ذلك إلا لصُدورها في أدبِها عن طبع أصيل وبديهة صافية.

وإنك لترى أديبتنا الكبيرة -التي تُرجمت بعضُ قصصها إلى سبع عشرة لغة- معنيّةً بالمرأة بطلةً لكلّ قصة من قصصها، تعالج -بوعي مشوبٍ بالتحيّز- ما تُعانيه من أشواق الحياة: أشواق الفتاة إلى الزواج، وأشواق الزوجة إلى الإنجاب، وأشواق المرأة المهملة إلى الحبّ، وربما رصدت حالة العشيقة التي ضيّعت الحاضر والمستقبل جميعًا... فإن تراءى لها أن

تُجاوز ذلك إلى عوالم أخرى، فإنها تزاوج ما بين عالَمين، فالقضية الوطنية مرصودة عندها من خلال مشاعر المرأة: جزع الأمّ لقصف العدو عمارة تضمّ طفلتها الوحيدة، وحزن فتاة سورية لاستشهاد شابّ جزائري -استهواها- يناضل في حرب التحرير.

ومع أنّ قصص مجموعة «ما وراء الأشياء الجميلة» السبع، هي ممّا نَشرت في المجلات العربية خلال عقدَي الستينيات والسبعينيات، فإنّ ما يتجلّى فيها من فنّ وأصالة يشهد بأنّ ألفة الإدلبي قد وُلدت، منذ شبابها، قاصّةً يُشار إليها بالبنان.

ليل السبت ٩-٢-٢٠١٣

سؤال تنقصه البراءة

بالأمس القريب راودَ الناسَ تساؤل: لماذا ارتفعت أعداد الناجحين في امتحانات الشهادة الثانوية مطلع صيف ٢٠١١، حتى إنه كان بينهم من اعتاد الرسوب في امتحانات السنوات السابقة!

وثمة تساؤلٌ آخر ما زال يعتمل في النفوس: لماذا تكون نسبة المتفوّقين في هذه الامتحانات عالية بين أبناء الساحل، فيتمكّنوا من دخول الكليات المنشودة، ويتابعوا فيها نجاحهم وتفوّقهم، قبل أن يحظَوا بوظائف في الدولة أكثر أهميّةً وتميُّزًا؟

ليل الإثنين ١١-٢-٢٠١٣

ألفة الإدلبي: أدبٌ جميل.. ومجتمعٌ نبيل

ممّا قالته ألفة في محاضرة لها:

وكان لحاراتنا الدمشقية القديمة عاداتٌ وتقاليد، من أجملها التعاطفُ الودّي الإنساني الذي يشمل الناس في الحارة جميعهم حتى لكأنهم أسرة واحدة.

كان إذا تصادف أنّ في الحارة عرسًا، وقد وُزّعت الدعوات ولم يبقَ لموعد العرس إلا أيام قلائل، فتوفي أحد الجيران، كان يؤجَّل العرس أربعين يومًا، لأنه لا يجوز أن يكون في الحارة الواحدة بيتٌ فيه عزاء وحزن وآخر فيه فرح ومرح. هذا مما يؤكد أيضًا أنّ الجار كان بمثابة أقرب الأقرباء. وأنا، والله، أُجّل عرسي أربعين يوما لأنه توفي "مصطفى باشا العابد" قبل العرس بثلاثة أيام، وكان جارا لبيت العريس، فاضطُّروا أن يؤجّلوا العرس أربعين يومًا.

كان إذا حدث سوء تفاهم بين أسرتين من سكان الحارة أدّى إلى قطيعة ثمّ توفي أحد أفراد إحدى الأسرتين، كان يُتناسى كل شيء تُجاهَ الموت، وتأتي الأسرة المقاطعة للتعزية وكأنّ شيئًا لم يكن، وتعود المياه إلى مجاريها.

كان أقرب الجيران لبيت المتوفى يفتح بيته لاستقبال المعزّين من الرجال، ويُترَك بيت المتوفى لاستقبال المعزّيات من النساء، ثلاثة أيام كاملة، وفي هذا ما فيه من الحرج. كذلك في الأفراح إذا كان بيت العريس صغيرا لا يتّسع لإقامة العرس، كان يستعير بيت أحد جيرانه.

من كتابها «عادات وتقاليد الحارات الدمشقية القديمة« دار إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع" بدمشق، ١٩٩٦.

دمشق الشام: ليل الثلاثاء ١٢-٢-٢٠١٣

لكَ أغَنّي

لكَ أغَنّي

أعزفُ على نايي

أروي الحكايات

أقول، وأقول...

تُصْفَق في وجهي الأبواب

توصَد عليّ الأبواب

أنطلق إلى عَراء الوطن

أغنّي، وأغنّي

... والعينان في الأفق

أيتها الحريّة

آمنتُ بأنّ فيك الترياق

الذي يَشفي من كلّ فاسد وقبيح

ويُعيد إلى الحياة جمالَها ورُواءها

من كتابه «تقول الحكاية» دار إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٦.

منتصف ليل الجمعة ١٥-٢-٢٠١٣

تقدمة "أحمد عمر" لقصة امرأتان

أرى أن قصة "امرأتان" -على قِصرها- تُعدّ مأساة مجتمع يقوم على ثنائيات طبقية اجتماعية وسياسية، ليقول لنا مؤلفها الأستاذ فاضل السباعي من وراء السطور:

إن الثنائيات في بلدي ما زالت تتمتع بعبق الأصالة في الإحساس بألم الآخر، فما المرأة القابعة خلف حَلَكِ سواد الأيام أمام بياض قميص النعيم، سوى انعكاس لحالٍ اجتماعية يحثّ كاتبنا الروائي فيها على ضرورة الاندماج والتعاطف، فإن فُقد هذا اللون مع البعد السياسي، فلا يكون ذلك في البعد الاجتماعي.

فالمنعَّم السياسي لم يتمنّ يومًا أن يثني ركبتيه إلى مَن هو دونه مكانة، ولم يتمنّ بطبيعة الحال أن يقبّل جبينه كما تمنّت المرأة الفارهة في نعيمها، والتي لم تكن سوى خيرات الوطن، ولم تكن المرأة الشاحبة سوى هؤلاء المحرومين، وما البائع سوى الحياة، فمن ابتغى العزة أعانته، ومن رضي الهوان تركته وما هو فيه.

قصة قصيرة جدًّا، وعميقة، أحببتها، فاقرؤوها!

....

القصة:

أمام دكان الخضري، وقفتْ شابة، كان أكثر ما يميزها أنها تلبس قميصاً أبيض.. وراحت تسأل البائع:

"بكم كيلو الخيار؟ بكم كيلو الكوسة ؟.." والرجل يجيبها.

وهي تطلب منه: "زن لي من هذا كيلو، ومن ذاك اثنين.. وهذه البندورة بكم؟".

- بليرة، يا خانم.

- زن لي منها كيلو واحداً، ولكني أريدها متماسكة للسلَطة!

تناول البائع كيساً، وراح يملؤه من الخيار الرفيع الذي يحاكي الأنامل دقة واستواء، وملأ كيساً آخر بالكوسة الغضّة اللّماعة التي تُغري ربةَ البيت بحفرها وحشوها.

***

في هذه الأثناء، توقّفت أمام الدكان امرأة تتجلبب بالملاءة السوداء وتسدل على وجهها مِنديلاً بلون الليل.

كشفت المنديل عن جانب من وجهها، وأخذت تبحث بعينيها عن ضالتها، ألقت نظرة

سريعة إلى سحّارات الخُضر المعروضة في مقدمة الدكان، ثم أرسلت ناظريها إلى ما دونها.

لمحت هناك تحت رف الميزان، قُفّة صغيرة، قد جمع فيها البيّاع كل ما تخلّف عنده من أسقاط البندورة.. سألته، بصوت خفيض، وهي تشير إلى القفّة:

"بكم الكيلو من.. تلك البندورة؟"

نظر إليها البائع، وهو يتابع ملء الكيس بحبات البندورة المنتقاة للسيدة ذات القميص الأبيض، وأجاب:

"القفّة كلها.. بليرة واحدة!"

- طيّب، هاتها لي"

- معك "وعاء"؟

من تحت ملاءتها، أخرجت المرأة، ذات المنديل الأسود، حقيبة مهترئة، فيما كانت عيناها تتابعان البحث عن.. أشياء أخرى، لمحت، في ركن من الدكان، قفّة ثانية، فيها حبات من الكوسة، المكسورة والمشقوقة والمبيضّ لونها.

- وتلك الكوسة.. بكم؟

- خذيها كلها بـ.. نصف ليرة!

***

اهتم البائع بوضع الأكياس الثلاثة في الشبكة النايلونية، التي فتحت له فوهتها الشابة ذات القميص الأبيض، وترك المرأة الأخرى، التي جلست القرفصاء، تفرغ في حقيبتها ما في القفتين الاثنتين.

كانت السيدة الشابة تتلقّى مساعدة البائع، وعيناها إلى المرأة المقرفصة: كيف دَلَقت، في

حقيبتها، الكوسة، ثم فرشت فوقها رُقاقة من نايلون كانت معها، وبعدئذ راحت تنقل حبات البندورة، المبعوجة والمتعفّنة.. والتي يسيل منها ماؤها!

أحسّت الشابة في حلقها غُصّة، ودّت لو تفعل شيئاً من أجل هذه المرأة، التي يبدو البؤس في ملبسها، وفي بحثها عن لقمتها، ثم في ترتيبها مشترياتها المتعفّنة في حقيبتها الناصلة اللون.

وقبل أن تدفع للخضري ما ترتّب عليها، اقتربت من المرأة، وانحنت عليها، لتقول موشوشة:

"هل تسمحين لي، يا أخت، بأن أدفع ثمن أشيائك هذه، وثمن كل ما تحتاجين إليه من خضر أنتقيها لك؟"

رفعت المرأة، الكاشفة منديلها عن جانب من وجهها، إلى السيدة المنحنية فوقها، عينين سوداوين، متألقتين، وإن بدتْ حولها تغضّنات حفَرَتها يد الزمن.. أجابت، وهي تهزّ رأسها يمنة ويسرة، وقد ارتسمت على محيّاها ابتسامة ما: "لا، شكراً لك، يا بنتي!"

لم تفاجأ السيدة الشابة بهذا الردّ، لا ولم يخالجها أي شعور بالأسف. على العكس، لقد نزل "الاعتذار" الأبيّ، على قلبها برداً وسلاماً. انقلب عطفها إلى إكبار، وزايلتها غصّتها وكلُّ ما شعرت به من المرارة.

***

قبل أن تمضي السيدة الشابة، وقفت ترقب المرأة، التي أسدلت، الآن، منديلها على وجهها كله، وهي تمشي الهوينى تحت وطأة حقيبتها الثقيلة.

تمنّت لو أنها كانت تستطيع، لحظة تلّقت منها اعتذارها، أن تقبّلها من جبينها الوضّاء، من عينيها، اللتين لم تَشِفّا عن أيما أَثارة من ذلّ البؤس أو الانكسار، بل كانتا متألقتين

بالكبرياء، وبمضاء العزم على اجتياز فلوات الحياة بالاعتماد على النفس وحدها.

وأحسّت أنّ شيئاً ما، ساخناً، يترقرق في عينيها.

منتصف السبت ١٦-٢-٢٠١٣

في "الحريقة" قبل سنتين: الشعب السوري ما بينذلّ

ما يعرفه زائرو باريس أنّ الشرطي هناك مُنحازٌ غالبًا إلى مواطنه الفرنسي عند نشوب خلاف بينه وبين الغريب. وأما الشرطي في وطني الحبيب، فمنحازٌ دائمًا ضدّ مواطنه وإنْ لم يكن هناك غريب... كيف؟

في "سوق الحريقة"، في مثل هذا اليوم قبل عامين سبقا، دخل شابٌّ بسيارته إلى شارع فيه، سويعةَ الظهيرة، لاصطحاب والده المسنّ إلى البيت للغداء.

لم يَرُق لشرطيّ المرور توقّفُ السيارة بحذاء الرصيف، وإن كان ذلك للحظة، وتعامل مع الشاب بفظاظة، ووقعت مُشادّة. ولما كانت القلوب معبأة بمقدار ما عند الحاكي من الغطرسة، فقد تجمّع الناس، وانطلق من حناجرهم الذهبية هتافٌ بلغ عَنان السماء: «الشعب السوري ما بينذلّ!». وضيّقوا الخِناق على رجال الشرطة الذين تداعَوا، فأحرجوهم ودفعوهم -كما روى لي الثقة- إلى مدخل بناية، وأغلقوا عليهم الباب الحديدي وأحكموا رِتاجه!

حضر قائد الشرطة على عجل. أصرّ الهاتفون على ألا يطلقوا السراح إلا بمجيء الوزير. وجاء الوزير، وبحكمته نزعَ الفتيل.

بعد أربعة أسابيع من ذلك التاريخ وقعت في غير الحريقة، وفي غير دمشق، حادثةٌ ليست بالغريبة: أُلقي القبض على "طبيبة" لكلمة تلفّظ بها لسانها على الهاتف تلقّطتْها الآذان

المتنصّتة.

غضب أطفالٌ في البلد، فقاموا يكتبون على حيطان مدرسة الحارة عبارات هي مما شاع مع بزوغ "الربيع العربي"، الذي لم يكن قد آن لبراعمه أن تتفتّح عندنا، فأُخذ الأطفال، وضُربوا، وعُذّبوا حتى اقتلاعِ الأظافر، ومات منهم الطفل حمزة الخطيب.

وهكذا بدلاً من أن ينطلق الربيع المَحليّ من العاصمة، قُدّر لانطلاقته أن تكون من مدينة درعا وفي يوم عُرف بـ«١٥ آذار»!

أقول: عجرفة شرطي في الحريقة أطفأ لهيبًا لها محتمَلاً وزيرٌ يتمتّع بقدر من الحكمة، وبراءةُ أطفال في مدينة وادعة استطاع أمنيّون متغطرسون، بمزيد من الحماقة، أن يجعلوا من كتابة أطفال على جدران حارتهم شرارةً تُلهب الوطن.

أعود إلى الشرطي الفرنسي المنحاز. كنت، إذا دنوت منه، وأنا في باريس، قصد أن أسأله عن موقع شارع أو عنوان، أراه يؤدّي لي التحية باحترام -مع ما يلاحظه في هيئتي قبل نطقي أني أجنبي- ثمّ يتلقى مني السؤال ويمنحني الجواب.

منتصف ليل الأحد ١٧-٢-٢٠١٣

شرطي من أيام زمان

أتيت في خاطرتي أمس على ذكر حادثة "الحريقة"، تلك التي سبّبتْها مشادّةٌ عارضة بين شابّ من أبناء السوق وشرطي مرور. وإذا كان بعضنا يرى أنه يصعب أحيانا الدفاع عن تصرفات بعض رجال هذا السلك، فإني أقول بأنّ فيهم غير قليل من الانضباطيين والنزهاء. والحديث هذا يُزَيّن لي أن أروي حادثة ما تزال صورتها في الخاطر لفَرادتها ولطف مأخذها.

في عهد الطفولة، ذهبنا، ثلاثةً من أبناء الحارة، في أول أيام العيد، فاشترينا "كرة قدم"

صغيرة. وبينا نحن نلعب بها في ذلك الشارع الخلفي الذي نسكنه في حيّ الجميلية، قريبًا من مدرسة "التجهيز"، اندفعت الكرة صوب رجل، كان قد نزل من سيارته توّا متوجّها إلى مدخل البناية. فكان أن أخرج من جيبه موسى صغيرة، وطعَن بها الكرة بين يديه، وقد سمعنا شهقتها التي لا يماثلها إلا شهقاتنا نحن أصحابَ الكرة الثلاثة. فاهتجنا غضبًا وربما بكى بعضنا حزنًا، وتولّيت -بصفتي الأكبر سنًّا أو الأطول قامة- الاحتجاج والتصدّي.

واتفق، في تلك اللحظة، أن مرّ شرطي، فرأى المشادة وأقبل نحونا.

ادّعى الرجل -وهو سائق السيارة الخصوصية لمخدوميه في البناية التي يهمّ بدخولها- أنّ الكرة لطمته بصدره وأوجعته، وكان في ذا مبالِغا، وقال أيضا بأنه غضبان من ذويه لأمر ما، ولعل هذا صحيح لعبوسه واكتئابه.

فجعل الشرطي يحاوره ويحاسنه القول بأنّ هذا يوم عيد، والأطفال اشتروا الكرة من "عيديّاتهم"، وأنت جارهم أولى بك أن تتحمّلهم..... وكلام جميل من هذا القبيل.

ولله كم سررنا من هذا الشرح والدفاع، مما يعبّر عن واقعنا ومشاعرنا، وما لا يستطيع آباؤنا -لو كانوا معنا- أن يقولوه!

وصحِبَنا الرجل إلى حيث وُضعت لصيقة في الداخل أعادت إلى الكرة حياتها، وإن ظل جسدها الخارجي مطعونا.

وقع ذلك في صيف ١٩٤٢، في أول أيام عيد الفطر لعام ١٣٦١هـ. وما كان لي، مع تمادي الزمن، أن أنسى جميل القول وحُسن المعالجة، من شرطي عابر، لمشكلة صغيرة، دون أن يتوقع مكافأة ينالها... وأحسب أن ليسوا قلةً أندادُه اليوم الذين يتوقّعون.

منتصف ليل الإثنين ١٨-٢-٢٠١٣

وظلّوا يجرّعون الناس الخوف

دخلت مرة السجن، لسبب "أدبيّ" لا سياسيّ، من باب الجامعة -عقب لقاءٍ مع الطلاب حضره أساتذة- إلى السجن مباشرة. ولم يتخلّ عني الأساتذة العشرة. ذهبنا معا، وهناك ودّعوني (ولا أقول: أودعوني!). وبعد ليلتين في حلب، اقتادوني، وأنا طاوي البطن، إلى العاصمة. وفي "كراكول الشيخ حسن" (في محلّة "باب مصلّى")، احتفظوا بي في زِنزانة ضيّقة، فهكذا يكون استقبال الوافد الجديد: أربعون يومًا معزولًا، أو ستة أشهر، قبل أن يطرحوا عليه سؤالهم الأول.

ثمّ إنه كان من حسن حظّي، أني دُعيت بعد أيام إلى مكتب كبير السجانين، فرأيته يزِفّ إليّ أني مُفرَجٌ عني! طلبت أشيائي الصغيرة التي كانوا جرّدوني منها، فجعلوا يبحثون عنها في غير مكان واحد، فالداخل عندهم مفقود. ولكن ما استرعى انتباهي أنّ الكتاب الذي كنت أحمله في دخولي، مؤلَّفي «حزن حتى الموت» (الذي ظهر فيما بعد بباريس مترجمًا إلى الفرنسية)، قد قرأ هذا الرجل قصصه الخمس عشرة كلها، ولم يتلكّأ -الآن- في أن يُبدي لي استحسانه لها، مع أنها تندّد بالظلم والقهر والتعذيب... فهل كان مردّ إعجابه إلى أنّ "قلبه معنا"، أم أنه مسرور لأنّ ممارساتهم الفظيعة تظهر في مضمار الأدب!

لما غدوت في الشارع أخذت أَعُبّ من أنسام الحرية المنعشة، مع ما خُيّل إليّ أني أترنّح في مشيتي. ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ "الجانبَين الوحشيَّين" من القدمين كان قد بدأ يسري فيها خَدَرٌ من جرّاءِ جلستي متربّعًا فوق البَلاط على بطّانية لم تَعرف في عمرها المديد الغسلَ والنظافة! وفيما بعد قلت، في إحدى الإذاعات الأوروبية الناطقة بالعربية، وكتبته أيضًا: «فكأنهم يريدون لسجين الرأي أن يموت من القهر والبرد والجراثيم».

كان قد أصبح لي، خلال هذه الأيام، لحيةٌ بشعر لم يئن له أن يطول (وهو ما خلّف هذه

اللحية الصغيرة التي ترونها!)، وكان الشعر مشعّثًا لاصقا بالرأس. فتراءى لي أن ألتمس من سائق التكسي، وأنا أقدم له مفتاح بيتي المطلّ على الرصيف، أن يسبقني فيمهّد لي سرعة الدخول فلا تلمحني عينٌ من الجيران وأنا بهذه الهيئة!

الذي كان، أيها الأصدقاء، أنّ السائق فَطِن إلى حيث كنت استوقفته وصَعِدت إلى سيارته، وأدرك أنه يُقِلّ "خريج سجن"... فتوسّل إليّ أن أعفيه من هذه المهمة الـ... صعبة!!

أجل، أجل... لقد ظلّوا يجرّعون الناس الخوف ويزرعونه في الصدور على مدى سنين. فلما فاض الكأس هبّت طليعةٌ من أهل الحِرَف تهتف: «الشعب السوري ما بينذلّ!». وفي الجنوب كتب أطفال بعلبة البخّاخ على جدران مدرستهم، دونما خوف، ما بدأ يتردّد في ربيع العرب الطالع.

لو أنهم فقط مارسوا العدل، فقط مارسوا العدل... ما كنا نهضنا! وما كانت فيهم حاجة إلى أن يتقوّلوا "حَمَد" و"الناتو"! وهل يبدع الثورات إلا المحتاجون إليها!

ولكن... كيف تثور الشعوب؟

منتصف ليل الأربعاء ٢٠-٢-٢٠١٣

في "حيّ طريق الباب" بحلب الآن

أيها النظام الرحيم...

تلقّت حلب الشهباء، قبل ساعتين، عبر الفضاء الرحيب، هداياك الثمينة، بأريحيّة بالغة.

هُدم كثيرٌ من البيوت في "حي طريق الباب"، العشوائي الكثيف السكان، وقُضي على أُسَر بِرُمّتها. ويبدو الناس الآن عاجزين عن انتشال الضحايا، من أموات ومصابين وأحياء، لغياب الآليات التي ترفع.

وحُقَّ للنظام أن يدوم إلى الأبد.

الساعة ٩:٢٠ ليل الجمعة ٢٢-٢-٢٠١٣

من فناني الثورة.. ابنتاي سهير وخلود

أرى لوحاتك التشكيلية، يا ابنتي سهير، أشبه بيومياتٍ للثورة التي تُضيء في وطنك، تُخلِّدين بها وتُخلَّدين...

أنت فنانة الثورة السورية في فلوريدا، وشقيقتك خلود فنانة الثورة بالقاهرة، تنضمّان إلى ركب المبدعين السوريين الأمجاد.

سوف يبقى ما أنجزتما من أعمال مثلما بقيت لوحات خالكما لؤي كيالي العظيم.

أعتزّ بنضالكما الفني، بنتيّ الحبيبتين.

ليل الجمعة ٢٢-٢-٢٠١٣، ساعة نزلت قذائف السكودا على المدينة التي ولدتما فيها.

سكود.. على الفقراء

أيها النظام!

بعد تفجيرات الخميس (٢١-٢) بدمشق، التي أدمعت العيون وأدمت القلوب...

أتُراك انتقمت لنفسك بأن أرسلت أمس، من العاصمة إلى الشمال، ثلاث قذائف راحت تقطع، في ظلمة الليل، مئات الأكيال، لتمحو من الوجود فقراء، يهجعون في مساكن عشوائية... طالما رأيناك تتغنّى بأنك تعطف عليهم، وتحنو، وترحم؟

ظهيرة السبت ٢٣-٢-٢٠١٣

ابنتي الفنانة التشكيلية سهير.. جدّة صغيرة

هل كان محض مصادفة أنك يوم افتتاح معرضك في طنجة-المغرب (٢٢-٢-١٣)، أصبحتِ جَدة، يا ابنتي!

دمشق الشام: ٢٣-٢-٢٠١٣

أهو من إرهاصات فنّ الدراما الجميل

"حسني البورظان"، الذي ظلّ يؤدّي دور الإنسان الطيّب، ضُرب من قِبَل شبيحٍ "مبكّر" بكرسي على رأسه في مطعم عائليّ، فأصيب بشلل، ثمّ مات موتًا بطيئا.

"ياسينو" كان يقوم دائما بدور الإنسان الطيب، المغلوب على أمره المثير للضحك والشفقة والحبّ، مات اليوم بقصفٍ لسيارته من قبل شبّيحة "متأخّرين".

"غوّار الطوشة"، الذي ظلّ يُعِدّ المكائد لهما، هو اليوم حيّ يسعى، وإن توقّف صعوده لأسباب.

تُرى... هل كان من قبيل المصادفات أنّ ما لقي الأَوّلان من انكسار في الحياة، وأنّ ما حظي به الآخر من انتصار... هما من إرهاصات فنّ الدراما الجميل!

منتصف ليل الأحد ٢٤-٢-٢٠١٣

و... لكلّ امرئ من دهره

اعتاد النظام أن يرسل قذائفه لتُدمّر بيوت المواطنين.

والمواطنون اعتادوا أن يهبّوا معًا لإزالة الأنقاض، وانتشال الناس: جثث هامدة، وجرحى، ومَن بقي منهم على قيد الحياة.

هو لا يكفّ... وهم يزدادون تعاطفًا وتكاتفًا لبلوغ الغاية.

و... «لكلّ امرئ من دهره ما تعوّدا«.

ليل الإثنين ٢٥-٢-٢٠١٣

الحوار مع "المعارضة المسلحة"

مع أنّ قلبي يخفق بشدة تأييدًا للمطالبين بالحرية والتغيير... أعترف بأني شعرت بالغَضاضة[١] لدى سماعي وزيرَنا، وهو في موسكو، يصرّح بأنّ النظام على استعداد للحوار مع أطراف المعارضة بمن فيهم "المعارضة المسلحة".

أفما كان الأكرم لوطني أن يَصدر مثل هذا التصريح -المعبِّر عن "نقلة نوعيّة" -وإنْ ظُنّتْ خُلّبيّة- من عاصمة بلادي الحبيبة، وليس من عاصمةٍ ما تزال تُغدق السلاح الذي يُبيدنا وتتصرّف بعنجهيّة ذات دلالة؟

الساعة ١١ من ليل الإثنين ٢٥-٢-٢٠١٣

ثلاثة.. والرابع في بيت أبيض

منذ أقمت بالقاهرة، في مطلع تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٠، طالبًا بجامعة "فؤاد الأول" (جامعة القاهرة لاحقًا)، كنا نذهب أحيانًا، أنا وصديقي الحلبي "متقدِّمي" بكلية الحقوق "وحيد جلبي"، إلى "جروبي شارع الملك فؤاد" (فيما بعد شارع ٢٣ يوليو)، فنتناول كأسًا من "الجلاس" (البوظة) تُسمّى «تروا بوتي كوشونTrois petits cochons»، تسمية بالفرنسية تعني "ثلاثة خنازير صغيرة"، وكان ينفي استهجانَنا للاسم (والخنزير مكروهٌ في موروثنا الديني، وهو ليس كذلك في بلاد الغرب) أنّ الكأس تمتلئ بما يُشهّي تناوله صيفًا

(١) الذلة أو المنقصة.

وشتاء.

لبثت الكأس واسمُها في خاطري منذ تلك الأيام، وقد وجدتها تستفيق في السنتين الأخيرتين، فأرى في ثلاثة مسؤولين كبار يقبعون في "الكرملين" ثلاثةً ممّا تسمّت به تلك الكأس، لكن بالمعنى الشعبي المتوارث عندنا، فهم ما زالوا يمدّون نظامَنا بآلات القتل والتدمير التي ترحل في الجو ثلاثمئة كيل، ثمّ بعد الدمار يدّعون أنهم «ينفّذون عقودًا قديمة»!

ولا أتلكّأ في أن أضيف إلى هؤلاء الثلاثة رابعًا، أسمر البشرة يقبع في بيت أبيض، يراقب عن بُعد ثمّ يُشيح بوجهه وكأنه لم ير شيئا... والشعب، شعبنا، من فقراء ونُخَب، يموتون في كلّ لحظة، وهم يعبرون الطرقات، أو ينتظرون على أبواب المخابز، أو يهجعون في بيوت قد فقدت الأمان.

ليل الثلاثاء ٢٦-٢-٢٠١٣

حزينٌ أنا، وخجلان

بالأمس هنّأتُ حفيدتي التي وضعت، في فلوريدا، طفلا جميلا...

وإنّ في العين دموعًا لِما أشاهد من أطفال الوطن، تفاجئهم، تُبيدهم، في كلّ لحظة، قذائفُ عابرةٌ للمسافات.

حزينٌ أنا، وخجلان...

اغفروا لي فرحتي!

دمشق الشام: فجر الأربعاء ٢٧-٢-٢٠١٣

الأطفال.. هناك.. وهنا

ذات عام... وجدتُني، وأنا في فرنسا، أدخل حفلاً في مدينة شمالية صغيرة، برفقة مضيفي ابن البلد، ترافقنا طفلتُه آميلي. استرعت انتباهي هناك سيدةٌ مهيبة الطلعة يَحُفّ بها رجال، فتراءى لي أن أسأل عمّا إذا كانت هي عُمدة المدينة، فأجابني مضيفي وهو "يومئ" بيده إلى حيث العمدة.

وما خطر لي أنّ "إيماءته" هذه، ستكون موضع ملاحظة من طفلته بنت العاشرة، التي نحّتْه جانبًا وألجأته إلى أن ينعطف عليها، لتوْدع في أذنه همسة ما!

ثار فضولي، فسألته... فأجابني: «تقول إنه لا يجوز لي أن أشير بإصبعي هكذا إلى أحد!».

وطربتُ لحسّ هذه الطفلة الاجتماعي المرهف، قلت لها: «أنت لطيفة جدًّا، يا آميلي!»، وأنا ألامس بسبّابتي صفحة خدّها ثمّ أقبّل موضع اللمسة من إصبَعي، فبادلتني تحيتي بأن لَثِمتْ رؤوسَ أناملها و"أرسلت" إليّ قُبلتَها في الهواء بنفخة من ثغرها الجميل. [من كتابي قيد النشر: «قمر لا يغيب، من أدب الرحلات»]

يرتقي أطفالهم في التربية إلى هذا المستوى الناعم الرفيع، وننحدر نحن إلى حيث القتلُ الجماعي للأطفال، وإبادتهم.

عرفت الآن أنّ عدد القتلى بحلب بلغ، خلال الأيام الخمسة الماضية، مئة وواحدًا وأربعين شهيدًا، نصفهم كانوا من الأطفال.

ولكنهم -للإنصاف- لم يقتلوا بعدُ الطفلة التي تقف ممسكةً بيدها لافتة قد كُتب عليها: «جسدي الصغير لا يحتاج إلى كلّ هذه القذائف، تكفيني رصاصة واحدة كي أموت!».

عندهم... الطفولة مقدّرة، والأمومة مقدّسة.

وعندنا... عودةٌ إلى العصور الحجريّة، إلى العصور الهَمَجيّة.

ليل الأربعاء ٢٧-٢-٢٠١٣

بين الاستئلاف.. والانشقاق

فيما وصل إلينا من تاريخ الأندلس أنّ مَن سُمّي بـ"البازي الأشهب" «كانت له في السرقة كلُّ غريبة، وكان متسلّطًا على البادية [أي الريف]، وبلغ من سرقته أنه سرق وهو مصلوب، لأنّ ابن عبّاد أمرَ بِصَلبه على ممرّ أهل البادية لينظروا إليه [ويتَشَفَّوا]. وبينما كان البازي الأشهب على خشبته، جاءت إليه زوجته وبناته وجعلن يبكين: «لمن تتركنا نضيع بعدك؟ وإذا ببدويّ على بغل وتحته ثيابٌ وأسباب، فصاح عليه البازي: «يا سيدي! انظر في أي حال أنا! ولي عندك حاجة فيها فائدة لي ولك، تلك البئر هناك، لمّا أرهقني الشُّرَط، رميت فيها مئة دينار، فعسى أن تحتال في إخراجها، وهذه زوجتي وبناتي يمسكون بغلك خلال ما تخرجها. فعمد البدوي إلى حبل، ودلّى نفسه في البئر، بعد أن اتفق معه [مع البازي] على أن يأخذ النصف من الدنانير. فلما حصل أسفل البئر قطعت زوجة السارق الحبل، وأخذت ما كان على البغل مع بناتها وفرّت به[1]».

وتكملة القصة عند المَقَّري في "نفح الطيب"، أنه رُفعت هذه القصة إلى الأمير، فتعجّب منها وأمر بإحضار البازي الأشهب، وسأله: «كيف فعلت هذا مع أنك في قبضة الهَلَكة؟!، فأجاب البازي: «يا مولاي! لو علمت قدر لذّتي في السرقة، خلّيتَ مُلكك واشتغلت بها!». فلعنه الأمير وضحك منه، ثم قال له: «إن سرّحتك وأحسنت إليك وأجريت عليك رزقا

---

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: تحقيق: إحسان عباس، ط١، ١٩٩٧م، ٤/١٢٨.

يُقلّك[١]، أتتوب من هذه الصنعة الذميمة؟». فعاهده، وقدّمه على رجالٍ أنجاد، وصار من جملة حرّاس أحواز المدينة.] من مقدمة كتاب "الأندلس في عصر بني عباد" للدكتور أحمد الطاهري، دار إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق ٢٠٠٩].

ههنا... الحاكم أعمل الفكر واستألف، وخلّص، واستفاد.

ولكنا نرى، في عصرنا، أنظمة يتخلّى عنها مسؤولون فيها كبار، تحت مصطلح بات متداولًا: "الانشقاق" (وليتهم استبدلوا به لفظًا آخر "الخروج"، ولا ضير في تقاطع المعنى مع ما ورد في تراثنا عن "الخوارج"، أو فليسمّوه "الانعتاق"!).

أقول: إذا كان "استئلاف" ابن عبّاد (حاكم إشبيلية في القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر الميلادي) قد استغرق لقاءً بينه وبين البازي الأشهب، فإنّ "انشقاق" مسؤول في زمننا يتطلّب كثيرًا من التدبُّر والحذر، فلا يتوقّف الأمر عند تخطيطه للانسحاب نجاةً بنفسه، بل يتجاوز ذلك إلى إعداده خططًا لتهريب زوجته وبنيه، وأمه وأبيه، وأشقائه والزوجات والبنين... وذلك حتى لا يقعوا في القبضة فتمارَس فيهم فنون التعذيب والانتقام!

قلنا: انشقاق، أو خروج، أو انعتاق مسؤولين كبار... ولكن هناك الرعيّة، الذين يتاح لهم أن يتحرّكوا بحرية... في "نزوح جماعي"، يجتازون فيه الحدود إلى "لجوء" لدول المحيط، أو "الهجرة" إلى دول تقع ما وراء المحيط!

ولكلّ زمان رجال، وأحوالٌ وأهوال.

منتصف ليل الخميس ٢٨-٢-٢٠١٣

---

(١) يُقلّك: يَحملك ويرفعك. والمقصود بها هنا مجازاً: يُغنيك ويكفيك.

إلى صديقة في شبكة التواصل

في هزيع من الليل كانت تتواصل معي عبر الرسائل، تعرض عليّ نصوصها النثرية الممتزجة بالشعر. تحدّثني عن وضعها الدراسي (أرغمها أبوها على الدخول بكلية الطب بوساطة فوقية، وهي تهوى الأدب). تبثّني همّها بأنّ الودّ مفقود بينها وبين أبيها، الذي تخلّى عن أصدق أصدقائه عندما انحاز الصديق إلى المطالبين بـ"الحياة الديمقراطية"، وأما هي فمتوسطة بين الاتجاهين، وإنْ عبّرت عن أنها تخاف من التطرف الديني: «إن انتصروا راح يدبحونا!». وتستغرب صلابتي في الوقوف إلى جانب المعارضة، إلا أنّ ذلك -تقول- «لا يفسد للودّ قضية». تبحث -كما لاحظت فيها- عمّن تبوح له، وتخاطبني «عمّو حبيبي»، ومرة توهّجت عندها المشاعر فقالت: «أحبّك!»، وأنا مدرك أنه حبّ فتاة لأب أو جدّ ترتاح إليه.

قبل أيام، أيها الأصدقاء، تلقّيت منها رسالة غاضبة، تتّهمني فيها بـ"التعصّب الطائفي"، ذلك لأنها وقفت -كما تقول- في صفحتي على صورة لرمز ديني متطرّف (ذكرتْ اسمه)، و... حظَرَتْني.

لم أكن أعرف ذلك الرجل، لا ولم أسمع حتى باسمه. فلجأت إلى مَن توسّمتُ فيه المعرفة، فبحث في صفحتي حتى عثر على صورة له في زاوية منسية!

أعترف، هنا، بأني أفتح صفحتي لـ"العامة"، فيعمد بعض أصدقائي إلى أن يضعوا عندي "بوستات"، نصوصا وصورا في كل فنّ وأدب وسياسة (ألتمس منهم الآن، إنْ لم يكفّوا، أن يُخفّفوا!). وإذن، فإنّ أحدهم نزّل في يوم ما صورة لذلك الذي رأت فيه الصديقة رمزًا دينيًّا متطرّفًا، وأنا غير عارف وغير معنيّ!

لست آسفًا إلا على أنّ هذه الفتاة، العاطفية المرهفة، فقدتْ صديقا كانت ترتاح له، بسبب ظنّ خاطئ تبدّى لها، ولم تحاول التحقّق.

أغفر لها بسبب حداثة السنّ (٢١ سنة)، معتقدًا أنها ظلمت نفسها أكثر ممّا ظلمت صديقا لها في شبكة التواصل الاجتماعي. وما زلت أعتقد أنها تمتلك من شجاعة الاعتذار بقدر ما رأيتها تمتلك من شجاعة البوح. ولا بأس في أن تظلّ عني في معزل.

منتصف ليل الجمعة ١-٣-٢٠١٣

قولي ما تريدين.. ونحن ننشر

في مطالع الثمانينيّات الماضية، ومنذ حوادث حماة المؤلمة، جرى الإعلام، وأخصّ الصحافة اليومية، على إجراء "استفتاءات" مع المواطنين، تؤخذ فيها آراؤهم فيما وصل إليه النظام من تداعيات الحكم في تلك المرحلة. وقد رأينا الناس فيها يُسرفون في الثناء على النظام مغدقين العبارات المنتقاة.

في جلسة، في تلك الآونة، ضمّت أقارب ومعارف، تحدّثنا في هذا "التأييد" الكاسح للنظام، وتوقّفنا عند ملاحظة أنْ ليس بين المستفتَين واحدٌ ينطق بكلمة انتقاد.

هنا انبرت سيدةٌ بيننا، هي من أقاربي بالمصاهرة (وكانت تشغل وظيفة مديرة لإحدى المدارس، ممّا لا يتاح إلا للمقرّبين)، تقول إنهم وصلوا أمس إلى مدرستها، واستفتَوا بعض المعلمات، والتقطوا لهنّ صورًا... وأما هي فقد اشترطت عليهم أن تُدلي برأيها الصريح الصحيح وإلا فلا! وهم أجابوها: «أنت قولي ما تريدين، ونحن ننشر...»، وعبّرت المديرة لنا عن منتهى سعادتها لأنها أفضَت بما تريد، وفضفضت، ولم تدّخر قولًا إلا عبّرت عنه... وأعلمتنا أنّ رأيها سيظهر في الجريدة غدًا: «فاقرؤوه!».

لمّا تناولنا الجريدة في الغداة متلهّفين، لم نجد لقريبتنا رأيًا، لا صريحًا ولا صحيحًا... بل

إسرافًا في الإشادة بلغ حدّ التمجيد والتعظيم، كسائر المعلمات وزيادة!

ولم أملك من الجرأة ما يحملني على أن أرفع سماعة الهاتف لأسألها في ذلك، لأني أعرف الجواب وأعرف كذلك أمر الرقابة الهاتفية. فلما التقيت بها، عبّرت لي بأسف مَشوب بالخجل، عمّا كان، مرمّمةً عبارتهم: «أنت قولي ما تريدين، ونحن ننشر ما نريد!».

الحكاية لم تنته. فثمة مفارقةٌ جديرة بالذكر: كان الابن الوحيد للسيدة، أيامئذ، طالبًا يدرس في الجامعة. وبعد عشرين عامًا تأتّى له أن يُعتَمَد سفيرا لبلادنا في إحدى الدول الغربية المتميّزة. ولست أشكّ في أنّ الأسف المشوب بالخجل -الذي بدا في ذلك اليوم البعيد- قد تحوّل عندها إلى اعتزاز وافتخار.

منتصف ليل السبت ٢-٣-٢٠١٣

أيها الديمقراطيون، تمهّلوا

الشيخ معاذ الخطيب صرّح... جورج صبره قال... هيثم المالح حكى... كلّ سوري صار يعطي رأيًا في كلّ رأي.. ربّطوا الأيدي، والأرجل، ووصلوا إلى الأعناق!

السؤال: أين كانت ألسُنُ الديمقراطيين في مصر، يوم حمل الزعيم الأسمر جيشه من جوار إسرائيل مبتعدًا به إلى مسافة ألف كيل جنوبًا؟ وعندما أهدانا ويلات حزيران ٦٧ هبّ المجلودون يطالبون ليس بالرحيل، بل بأن يبقى الجلاد فوق الأجساد؟

وأين كان صوت العراقيين يوم أشعل صدّامُهم الحرب في ٨٠، ثمّ بعد عشر سنين اجتاح الكويت وانصبّت عليهم المحن؟

وأين كانت أصوات السوريين في ٦٧؟.. ٧٦؟.. ٨٢؟.. ٢٠٠٠؟.. ٢٠٠٥؟..... ولا أستطيع التعداد، ولا التفصيل؟

بالأمس قدّم رئيس الائتلاف مبادرة... إنْ نجحتْ وإلا فلا... قامت الدنيا عليه ولم تقعد: متساهل، متواطئ، وبعضهم خوّنَه!

هذا كلّه ولم نضع القدم بعد في عتبة الديمقراطية.

تحضُرني في هذا المجال نُكتةٌ شاعت في سورية في أعقاب الحرب العالمية الثانية سمعتها وأنا فتى:

في نيويورك... ذهب سوريّ يومًا إلى حلاق. ولم يبدُ أنّ الحلاقين هنالك يثرثرون، ولكنّ مواطننا السوري هو الذي فعل: جعل يتحدّث في السياسة، في تفاصيلها السورية الدقيقة، ثمّ عرّج على الدول العربية واحدةً واحدة، وبعدئذ تناول أحوال فرنسا -التي كانت قد خرجت من عندنا حديثًا- وإنكلترا، والاتحاد السوفياتي، حتى وصل إلى الولايات المتحدة وكانت على عهد "آيزنهاور"... والحلاق يستمع ويتعجّب، أخيرا قال السوري متباهيًا: «نحن في سورية كلّ واحد منا يفهم في السياسية».

فتفكر الحلاق قليلاً، ثمّ قال: «طيب، ليش ما بتشوفولكن شي آيزنهاور[1] يحكمكن... وترتاحوا!».

ثقوا، أيها الأصدقاء، أنّ عندنا مثله... ولكنّ الحكم الفردي لا يريد.

منتصف ليل الأحد ٣-٣-٢٠١٣

هل ضاعت الحقيقة؟

سقطت الرقّة في أيدي مَن وُصفوا بأنهم "الجيش الحرّ"... وقيل: إنّ الرقّة هي أول محافظة تسقط في أيديهم بالكامل.

---

(١) قائداً كآيزنهاور.

أذكر أننا شاهدنا في التلفزيون العربي السوري، في مطالع الحراك (ولا أقول "الثورة" حتى لا يَستاء مني المؤيّدون من أصحابي)، رجالًا من الرقّة، قد أجلسوهم، في العَرَاء، بصفوف متوازية، تبتدئ من أمامنا نحن المشاهدين وتذهب في عمق الشاشة، تتقابل في كلّ صفّين الوجوه، وظهور كلّ صفّ إلى مَن وراءهم، استرعى انتباهي ذلك التنظيم... والذي رأيت فيه المجتمعين يقتعدون بُسُطًا يغلب عليها اللون الأحمر الدامي. ولم أعد أذكر ما إذا كان ثمة وسادات ونمارق يتّكئون عليها... أعترف بأن هذا التنظيم، الجديد على ناظري، أعجبني!

وكان فيهم خطيب أو خطباء، الجميع يستمعون، ويَبدُون مؤدبين.

أسأل: يعني كل ذلك التنظيم كان مصنوعًا! أين هم الرجال، الذين كانوا يستمعون؟

قبل ما يزيد على نصف قرن، ظهرت في بيروت ترجمة لمسرحية فرنسية عنوانها "الحقيقة ضاعت" لمؤلف غاب اسمه عني الآن.

منتصف ليل الإثنين ٤-٣-٢٠١٣

نحن وإيّاك من هذا الوطن

لتذكُر، أيها النظام، أنّ مدينة الرقّة، وأنّ محافظتها، هما جزءٌ من الوطن... فلا تَقصِفْها!

فأنت، وإن اختلفنا وإيّاك اليومَ رأيًا، جزءٌ آخر من الوطن.

لا تدمِّر البنى التحتيّة،

لا تُهجِّر،

لا تُشرِّد...

نحن جميعًا أبناء لهذا الوطن...

فلنكن منه أجزاء، لا أشلاء!

الساعة العاشرة من ضحى الثلاثاء ٥-٣-٢٠١٣

نداء... عاجل جدًّا

الآن، حركة نزوح ضخمة جدًّا من الرقة... ولكن أغلب الناس لا تستطيع تأمين سيارات للنزوح إلى الأرياف.

يرجى من كل من يمتلك سيارة التوجه فورًا الى الرقة للمساعدة بإخراج النساء والأطفال.

أهالي دير الزور هناك وجّهوا هذا النداء قبل قليل...

أرأيتَ أيها النظام! بات الشعب يعرفك جيدًا...

بقي أن تعرف أنت نفسك!

ظهيرة الثلاثاء ٥-٣-٢٠١٣

أغلى الثورات...

لم يقع أنّ ثورة شعبية لاقت عقوقًا من المجتمع الدولي مثلما يقع لثورة قامت تطالب بالتحرّر من حكم مازال يقصف شعبه في منازلهم ويتابع القصف حيث يجدون الملجأ والمأوى.

ونخصّ في ذلك بعض المعارضين في مصر المحروسة، الذين نَرُدّ استهتارهم إلى النكاية بزعيمهم الذي يقولون إنه يتهمّم لرفع راية لا يريدونها.

ومثلهم مؤيدو النظام في الجزائر، الذي كان قد نكّل بشعبه قتلاً وإبادة، واتّهم معارضيه في هذه الأفعال.

أغلى الثورات هدفًا وتكلفةً... والأحظُّ تأييدًا في عالمٍ كشفَ عن وجه الخداع والنفاق.

منتصف ليل الأربعاء ٦-٣-٢٠١٣

وكان أبي يحبّ السيرة التاريخية

لم يكن أبي رحمه الله (١٩٠٧-١٩٨٤) ينظر بعين الرضا إلى ما بدأ ابنُه الشابّ يكتب من قصص في منتصف خمسينيّات القرن الماضي! كنت كلما حدّثته عن قصة فرغت من كتابتها أو أهمّ بها، يُحبطني بقوله: «هذا تخيُّل!»، ومردّ ذلك عنده إلى أنه تشبّع بقراءة سيرة عنترة وما شابهها، ممّا كان يحصُل عليه من دكان تقع على كتف المدخل الشرقي لجامع بني أمية في "سوق النسوان" أول دخلة "سوق المدينة" الأثري الكبير بحلب.

إلى أن اتفق أن نُظِّمت في البلد حملةٌ لها سُمّي "أسبوع التسلُّح" (ذلك حين تجرّأ عبد الناصر ومعه سورية على كسر حاجز المنع وابتياع أسلحة من تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٥٦). فتخيّلت موضوعًا لقصة كتبتها: صاحب دكان في سوق "العطارين" (سوق مجاورة للسوق التي يعمل فيها أبي)، سمّيتُه "أبو الجود"، ووصمتُه بالبخل. فلما سمع هذا بدخول لجان جمع التبرّعات إلى السوق، تناول "الشبكة" يرميها على مقدمة دكانه أمانًا من السرقة، عازمًا على المغادرة، فيسأله جاره ياسين: «إلى أين، يا أبو الجود؟»، فيجيب: «إلى الجامع، أنقض وضوءًا!»... وسرْعانَ ما ارتفعت أصواتٌ تردّدت في أرجاء السوق: «أبو الجود هرب... هووو... أبو الجود هرب!»...

إلى آخر القصة، التي كنت فيها أعرض طبائع وأنقد أخلاقًا.

وأتيح لي أن أقدّم القصة (التي نزلت فيما بعد بعنوان «المجد للسلاح» في كتابي القصصي الأول «الشوق واللقاء» قصص وطنية وإنسانية، حلب ١٩٥٨، ثم ط٢ دمشق ١٩٩٢) من

إذاعة حلب. وقد سمعها والدي مضطرًّا، ذلك أنها بُثّت عقب الإفطار (في شهر رمضان ١٣٧٥/ ربيع ١٩٥٦)، ولم يكن أفراد الأسرة قد تفرّقوا... فقال أبي متهلّل الوجه إنّ هذا تصوير لأسواق المدينة التي يعرفها. ومن يومئذ استحقّ ابنه أن يقال له كاتب!

وعودة إلى «سوق المدينة» الأثري، الذي "كان" يتجوّل فيه السيّاح مبهورين، ثمانية أكيال طولاً، لأسواق متوازية ومتقاطعة، يختصّ كلٌّ منها بمهنةٍ صناعةً أو بيعًا... لقد احترقت هذه الأسواق عن آخرها في خريف ٢٠١٢، واحترق الجامع العظيم الذي كان بناه سليمان بن عبد الملك، وكذلك دكان ذلك الكتبي، الذي أرجّح أنّ حفيده هو الذي يتولى أمرها!

أجل، ولكن الذكريات لم تحترق في الصدور، وبقي العزم على إعادة البناء أجمل مما كانت عليه السوق والجامع، متى آن لهذه "الحرب" القاسية أن تضع أوزارها. وليس ذلك ببعيد.

ليل الخميس ٧-٣-٢٠١٣

أمٌّ.. صغيرة

عندما رغب الشابّ "أبو السعود"، ابن العشرين ربيعا، الذي يعمل مع أبيه وأخيه الأكبر في دكانهم في "سوق المدينة" بحلب، في الزواج، دلّتهم أسرةٌ صديقة على صبيّة جميلة، هي بالأحرى طفلة لم تتجاوز الرابعة عشرة، كانت البنتَ البِكر لوالدين أنجبا بعدها كثيرا من البنات، قضت بعضُهنّ وليداتٍ وظلت طفلتان على قيد الحياة والمقدّر أن تأتي بعدهما أخرى فيصبحن أربعًا.

تزوجت الصبية-الطفلة، التي كانت قد وُلدت في سُويعة صباح فسمّاها أبوها "صُبحيّة"، من أبو السعود عام ١٩٢٧. ولمّا آن لها أن تضع حَملها الأول وكان بنتًا، قالت سيدة الدار، الحماة العتيدة: «البنت طالعة لأمّها!»، وطقّت هذه الكلمة في أذن الأمّ النفساء فبثّت

في قلبها الخوف، لولا أن رُزقت في الحَمل الثاني بصبيّ سمّاه جدّه "فاضل".

رغبةٌ، لم تَبْدُ دفينةً عند الأمّ الصغيرة، في أن تأخذ بيد طفلها ليغدو "رجلاً" قبل الأوان. قالت، قُبيل افتتاح المدارس، لزوجها، الذي لم يبدُ واضح الاكتراث، بأن يسعى ليُسجلّه في ابتدائية الحيّ، مع أنه لم يبلغ السنّ، متّكلةً على أنّ مدير المدرسة هو ابن "الكَرَسْتَجي"[1] الذي دكانه في أول "زقاق المنجّدين" المجاور، و...«الدنيا خواطر!». ولما لم يستجب حطّت الملاءة على رأسها، وأخذت الطفل من يده إلى مدرسة الحَمْدانية.

استمع المدير، الذي لاحظ الطفل أنّ شرّابة طربوشه كانت تهتزّ كثيرًا، إلى مطلب الأمّ، وتبيّن أنّ الطفل في حدود الخامسة لم يتجاوزها، فنصحها بأنّ تُبقيه في "الحضانة" عامًا آخر قبل أن يدخل عنده الصفّ الأول.

ويذكر الطفل، وهيهات أن ينسى، الحوار الذي دار... أمّه تذكّر بالجيرة: «نحن بيتنا بالزهراوي ودكان الوالد في فم المنجّدين!»، وهو يجيبها: «نعم، نعم، أرى ابنك يمرّ من أمام الدكان... ».

كانت أمّه تتكلم بحدّة، والمدير يحاورها بلطافة. وكان آخر ما قالت، وهي تأخذ يده وتهمّ بالانصراف: «هذا لا يجوز... والله لا يجوز!». وانقاد لأمّ مهزومة، لكنه رآها شجاعة، وكان سعيدًا لأنها تدافع عن حقّه في دخول المدرسة الابتدائية!

ثمّ إنه انتسب في العام التالي إلى المدرسة... ودرس، وأولع بالمطالعة...

وما كان لأحد أن يتنبّأ بأن ذلك الطفل سوف يشدو بالقلم، مطالبًا بالحرية، ليس في مواجهة "الفرنسيين" وقد آن لهم أن يرحلوا، بل تُجاه مَن بغير حقّ يحكمون، مجافين العدالة

---

(١) بائع الموادّ الأوليّة للحذّائين.

والنزاهة.

من كتاب قيد النشر «قمر لا يغيب، من أدب الرحلات»

مساء الجمعة ٨-٣-٢٠١٣، يوم المرأة العالمي.

بين القدود الحلبية.. و"السكود" الروسية[1]

عشية سفر العودة إلى الوطن، جلستُ وحيدًا في صالة الفندق وكأني أودّع أيامي المغربيّة، فترامى إلى سمعي من المقصف المنفتح بابُه على الصالة، غناءٌ غير منضبط يرتجله جماعةٌ من الشاربين، بدا أنهم بلغوا النشوة فأحبّوا أن يُضيفوا إليها نشوة الطرب. ولكنّ ما استرعى انتباهي أنّ ما يردّدون من غناء هو ممّا وصل إليهم من بلدي:

إجا الشحّاد على باب الدار

قالت له الحلوة: على ألله!

قال لها: أنا ماني شحاد

عطيني بوسه دخيل الله!

حتى إذا أتمّوا غناءهم، المضطرب، انطلقوا ضاحكين، ثمّ ما يلبثون أن يعاودوا الكرة.

الشام... ثقافة الشام، طرب الشام، يوميّات الشام، تاريخ الشام، ذلك كلّه يلاحق السوري حيثما ارتحل أو حلّ.

وكان من حقي أن أتذكّر ما كنت عرفته من خبر زيارة مطرب حلب وسورية والعرب صباح فخري، في عام ١٩٧٥، إلى المغرب، البعيد عنا جغرافيًّا لكن القريب عاطفيًّا، فمن سواحله أبحر يومًا الجندُ الشاميون إلى الضفة الأخرى، وأسّسوا حضارة وشيّدوا صُروحًا

---

(١) سكود: نوع من الصواريخ الروسية المتطورة.

ينعم بها إسبان اليوم وسوف يظلون ينعمون.

يومئذ صعِدَ صباح فخري يصدح، في حفل تلفزيوني على الهواء، في يوم مشهود... فلما أخذ يغني «قل للمليحة في الخمار»، استبدّ الطربُ بالجمهور الحاضر، وبالجماهير المستمعة في منازلها، حتى بلغ الملكَ في قصره، فأخذ الهاتف -كما يفعل المنتشون العرب في كل مكان- يطلب الإعادة!

اليوم... بدل «قل للمليحة» والقدود الحلبية، تترامى إلى أسماع الجماهير، وإلى أبصارهم وأفئدتهم، عبر الفضائيات وشبكات التواصل، أخبار "السكود" الروسية، التي تتساقط على رؤوس المواطنين، فيموت منهم تحت الأنقاض من يموت، ويهيم الناجون على وجوههم في كل مكان.

وشتّان ما بين القدود الحلبية والسكود الروسية!

ليل السبت ٩-٣-٢٠١٣

كلمات.. سُويعة الفجر

- لا يمكن لنظام، مهما تلقى من الخارج دعمًا، أن يحقق انتصارًا على شعبه، لأنّ دعم الشعب نابعٌ من ذاته، لا ينفَد زيتُه.

- في الحروب الكونية يحاول شعبٌ أن يدمّر شعبًا، وأعجب ما في الحروب الداخلية أن يعمد النظام إلى أن يدمّر شعبه تدميرًا!

- التاريخ لا تُعاد كتابته، فإنّ ما كُتب فيه قد كُتب، وإن كان زائفًا، ولكنا نُضيف إليه صفحات فيها ألْقُ الحقيقة الجميلة والشجاعة النبيلة.

- لسوف أظلّ أبثّ الأمل في النفوس، فإنّ هذا أمضى سلاح في حروب الحرية.

فجر الإثنين ١١-٣-٢٠١٣

وكلمة خامسة في هزيع من الليل

ممّا يتسرّب إلى المسامع أنّ النظام، في تبريره قتلَ الخارجين عليه، إنما يقوم بـ"عملية جراحية" هو مضطرّ إليها آسفًا، فإنّ في بتْرِ العضو السقيم مَنجاةً للجسم كي يبقى سليمًا!

ولكنّ ما يتغافل عنه النظام أنه لا يبتر عضوًا سقيمًا أو سليمًا، بل يستأصل شعبًا من منازله ويدمّر كلّ بُناه التحتيّة.

منتصف ليل الإثنين ١١-٣-٢٠١٣

قلب مفتوح.. في شارع المتنبي ببغداد

في مثل هذا اليوم، الثاني عشر من آذار، قبل عشرة أعوام من عمر الزمان، كانت سيارة بولمان عراقية قد انطلقت بنا، نحن وفد من الكتّاب والفنانين، من "ساحة العباسيين" بدمشق، في اتجاه بغداد... ذهبنا لنقول للشعب العراقي هناك كلمة أو كلمتين: نحن معكم.

في بغداد قالوا: إنّ في "شارع المتنبي" كتبًا قد اضطر أصحابها لأن يخرجوها من بيوتهم ويطرحوها على الأرصفة احتياجًا لثمنها.

ولكنّ هذا البغداديّ، الذي تصدّى على رصيف هناك لثلاثة من رفاق الرحلة، لم يكن صاحب كتب... بل كان يرزح، هو وأهله وشعبُه كله، تحت وطأة معاناة: رواتب وأجور لا تسدّ الرمق، ويوم تعيّن عليه أن تُجرى له عملية جراحية في القلب تعاوَن أهله في جمع تكاليفها.

سأله رفاقنا الثلاثة إن كان من مؤيّدي النظام؟ فأجاب: لا. ثمّ سألوه إن كان يؤيّد تغيير النظام في بلده بقوة من أمريكا؟ فانتفض يقول: «أنا وأخي على ابن عمي، وأنا وابن عمي

على الغريب»... فماذا يريد الرجل منهم إذن؟

ودّ أحد الثلاثة (وهو المناضل ميشيل كيلو) أن يُهدي هذا "الوطنيّ" هدية ما، فوضع ذراعه على كتفه وانتحى به: «أنا مثل أخيك، إذا سمحت لنا أن نقدّم لك...». قاطعه صاحب القلب المفتوح، مفتّح العينين مثل صقر: «السلام عليك!»، ومضى.

لقد أراد هذا البغداديُّ أن يفتح قلبه لضيوفه السوريين، أن يُحمّلهم رسالة يُبلغوها لبعض العرب. وقد وصلت الرسالة. ومع وصولها كانت دموعٌ تترقرق في أعين السوريين الثلاثة، وفي عينَي كاتب السطور الآن، وفي أعين أشقائه العرب الذين يقرؤون هذه الكلمات.

بعد عودتنا إلى دمشق بخمسة أيام، أعلنت الحرب، أو بدأ العدوان الأمريكي على العراق. واليوم، بعد مضيّ عشرة أعوام كوامل، يقع عندنا هنا ما وقع هناك: قلوب السوريين المفتوحة، وأفئدتهم المجروحة، رؤوس تتطاير من فوق الأكتاف، وأوصال تنفصل عن الأجساد، رغيف، حليب، دواء، دفء، سقف بيت... وقبور جماعية إن وُجدت، أو دفنٌ في الحدائق الخاصة، أو تركٌ لجوارح الطير.

والفارق، المؤلم كحدّ السيف، أنّ من قَصف هناك غريب، ومن يفعل هنا يفترض أنه قريب.

عشرة أعوام تقضّت هناك، وعامان هنا... وليس -في التقتيل والتنكيل والتدمير والتهجير- أحدٌ أفضل من أحد... أو إنّ هناك من سبقَ في هذا المضمار.

من كتاب قيد النشر »قمر لا يغيب، من أدب الرحلات» بتصرف.

ليل الثلاثاء ١٢-٣-٢٠١٣

ساعات اليوم

عندما أستيقظ في الصباح، وأدخل لإعداد كأس الحليب والتمرات الخمس، يُخيّل إليّ أنّ صباح أمس الذي ولّى لا يبعد عني سوى سويعات معدودة.

ولكني أرى اليوم طويلاً، وحادًّا مثل شَفْرة سيف، وأنا أتابع القصف، وأعلم أنّ بعد كلّ قذيفة سقفًا يهبط على الرؤوس، وجماعاتٍ تهيم بحثًا عن ملجأ آمن.

صباح الأربعاء ١٣-٣-١٣

هل أخطأتُ بحق هذا الرجل؟

جرى منذ أيامٍ تراسُلٌ بيني وبين كاتبٍ قامت بيني وبينه صداقة عبر الفيسبوك. أَسوقُ لكم الآن طرفاً منه:

- صباح الورد. أحبّ الاطمئنان عليك، ولعل الأمور أفضل. ماذا حدث لأوطاننا؟ هل هي المؤامرة الأمريكية البشعة؟

فاضل السباعي:

لا نظن ذلك، فإنّ الطائرات التي تقصف الناس في منازلهم روسية، والقاصفون من أبناء النظام، وسكود التي تُرسَل من شمال محافظة دمشق إلى مدى ٣٢٠ كم هي السكود الروسية...

وأما جريمة أمريكا فهي أنها تبارك أن يقتل النظامُ السوريين إرضاء لإسرائيل. أراها مؤامرة إيرانية-روسية، بمباركة أمريكية.

- أوجعت قلبي. ليست مؤامرة أمريكية فقط. كل هؤلاء يتناحرون على إقصائنا وإبعادنا وتدميرنا.

أكاديمي.. يُزري بقيم العدالة

صديق عربي، ينتمي إلى بلد المليون شهيد، يعمل في الثقافة ويتحدث عن العدالة، قرأت له بالأمس بكاء مرًّا على حكم بالسجن صدر على ناشطين في دولة يحكمها -يقول- العُربان!

وهو، في كلّ ما يكتب في صفحته، يصرّ على ألا يرى في ثورة الحرية، عندنا، إلا فتنًا وأوهامًا... استمعوا إليه وهو يعزف على أوتاره:

«هم دعاة فتن، محرّضون، يحبّون اعتلاء الخرائب ليخطُبوا من عليائها في الجموع، فيبيعوها أوهاما، من قبيل العدل والمساواة والحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان والتوزيع العادل للثروات، وهم إنما يستغفلون الناس ليتمكّنوا فيرتكبوا فظائع أكبر، يستعملون كلمة الحق يريدون بها الباطل، تحرّكهم شهواتٌ انتقامية لا علاقة لها بكلّ ما يُعلن ويذاع... ».

أفلا يرى صديقي أنّ ما يَعُدّه أوهاما هو الواقع على الأرض، الذي استنهض الناس اليوم فقاموا!

ومن أين أتاه العلم بأنّ القادمين سوف يكونون على ما وصف، والوصف أولى به القائمون، لو أنصف!

ليل الأحد: ١٧-٣-٢٠١٣

الصوت الواحد، وتعدّد الأصوات

إنه لمن السذاجة التي قد تبلغ حد الغباء أو الخباثة، القولُ بأنّ تباين الآراء في الحكومات المنبثقة من "الربيع"، هو دليلٌ على إخفاق الديمقراطية التي بُشِّر بها طويلاً... والحقّ أنّ ذلك هو حرية الرأي بعينها، التي تتخالف فيها الآراء وتتعدّد الأصوات وصولاً إلى اتفاق.

وأما الصوت الواحد الأحد، فإنه ذاك الذي يُفرض على الأذهان عقب إعلان "البلاغ

رقم واحد"، ويظلّ مهيمنًا إلى أن يُفضي بالأمة إلى الكوارث والمهالك.

ليل الإثنين ١٨-٣-٢٠١٣

في "عُشّ المجانين"

لست أدري لماذا قال عني الشاعر فريد أبو سعدة، في تعليق أرسله أمس على صفحة "اتحاد كتّاب مصر" إلى صديقه حمدي البطران، مندِّدًا بي وواصفًا إياي بأني أقيم في «عش المجانين»!

وأسأل الشاعر الكبير كيف توصل إلى هذه المعرفة، وأنا أقيم بعيدا عنه في دمشق التي يرى العالم أنها تحترق؟ ولِمَ لم يخطر في باله أن يقول: عشّ أو "بيت القتلى" أو "بيت الجرحى"، أو "بيت الحَرْقى"، مثلاً!

دمشق الشام: ليل الإثنين ١٨-٣-٢٠١٣

حتى الرمق الأخير

نُقل عن رجل أمن كبير أنه قال لبعض خاصّته يومًا إنه يدرك أنّ عهد الديكتاتوريات والحكم الفردي والمخابرات قد ولّى في العالم وأصبح من الماضي، ولكنه في دفاعه عنه إنما يريد أن «يحمي جثّته»!

وأرى أنّ موسكو التي فقدت قواعدها في المتوسط إلا عندنا، كأنّ لسان حالها يردّد قولة ذلك الأمنيّ الذي ارتحل في تموز الماضي، فهي لم يتبقّ لها إلا موطئ قدم ههنا تريد أن تحافظ عليه، وإن أدّى ذلك إلى فناء مليون إنسان، وهامَ على الوجوه نصف سكان البلاد.

إنه، بعيدًا عن الإنسانية، الدفاعُ عن «الجثث»... حتى الرمق الأخير.

ليل الثلاثاء ١٩-٣-٢٠١٣

الدم.. والغاز

... ويُهرق الدم السوري

لمنع غاز الجنوب

من الوصول للقارّة العتيقة

ولإتاحة المجال

لغاز الشمال

كي يسود

وتُروى الحكايات

عن الأقليّات

وعن إسلام ومسلمين

والناس يعلمون

أو لا يعلمون!

فجر الأربعاء ٢٠-٣-٢٠١٣

ألغاز الغاز

أيها العرب!

أيها العالم!

ما دام هناك غازٌ عربيّ

يريد أن يصل إلى أوروبا

فإني أمنعه

حتى...

حتى بالكيماوي والنووي...

فافهموا!

التوقيع: الدبّ الروسي

الذي لم يعد دبًّا

منتصف ليل الأربعاء ٢٠-٣-٢٠١٣

إلى والدتيّ.. في عيد الأم

تزوج أبي «أبو السعود» (المولود بحمص عام ١٩٠٧ والقادم مع أبيه طفلاً إلى حلب في ١٩١٥)، من أمي وله من العمر عشرون ربيعًا ولأمي أربعة عشر. وبدا أنّ "شهيّته" تفتّحت للنساء، وسَرعانَ ما أصبح زوجا لامرأتين... مُنجِبتين! وفي ذلك كنت في مطلع شبابي أتحدث، أمام أصدقائي الأدباء في مجالسنا بحلب، فأقول متماديًا بالمزاح: إنّ إحدى الزوجتين «تلد يوم السبت فتحمل الأخرى ليلة الأحد!». وإذا كان بعضهم، خليل الهنداوي وعلي بدور ووليد إخلاصي، يضحكون للنكتة، فإنّ جورج سالم وزوجته الأديبة ليلى صايا والأديبة رينيه عبودي، كان يشغلهم عن الضحك الاستغراب!

أتيح لأبي أن يعطي تسعة عشر من البنين والبنات (١١+٨)، منهم الكاتبان «فاضل» و«نادر»، ورجال الصناعة والأعمال «عادل» و«مالك» و«طارق» و«سليم»، والصيدلاني «حسان» ومدرّسة اللغة الإنكليزية «ضَحوك»، والمهندس «الدكتور ماهر»، وطبيب الأسنان «الدكتور عصام» وهو آخر العناقيد!

استعجلت الخالة الرحيل (١٩٧١)، وتبعتها أمي (١٩٨٢)، ولحق بهما أبي (١٩٨٤)... وقد تركوا ذريّة ما زال فيها الأحفاد في تكاثر حتى قارب العدد المئة. وفي ذلك قيل: إنّ هذا القادم من حمص ترك في حلب "قبيلة"!

ذكريات في الصدر لا يمحوها إلا الموت... أذكر، منذ طفولتي الباكرة، ما تحمّلته الأم والخالة من أسباب الخدمة والعناية، والتحرّك في الدار العربية في برد حلب القارس، والمعاناة التي تصل حدّ الشقاء.

تحية للوالدتين «صبحية» و«بدرية» وللوالد «أبو السعود»، أنحني لذكراهم في عيد الأم، وأستمطر لهم الرحمة وهم في جنان النعيم إن شاء الله.

دمشق الشام: ٢١-٣-٢٠١٣

من قَتلَ البوطي؟

في أواسط السبعينيات من القرن الماضي، كان اتصالٌ عابر بيني وبين الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: هو عميد لكلية الشريعة بجامعة دمشق، وأنا أشغل وظيفة مدير الشؤون الثقافية بالإدارة المركزية في الجامعة.

كان ما دعاني إلى زيارته في مكتبه (الذي شغله منذ البداية أعظم زعيم إسلامي في البلاد الدكتور مصطفى السباعي)، أني أردت أن أتحدث إليه عن نصّ أدبي قرأته في إحدى المجلات العربية، بدا لي فيه الكاتب يسخر من خليفة عباسي افتراضي ويجعله أضحوكة لمن يقرأ.

ومما أذكره أنّ الشيخ البوطي عبّر عن إعجابه بأن يلمس في "كاتب معاصر شاب" مثل هذه الغيرة، والواقع أنّ ما كان ساءني في النص هو تزويرٌ للتاريخ أراد به الكاتب السخرية والإزراء. وأذكر أنّا تحدثنا، في اللقاء، عن مشكلة أدبية صادفت الدكتور البوطي يومذاك.

كان قد نقل عن اللغة الكردية كتابًا من عيون الأدب الكردي، هو قصة "ممو زين"[1]، فأعجب كاتب سوري مقيم ببيروت بالرواية وجعل منها مسلسلاً إذاعيًّا ناجحًا بدؤوا ببثّه في الإذاعة الأردنية. فكتب البوطي في ذلك، فأضافت الإذاعة اسم الكتاب واسم مترجمه إلى مقدمةِ ما تلا من حلقات، وسُوّيت المسألة على ما يرضي الرجل.

أسأل اليوم: لقد كان الدكتور البوطي، في علومه الإسلامية الواسعة مع أمشاج من الأدب، وفي لطفه ودماثته، غنيًّا عن أن يرفع الصوت في مواجهة المطالبين بالإصلاح ولا يرى فيهم إلا خارجين على السلطان! وليس من شكّ عندي في أنها مواقف كانت تصدر منه عن "قناعة"، بدليل استمراره فيها وعدم الكفّ عنها.

وأرى أنّ نُزوعه نحو السلطان قديم عنده. سمعت أنه، في يوم من مطالع الثمانينيات، انصرف ونفرٌ من أصحابه من اجتماع، وفي الطريق أخذوا يتحدثون متأثرين مما كان وقع في حينه في مدينة حماة. الذي كان من الرجل أنه نأى بنفسه مبتعدًا عن صحبه مسافةً، فلا الأذن تسمع ولا العين ترى، فلا يكون شاهدًا على ما قد تُفضي إليه الأيام!

وفي الإجابة عمن قتل البوطي، نقول -مازجين الجِدّ بالمزاح- إنّ "العراق" هو من قتل كمال جنبلاط! وإنّ "إسرائيل" هي التي اغتالت الحريري! وربما يكون من قتل أنبل ضابطِ مخابرات عربي، وسام الحسن صيّاد الجواسيس، هو "دولة جنوب إفريقيا" مثلاً! وأنّ "شيخ الضاحية" لا يسعى إلى تخليص ميشيل سماحة مما نُسب إليه زورا وبهتانا!

إنهم، دائماً، الأعداء والأشرار الذين يقترفون.

الجمعة ٢٢-٣-٢٠١٣

---

(١) "ممو زين" قصة حب كردية شهيرة، كتبها شعراً الشاعر الكردي المعروف أحمد الخاني ت ١٦٥٠م.

قطَرات

قطرات

عندما أسفح مشاعري كلمات

وأنشرها في سويعة الفجر

ثم أرى "اللايكات" تنهمر مثل زخّ المطر

وتتراءى لي تقول: نحن معك!

عندئذ...

أحسّ أني قطرة في بحر الوطن

وتمتدّ أناملي لتسجّل قطرة أخرى.

فجر الأحد ٢٤-٣-٢٠١٣

العَلَويّون

عَلِمَ الله...

ما كان ليُخامرَنا

في يوم من الأيام

أدنى شكّ

في أنّ العلويّين

هم جزءٌ لا يتجزّأ

من نسيج الوطن الشامي

وفيهم «صالح العلي»

و«بدوي الجبل».

صباح ربيعي، الأحد ٢٤-٣-٢٠١٣

الأطفال

الذين يموتون بشظايا قنابلكم

والذين تذبحونهم في ظلام الليل

سوف يلاحقكم بالمحاسبة

أشقّاءُ لهم

تلدهم أمهاتهم

في مُقبِلات الأيام.

منتصف ليل الإثنين ٢٦-٣-٢٠١٣

نحو شمس جديدة

متديّنٌ يعمُر قلبَه الإيمان

يساريّ يناصر الكادحين

سيدة تنتمي إلى الطبقة الأرستقراطية

ثلاث قامات وطنية

قد أسقطوا التفرقة والاستئثار

يمشون بخطوات ثابتة

إلى حيث تشرق شمس جديدة.

منتصف ليل الثلاثاء ٢٦-٣-٢٠١٣

المحتويات